رحلتان عبر ليبيا

رحلة فريدريك هورنمان من القاهرة الى مرزق

١٧٩٧ - ١٧٩٨

رحلة ورسائل الرائد الكسندر جوردون لينج

١٨٢٤ - ١٨٢٦

مكتبة الفرجاني
طرابلس - ليبيا

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

سورة التوبة



رحلتان عبر ليبيا

رحلة فريدريك هورنمان من القاهرة الى مرزق

١٧٩٧ — ١٧٩٨

رحلة ورسائل الرائد الكسندر جوردون لينج

١٨٢٤ — ١٨٢٦

نقلته الى العربية

دار الفرجاني

مكتبة الفرجاني

طرابلس - ليبيا

الطبعة الأولى

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

مقدمة الترجمة العربية

نقدم هذا الكتاب للقارىء العربي وللمهتمين بالتاريخ الحديث واعمال الرحالة الأجانب الذين جاءوا الى القارة الافريقية لاهداف متعددة تبدو في الظاهر دوماً على انها ترمي لاكتشاف مجاهل القارة ، ولكنها كثيراً ما كانت تتحرك بدوافع استعمارية وغيرها .

والجزء الاول من هذا الكتاب ، وهو عن رحلة هورنمان الألماني ، من القاهرة الى مرزق ، يوضح ما يشاهده الرحالة المتنكر في شخصية مسلم ، في طريقه الطويلة مع قافلة متجهة الى فزان متمثلة في عاصمتها مرزق . فيصف مشاهداته واحوال الطريق والاراضي التي يمر بها ومكونات التربة والجبال ، ويتحدث عن الأقوام الذين يمر بهم وعاداتهم ، واحياناً يذكر شيئاً من تاريخهم ، ويوضح المخاطر التي كانت تعترض المسافرين في الربع الأخير من القرن الثامن عشر . ويفرد الرحالة جزءاً هاماً من يومياته لمدينة مرزق في حديث شيق عن بساتينها وأهلها وسلطانها ، وعن عادات الناس وطبقاتهم ومأكلهم ومشربهم وملبسهم آنذاك .

كان هورنمان يريد الوصول الى نهر النيجر ، شأنه في ذلك شأن الرحالة الأخير ، لينج ، لأن هذا النهر كان يعتبر لغزاً محيراً آنذاك :

من اين ينبع ؟ واين يصب ؟ وفي أي اتجـاه يسير ؟ وهل هو حقـاً متصل بنهر النيل ؟

ويغادر هورنمان مرزق بعد إقامة طويلة فيها ، ويتجـه الى دواخل افريقيا ولكنه يقضي نحبه دون معرفتنا التفاصيل الدقيقة لموته ..

أما الجزء الثاني من الكتاب ، فهو حول رحلة ضابط انجليزي برتبة رائد ، جاء الى طرابلس لأنها من أهم المنافـذ الى دواخل أفريقيا ، ولأنها كانت تسيطر على طرق القوافل المتجهة الى مرزق والى غدامس ، ومنها الى توات في الجزائر حيث كان لينج يأمل الاتجاه منها الى مدينة تمبكتو على نهر النيجر فيحقق حلماً يبني له مجـداً شخصياً ، ويحقق لحكومته انتصاراً ، أو في الواقع يرسل لحكومتـه بتفصيلات عن تلك المناطق وعن الملاحة في النيجر ، لأن انجلترا كانت تريد استغلاله التجاري.. ثم لتحقيق اطماعها الاستعمارية في افريقيا .

والواقع ان معظم رسائل لينج تـدور فيما بين طرابلس وغدامس وتوات ، وما حدث له في الطريق ومـا رآه ، وان كانت يومياته قد ضاعت إلا ما يتعلق منها بغدامس والطريق اليها ، وهذا ما يهمنا ..

ولكن الجزء الثاني من الكتاب يوضح جانباً هاماً ، وهو علاقة الباشا القره مانلي بالقناصل الأجانب في طرابلس ، وما كان يلعبـه من دور هام في أدوار الرحالة الأجانب ، ومقدار التنافس بين اولئك الأجانب ، وخاصة القنصلين البريطاني والفرنسي .

ولا بد من ملاحظة بين يدي القارىء ، وهي ان الرحالة لينج ، الذي أرسلته وزارة المستعمرات البريطانيـة ، وكضابط شاب ، كان مصاباً بشيء من الغرور والتهور .. فقد كان يتصور انه بمجرد وصوله الى طرابلس سيجد الباشا معِداً له كل شيء للمضي في رحلته ، خاصة

لما كان يسمعه من « نفوذ القنصل البريطاني .. » . ونلاحظ ذلك في اندفاعه في اتهام الباشا ، ومرافقه الشيخ باباني ، ولكنه يجد نفسه مخطئاً فيما بعد ...

هذه مقدمة سريعة لهذا الكتاب الذي يبين بالتفصيل سير رحالتين جاءا الى ليبيا للتوغل في أفريقيا ... ملقياً الضوء على نشاطهما وما شاهداه ، وعلى انطباعاتهما ، وشيء من تفصيلات تاريخ تلك الفترة ...

دار الفرجاني
طرابلس – ليبيا

مقدّمة

١ ـ البحث عن النيجر

أثارت رحلات البرتغاليين المبكرة الى ساحل غينيا اهتماماً عظيماً في القارة الأوروبية في القرن الخامس عشر ، ولكن سرعان ما اختفى ذلك الاهتمام ، لأن اكتشاف امريكا ورأس الرجاء الصالح المؤدي إلى الشرق الأقصى فتح أبواباً مشرعة ومصادر وفيرة الثروات استقطبت جميع الاهتمامات الأوروبية لاستغلال البلدان الأخرى . ومع ذلك استمرت التجارة مع افريقيا دونما انقطاع ، بل ان جميع الخلجان والمراسي الواقعة على سواحل شمال افريقيا وغينيا كانت معروفة عند نصف تجار بلدان أوروبا الغربية على الأقل . لذا ، وعندما اتجهت الأذهان مرة أخرى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الى القارة المجهولة توجه الجغرافيون أولاً إلى التجار الذين يعرفون السواحل تمام المعرفة ، ينشدون منهم معلومات عن الدواخل التي لم يكن قد ارتادها أحد من قبل . لكن معلومات التجار كانت تقتصر على السواحل ، إذ أن سكان البلاد ظلوا يمنعون أي تاجر أجنبي أو من سكان السواحل ممن يتعامل مع الأجانب ، من اختراق مناطق الدواخل . لذا كانت المعلومات المتوفرة اقتصادية في مجملها محدودة على السواحل ولا فائدة منها . بل انها كانت غير موثوقة ومتناقضة ، مما جعلها تزيد من حيرة المهتمين بالأمر . ولم يكن القناصل أو التجار على ساحل شمال

افريقيا يعرفون عن مصادر الذهب والعاج والتوابل والجلد المراكشي الذي كانت تجلبه قوافل الجمال إلى موانئهم من الدواخل النائية أكثر مما يعرفه تجار غينيا عن مصادر الذهب والرقيق والعاج والصمغ ، مصدر ثرائهم . فكانت البلدان الغنية مثل بورنو Bornu وهاوسة Hausa وبندك Bondak والمراكز التجارية العظيمة مثل كتسينة Katsina وتمبكتو Timbukto بالنسبة لقناصل وتجار الشمال الافريقي ، وكذلك بالنسبة لتجار غينيا — مجرد أسماء لا يستطيعون تحديدها على الخارطة بدقة تفوق دقة جغرافيي القرن السادس عشر ، بل كانوا يعتقدون أن ممالك مالي Mali وغانا Ghana القديمة كانت مجرد أسماء باقية ، وهم فوق ذلك لم يعرفوا اتجاه مجرى نهر النيجر أهو من الشرق إلى الغرب كما قال هيرودوت ، أم عكس ذلك .

في ذلك الوقت وجد في بريطانيا جماعة صغيرة من الرجال يقودهم السير جوزيف بانكز Sir Joseph Banks ، رئيس الجمعية الملكية ، ترى ان استمرار الجهل بدواخل افريقيا عار في جبين عصرهم لا بد من إزالته بالطرق والوسائل الفعالة . فكوّن أولئك الرجال في ٩ يونيو ١٧٨٨ جمعية أطلقوا عليها اسم « الجمعية الافريقية » African Association ، معللين الدافع إلى ذلك بقولهم :

« إذا استثنينا تقدم الاكتشاف على سواحل وحدود القارة الواسعة وجدنا أن خريطة الدواخل لم تزل مجرد فراغ كبير ، تردد الجغرافي ليو Leo والجغرافي «الإدريسي» في وضع أسماء قليلة لأنهار لم يتم ارتيادها وشعوب غير معروفة على تلك الخريطة » .

« إن مجرى النيجر ونقطة انطلاقه ونهايته ، وحتى وجوده هو كنهر مستقل ، أمر لم يزل دون تحديد » ..

« ورغبة منا في انقاذ الجيل من تهمة الجهل ... قام نفر قليل ، اشتد اقتناعهم بفائدة وفعالية توسيع مدى المعرفة البشرية ، بتكوين جمعية لتشجيع اكتشاف دواخل أفريقيا » .

يبدو ان الجمعية أصبحت حقيقية الوجود منذ تكوينها ، لأن رجلين من المكتشفين اللامعين وضعا نفسيهما تحت تصرفها ، وهما جون ليديارد John Ledyard وسيمون لوكاس Simon Lucas . كان ليديارد أمريكياً تحدوه رغبة قوية في ان يصبح اسمه مقروناً بما يكتشفه من المجهول من المناطق أو تلك التي لم يعرفها العالم تمام المعرفة ، فقضى عدة سنوات بين هنود شمال أمريكا يتدرب على وسائل وطرق التودد للمتوحشين ، قام بعدها مع القبطان « كوك » « برحلة العالم » . ثم ارتاد بتمويل من جوزيف بانكز ، أماكن قليلة الشهرة في شمال افريقيا وفي روسيا وسيبيريا ، حيث طرد منها راجعاً إلى انجلترا . وحالما تكونت الجمعية الافريقية أغرت ليديارد على اجتياز افريقيا من الشرق إلى الغرب على خط عرض يسير مع نهر النيجر .

أما سيمون لوكاس فكان قد قضى ثلاث سنوات من سني شبابه عبداً في مراكش ، رجع اليها بعد خلاصه كمساعد للقنصل البريطاني ، ثم عاد بعد ستة عشر عاماً ليتسلم وظيفة « الترجمان الشرقي » في محكمة سينت جيمز بانجلترا . وقد استهوت الجمعيةَ معرفته الواسعة باللغة العربية والحياة الإسلامية فتقدمت اليه تطلب مساعدتها في مهمتها واسندت اليه مهمة اختراق صحراء الَظْهْر Zahara الممتدة من طرابلس إلى فزان ؛ لأن الجمعية عرفت أن تجار Agade r وتمبكتو وغيرهما من المدن كانوا يقيمون مع هذه المملكة (مملكة صحراء الظهر) علاقات منتظمة ... »

وقد خصصت الجمعية مبلغ ٤٢٠ جنيهاً استرلينياً لتمويل هاتين « البعثتين الجغرافيتين » : اولاهما بعثة جون ليديارد التي اتجهت إلى مصر بعد ثلاثة أسابيع من تكوين الجمعية . وفي القاهرة اتصل ليديارد بقنصل البندقية ونزل في دير مسيحي وشرع يتحرى عن الدواخل بين التجار وفي أسواق الرقيق . وقد وجد ليديارد ان للقاهرة تجارة مع سنار ودارفور وفزان ، ومع تمبكتو عن طريق فزان، وسمع أن ونجرة Wangara

مكان ينتج الكثير من الذهب . ولكن الآمـــال العريضة التي أحياها عند مستخدميه سرعان مـــا تبددت عندما جاءت أنباء موته في القـاهرة بعد اصابته بالكبد .

وكذلك كان سيمون لوكاس مصدر خيبة أمل للجمعية . فبعد وصوله إلى طرابلس في اكتوبر سنة ١٧٨٨ استطاع الحصول عـلى ترخيص من الباشا للسفر إلى فزان بحجة الرغبة في رؤية الآثار الرومانية وجمع «مجموعة من الأعشاب العلاجيـــة التي لا توجد في اوروبا » . غير ان ثورة بدو الصحراء على الباشا جعلت رحيله المبكر أمراً مستحيلاً . ثم انتعشت آماله عندمـــا وصل شريفان مـن فزان إلى طرابلس مع قافلتين مـــن الرقيق والسنا مكّي ، إذ وافقا على أخذه تحت حمايتهما والتبليغ عن وصوله سالماً إلى فزان . وفي فبراير اتجـــه معهما إلى ميناء مصراته الصغير ليبدأوا من هناك رحلتهم إلى الداخل . غير أن ثورة الصحراء تواصلت مما اضطرهم إلى البقاء في مصراته . وعندما جاء شهر مارس معلناً اقتراب فصل الحر قرر الشريفان البقاء في الشمال حتى شهر نوفمبر ، ولكن لوكاس رجع إلى طرابلس ومنهـــا إلى بريطانيا حيث وصلها في يوليو . وهناك ترك العمل مع الجمعية وعين فيما بعد قنصلاً عاماً في طرابلس ، حيث سنتقابل معه في فصول تالية .

ولكن لوكاس كان قـــد جمع خلال إقامتـه الطويلـة في طرابلس ومصراته قدراً كبيراً من المعلومات الغير الموثوقة عن الدواخل . ومع ذلك فقد اثبتت تلك المعلومـــات ان عبور الصحراء أشد خطراً من السفر في البلدان النائية جنوبـاً . وكان من المشجع فعلاً ان يعرض أحد الشريفين « بكل بهجة وثقـــة في السلامة ، اصطحاب وارشاد لوكاس عن طريق فزان وكتسينة عبر النيجر إلى اشانتي Ashanti التي تحد ساحل المسيحيين » .

في ذلك الوقت لم تكن مدينة هاوسة Hausa بكتسينة أو كشنة ـــ أقل

شهرة من تمبكتو ، بل كانت أهم سوق في وسط غربي السودان وفي مركز يؤدي إلى كانو المجاورة . وقد قادت تقارير لوكاس الجغرافي الشهير الرائد (ميجور) جيمس رينل James Renell الى اعتقاده بأن كتسينة هي المملكة المركزية في قلب افريقيا . وكانت كتسينة هي المدينة التي سماها الشبيني[1] ، وهو أحد المصادر اللغوية العربية للجمعية ، حوسة ووصفها بأنها لا يعادلها في الأهمية إلا لندن والقاهرة ، وأن ثروة وعظمة امبراطوريتها تفوق كل ما سواها ، باستثناء انجلترا ، كما جاء في نشرة « الجمعية الافريقية » والتي تضيف : « إن وجود مدينة حوسة والامبراطورية التي وصفها الشبيني تأكد بشكل قوي من الرسائل التي تلقتها الجمعية من قناصل صاحب الجلالة في تونس ومراكش » . في تلك الأيام كان الاعتقاد السائد عن مجرى نهر النيجر انه يسير في اتجاه الغرب ، جنوب مملكة كشنة ، نحو مدينة تمبكتو .

في ذلك الوقت ، وبعد أن أصيبت الجمعية بخيبة أمل لقلة ما تلقته من تبرعات مالية لخدمة أهدافها العلمية ، بدأت تشير الى الفوائد التجارية التي يمكن جنيها نتيجة للاكتشافات الجغرافية . وأعلنت الجمعية ان ارتياد النيجر « ربما يفتح لبريطانيا طريقاً تجارياً يؤدي إلى الأمم الغنية الشهيرة » . واتفقت الجمعية فيما بعد مع الميجور (الرائد) هوتون Houghton الذي خدم مع فرقته على ساحل افريقيا الغربي ، لارتياد النيجر عن طريق جامبيا Gambia ماراً بمدينتي تمبكتو وحوسة . وعندما وصل هوتون مصب

---

[1] كان الشبيني ، أو أسيد الحاج عبد السلام ، أحد مواطني تطوان . وقد اصطحب أباه في سن الرابعة عشرة إلى السودان ، حيث مكث اثني عشر عاماً . ثم رجع إلى تطوان في سن السادسة والعشرين وعمل تاجراً فيها . وعندما كان عائداً سنة ١٧٩٥ من هامبورج على ظهر سفينة بريطانية ، أسرت السفينة إلى « أوستند » ، ولكنه نجا على يدي القنصل البريطاني واتجه إلى لندن . وقدمت له أسئلة طويلة عن دواخل افريقيا ، وكان المترجم هو لوكاس الذي صدف أن كان يعرف والد ووالدة الشبيني في تطوان .

نهر جامبيا سلك طريقاً مهلكة إلى بامبوك Bambuk وعبر عندها نهري فالمي Falmé والسنغال Senegal ، وكان آخر ما سمعه عنه انه كان يتوقع الوصول إلى تمبكتو .

كانت أخبار وصول هوتون إلى بامبوك التي لم يصلها أوروبي من قبل مصدر سرور كبير للجمعية ، ولكن استنتاجاته حول مجرى النيجر كانت مثيرة ؛ إذ قال بأن النهر يصعد شرقي تمبكتو وانه يجري من الغرب إلى الشرق .

ورغم الاعتقاد السائد آنذاك باتجاه مجرى النيجر نحو الغرب فقد وجد استنتاج هوتون قبولاً لدى الجمعية ، لأن ذلك كان يتفق مع الكثير مما علمته الجمعية من مواطنين افارقة في لندن وتونس . وقد أدى قبول الجمعية لاستنتاجات هوتون إلى إعادة النظر في الآراء الجارية حينذاك حول المجرى الاساسي للنهر وحول بدايته . وقد أخبر أحد شرفاء تمبكتو الرائد هوتون بأن « عدة مجاري هامة آتية من الغرب تصب في نهر النيجر قبل وصوله الى تمبكتو المجاورة ، وعندها ينقسم النهر إلى فرعين يمر أصغرهما بالقرب من تمبكتو بينما يواصل مجرى الفرع الرئيسي سيره نحو حوسة ، وهي مدينة بالغة الأهمية تقع على بعد مسيرة أيام قليلة من تمبكتو » . وقد وجد هذا القول قبولاً عند « رنيّل » Rennell ، ولكنه رفض رأي هوتون في أن مصدر النيجر لا بد وأن يكون هو نفسه منبع النيل . وكذلك أصبح الموقع المحدد لمدينة حوسة في بلاد كتسينة موضوع تأمل جاد عند الجغرافيين ، واعتقدوا ان اكتشاف كتسينة يعني اكتشاف وسط مجرى النيجر .

كان ما أثاره هوتون من اهتياج وما بعثه من خيال مصدر حيرة وغموض لجغرافيي عصره ، سجلته « محاضر » الجمعية الجغرافية البريطانية بقولها : « ربما نجد في بعض هذه الامبراطوريات المنعزلة لغة وعلوم

قدمـــاء المصريين ، أو أن يكون القرطاجيون قـــد تراجعوا إلى الأجزاء الجنوبية من افريقيا . ورغم أنهم يبدون وقـــد طواهم عالم النسيان في الصحراء الواسعة ، فربما حملوا معهم الى المناطق الجديدة التي احتلوهـــا بعضاً من تلك العلوم والفنون والمهارة التجارية التي اشتهر بهـــا سكان قرطاجنة »[1] .

وبينما كان يتوقع أن يصل هوتون إلى تمبكتو ويحقق اكتشاف النيجر ، جاءت الأخبار عن وفاته قرب نيورو Nioro على يدي أحد القتلة ، كما كان يعتقد . ولكن نجاحه في التوغل حتى ذلك المكان اقنع الجمعية بأن جامبيا كانت هي البوابة إلى دواخل افريقيا والأمل للعبور منها لاكتشاف المرحلة العليا من نهر النيجر . ووجدت الجمعيـــة بعد خمس سنوات من هوتون مـــن يقوم بالتعمق في الكشف وهو الشاب « منجو بـــارك » Mungo Park . فبعـد أن وصل إلى جامبيـــا في مايو ١٧٩٥ اختفى في الدواخل ليكسب لنفسه بعد أكثر من عـــام الشهرة الدائمـة كمكتشف النيجر .

٢ ـ فردريك كونراد هورنمان

قبل أن تصل أي أخبـــار من منجو بارك ، بل قبل اكتشافه الفعلي للنيجر ، كانت الجمعية الافريقية قد تقبلت عرضاً تقدم به شاب ألماني هو فردريك كونراد هورنمان ، للدخول في خدمتها كمكتشف ورائد . كان والد هورنمان راعيـــاً لأبرشية هيلدشيم Hildesheim في سكسونيا

---

١ محاضر الجمعية الجغرافية ١ ، ٢٥٨ .

Saxony ، وقد ولد هورنمان سنة ١٧٧٢ وتخرج سنة ١٧٩١ كرجل دين من جامعة جوتنجن Gottingen بالمانيا ، ولكنه كرس جهده فيما بعد لدراسة جغرافية افريقيا واعداد نفسه كي يكون من المكتشفين . وفعلاً جاء صيف سنة ١٧٩٥ ليشهد بدء جهوده الاكتشافية إذ سعى للحصول على تزكية للجمعية الافريقية من الدكتور جوهان بلومنباخ Johann Blumenbach ، زميل الجمعية الملكية وصديق السير جوزيف بانكز .

ويبدو أن بلومنباخ حقق للشباب ما طلبه منه : ففي الشهرين التاليين قدمت الجمعية لهورنمان ما يشبه العرض ، غير أن اسمه لم يظهر في السجلات الرسمية إلا في الصيف التالي .

وقد أرسل البرفسور بلومنباخ في ٤ مايو ١٧٩٦ رسالة إلى السير جوزيف بانكز مرفقة بمقترحات من المستر هورنمان حول عمله المقبل ؛ تقول المقترحات :

١ — لا استطيع في الوقت الحالي تأكيد مصاريف رحلتي إلى الاسكندرية ، ولكنني ساستفسر عن ذلك وأقدرها بحيث تكون معقولة تماماً ، وانني متأكد ان الجمعية لن ترفضها .

٢ — أما بالنسبة للمعدات فإنني ساقتصد فيها قدر الامكان ، وذلك لكي يكون سفري مريحاً ولكي أخفف من كمية أمتعتي حتى لا أظهر بمظهر الرجل الغني وأصبح عرضة للاتهام . وأقصد بالمعدات الأسلحة الضرورية وبعض الآلات الحسابية والمكبرات وأمثال ذلك . وأود أن اختارها بنفسي وأن أطلع عليها البرفسور بلومنباخ ، ان أمكن .

٣ — التمس من الجمعية أن ترسل لي هنا بعض رسائل التزكية التي تنفعني في الاسكندرية والقاهرة ، في حالة تأخر الرسائل التي سترسلونها عن طرق أخرى .

٤ — لما كنت في الطريق من القاهرة الى كتسينة ربما أمرّ بمرزق حيث يوجد شريفان[١] تعرف عليهما لوكاس [٢]، فإنني ارغب في حمل رسالة تعريف باللغة العربية الى الشريفين فوناد ومحمد، خاصة وأن أحدهما صهر لملك فزان ويمكن أن يفيدني كثيراً.

٥ — ألا يمكن الحصول على تصريح لي من السفير التركي في انجلترا؟ لقد علمت أن الجمعية الافريقية تسعى للحصول على تصريح للمستر لوكاس.

٦ — عند وصولي إلى طرابلس سأجتهد في ارسال نسخ من يومياتي، حول تقدم رحلتي من القاهرة لفزان، إلى لندن عن طريق مصراته أو طرابلس؛ لذا أرجو تزويدي بعنوان شخص موثوق في مصراته أو في طرابلس.

٧ — أرغب في ان تعدني الجمعية بالاهتمام بأمري عند عودتي من رحلتي الشاقة في دواخل افريقيا ... بأن تطلب من الملك تعييني في وظيفة مدنية، أو ان تحصل لي من الجمهور على تعويض مناسب، كما ينوي أن يفعل السير بانكز، على ما يبدو.

٨ — إذا استطعت خلال اقامتي سنة أو سنتين في كشنة (كتسينة) كسب ثقة السكان لأغري أحدهم بمرافقتي في العودة إلى اوروبا، الأمر الذي يشجعني على معاودة الرحلة، فهل يمكن للجمعية ان تتعهد برعاية هذا الافريقي في اوروبا حتى استعد للعودة معه؟

٩ — إذا حدث، لسوء الحظ، أن لقيت منيتي في هذه المغامرة

---

١ من الواضح ان طريق رحلة هورنمان كانت قد رسمت له قبل إرسال مقترحاته للجمعية.

٢ هو سيمون لوكاس، الذي كان في ذلك الوقت قنصلا عاماً لبريطانيا في طرابلس.

فاني أرجو الجمعية ، إذا اعتبرت خدمتي ذات منفعة كافية ، أن تحول مكافأتي إلى والدتي واخواتي ، لأن موتي يعتبر لهن خسارة كبيرة .

وإذا وافقت الجمعية ، على الأقل على أهم نقاط هذه الاقتراحات ، فإنها ستجد من جانبي التزاماً وتنفيذاً دقيقاً لكل أوامرها وتعليماتها ،ما دامت عمليته لا تعوق سير الخطة العامة . واني على استعداد هنا في «جوتنجن» أن أقوم بتدبير حاجياتي ، وآمل أن أكوّن فكرة دقيقة عنها . والأشياء التالية هي الأمور الأساسية التي سأهتم بها : طريقة السفر في افريقيا — سلوك المسافرين — تجارة الرحلة — أسماء الأماكن — خطوط طول وعرض الأماكن الرئيسية التي أمر بها والجبال الكبيرة — المناظر — ملاحظات عن طباع السكان الذين أمر بهم — رسوم ملابسهم — ملاحظات حول طبيعة الأراضي — خصوبتها وزراعتها — السكان — فحص المعادن .

وسأهتم خلال اقامتي في كشنة باللغة — الديانة — الحكومة — العلاقة بين الرعية والحاكم — العادات والسلوك — التجارة والاستخدام وطريقة الحياة عند السكان — تجارة الرقيق — التعامل مع الدول المجاورة — الأسلحة والتكتيك — المناخ — الأبعاد — الخصوبة والانتاج — التاريخ الطبيعي للبلد بشكل عام . وسأقوم باجراء ابحاث حول مجرى النيجر — امكانية الاتصال بين الدواخل والساحل — تحديد الأماكن جغرافياً — رسم جميع الأشياء الهامة .

قرار لجنة الجمعية الافريقية :

توافق اللجنة على شخصية هورنمان وترى انه يمكن ان يكون رحالة مفيداً ونافعاً للجمعية .

تجري الاجابة على اقتراحاته فقرة بعد أخرى ، وفي حالة موافقته على

شروطها تقدم له مبلغاً يقترحه البرفسور بلومنباخ ليصرفها أثناء ستة أشهر يقضيها في جوتنجن .

إجابة حول مقترحات السيد هورنمان :

١ – لا تشك اللجنة ، لما عرفته عن اقتصاد السيد هورنمان ، في أنه لن يكلف الجمعية مصاريف غير ضرورية في أي مرحلة من مراحل رحلته ، ولذا فإن الأعضاء واثقون ، كثقة السيد هورنمان ، بأنهم سيوافقون على تقديره للمصاريف عندما يرسل للجنة تقريراً بذلك .

٢ – ترغب اللجنة في تزويد المستر هورنمان بالمعدات التي تفيده في رحلته ، ولا يهمها الاقتصاد في ذلك . وترجو من السيد هورنمان تزويد اللجنة بقائمة المواد التي يحددها بالتعاون مع البرفسور بلومنباخ ، وستقوم اللجنة بالنظر فيها فوراً .

٣ – ستزود السيد هورنمان حتماً برسائل تزكية للقاهرة والاسكندرية قبل سفره ، ولا يستبعد أن ترغب الجمعية في زيارته لانجلترا في طريق رحلته لكي يمكن التحدث معه شخصياً .

٤ – حيث أن السيد لوكاس قد توفي فمن المستحيل تلبية طلبك [1] .

٥ – لم تقم الجمعية من قبل بطلب تصريح من السفير ولكننا سنعمل على الحصول على تصريح لك إذا كانت فائدته تفوق مشقة الحصول عليه. ومع ذلك فالجمعية ليست شديدة الحرص على ذلك لأنك حالما تبدأ العمل معنا سيكون دخولك للبلدان والخروج منها من المواقع المصرح بها .

٦ – ستزود اللجنة السيد هورنمان برسائل تزكية للمقيم البريطاني في

---

[1] لم يكن لوكاس قد توفي بل كان قنصلا عاماً في طرابلس كما سنرى فيما بعد .

طرابلس ولكنها تشك في إمكانية اصطحاب القافلة التي تسير إلى كشنة عن طريق مرزق لأن اللجنة لا تعلم ان مسيحياً من قبل قد سمح له بالسفر معها .

٧ – من المؤكد ان تهتم الجمعية الافريقية براحة السيد هورنمان عند عودته ، ولا شك في انها ستيسر له سبيل العمل مع مؤسسة تناسب الخدمات التي يكون قد أداها – وقد دبرت من قبل منحة حكومية لأرملة السيد هوتون .

٨ – ان تحديد مدى التزام الجمعية برعاية مواطن من كشنة أمر فوق طاقة اللجنة ، لكنها ستنقل هذا الرأي للجمعية في الفرصة المناسبة .

٩ – ان من قواعد الجمعية عدم التعهد بأي شكل برعاية اقارب الأشخاص الذين يتوفون في خدمتها – فموارده المالية لا تكفي اطلاقاً لمواجهة هذه الحالات ، ولكن حيث انها دبرت منحة للسيدة هوتون ، فمن المحتمل جداً ان تقوم الجمعية في حالة وفاة السيد هورنمان في خدمتها بتقديم شيء لوالدته واخواته يناسب الفائدة التي حصلت الجمعية عليها من اكتشافاته ، ويناسب كذلك الوضع الفعلي لمواردها في حينه .

أما بالنسبة لمعبد جوبيتر آمون[1] ، ترى اللجنة ان محاولة اكتشافه لا يعتبر أمراً مرغوباً فيه كرغبتنا في الالتزام بالتقدم في دواخل افريقيا البعيدة . وقد قام السيد براون[2] البريطاني مؤخراً بمحاولة لاكتشافه فقد فيها حياته ، ولم يجد في سيوة أي آثار سوى بناء تبين فيما بعد انه أثر مسيحي .

---

١ لم يذكر اسم هذا المعبد الشهير في مقترحات هورنمان الكتابية ، ولا بد أن هذا الموضوع ذكر في مناسبة أخرى وربما حدث ذلك في بعض المقترحات الشفوية .

٢ هو يو . ج . براون (Brown) الذي زار سيوة سنة ١٧٩٢ .

هنا ينتهي حوار الاقتراحات والرد عليها ..

رغم ان لجنة الجمعية الافريقية وافقت على قبول خدمات هورنمان وقررت طريق رحلته المقترحة ، فإن محاضر الجمعية لا تسجل تعيينه رسمياً ، وجاء أول وقت سمعنا فيه عن ذلك عندما بعث هورنمان برسالة إلى بانكز بعد بضعة أشهر .

عندما اقتنعت اللجنة بأن ما تبقى من قليل شك حول مصدر النيجر ومرتفعاته العليا سيتبدد بما يقدمه بارك أو رحالة آخر من حلول وتفاسير، وجهت اللجنة نظرها الى مشكلة المجرى الأوسط للنهر العظيم . وكانت اللجنة قد قررت ان مفتاح الحل لهذه المشكلة هو اكتشاف مدينة هاوسة في كتسينة التي حدثت آراء متضاربة حول موقعها . وقيل للجنة ان أفضل طراق بري الى كتسينة هو الطريق الجرمنتي القديم الذي يتجه من طرابلس نحو الجنوب ماراً بفزان . ومع ذلك ، وربما للفشل المحزن الذي مُني به سيمون لوكاس في التوغل إلى الدواخل عبر طرابلس ، قررت اللجنة أن تبدأ المحاولة التالية من الشرق ، فمضت تعليماتها الى هورنمان كي يتوجه بعد انتهاء تدريبه إلى القاهرة ومنها الى فزان فكتسينة . ولكن جهل الجمعية المطبق بطبيعة البلاد التي كانت توجه هورنمان للمخاطرة فيها ، وجهلها بمسالك السفر في الصحراء، جعلها لا تدرك جيداً المهمة المناطة به.

وفي السابع من ديسمبر كتب هورنمان من جوتنجن بألمانيا إلى بانكز بلندن يشكره على الفرصة التي قدمها له لتحقيق أحلام طفولته « بالسفر الى أماكن مجهولة من العالم . فأنا على أفضل استعداد لها وأتمتع بفكاهة عالمية وأمتاز ببعض المهارات التي تحببني في أعين الناس البسطاء » . وفي جوتنجن كرّس هورنمان نفسه لدراسة التاريخ الطبيعي واللغة العربية وقدماء الجغرافيين ومحدثيهم ... ولايجاد خطوط الطول والعرض . وهنا يعرب هورنمان عن امتنانه لأساتذته وخاصة البرفسور الدكتور بلومنباخ « الذي

يسعفني بمشورته وعلومه بأفضل أسلوب » .

ويتساءل هورنمان في رسالته : « هل تقرر البدء من القاهرة إلى كشنة ، أم تسمح لي اللجنة بالتوجه إلى البندقية رأساً ، أم الشخوص إلى لندن للحصول شخصياً على توجيهات رحلتي » . ويطلب كذلك السفر الى مصر في أقرب فرصة ممكنة بعد انتهاء تدريبه في جوتنجن لكي يستغل الوقت في التعرف على طريقة حياة الناس وعلى المناخ ، ولكسب معرفة تامة بلغة أهل تلك المناطق .

وقرر بانكز أن يتوجه هورنمان الى لندن ، فأرسل له مصاريف ذلك ، وكتب في رسالته إلى بلومنباخ : « اعترف لك بأن آمالاً عظيمة تراودني في نجاح هذا الشاب : فيبدو انه ولد لرحلة من المغامرات تكسبه شرفاً في أعين معاصريه » . وكتب إلى هورنمان في ٧ يناير من نفس اليوم عن رغبة الجمعية في سفره من لندن الى القاهرة ، رغم صعوبة ذلك إذ أن الفرنسيين آنذاك كانوا « سادة البحر المتوسط » . وبين له ان مزايا التحدث في لندن مع اشخاص يعرفون مصر كافية لتعويض مخاطر السفر عبر فرنسا .

ووصل هورنمان إلى لندن في منتصف مارس وحضر اجتماعاً للجنة في العشرين منه ، عقد في منزل ايرل موارة ، عضو اللجنة . وقررت اللجنة دفع مصاريف اقامته في لندن ، والسماح له بشراء معدات معينة على حسابها ، ثم قررت :

« يوصى هورنمان بالتوجه من لندن إلى القاهرة ، وان يحدد اقامته عند وصوله إما بالتشاور مع كاهن « دير مجمع التبشير » أو عن طريقة دير آخر ، وان يعيش هناك هادئاً دون الافصاح عن أهداف رحلته للمقيم الانجليزي أو لأي اوروبي آخر » .

« ويوصى بالبقاء في القاهرة طالما رأى ذلك مناسباً ، وأن يشغل وقته

هناك في اكتساب معرفة دقيقة باللغة العربية واللغات التي يراها نافعة له في رحلاته : وكذلك في تعلم طباع وعادات ، لا المواطنين فقط ، بل جميع الغرباء الذين يصلون من الدواخل .

« ان يقوم في كل المناسبات ، عندما يستقر في القاهرة الأجانبُ القادمون من الدواخل ، بالتعرف اليهم والتودد اليهم ، وأن يقوم كلما واتته الفرصة بمصاحبة هؤلاء الغرباء إلى بلدهم ، ان رأى ذلك مناسباً ، ويفضل مرافقة الغرباء الذين تقترب بلادهم من كشنة » .

« تخول خزينة الجمعية دفع تعويض سنوي لهورنمان ، لقاء خدماته ، يبلغ مئتا جنيه استرليني ، ابتداءً من وصوله إلى القاهرة ؛ ويدفع هذا المبلغ السنوي في حالة وفاته لموكليه لمدة نصف سنة من بعد تاريخ آخر رسالة تصل منه إلى مستخدميه . ويستمر هذا الاتفاق خمس سنوات ابتداءً من وصوله للقاهرة ، ولمدة أطول إذا ظلت الجمعية بعد ذلك راضية عن خدمته ، وإذا اختار هو الاستمرار فيها . ويطلب من السير جوزيف بانكز تقديم طلب للحكومة الفرنسية للحصول على جواز سفر للسيد هورنمان يمكنه من السفر آمناً إلى بعض الموانىء الفرنسية في البحر المتوسط ليبدأ منها رحلة هينة إلى مصر » .

وتقرر في اجتماع اللجنة المنعقد في ٢٣ يونيو ١٧٩٧ ارسال التعليمات التالية إلى هورنمان :

« تعليمات من لجنة الجمعية الافريقية إلى السيد فردريك هورنمان » :

« بعد أن تسلمت اللجنة من المسيو شارتيه Mons. Charrettié ، حسب أوامر الحكومة الفرنسية ، جواز سفر للسيد هورنمان يسمح له بالسفر عبر فرنسا إلى مرسيليا ، ترغب اللجنة في سيره إلى باريس دون تأخر ، ومنها يواصل سفره إلى القاهرة حسب الطريقة التي يجدها مناسبة ؛

وان يعيش فيها هادئاً دون ان يفصح عن أهداف سفره للمقيم الانجليزي أو لأي اوروبي آخر .

وتوصي اللجنة ببقائه في القاهرة طالما رأى ذلك مناسباً ، وان يشغل وقته خلال اقامته في اكتساب معرفة دقيقة باللغة الغربية واللغات التي يراها نافعة له في رحلاته ؛ وكذلك في تعلم طباع وعادات ، لا المواطنين فقط ، بل وجميع الغرباء الذين يصلون من الدواخل .

أن يقوم في القاهرة عند استقرار الأجانب فيها التعرف اليهم والتودد اليهم ، وأن يقوم كلما سنحت له الفرصة بمصاحبة هؤلاء الغرباء الى بلدهم ان رأى ذلك مناسباً ، ويفضل مرافقة الغرباء الذين تقترب بلادهم من كشنة .

اتضح للجنة بعد تتبع دقيق لرحلة ورسائل السيد ليديارد أن من المشكوك فيه أن يسمح لمسيحي ما بمرافقة قافلة إسلامية : وإذ تجد اللجنة ان هنالك تجاراً من الوثنيين السود يعملون في التجارة بين بورنو ومصر ، ترى أن من الأنسب والأسلم لهورنمان أن يضع نفسه تحت حماية بعض الدول الوثنية .

ونظراً للمعلومات الجارية التي وصلت للجمعية حول مجرى نهر النيجر فإن لديها أسباباً في الاعتقاد بأنه يجري في اتجاه الشرق ويصب في بحيرة هائلة أو في البحر الأبيض المتوسط . ولذا يصبح من بالغ الأهمية أن يجمع السيد هورنمان كل المعلومات الممكنة حول هذا الموضوع .

وإذا استطاع السيد هورنمان مد رحلته إلى الموقع الذي توجد فيه كشنة والتي يتكون سكانها من خليط من المحمديين والوثنيين ؛ فإنه يصبح أمراً يستحق التفكير الجاد في محاولة شق الطريق من هناك صوب الجنوب الغربي إلى « بيت بنين » أو إلى مكان في ساحل العاج حيث يجد سفناً

من معظم البلدان الأوروبية ، ويمكنه أن يرجع إلى أوروبا في أحدها عن طريق جزر الهند الغربية [١] .

وستكون اللجنة مسرورة إذا تلقت أي معلومات وملاحظات يستطيع السيد هورنمان جمعها خلال رحلته حول الحيوانات والخضر والمعادن في بلدان افريقيا الداخلية . ولا تعدم اللجنة الأمل في تسلم رسائل منه عن طريق القوافل المختلفة التي تعبر القارة الافريقية في كل الاتجاهات ، وتوصي بكتابة فاتورة بخمسة جنيهات على مظروف كل رسالة لتأمين وصولها .

وعندما تسنح الفرصة للسيد هورنمان ليكتب لأصدقائه في ألمانيا ، نرجو أن يكون حذراً وأن يتجنب التحدث بشيء حول تقدم مكتشفاته في افريقيا ، مما يمكن أن يتسبب في كشف مسبق عن مطبوعات الجمعية .

وقررت اللجنة :

التصديق على التعليمات السابقة وأن يقوم السكرتير بإرسال نسخة موقعة منه الى السيد هورنمان .

الطلب من السيد جوزيف بانكز تزويد السيد هورنمان بستين جنيهاً لتغطية رحلته الى الاسكندرية ، بحيث يتسلمها في باريس عن طريق السيد تشارتيه .

رجاء السير جوزيف بانكز تقديم طلب لوزير الخارجية للحصول على رسالة موجهة للسيد بالدوين Baldwin قنصل صاحب الجلالة في الاسكندرية يوصيه فيها بالسيد هورنمان .

ان يرجو السيد إدواردز Edwards كتابة رسائل للأساتذة ، التالية أسماؤهم ، لشكرهم على ما قدموه للسيد هورنمان من مساعدة خلال إقامته

---

١ كان معظم هذه السفن يعمل في تجارة العبيد .

في جوتنجن ، مع رجـاء قبول وقائع « الجمعية : البرفسور بلومنباخ Blumenbach — البرفسور هاين Heyne — البرفسور هوفمان Hoffman — البرفسور هيرن Heeren — البرفسور تايخن[1] Tychsen .

وفي ٢٦ يونيو كتب هورنمان إلى بانكز رسالة اختتمها بقوله : « أود سيدي لو استطعت التعبير عن مشاعري في هذا الوقت الأخير الذي أغادر فيه لندن ، وبشكل أساسي عن احترامي » .

٣ — من باريس الى القاهرة

يبدو أن هورنمان توجه فور ذلك لبدء رحلاته ، فوصل إلى باريس ومنها كتب في ١٢ يوليو رسالة إلى بانكز حول ذلك . وقد استقبله في العاصمة الفرنسية اثنـان من زملاء الجمعية الملكية استقبالاً حاراً ، همـا الفلكي جوزيف لالند Joseph Lalande ، وعالم النبـات بيير بروسوني Pierre Broussonet ، وقـام عن طريقهما بالتعرف على كثير من المصادر الافريقية . ولكن أياً منهما لم يبرهن على كبير المساعدة له ، مثلما قدمـه له تاجر تركي من طرابلس صدف أن كان بباريس في ذلك الوقت[2] . وقد كتب عنه هورنمان قائلاً : « لن أنسى على الاطلاق كرم ولطف هذا الرجل الملتحي . والجدير بالذكر انـه شجب فكرة اختراق دواخل افريقيـا عن طريق القاهرة وأخبرني أن أيسر الطرق لمسيحي مثلي هـي

---

١ ربما هو و . ج . تايخن (١٧٣٤ — ١٨٠٥) وهو مستشرق نشر قواعد اللغة العربية سنة ١٧٩٢ .

٢ ربما كان هذا الرجل هو سيدي محمد الداغس ، وهو تاجر طرابلسي كثير الأسفار ، عرف أوروبا جيداً وأصبح وزير خارجية الباشا .

طريق طرابلس وفزان . وعرض علي أن يوصلني سالماً إلى فزان حاملاً توصيات منه ، لأنه كان يفكر في مغادرة باريس إلى مرسيليا . ولكنني بينت له التزامي بالسفر إلى القاهرة حسب التعليمات ، وطلبت منه تزويدي ببعض التوصيات لمن يعرفه في القاهرة . لم يجبني في ذلك اليوم بشيء ، ولكنه فاجأني اليوم بمفاجأة سارة ، إذ أعطاني توصية لأحد اصدقائه في القاهرة ، يعرف الكثير من التجار الذين يقدمون اليها من دواخل افريقيا . وفي رسالته هذه المدونة باللغة العربية يرجو صديقه « مساعدتي بشتى السبل ، ليطلعني على المدينة ويقدمني للتجار القادمين من دواخل أفريقيا المعروفين بالطيبة والشجاعة ، وأن يساعدني عندما أرغب في التوجه إلى الدواخل وخاصة إلى فزان ... والا يسمح بسفري مع الاشرار ، وان يفعل كل ما يسرني كما لو كنت انا هو ذلك الصديق (التركي) القديم » . ووصفني في رسالته كشاب انجليزي يريد دخول ميدان التجارة وتدفعه الرغبة في مشاهدة العالم . ولا يفوتني أن أذكر انه قدمني كصديق له . وليس من الضروري ان ابين مدى فائدة هذه التوصية لي ، وارى أن من المفيد النافع التعرف إلى مسلم عن طريق مسلم آخر .

كان هورنمان متشوقاً لمغادرة ليون ليتوجه إلى مرسيليا على وجه السرعة على أمل ايجاد سفينة مبحرة إلى الإسكندرية .

وعندما وصل مرسيليا في اغسطس لم يجد سفناً متجهة إلى الاسكندرية لذا اضطر للسفر إلى قبرص ومنها تيسر له الابحار إلى الاسكندرية حيث وصلها في ١٣ سبتمبر . وفيها قضى عشرة أيام في ضيافة جورج بالدوين George Baldwin القنصل البريطاني .

ثم سافر إلى القاهرة عن طريق رشيد ، حاملاً رسائل تعريف من بالدوين ، من بينها رسالة إلى تشارلز روزيتي Charles Rosetti ، قنصل البندقية ، والقائم بأعمال القنصل البريطاني في القاهرة ، « الذي يعتبر

التعرف عليه ضرورة لا تعوض لي لما سمعته عنه هنا في دير من راهب الماني » .

ولقد افتتن الرحالة الشاب بجمال نهر النيل ، ولكن فقر أهله كان يغيِّم على تلك الفتنة ، فكتب يقول : « كان أسفي شديداً عندما رأيت في هذه الحقول البهيجة والبلد الذي يمكن أن يعتبر أحد أسعد بلدان الدنيا ، شعباً يئن تحت ظلم حكامه » ...

عندما وصل هورنمان القاهرة في الرابع من اكتوبر وجد جميع الأديرة تعج بالنزلاء ، فنزل في مثوى مؤقت على أمل الانتقال إلى « دير مجمع التبشير » الذي تعرف إلى رهبانه وتصادق معهم ... ثم شرع بجمع المعلومات الممكنة عن الدواخل . ولم يجد لدى الأوروبيين الآخرين اهتماماً بسبب وجوده في القاهرة ، مما سهل عليه تكتمه على سره . ومع ذلك اعترف في رسالة بعثها إلى بريان ادواردز بأنه صرح بموضوع رحلته لجورج بالدوين « راجياً منه ومن اسرته عدم إفشائه ، وقد التزموا بذلك بأمانة ووفاء ... » وجاء في هذه الرسالة أيضاً : « وقد تحدثت أيضاً مع رهبان من دير مجمع التبشير بالاسكندرية عن دواخل افريقيا وأفضل طريقة لاختراقها ، ولكنهم كانوا في كل مرة يوجهونني إلى « روزيتي » . وكذلك وجدت في القاهرة ان الرهبان يعتمدون على هذا الرجل ، وانه يتمتع بنفوذ عظيم . ولكن رأيه في الجمعية الجغرافية انها ترتبط بالمصالح الاقتصادية فقط ... أما حول الدواخل فلم أستطع جمع أي معلومات بعد ، ولكن يبدو من المؤكد ان قافلة ستصل من سنار يصحبها اناس قادمون من دارفور ، وقافلة اخرى من سيوة يصحبها قادمون من غدامس وفزان[1] . ولكن لا يعرف احد ممن استشرتهم شيئاً عن القوافل الآتية من

---

[1] كانت هذه القوافل ، كما قال براون ، تجلب العبيد وتبر الذهب والعاج وقرن الوعل وريش النعام والصمغ والعقاقير .

بورنو وكشنة » . وفي الرسالة يعبر هورنمان عن أمله في اكتساب المزيد من المعلومات حالمـا يتمكن من اللغة العربية بشكل يكفي للتحادث مع العرب القادمين من المغرب . والواقع انه كان يدرس العربيـة على يدي كاثوليكي روماني يوناني ويولي ذلك جل اهتمامه .

ووصلت الرسالة السابقـة المؤرخة في ١٨ اكتوبر إلى لنـدن في شهر يناير ، وكانت سبباً في توجيـه تأنيب قاسٍ من بانكز ، إذ كتب إلى هورنمان : « ان اللجنة ليست متذمرة من نسيانك للنصيحة التي تلقيتها بعدم الارتباط ببالدوين أو روزيتي بشكل من الأشكال ، ولكنها تأسف أشد الأسف لاقدامك على ذلك [١] . لقد كانت النصيحة الوحيدة التي اكدت لك عليهـا هي تجنب أي سبيل يمكن ان يعرف منها أحد هذين الرجلين الغرض من سفرك . ومع ذلك فلا استطيع إلا الشعور بالامتنان لهما لمـا اسبغاه عليك من كرم » .

كان بالدوين وروزيتي يجمعـان بين واجبهما كقناصل وبـين عمليهما كتجار . لذا كان من الواضح ان تحذير هورنمان لتجنبهما انما يرجع إلى تخوف الجمعية من تفسيرهما لرحلة هورنمان ان عرفا حقيقتها انهـا محاولة من الجمعية للتدخل في تجارتهـما مع الدواخل وبذلها أكبر جهد لتجميدها . غير أن الجمعيـة كانت مخطئة في ظنها . ويتضح ذلك من المساعدة التي اسرع الرجلان في تقديمها لهورنمان ، رغم انهـما اعتبرا عمله تهوراً ومجازفة .

أما بقية رسالة بانكز فكانت أكثر متعة لهورنمان : « ان الجمعية ، وانا كذلك ، راضون تماماً عن سلوكك والخفة التي تحركت بهـا إلى مكان غـايتك ؛ ونأمل ان تبقى هادئـاً حيث أنت ، والا تتحرك حتى

---

١ ومع ذلك فقد كان هورنمان امتدح رسمياً عند بالدوين .

تصبح طليق اللسان بالعربيـة وتنال معرفـة جيدة بعادات المغاربة . ونرى أن مزيداً من الاقامـــة في مكان اقامتك ربما يسهل الوصول إلى الهدف النهائي من بعثتك » .

وحملت الرسالة أخباراً مثيرة لا بـــد أن تكون قد نجحت في تشجيع الشاب الذي شرع في رحلة دواخل افريقيا الغامضة : « لقد رجع السيد بارك من رحلته إلى دواخل افريقيا عن طريق جامبيا واخترق القارة حتى أصبح عـلى بعد مسيرة أربعة عشر يومـاً من تمبكتو ، ولو كان مسلماً لتمكن من وصول تلك المدينة ؛ ولكنه خشي المحاولة إذ قال لــه من لقيه بأن المسلمين الذين يسيطرون على المدينة ، سيقتلونه لأنه مسيحي » .

« وقد اكتشف بارك نهر النيجر الذي يسير صوب المشرق ، وتتبعه مسافة مائتي ميـــل حتى وصل الى « جنّي » حيث يتسع مجراه ويصبح صالحاً للملاحة : وقد وجد حسن المعاملة من الزنوج الوثنيين ولكن يبدو انهم كرهوه لأنه مسيحي ؛ وكان دائماً يجد استقبالاً سيئاً ، وسجن مرتين ونهبه البدو ، لكنهم وفروا عليه حياته وأخذوا كل ما لديه حتى أدواته : ومع ذلك فهو في وضع جيد وينوي نشر أمور مثيرة عن رحلاته » .

وفي القاهرة تعثر حظ هورنمان ، ففي ابريل ، وقبيل موعـد رحيله إلى فزان ، انتشرت موجة من الطاعون أجبرته على البقاء حيث كـــان وألزمته منزله لا يستطيع مغادرته . وكذلك تجمدت محاولته الثانية لمغادرة القاهرة بعد أن فشلت محاولة إرسال نقود لتمويل رحلته . ثم انه عندمـا واتته فرصة نيل ما يحتاجه من مؤسسة تجارية فرنسية وتجهز للسفر ، جاء غزو نابليون لمصر . فاحتل الاسكندرية في ٢ يوليو ١٧٩٨ معلناً انه قدم لتخليص البلد من حكم المماليك . وقد انقلب السكان ضد الاوروبيين الذين لم ينقذهم من العاصفة إلا حماية السلطات المحلية (المماليك) لا حباً بهم بل لتجنب إشعال غضب الغزاة الفرنسيين .

واحتل نابليون القاهرة في الخامس والعشرين من يوليو ، غير أن تحطيم نلسون لأسطوله اضطره الى اقناع نفسه بالاكتفاء بحكم مصر ومحاولة إرساء حكم فرنسي فيها . ولكن هذه الظروف الجديدة التي هددت فرصة هورنمان انقلبت لصالحه . فعندما قدمه البعض للتعرف على نابليون وعده في خبث بتقديم كل مساعدة يحتاجها ، وتعهد بتوصيل رسائله الى لندن شريطة أن تكتب بالفرنسية . وأرسل هورنمان إلى لندن حول هذا التحول المحظوظ في مهمته وأعلن توقعه الرحيل إلى فزان بعد أيام قليلة مع قافلة من الحجاج المسلمين العائدين من مكة .

كان هورنمان يريد الخروج منتحلاً شخصية تاجر مسلم ، تغمره الثقة بالنجاح في مهمته . ووضع في نيته ان يمكث في فزان ثمانية أو تسعة أشهر قبل مواصلة رحلته إلى كتسينة على أمل الرجوع إلى انجلترا خلال سنتين ونصف أو ثلاث سنوات عن طريق سنجامبيا أو مكة . ويبدو أن هذا الاقتراح المفاجىء قفز إلى ذهنه مقتنعاً أن الاحتفاظ بتنكره في صحبة الحجاج أسهل عليه من السير مع قافلة التجار . وكان في ذهنه بديل ثالث وهو الرجوع عبر طرابلس التي كان يحرص على زيارتها بعد لقائه في باريس مع التاجر الطرابلسي التركي الودود . ويوضح هذه الرغبة ما أرسله إلى بانكز عشية مغادرته للقاهرة ليحول له خطاب اعتماد بقيمة مائة أو مائة وخمسين جنيهاً إلى القنصلية البريطانية في طرابلس . وكان قد تيقن من صديقه التركي في باريس وأصدقائه في مصر أن الوصول إلى فزان عن طريق طرابلس أسهل كثيراً من الوصول اليها عن طريق القاهرة ، وانه إذا اضطر للرجوع كانت طريق طرابلس أسلم له ، ولكن رسائله تخلو من الاشارة إلى ذلك ، بل إنها توحي بتصميم رائع على تخطي كل الصعاب التي يمكن أن تعترض سبيل تحقيقه لآماله ، وتوحي كذلك بثقة عظيمة في قدرته على القيام بمهمته .

وكان هورنمان يستعد للخروج في ظروف أفضل ممـــا كان يتوقع ، فقد أسعده الحظ بالاتفاق مـــع ألماني آخر كترجمان له وهو جوزيف فرندنبرج Joseph Frendenburgh الذي كان مملوكاً استعاد حريته في ظل الحكم الفرنسي الجديد بمصر واقتنع بالتخلي عن فكرة الرجوع إلى المانيا من أجل مرافقة هورنمان . وقد كانت له مؤهلاته الجيدة ، كمسلم حج ثلاث مرات ، ويتقن التركية والعربية ، لمساعدة هورنمان في تحقيق غايته .

٤ – من القاهرة الى مرزق

انضم هورنمـان إلى قافلـــة فزان في الخامس من سبتمبر (١٧٩٨) وبدأت المسيرة في اليـــوم التالي سالكة طريق الحج المؤديـــة إلى سيوة ، والمتجهة غربـاً تحت جرف تلال المغرة ذات العيون العذبة الميـــاه . وفي الخامس عشر وصل الركب قرية أم الصغيرة (أو قارة) ، التي يمر بها أيضاً يو. ج. براون عندما كان متجهاً إلى سيوة سنة ١٧٩٢ ، واستراحوا بها بضعة أيام قبل مواصلة الرحلة إلى سيوة التي وصلوهـــا فعلاً في ٢١ سبتمبر . وقد كرس هورنمان الأيام الثمانية التي قضوهـــا هناك في فحص آثار معبد آمون ،جوبتير ،الشهير وارتياد المقابر . وكما حدث لبراون، وجد هورنمان أهل سيوة يرتابون باهتمامه غير المعتاد في الآثار القديمة وخشي أن يكتشفوا حقيقة شخصيته .

وفي اليوم الرابع مـن استئناف السير في الطريق إلى أوجلـــة ، وبينما كانوا يخيمون في شعيبات ، حدث اعتداء على القافلة قام به ثلاثمائة من سكان سيوة ، أتوا للقبض على هورنمان ورفيقـه بعد ان استيقن الأهالي من هويتهما الحقيقية ، وقالوا لهم : « انتما المسيحيان الجديدان الآتيان من

القاهرة لاكتشاف بلدنا » . ولكن دهاء هورنمان ودبلوماسيته انقذهما من موقف خطير للغاية . وقد أقدم فرندنبرج على عمل أزم الموقف تماماً ، إذ خان هورنمان بكشف جواز سفره الفرنسي (الذي اصدره له نابليون) في محاولة لانقاذ نفسه . ولكنهما تمكنا من استئناف الرحلة في اليوم التالي واقتنعت القافلة كلها بأنهما كانا مسلمين .

ووصلت القافلة في السادس من اكتوبر إلى « مجبرة » وهي احدى الواحات الرئيسية بجالو وعاصمتها أوجلة ، ثم تقدمت القافلة إلى أوجلة نفسها ، ولو اننا حكمنا على هورنمان من تقديره السطحي لها لعرفنا انه لم يكن يدرك قيمتها كمركز قديم لتجارة القوافل .

كانت القافلة منذ خروجها من القاهرة تجمع وتستقطب المزيد من المسافرين والجمال في أماكن توقفها العديدة . وفي أوجلة ، بعد أن انضم اليها تجار من بنغازي وغيرها من البلدان ، أصبحت من الحجم بحيث رأى رئيسها أن ليس من الحكمة أن يواصلوا الرحلة إلى مرزق دون التأكد من كفاية الماء لذلك العدد الكبير من الناس، وخاصة في المرحلة الأخيرة المهلكة من رحلتهم . فأرسل الرئيس رجلاً ليتعرف على الوضع في الطريق ، ولدى عودته بعد غياب طال اثني عشر يوماً ، كان مبتهجاً لوجود ماء كاف لتلك القافلة الكبيرة ، فاستأنفت المسير . ثم دخلت بعد سبعة أيام منطقة « الحروق » القاسية الرهيبة ، وهي هضبة جافة عديمة الماء يصعب السير فيها حتى على الجمال ، وتمتد حتى تمسة، القرية المسوّرة التي وصلها الركب بعد ستة عشر يوماً من أُوجلة . وهنا على اعتبار دخولهم لفزان تلقوا ترحيباً حاراً من سكانها السود ذوي القلوب الطيبة . وفي اليوم التالي بلغوا زويلة ، العاصمة القديمة لفزان ، والتي ظلت حتى ذلك الوقت مدينة ذات أهمية واضحة . ثم تتبعوا طريق سيرهم إلى الحفرة ووصلوا مرزق في السابع عشر من نوفمبر حيث استقبل السلطان الحجاج

والتجار استقبالاً رسمياً ، وكان هذا السلطان قره منلياً من طرابلس .

عندما وصل هورنمان مرزق وجد فيها قافلة تزمع الرحيل إلى هاوسة بعد أيام قليلة ، ولكنه قرر عدم السفر معها عندما علم أنها معرضة لمهاجمة الطوارق ، وانها تتكون في الغالب من تجار سود ، (هم تجار هاوسة بلا شك) إذ خشي ألا يكون لهم من النفوذ ما يكفي لتأمين حسن استقباله عند بربر دواخل افريقيا . ولكنه مع ذلك كان يأمل ألا تطول اقامته في مرزق ، لأن قافلة كبيرة من بورنو كانت وشيكة الوصول وبذا يتمكن من مرافقتها في طريق عودتها .

غير ان هورنمان وفرندنبرج أُصيبا بالحمى حال وصولها الى مرزق ، توفي الثاني على أثرها . وعندما شُفي[1] هورنمان علم ان قافلة بورنو ستتأخر بضعة أشهر ، فقرر اغتنام أول فرصة له لتحقيق مشروع زيارته لطرابلس كي يقدم للجمعية تقريراً عن رحلاته ، بدلاً من البقاء في ذلك المكان الرهيب فزان ، لأنها بعد خروج القوافل تصبح أقل المدن متعة . وغادر فزان فعلاً في منتصف يونيو ولم يصل طرابلس إلا بعد مسيرة شهرين ، وفيها أسعده الحظ بمصادقة الدكتور بريان مكدونو[2] Dr. Byran McDonogh ، المسئول الصحي الملحق بالقنصلية البريطانية ، والذي كان في ذلك الحين يقوم بعمل القنصل سيمون لوكاس الذي كان في إجازة بالخارج . وكتب هورنمان إلى بانكز في ١٩ أغسطس يتحدث عن مكدونو : « انه عين الرجل الذي أريده ، فهو مقرب عند الباشا ويقدر على تقديم المساعده لي أكثر مما يقدر عليه أي تركي آخر في المدينة : انه أديب ويقدر التزامات الجمعية ويعرف الكثير من أعضائها . وفي الوقت الذي ينظر إليّ فيه البعض على أنني رجل مريب ، يوليني هو كل مساعدة وثقة . ويستطيع

---

١ الملاريا . وقد عزا هورنمان شفاءه منها إلى استمرار تناول الكينا .

٢ سنسمع فيما بعد ان مكدونو يعمل قائماً بأعمال القنصل البرتغالي .

كذلك تزويدي بتوصيات من الباشا تنفعني في رحلتي ، الأمر الذي يعتبر هنا ضرورياً تماماً في هذا الوقت ، لأن كل أجنبي يتهم بالجاسوسية لصالح الفرنسيين .

« وأرى سيدي ان المستر مكدونو يستحق شكر الجمعية ، وأرجو حين الكتابة اليه أن تخبروه على الاقل عن شعوري بالامتنان له لما قدمه لي وأسبغه عليّ » [1] . وكتب هورنمان في نفس الرسالة ملخصاً بالمعلومات التي جمعها في مرزق عن الدواخل [2] .

رجع سيمون لوكاس الى منصبه في طرابلس في شهر اكتوبر . وإذا عرفنا ان لوكاس كان قد فشل في الأعوام السابقة كرحالة مكتشف ، فإننا لا نتوقع منه الترحيب بالشاب الألماني الواثق من نفسه والراجع من توه سالماً بعد رحلة طويلة مهلكة رفض لوكاس نفسه القيام بها . فكتب هورنمان الى بانكز يعلّق على عودة لوكاس القنصل العام :

« لا أعرف إذا ما كانت اللجنة تعتقد في صدق أعذاره حول عودته إلى انجلترا ، أم ان الجمعية ، مثلي ، تعطي هذه الأعذار قليل الاهتمام ؛ ولكنني كنت أرى ان من واجبي ذكر كافة اموري بغض النظر عنه وعن الدكتور مكدونو الذي ذكرته في رسالتي السابقة ، والذي لا أستطيع تقديم صورة كافية عن خدماته الحقيقية » .

« أما القنصل البريطاني فليست لي حاجة أطلبها منه حالياً . إنني أعيش منذ مجيئي بين عرب المدينة في أحد الفنادق العامة حيث يقيم أي شاب

---

١ كان في طرابلس حينذاك بريطاني ثالث هو بيتر ليسل ، وهو اسكتلندي ترأس الأسطول الطرابلسي وسمى نفسه « مراد ريس » واليه تعزى متاعب الأميركيين في طرابلس . وقد تزوج ابنة الباشا وعمل مع البريطانيين الآخرين ضد القنصل الاميركي .

٢ أنظر : معلومات عن فزان ص (١١١) .

أجنبي بدون أسرة » . ولكن هورنمان فيما بعد ، وبعد أن غادر صديقه مكدونو طرابلس ، لجأ إلى لوكاس لمناقشته في أمر حوالة مالية ، فرفضها لوكاس . ومـــع ذلك فقد أرسل لوكاس الى بانكز تقريراً جيداً عن هورنمان ، فكتب في الثاني عشر من ابريل سنة ١٨٠٠ يقول : « أدركت من خلال معرفتي له في اقامته القصيرة هنا انكم لم تقدروا على اختيار شخص أفضل منه يناسب هذه المهمة ، وإذا قدر الله له حياة طويلة فسيبرهن بلا شك على جدارته وحسن اختيار جمعيتكم الموقرة لــه . وقد قدمت له ما استطيع من توصيات ونقود احتاج اليها » . ويبدو أن لوكاس أصبح في آخر الأمر يقـدم العون إلى هورنمان ، فعندما عاد الأخير الى مرزق كتب اليه شاكراً على حسن صداقته والخدمات التي قدمها للجمعية الافريقية في تزكيته وحمايته له خلال إقامته في طرابلس ، على حد تعبير هورنمان نفسه .

غير ان هورنمان كان من المهارة بحيث استطاع تأمين صداقة أشخاص أكثر نفوذاً من القنصل البريطاني ، ومن بينهم صديقه التركي القديم الذي ثرثر معه في باريس ، ولكن يبدو ان طيشه في تلك المناسبة أسدى اليه خدمة طيبة في طرابلس ، فكتب إلى بانكز في ٢٩ نوفمبر :

« إن باشا هذا البلد رجل عاقل وصديق حميم لجميع الانجليز ، وهو يعرف مهمتي تمام المعرفـــة ؛ وقد وجدت هنـا أيضاً ذلك التركي الذي ذكرته لكم في رسالتي من باريس سنة ١٧٩٧ . لقد زودني بتزكية تبلغ من القوة ما يبلغه جواز السفر ، يسميني فيها باسمي التركي الذي اتخذته لقباً لي ، ويدعوني كأحد رجالـه الذين يبالغ في حبهم ... وهو يرجو السماح لي بالتوجه حيثما اريـد ... الخ . وقد أعطـاني الباشا هذه الرسالة في آخر مقابلة لي معـــه عندما توجهت اليه وحدي : وقد دعاني أمـــام

الجميع باسمي التركي[1] ، وعاملني بنفس الأسلوب .. انني أحمد الله على ما وصلت اليه في مهمتي ، وهذا يعود إلى مصادقتي لثلاثة من كبار المسئولين في هذا البلد .

« وخطتي في السفر من هنا ما زالت هي كما اخبرتكم في أول رسالة لي من هذا البلد — أن أمضي إلى فزان ، ومنها اتوجه مباشرة إلى اغادس وكشنة ، ثم إلى كابي ونوبي على يسار نهر النيجر . ذلك لأنني اعتبر أن التوجه من السودان إلى تمبكتو والعودة عن ذلك الطريق هو أنسب شيء للجمعية ولسمعتي ، لا كمغامر ، بل كرجل حريص وحذر .

« وان عندي خطة جديدة للسفر في هذه البلاد كمسلم ، لما للسفر فيها من خطورة ، وذلك أسلم لي وأفضل ...

« ... وبعد ان عشت سنتين في هذه البلاد وسمعت الكثير عن النائي منها ، أرى من الصواب ان تنتظر الجمعية عودتي قبل ارسال رحالة آخر إلى شمال افريقيا .. انني سأرجع إلى اوروبا ولكنني أقدر ذلك في حوالي سنة ١٨٠٢ ، عند أول فرصة أذهب فيها إلى تمبكتو ، إن لم يكن قبل ثلاثة أو أربعة أشهر من ذلك .. »

وشرع هورنمان في أول ديسمبر في رحلة العودة إلى مرزق حيث وصلها في العشرين من يناير سنة ١٨٠٠ . وقرر مرة أخرى الا يحاول السفر مباشرة إلى كتسينة عن طريق اغادس لما كان في الصحراء من اضطرابات مستمرة . وفي فزان تمكن هورنمان من توطيد صداقته مع شريف من بورنو رتب معه أمر مرافقته إلى بلده . وكتب إلى بانكز في ٦ ابريل عن نيته في مساء ذلك اليوم بالانضمام إلى قافلة متجهة إلى بورنو ، حيث ينوي الاقامة حتى شهر سبتمبر ، على أمل ان يواصل منها رحلته

---

١ يبدو ان تحمس الباشا له كان يرجع إلى اعتقاده بأن هورنمان كان مسلماً حقاً (المعرب) .

إلى كتسينة ، وقال له : « أرجو أن تعتبر هذه الرسالة آخر ما أبعث به هذا العام ، أو ربما هي الرسالة الأخيرة قبل وصولي إلى بعض موانىء الساحل الافريقي » . والواقع أنها كانت آخر رسالة تصل من هورنمان على الاطلاق ..

وفي الاجتماع السنوي للجمعية الافريقية الذي عقد في مايو سنة ١٨٠٠ سُجِّل وصول يوميات هورنمان عن رحلاته بين القاهرة ومرزق ، وتليت في الجلسة أجزاء من هذه اليوميات . وتذكر وقائع الاجتماعات أيضاً ان تعليمات أرسلت إلى كل القناصل البريطانيين في افريقيا لدفع أي مبلغ يطلبه هورنمان « وان يتلقوه بالمودة عند مروره بأي من الأماكن التي يقيمون فيها »[١] .

وفي الاجتماع السنوي التالي المنعقد في يونيو سنة ١٩٨١ رفضت فكرة إرسال مكتشف آخر إلى نفس المنطقة ، كي لا يتعارض ذلك مع مهمة هورنمان أو يعرض نجاحه للخطر . وفي ذلك العام طبعت ترجمة يوميات هورنمان من الألمانية الى الانجليزية كجزء من وقائع الجمعية .

وتلقى الجمهور تلك اليوميات بتحمس ، ولكن مجلة أدنبر رفيو Edinburgh Review اتخذت من تلك اليوميات ذريعة لمهاجمة الجمعية الافريقية .

٥ ـ من مرزق الى بو كاني

في الثاني عشر من يناير سنة ١٨٠٢ كتب بانكز الى يو. ج. براون

---

١ وقائع الجمعية .

يخبره ان السنتين اللتين حددهما هورنمان للعودة أصبحتا على وشك النهاية، وانه « ابتداءً مـن اول ابريل سيترقب كل يوم آملاً أن يراه : إنه مشاهد ممتاز ، وسيملأ ، إذا قدر له النجاح ، فراغاً واسعاً في جغرافية افريقيا » .

ولكن أمل بانكز لم يتحقق ، والواقع ان توقعه لم يكن له ما يبرره. ومرت سنتان دون وصول أي أخبار عن الرحّالة ، إلى أن جاءت نهاية سنة ١٨٠٤ حين قال السير وليام ينج للجمعية في لقائها السنوي العـام : « ذكر لي المستر مكدونو ، القنصل بطرابلس ، على مائدة للسير جوزيف بانكز في ٢١ ديسمبر الماضي (١٨٠٣) انه تلقى في طرابلس أخباراً من تاجر بربري مهيب عن يوسف[1] ، أو هورنمان ، تروي انه كان بحالة جيدة في كشنة في يونيو سنة ١٨٠٣ ، وانه يقابل هنـاك باحترام كبير كمرابط ، أو قديس مسلم .

« ولم تمض سنتان بعد على مجيء الأخبار عن سلامة هورنمان ، وينبغي ألا نفقد الأمل بعد في تلقي تقرير منه نفسه ، عن بلد ممتع وصل اليه ، وعـن مشاهداتـه في كشنة وحوسة وتمبكتو ، ويبدو حتى ذلك الوقت ، أي بعد مرور مـا لا يقل عن ثلاث سنوات من توقع عودة هورنمان ، أن غيابه كان دليلاً على مقدار تقدم نجاحه .

ولم تظهر علامة قلق ما حول مصير هورنمان إلى أن جاء اجتماع سنة ١٨٠٨ حين ذكـر رئيس الجلسة ، إيرل مـوارة Earl of Moira ، للمجتمعين : « يبدو مـن المنـاسب أن تتحدث لجنتكم شيئاً عـن وضع رحالتـكم عالي المنزلة ، السيد هورنمان ؛ ان الجمعية تأمل لو كان بوسعها

---

١ يبدو ان هذا هو الاسم التركي الذي اتخذه هورنمان .

٢ وقائع الجمعية — ٢ — ٣٦٣ .

اعطاء أي معلومات مرضيـة حول ذلك الموضوع الهام ؛ لكن جمعيتكم لا تتسلم إلا معلومـات ناقصة حول هورنمان ؛ وكل مـا يقال بشكل موضوعي انه كان ، عندمـا غادر مرزق قبل سبع سنوات ، في حالـة جيدة وفي ثقة تامة بقدرته على انجاز رغبات الجمعية ؛ ولكن جمعيتكم لا تعلم بالضبط إذا ما كانت السلطات قد اعتقلته ، وهذا ما لا يستبعد ، أو انـه سقط نتيجة مرض أو حـادث ؛ ولكن ، ورغم جهل لجنتكم بحقيقة وضعه ، فانها لا تعدم بصيصاً من الأمل يستند على بعض الأخبار الغير مؤكدة في معافاته وقدرتـه على العودة لمستخدميه المتلهفين له »[1] .

ولكننـا لا نعرف لسوء الحظ شيئاً عن « الأخبـار الغير مؤكدة » التي أحيت الأمل عند الجمعية . غير ان ذلك الأمل بدأ يخبو في العام التالي .

ولم تصل أخبار عن هورنمان حتى مطلع سنة ١٨١٧ ، عندما قام نقيب يسمى « سميث[2] » ، ويعمل في خدمة ساحـل شمال افريقيا ، بزيارة لآثار القرزة البعيدة عن طرابلس . ففي تلك الرحلة قال باي فزان لسميث بأن انجليزياً رافقه قبل حوالي سبعة عشر عاماً في رحلة الى الجنوب من فزان ، ولكنه توفي في الطريق بالحمى ودفن قرب « عكلس » ، ويتفق ذلك الزمان والمكان مع ما ظن حول مصير هورنمان البائس .

وحدث بعد سنة تقريباً ان كان الكابتن سميث هذا بصحبة الاسكتلندي مراد الريس وهانمر وارنجتون ، القنصل البريطاني العام بطرابلس ، والذي عرف فيما بعد بصداقته للمكتشفين ، عند باشا طرابلس . وعندما استفسر من الباشا عن مصير هورنمان أكـد الباشا خبر وفاتـه ، فقـال : « لقد سقط في هاوسة في منزل أحد التجار الطرابلسيين هناك ، ثم استأنف

---

١ التقرير الرباعي للجمعية ١٧ (١٩٧١) ، ٣١٩ .

٢ هو النقيب (الكابتن) يو . ه . سميث W. H. Smyth الذي أصبح فيما بعد امير ال بحر .

سيره قبل أن يكتمل شفاؤه ، الأمر الذي سبب له الانهيار والموت في تمبكتو »[1] .

وبعد أشهر قليلة مرّ الرحالة الكابتن ف. ج. ليون بطرابلس في طريقه إلى فزان ، وهناك حالفه الحظ بمقابلة رجل رافق هورنمان من مرزق إلى النوبة ، حيث توفي نتيجة الاصابة بالدوزنطاريا في مدينـــة بوكاني بمنزل رجل يسمى « علي الفلاتني » ، وكتب ليون : « يعطي راويتنا (الفلاتني) التقرير التالي عن اصطحابه لهورنمان من مرزق إلى ذلك المكان (الذي توفي فيه) : فقد تعرف الرجلان أول الأمر في فزان ، حيث انطلقـــا مع قافلة كبيرة متجهة إلى بورنو ، وفيها افترقا . وبعد استقرار هورنمان ثلاثة أو أربعة أشهر في بورنو التقى الرجـــلان ثانية في قافلة متجهة إلى كشنة وازداد ارتباط بعضهما بالآخر . وكان الناس يتعلقون بهورنمان تعلقاً كبيراً لطيب أخلاقه ومهارته في الطب ؛ وكان على وجه العموم يعتبر مرابطاً . وبعـــد زمن قصير اتجها مع جماعة أخرى من التجار الى نوفي (Noofy) وأقاما سوية في منزل رجل يسمى (علي) من قبيلة (فلاّته Fellata . وقد اعتاد هورنمان في رحلاته بعد فزان تدوين المعلومات عن كـل شجرة أو جبل أو قرية يشاهدها ، لكي يساعده ذلك عـلى سهولة معرفة الطريق عند عودته دون دليل . وكـــان في نيته أن يواصل السير ماراً بداجومبة Dagomba إلى أشانتي Ashantée التي تقع على بعد مسيرة أربعين يوماً الى الجنوب . وعندما غادر تاجرُنا نوفي كان في صحة وحالة جيدة ، ولم يواجه أي صعاب . ولكن هذا الرجل سمع عندما عاد الى كشنه بأن هورنمان مات متأثراً بالدوزنطاريا بعد أيام قليلة من افتراقهما[2] » .

---

[1] التقرير الرباعي : ١٨ (١٨١٨) ٣٧٢ . وفي رسالة بتاريخ ٢ سبتمبر ١٨١٨ أخبر وارنجتون السير توماس متيلاند Thomas Maitland ، حاكم مالطة ، أن أوراق ومعدات هورنمان سلمت من قبل الوزير ومراد الريس إلى مكدونو الملحق بالقنصلية البريطانية كطبيب .

[2] من كتاب : وصف رحلات في شمال افريقيا ص ١٣٢ ، تأليف ليون .

وأكد خبر وفاة هورنمان بعد خمس سنوات تاجران من فزان للكابتن هيو كلابرتون Hugh Clapperton ، عندما قابلها في « كـــانو » . وكان التاجران قــد « سافرا مع هورنمان من مرزق إلى « نيفي » ، حيث توفي بعد مرض بالدوزنطاريا دام ستة أيام . وكـــان يصف نفسه بأنه تاجر انجليزي يعتنق الديانة المحمدية » .

هذا هو كل ما نعرفه عن رحلات هورنمان بعد مغادرته لمدينة مرزق. وإذا كانت الروايتان السابقتان تقصان علينا كيفية موته فإنهما لا تؤكدان كيفية وصوله إلى ذلك المكان أو تاريخ وفاته .

الواضح انه سافر إلى بورنو مع القافلة التي كان ينوي الالتحاق بها في ذلك « المساء » ، كما اخبر بانكز في رسالته المؤرخة في ١٦ ابريل سنة ١٨٠٠ . ويبدو انه نفذ ما قصد اليه من البقاء في بورنو حتى مجيء شهر سبتمبر التالي الذي يعتبر نهايـــة فصل الأمطار ، ثم سافر ، حسب خطته من بورنو إلى كتسينة مع قافلة التجار ، على طريق تجاري معروف . ولا بد أن رحلته إلى النوبة كانت سهلة لأنه وطد صداقته مع أحد تجار فزان المتجه إلى نفس البلد .

يبدو أن نجاح هورنمان في شق طريقه من كتسينه إلى مـا يقرب من ساحل غينيا كان راجعاً إلى موهبته في كسب صداقة أهالي البلاد . أمـا ما كان يعتبر كأصعب جزء في السفر عبر هاوسة لما قاساه الرحالة اللاحقون من متاهات طويلة ، فربما كان بالنسبة لهورنمان أسهل جزء في رحلته . ومن الواضح أيضاً أن تجـــار فزان المرافقين لهورنمـان كانوا متجهين إلى « ربعة » السوق الكبير عـــلى النيجر ذات التجارة الواسعة مع فزان في الملح والمنسوجات والمصنوعات الأخرى . وهناك في الربعة كان من الممكن أن ينتقل هورنمان لمواصلة رحلتـه غربـــاً إلى اشانتي Ashantee ، ثم إلى مطافـه الأخير « تمبكتو » . ولو انه بقي حياً لحقق ما يمكن أن يوصف

بأنه أبرز رحلة في تاريخ ارتياد افريقيا. والواقع انه سمع في ذلك الوقت عن « عربي » كان على وشك التوجه من ربعة إلى تمبكتو، وربما كان هذا هو هورنمان نفسه، ويبدو انه وجد من الأنسب له السفر مع العرب كعربي مثلهم [١].

ليس من الممكن تحديد وفاة هورنمان. فربما غادر بورنو في سبتمبر ١٨٠٠، كما كان يتوقع، وحينها يكون قد وصل إلى كتسينة في اكتوبر. وكان ينوي البقاء بكتسينة وقتاً قصيراً، وربما نفذ ذلك لأن التجار الذين رافقهم لا بد وان تكون لهم مشاغل كثيرة في ذلك السوق البالغ الأهمية. ولما كانت الأمطار الطويلة المعيقة للسفر في هاوسة تبدأ في ابريل، فذلك يعني وجود فرصة للاقامة في كتسينة. وتبلغ المسافة من كتسينة إلى ربعة مسيرة شهر تقريباً، لذا كان يستحيل وصول هورنمان إلى مدينة بوكاني المجاورة قبل نهاية السنة. ولكن أصدقاءه التجار كانوا حتماً يريدون بلوغ ربعة في الوقت المناسب لقضاء أعمالهم فيها ثم الرجوع إلى كتسينة، ان لم يكن إلى بورنو كذلك قبل هطول الأمطار في ابريل وتوقف الطرق. وفعلاً كان أحدهم، وهو راوية ليون، قد قفل راجعاً قبل موت هورنمان ... كل هذه الظروف تشير إلى ان هورنمان توفي في مطلع سنة ١٨٠١.

كان هورنمان وقت وفاته، وحسب قول راوية كلابرتون مسافراً متنكراً « كتاجر بريطاني يعتنق الديانة المحمدية. »، الأمر الذي يوحي بأن تنكره اكتشف جزئياً وانه توقف عن الادعاء بأنه عربي. ولكن راوية كلابرتون، من جهة أخرى، قال بأنه « كان يعتبر مرابطاً على وجه

---

١ وهذا ما ينفي ادعاء أو اعتقاد الجمعية السابق بخطورة السفر بين العرب، وسهولة ذلك مع الوثنيين (المعرب).

العموم » ، الامر الذي لم يكن ليحدث بالتأكيد لو عرف انه أوروبي. ربما كان اصدقاء كلابرتون فطنوا للامر بعد موت هورنمان ، ومع ذلك فالواضح ان تصميم هورنمان السفر كمسلم لم يضعف على الاطلاق.

كانت الميزة البارزة لهورنمان هي التصميم المطلق على انجاز ما عقد العزم عليه . وقد فعل بالضبط ما انطلق من أجله : فكان منذ البداية مصمماً على الوصول الى كتسينة ومنها الى النوبة . ولا شك انه لو قدرت له الحياة لقادته عزيمته الفولاذية الى تمبكتو . والواقع ان رحلته الطويلة من مصر الى نقطة تقرب ثلاثمائة ميل فقط عن ساحل غينيا ، وعلى طريق لم تطأها اقدام الاوروبيين منذ ازمنة الرومان ، لم تكن لتتحقق لو ان عزيمته الصلبة لم ترافق قدرته على اكتساب ثقة الناس الذين كان يلقاهم في الطريق . غير أن هاتين الصفتين اللازمتين للرحالة الناجح لا تكفيان وحدهما . فلا بد أيضاً للمكتشف كي يجني ثمار الاستكشاف كاملة من عقل باحث مولع بالاكتساب ، وهذا ما افتقر اليه هورنمان ، كما يبدو. وقد اخطأ بانكز بوصفه اياه « كمشاهد ممتاز » ، فعندما واتته فرصة البقاء في مرزق اشهراً عدة غادرها لصعوبة الحياة فيها متجهاً الى طرابلس، ولم يدرك ان ما كان يمر كل يوم امام عينيه أمر هام بالنسبة لمستخدميه. والغريب انه لم يصف رحلة سيره من مرزق الى طرابلس.

لقد اخطأ هورنمان إذ لم يدرك ان عزيمة المكتشف الذي يريد الوصول الى أماكن نائية لم يرتدها أحد أمرٌ غير كاف في حد ذاته ، بل انه الوسيلة من اجل تلك النهاية — وهي جمع المعلومات .

ربما كان هورنمان ناجحاً غاية النجاح لو انه قاد حملة استكشاف من رجال العلم المختصين الذين يستفيدون من شجاعته وتصميمه وقدرته على كسب الأصدقاء المحليين .

ورغم ذلك ، يعتبر إنجاز تلك الرحلة العظيمة عبر تلك المنطقة الواسعة

المجهولة دون رفيق يساعده ، أحد كبرى الانجازات في تاريخ الاكتشافات الجغرافية . والواقع أن موته المبكر كان فاجعة منعت تحويل رحلته البارزة إلى رحلة مدهشة حقاً .

٦ ـ هورنمان والنيجر

كان هورنمان واعياً ومدركاً أن الهدف الأساسي من رحلته هو اكتشاف النيجر ، لذا ظل يستقصي أخبار كل من يلقاه مما يمكن أن يلقي ضوءاً على مشكلة مجرى النهر . غير أن الجمعية الافريقية وجدت باستمرار أن الاستفسارات من ذلك النــوع أدت وأوصلت إلى نتائج مضللة . ولكن اللوم لا يقع على هورنمان في أن ما قدمه من معلومات لم يساعد إلا على مزيد من التشويش . فعندما ضم المعلومــات المتناقضة إلى بعضها البعض استطاع أن ينجح في استنتاج أن النيجر كان يسير جنوبي كبي ّ والنوبة. ولكنه ضل الطريق أيضاً من استنتاجه هذا ، فاعتبر أن مجرى النهر من النوبة يتجه نحو الشمال الشرقي في « منطقة بورنو حيث يصبح اسمه زاد (تشاد) » ، ظاناً أنه هو نفسه أحد روافــده العظيمة بنوي الذي يسير نحو الجنوب الغربي ويدخل النيجر قرب جنوبي النوبة . وقد عرف أحد الرحّالة المصريين « وادي » و « دارفور » تمــام المعرفة وتحدث لهورنمان عن نهر يسير جنوبي هذين البلدين ، ويعني بذلك نهر شاري وبحر العرب ، وهذا ما قاد هورنمان إلى اعتبار ان هذا النهر هــو في الواقع نهر النيجر الذي يجري كي يتصل بنهر النيل . وهذا ما أكده لـه قبيل مغادرته مرزق إلى بورنو رجل سبق ان سافر الى دارفور ، وأخبره أن « اتصال النيجر بالنيل أمر لا يتطرق اليه الشك » .

ولكن ذلك لم يسبب ضرراً لقضية العلم الجغرافي ، فقد رفض الميجور جيمس رينل James Rennell ، وهو أكبر جغرافي في زمنه ، أي احتمال لاتصال النيجر بالنيل ، واستبعد أن يسير النيجر مسافة ٢٢٥٠ ميلاً من مصدره الى النيل في بلاد كلها مرتفعة عن مستوى نهر النيل .

والواقع أن ليون كان صاحب نظرية خاصة عن نهاية (مصب) النيجر . فقد قادته جهوده للتوفيق بين ما قاله الجغرافيون العرب عن دواخل افريقيا وبين الاكتشافات الحديثة وأخبار أهالي المنطقة ، إلى اعلان « انه مما لا شك فيه أن النيجر يصب في بحيرات تقع في الربع الشرقي من القارة الافريقية ؛ ويبدو أن هذه البحيرات توجد في وجنارة وغانا » . وكان يعتقد أيضاً أن مياه النيجر تصبح في مكان ما من تلك المنطقة في هاوسة وتشاد منتشرة إلى درجة كبيرة بحيث تضيع تماماً من أثر التبخر . وجاء تقرير هورنمان عن سير النيجر نحو الشرق وكأنه متجه إلى النيل ، وكأنه يقدم لرينل شاهداً جديداً على « انتهاء النيجر بالتبخر في بلاد وجنارة »[1] .

غير أن هنالك ظاهرة هامة للغاية تمخضت عن انجازات واعمال هورنمان ، لم يستطع هو أو مستخدموه اعارتها أي اهتمام . وتتمثل هذه الظاهرة في كشفه عن مدى ضخامة واتساع التجارة العالمية التي كانت تنتشر في تلك الأيام نحو الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، عبر شمال افريقيا . ومن سمات تلك الظاهرة أن مرزق كانت مركزاً تجارياً تتوزع منها البضائع والقوافل شمالاً إلى طرابلس وتونس ، وشرقاً إلى القاهرة ودارفور ، وغرباً إلى فاس وتمبكتو ، وجنوباً إلى ساحل غينيا ، وان فزان كانت ملتقى التجار الذين في هذه الأسواق كلها . ولكن ذلك كله لم يثر أي اهتمام ولم يجلب أي انتباه .

---

١ يوميات هورنمان ، ص ١٦٣ .

تعريف باليوميات

نشرت « يوميات رحلات فردريك هورنمان من القاهرة إلى مرزق » والمترجمة عن النص الألماني لأول مرة في « وقائع » الجمعية الافريقية لسنة ١٨٠١ . ثم نشرها في لندن سنة ١٨٠٢ الناشران ج. يو. نيكول .

وذكر سكرتير الجمعية في اجتماعها السنوي في مايو ١٨٠٤ ما يلي :

بعد تقديم نسخة مـن يوميات فردريك هورنمـان إلى القنصل الأول الفرنسي بأمر صدر من الجمعية في اجتماعها السنوي سنة ١٨٠٢ : ترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية بأمر من القنصل ؛ وقام السيد لانجلز ، عضو المعهد الوطني والذي نشر اليوميات وأضاف اليها مقالة هامة حول «واحة» القدماء ، توضح آراء وأهداف معهده ، فيقول : « ان الاعتبارات الهامة السابقة التي وضحت تماماً تستحق اهتمام حكومتنا واهتمام كل فرنسي صديق لبلده وللعلم ؛ أفلا تنبعث عندنا روح المنافسة كي تقنعنـا بتكوين جمعية افريقيـة في فرنسا ، تتجاوب مع الجمعية الافريقيـة البريطانية ــ وفوق ذلك : ألا يتحرك أعضاء المعهدين والمتحمسون لهما للعمل متضامنين لتقديم اكتشافاتهم ذات المصلحة العامة للعلم ولبلديهما وللبشرية جمعاء ؟ » .

ومـا أن نشرت يوميـات هورنمـان في فرنسا ، ونشر اقتراح المستر لانجلز السابـق حتى أنشئت جمعيـة في بـاريس اسمهـا : « جمعية دواخل Les Société de L'Afrique interieure et de Découvertés افريقيا والمكتشفات » وصدرت الطبعة الفرنسية ليوميات هورنمان والمترجمة عن الانجليزية بباريس سنة ١٨٠٣ مـن قبل ل. لانجلز الذي أضاف اليها ملحقاً من عنده .

ثم صدرت سنة ١٨٩٥ نسخة بالالمانية عن اليوميات في مدينة هامبورج، نشرها أدولف باهدي .

أما الطبعة الانجليزية الحالية لليوميات فهي اعادة لطبعة سنة ١٨٠٢ بعد اجراء تصحيحات عليها كي تتفق مع الطبعة الألمانية لسنة ١٨٩٥ (والتي يفترض ان تكون مأخوذة هذه المرة عن نص هورنمان الأصلي).

ولكن هذه التصحيحات قليلة ، بعضها يرجع إلى أخطاء في الترجمة الاولى ويرجع البعض الآخر لاخطاء مطبعية . ثم إن الملاحق قلصت إلى حد كبير . فقد حذفت « مشاهدات حول سيوة وآثارها » لويليام يونج ، وحذفت « التوضيحات الجغرافية » لجيمز رينل ، وكذلك « مشاهدات حول لغة سيوة » لوليام مارسدن ، وحذفت قائمة أعضاء الجمعية كلها لأنها أصبحت اليوم ذات أهمية قليلة .

كانت يوميات هورنمان تكتب بالألمانية أصلاً ، أما رسائله إلى الجمعية فكانت توجه من هورنمان إلى بانكز مدونة بالانجليزية التي لم يكن هورنمان يتقنها جيداً ، لذا قامت الجمعية بتصحيحها لغوياً قبل نشرها . وسنرى فيما بعد رسائله التي تم نشرها مصححة ، أما الأجزاء الأخرى المقتبسة من رسائله التي لم تنشر من قبل فقد بقيت كما كتبها هورنمان نفسه .

يوميّات رحلات فردريك هورنمان
من القاهرة الى مرزق ، عاصمة مملكة فزّان
١٧٩٧ — ١٧٩٨

تقديم

تأسست الجمعية الافريقية سنة ١٧٨٨ بهدف اكتشاف دواخل القارة السوداء ، ودأبت ، من أجل تحقيق أهدافها العظيمة ، على تبني مبادىء واجراءات حكيمة ومحددة : فكانت تستقصي ثم تتفحص ، وتلتقط المعلومات ثم تقوم بالبحث ، وقد تقدمت فعلاً لأسلوبها هذا في التقصي والمثابرة . واستطاعت الجمعية منذ سنة ١٧٩٨ توجيه جهودها لتحقيق المزيد من الاكتشافات المبنية على التفتيش والتجربة .

فهذا المجلد الذي صدر سنة ١٧٩٠ — ١٧٩٢ عن محاضر الجمعية وانجازاتها يقدم تفصيلات واسعة حول المعلومات الخاصة بدواخل افريقيا، جمعت من تحريات القناصل البريطانيين ، ومن أقوال الزنوج أو التجار البربر ، أو الأشراف وغيرهم ممن صاحبوا القوافل في مواسم الحج بين مكة والمراكز المتنوعة القاصية بأفريقيا الاسلامية .

وكانت المعلومات آنذاك بالغة المتعة والفائدة ؛ فقد عملت كحافز وموجّه لمزيد من البحث ؛ وفتحت مجالات جديدة للتجارة ، ومادة جديدة للتأمل العلمي حول طبيعة وعادات وأحوال المجتمع الذي يعيش في ربع العالم المجهول ؛ وهي فوق ذلك تشير إلى الطريق وتسهل السبيل للتأكد

من كل موضوع ، ولتقدير أهميته وفوائده عن طريق المشاهدة الحقيقية والتجربة العملية .

ومع أن الرواة والقصاصين تحدثوا عما سمعوه عن افريقيا وما شاهدوه منها ؛ ورغم الافتراض بجهل غالبيتهم أو نقص معلوماتهم ، وبالتالي قلة الاعتماد على صحة ما قدموه ؛ إلا أنهم يستحقون الاهتمام والعناية حيثما تتفق أقوالهم في أمور معينة . وهم كذلك ، مجتمعين ، أعطوا صورة جديدة عن مجتمعات وبلدان الدواخل ، وساعدوا على خلق حدس واستنتاجات توجه الطريق نحو المزيد من البحث . ومثلما تشرق الواحات في صحارى القارة الافريقية العظيمة ، تتوهج أحياناً عقول أبنائها البسيطة باشارات من الذكاء والانسانية ، وومضات من العبقرية ، ومناظر جزئية من مؤسسات اجتماعية متطورة . وكان التجار المستنيرون عند مرورهم بمناطق شلها الفتور والجهل ، نتيجة الخرافات والاضطهاد ، يجدون بين الحين والآخر مشاهد لشخصيات ثرية ، ويتأملون مبتهجين الروح المطبوعة على الحرية وذكاء طوارق هجار ، وأصالة وكرم أهل هوسة . ولا شك أن الكشف عن هذه الأصول الحضارية عمل نبيل ! فأي متعة أكبر من وصف تلك البلاد وأهلها ؟ وأين يمكن للفن ان يصقل وللفلسفة المستنيرة أن ترقي من الانسان وانسانيته ؟ وأين يمكن لروح التجارة أن تجد سبلاً أفضل لها ؟ وبينما نتأمل الاتصالات المستهدفة مع أفريقيا ، تتفتح لأذهاننا أنبل الرؤى ، متوقعين فوائد متبادلة في نشر الثقافة والفنون ؛ ومردوداً كاملاً للمغامرين المستنيرين من معلومات جديدة وتجارة رابحة ، ومواضيع جديدة للعلم ، توسع المعارف في كل فروعها .

إن المعلومات والأقوال التي تحدثنا عنها أثرت على عقول الأعضاء النابهين في الجمعية الافريقية ، وقدمت حافزاً وإثارة لحب الاستطلاع والمنفعة عند عملائها الذين يمكن ان تستخدمهم وتجندهم ، وكونت

مقدمة مناسبة لجهود الاكتشاف العملي ولتأكيد المزايا والفوائد التي تُجنى من ذلك .

ولذا ، أصبح لتصنيف المعلومات المتنوعة حول افريقيا قيمة فعلية وجوهرية كمقدمة للتحري ، وكحافز ومشجع وموجه للمغامرين .

ولكن ، وحتى بشكل مباشر ، يمكن للحكمة والحصافة انتزاع الحقيقة من بين الروايات والتقارير مهما تناقضت ، وانتزاع المفيد من الوثائق مهما تشابهت وبدت غير وافية .

وكثيراً ما يحرز العلم تقدماً فعالاً من خلال المواد المتفككة التي كدسها الجهل دون ترتيب ؛ فيقارن ويرتب ويصل موادها وأشكالها ؛ ويحدث استخدامات جديدة لها ، ويشتق معلومات جديدة منها ، ويضيف إلى رصيد الاختراعات والمعرفة الإنسانية قدراً معتبراً .

ولما كان من الضروري توضيح هذا الأمر بمثال واقعي ، يود الكاتب أن يشير إلى شروح وتعليقات الميجور (رائد) رينل على المعلومات والروايات التي تحدثنا عنها : لقد قدمت تلك التفصيلات لهذا الفيلسوف والجغرافي الحاد الذهن المرهف الإحساس مادة للبحث والاستنتاج ذات أهمية بالغة بالنسبة للعلم . فقام رينل بتحليل ومقارنة الأقوال والروايات حول الرحلات والأماكن فيما يتعلق بخطط دانفيل D'Anville والجغرافيين وبالرحلات الحديثة ؛ والحملات القديمة ؛ وتصورات الكتّاب القدماء ؛ وفوق كل ذلك فيما يتعلق بأبي التاريخ ، هيرودوت Herodutus ؛ ثم صحح رينل خارطة افريقيا بحصافة ودراية حوّلت التخمين إلى معرفة ؛ وأعطى ثقة لكل رحالة يريد أن يزور في المستقبل أبعد الأماكن وأقصاها.

ولو أن أعمال الجمعية توقفت عند هذا الحد واقتصر جهدها على تصنيف ما ذكرناه سابقاً ، وعلى تعليقات الرائد رينل ، لاعترف الناس لجهودها بالثراء والوفرة .

ولكن يوميات السيد بارك عن رحلاته الى النيجر ، ويوميات رحلة السيد هورنمان من القاهرة الى مرزق ستبين تماماً أن مكاسب الجمعية لم تعد محدودة في بقايا ومخلفات الاكتشاف .

ولم تتوقف جهود الجمعية حتى في زمن الحروب والثورات التي كانت منذ تأسيس الجمعية تنتشر طولاً وعرضاً حتى وصلت الى قلب افريقيا سنة ١٧٩٨ ؛ بل إن بعثات الجمعية تغلبت على كل المخاطر والصعوبات.
وينبغي ألا ننسى أن الرحالة (الذي يقدّم عمله اليوم الى الجمهور) مدين أيضاً إلى الروح التحررية المستنيرة التي توجه عبقرية الرجال العظام لرعاية الفنون والعلوم النافعة وسط أهوال الحرب ؛ واصدار الأوامر لمن تحت امرتهم من الجيوش لتحمُّل كل مضايقات الرسل والمبعوثين الذين يوجهون جهودهم نحو أهداف ذات منفعة واهتمام مشترك لأمم الأرض قاطبة ، حتى ولو كانوا من دولة معادية .

واستطاع هورنمان في ظل مثل تلك الرعاية والحماية من القائد بونابرت[١]، وبما قدمه له من جواز سفر خاص ، أن يصل سالماً إلى قافلة الحجاج القادمة من مكة ، وان يكمل رحلته من القاهرة إلى مملكة فزان التي كانت نقطة لقاء هامة للقوافل من كل مكان ، والتي كانت بالتالي مركزاً مناسباً لانطلاقه كي يكمل رحلاته إلى أبعد الاماكن في افريقيا .

وعندما قامت الجمعية بوضع الخطط لطرق سير بارك وهورنمان استفادت من المعلومات وطرق المواصلات السابقة كي تحقق النجاح لكل مغامرة . وقد ارتادت هذه البعثات طرقاً ستدخلها المغامرات التجارية قريباً، بل يجب عليها الدخول اليها . وفي هذا التسابق التجاري الجديد سيلحق

---

١ ربما كان حافز بونابرت على تشجيع هورنمان الاستفادة من مكتشفاته لصالح مطامعه التوسعية . (المعرب) .

العار بمنظماتنا الوطنية ، لو أدى تخلف دعم الحكومة لجمعيتنا إلى فقدان تجارتنا فرصة السبق لانشاء مصانع ومؤسسات تجارية في الخارج ، والسماح لأمم أخرى باغتصاب المواقع الممتازة التي ستترتادها وتحددها وتهيئها جهود المغامرات البريطانية العاملة تحت رعاية المعاهد والجمعيات الخاصة المستنيرة [١] .

وقد فتحت مكتشفات السيد بارك منفذاً وباباً لكل أمة تجارية كي تدخل وتعمل في التجارة من أقصى شرقي افريقيا إلى أقصى غربها .

وليست الأجزاء الصالحة للملاحة من نهري غمبية والنيجر بعيدة ، بل إن تسهيلات تجارية عظيمة يمكن تحقيقها من إقامة محطات ونقاط اتصال أولية . وهناك حالياً حركة مرور وانتقال معتبرة يقوم بها المواطنون للمتاجرة بريش النعام والعقاقير والعاج والذهب حتى بدون مثل هذه المحطات. وعندما تتسع وتمتد نشاطات المؤسسات البريطانية ، لا نستطيع تصور الحد الذي سيصل اليه الطلب على منتجات بلادنا والتي ستصل الى مناطق نائية تزدحم بالسكان في قلب المناطق التي يوجد بها الذهب . وعندها يجلب الذهب بشراهة ونجاح ، وبكميات تسمح بتداوله وشيوعه وطلبه من قبل الناس كلهم .

وقد تقدمت الجمعية فعلاً إلى الحكومة تزين لها هذا الأمر ، وتأمل أن تنظر الى الموضوع بما يناسب أهميته وفوائده .

وعندما تصبح الممرات التي سلكها بارك أو هورنمان طرقاً واسعة تعج بالتجار ، فستظهر بعد ذلك فوائد من نوع آخر ، إذ ينفتح ميدان

---

٢ يوضح هذه النزعة الاستعمارية الاستغلالية عند الأوروبيين منذ بداية عصر الاكتشافات .
(المعرب)

العمل لعالم الطبيعة والفيلسوف من أجل نشر الحضارة وإثراء المعرفة والسعادة الانسانية .

وعندما تنظر الجمعية وتتأمل مثل هذه الانجازات ، لا يستطيع أعضاؤها إلا أن ينظروا بابتهاج إلى ساعة تكوينها ، وسيقدمون راضين ملخصاً بوسائلها وتقدمها نحو إنجاز أعمالها .

فقد وظفت من بين الذين أرسلوا لها التقارير والمعلومات حول افريقيا وسكانها السيد ليديارد والسيد لوكاس بصفة خاصة ، للمضي إلى قلب افريقيا للتحقق من صدق هذه الأقوال وتصحيحها وتوضيحها بالمسح الفعلي ، وتقديم أي خطة أخرى لتحويل معرفتهم الى معلومات وبيانات.

ولقد توفي السيد ليديارد في القاهرة قبل أن تبدأ روحه المتلهفة لتحقيق هدفها ؛ أما السيد لوكاس فقد عاقته المصاعب والأخطار عن اجتياز مصراته التي تبعد مسيرة سبعة أيام عن طرابلس ؛ وفيها جمع معلومات من الشريف محمد ومن تجار فزان ، ثم رجع إلى طرابلس ومنها إلى انجلترا .

ولكن الجمعية ظلت محتفظة بروحها ومعنوياتها التي ترتكز على مبادىء صلبة لتحقيق أهداف نبيلة ، ولم يرعبها موت مبعوث أو فشل آخر .

وقد فتشت عن رحالة جديد وعينته ليسلك طريقاً جديداً . فبينما كان على ليديارد اختراق القارة من الشرق ، وعلى لوكاس البدء من من الشمال ، عينت الرائد هوتون سنة ١٧٩٠ للابحار من مصب نهر غمبية وشق البلد من الغرب إلى الشرق . وبدأ رحلته فوراً وسار مع غمبية مسافة ٩٠٠ ميل ، ثم تقدم إلى بامبوك وإلى مملكة كاسون المجاورة ، ولكن رحلته انتهت في سبتمبر سنة ١٧٩١ بانتهاء حياته قرب مدينة جارّه. واستطاع السيد بارك ، الذي دخل في خدمة الجمعية سنة ١٧٩٥ ، أن

يتتبع بنجاح أكبر خطٍّ سير الرائد هوتون ويتجاوزه إلى ضفاف النيجر حتى مدينة سيغو ثم سللة، التي تعتبر أول حلقة تلك السلسلة العظيمة من المدن التجارية الفاصلة لصحارى افريقيا الجنوبية عن الشمالية منها ؛ والتي كان وجودها (المدن) في القرون الماضية يعتبر خيالاً أكثر منه أمراً واقعياً ؛ واتُخذت موضوعاً لفلسفة رومانسية في غيبة المعلومات الموثوقة .

وقد أرسلت معلومات السيد بارك إلى الجمعية في اجتماعها السنوي من مايو سنة ١٧٩٨ . لذا فإن سنة ١٧٩٨ ستبقى تذكر على أنها المرحلة الجديدة التي أعلنت فيها الجمعية عن سير مجرى النيجر من الشرق إلى الغرب ، وأكد بعد مضي ٢٣٠٠ سنة شهادة النمونيين وتقارير هيرودوت التي خالفتها أقوال كتّاب قدماء ومحدثين . ثم ان المستوطنات المقامة على ضفاف النيجر الخصبة ، كما عرف بانكز من تحرياته هناك ، تؤكد الأهمية التجارية لها ، الأمر الذي يحتاج إلى المزيد من الأبحاث . وقد أصبح عمل الجمعية الآن سهلاً وإنجازاتها محققة .

ومن الانصاف القول بأن السيد بانكز لم يحدد فقط مسالك البلد فقط ، بل انه حدد أيضاً المواقع السكانية ، وحدد المناطق السكانية التي تقع على الحزام الأرضي العظيم الذي يشطر افريقيا من الغرب إلى الشرق ، ولاحظ كذلك مميزات البربر والزنوج من حيث العادات والنفسيات وأنواع حكوماتهم . وهو بهذا قدم للجمعية ، معلومات تعتبر مناسبة بل وضرورية لتأمين نجاح مبعوثيها في المستقبل .. وقد وضح الطريق إلى مناطق ومدن ذات أهمية قصوى ، وبيّن في نفس الوقت وسائل تأمين الدخول ونيل الاستقبال الودي بين الأهالي .

لقد استفادت الجمعية من ذلك ، وقدم السيد هورنمان درساً مفيداً وكاملاً عن حملة هي موضوع كتابنا الحالي . ولكن الناشر يمتنع عن التصريح بأي شيء حول تقدم الرحالة فيما وراء ما تبينه اليوميات ، ذلك

لأن وقت التوقع والتخمين قد انتهى . والواقع ان من الغباء ان نجازف بالتخمين في هذا الوقت لنقرر أمراً ستحدده التجربة العملية فيما بعد (لم يكن قد عرف بعد مصير هورنمان ومدى ما أنجزه).

أما وقد انشئت الجمعية بهدف استكشاف دواخل افريقيا ، فمن الجدير بها أن تمضي لتسلط الضوء القوي وتكشف كل ما كانت تدور حوله الشائعات ، وكل ما يمكن أن يتوقعه المرء ؛ رغم أن التقارير العامة والاستنتاجات الساذجة كانت تناسب حب الاستطلاع لكي تثير روح المغامرة وتعطي خطوات الجمعية الاولى واهدافها قفزة كبيرة .

ولكن هذه الحوافز لم تعد ضرورية ؛ ذلك لأن المعلومات التي تم التوصل اليها لا تحتاج إلا للدقة والإحكام لتكون دليلاً ومرشداً لنجاح آخر.

ان الجمعية ثابتة على هدفها ، متأكدة من مقاصدها ومن وسائل تحقيقها .

ولن يندفع رحالتها في المستقبل بحب الاستطلاع المتحمس دون روية وتخطيط ، ولن يترددوا كمن يسير في الظلام ، ولكنهم سيتقدمون ، منظمين واعين ، وبروح تعززها المعرفة والحذر ، نحو أهداف محددة وغايات معينة .

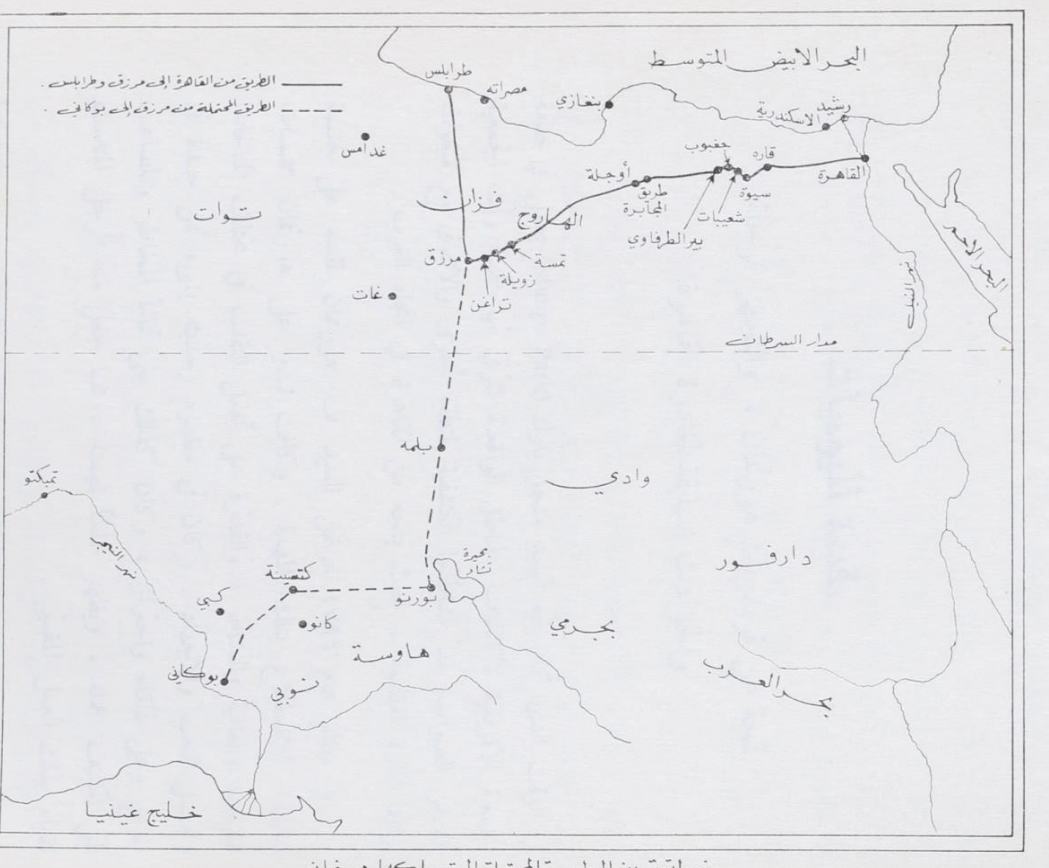
ولكن المغامر ربما يفشل ، غير أن فشله ان حدث فإنما يرجع الى اخفاق موارد الجمعية ومصادرها المالية ؛ ويعني ذلك في هذا البلد افتراءً على كرم واخلاص ابنائه . غير اننا ينبغي ان نتذكر ان مدى التزامات الجمعية إنما يعتمد على مدى إمكاناتها .

ان مواردنا حالياً تناسب أبحاثنا ، ولكن توسيع نشاطنا للقيام بأبحاث تتسم بالمغامرة يتطلب موارد تزيد كثيراً عما يقدر اعضاء الجمعية والتبرعات تقديمه لها ، مما يعتبر ضرورياً لتحقيق المكاسب الوطنية ، وتحويل تجربة الجمعية الناجحة للصالح العام .

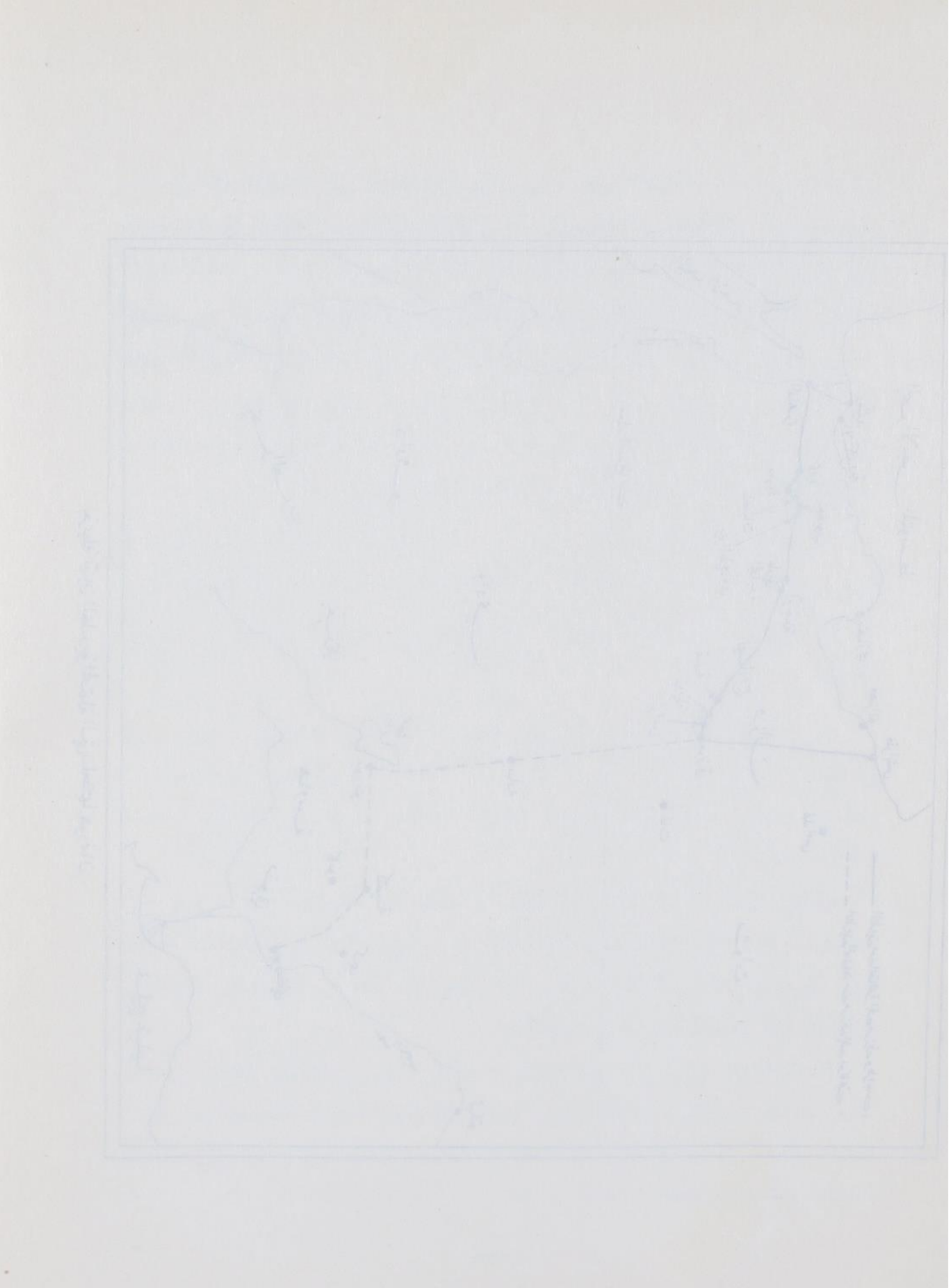
على ان الجمعية لن تهبط بنفسها الى مستوى التسول ، وهي ليست في حاجة ملحة لذلك : ولكنها ستكتفي ، مدفوعة بنجاحها ، كي توضح لأبناء بلدها ، أنها بالرعاية والمساعدة المناسبة وبالوسائل المعينة على توسيع أبحاثها ، ستحقق انجازات تعود بالخير على بريطانيا العظمى وعلى افريقيا وعلى العالم أجمع .

وليم ينج

سكرتير الجمعية الافريقية



خريطة تبين الطريق المحتملة التي سلكها هورنمان



مقدمة اليوميات

لمحة عن فريدريك هورنمان ، والتجهز للرحلة والحوادث السابقة لمغادرة القاهرة

في الوقت الذي كان فيه السيد منجو بارك (Mungo Park) يعمل في خدمة الجمعية الافريقية لاكتشاف المناطق الواقعـة شرقي نهر غمبية رأت الجمعية أن من الصواب مدّ نشاطاتها الكشفية لمنطقة أخرى والاتفاق مع مبعوث يرتاد القارة العظيمة ، بحيث يتجه من القاهرة في اتجاه الغرب .

وفي مطلع عام ١٧٩٦ عرض السيد ف. هورنمان نفسه على لجنـة الجمعية للاضطلاع بتلك المهمة . وكانت تبدو على هورنمان سمـات الشباب والعافية والنشاط ، والقدرة على تحمل التقلب في مختلف المناخات وتحمـل التعب والاجهاد . وكان في مظهره وحديثه ينبىء عن حـدة في المزاج وعلى ذكاء واحتراز ، وكان كذلك يعي تماماً المخاطر والمصاعب التي تكتنف عمله ، ويظهر حماساً لمهمته ، مما جعل منه الرجل المناسب للقيام بذلك العمل المضني .

لذا تقبلت الجمعية عرضه لخدمتها ، وعندما لاحظت عنده استعداداً

لتقبل العلم أرسلته على نفقة الجمعية الى جوتنجن (Gottingen) (بألمانيا) ليدرس اللغة العربية بصفة خاصة ، والعلوم المناسبة لمهمته بصفة عامة ، مما يجعل رحلاته المقبلة أكثر متعة وفائدة لمستخدميه وللجمهور .

وتابع هورنمان دراساته المطلوبة عدة أشهر باجتهاد عظيم تحت اشراف الاساتذة : بلومنباخ وهيرن وهوفمان ، ثم رجع إلى انجلترا في مايو من سنة ١٧٩٧ يحمل التوجيهات المناسبة حول رحلته المرتقبة . وفي لندن قُدِّم للتعرف على أعضاء الجمعية في اجتماع عام لها ، تمت الموافقة فيه على عمله ، وطلب منه التوجه إلى مصر بالطرق المناسبة . ومنح كذلك جواز سفر فرنسي يخوله حرية المرور بفرنسا ، ثم غادر لندن فعلاً في يوليو سنة ١٧٩٧ متجهاً إلى باريس .

وزود قبل مغادرته برسائل تعريف لعدة أشخاص لهم مراكزهم الأدبية في العاصمة الفرنسية ، واستقبل فيها استقبالاً ودياً يناسب الاهتمام الذي كانت تحظى به مهمته في كل مكان . وقد دعي لحضور اجتماع المعهد الوطني ، وقدم له الأعضاء البارزون فيه المساعدة والرعاية والتشجيع : فزوده السيد لالاند (Lalande) بنسخ من مذكراته عن افريقيا ، وأوصى به السيد بروسونية القنصل الفرنسي في موجادور ، والذي تعرف عن طريقه على شخصية تركية من مواطني طرابلس كان حينها في باريس . وشارك هذا المسلم هورنمان في وضع خطط أسفاره بروح متحررة واهتمام عظيم وتحمس لنجاحه ، الأمر الذي لم يكن يُتوقع من مثل تلك الشخصية . وأعطى الطرابلسي هورنمان رسائل تعريف ترشحه بحماس لصداقة ورعاية عدة تجار مسلمين بالقاهرة ، ممن كانوا يتاجرون مع أشخاص من أقاصي افريقيا ، وزوده كذلك بنصائحه وارشاداته الخاصة فيما يتعلق برحلته .

وغادر هورنمان مدينة باريس في أغسطس متجهاً إلى مرسيليا حيث استمر فيها بقية الشهر ، ووصل الاسكندرية في منتصف سبتمبر . ولم

يستقر فيها سوى بضعة أيام ثم سار إلى القاهرة حيث كان ينوي الاقامة فترة من الزمن ليدرس لغة وعادات المغاربة ،أو عرب المغرب ، الذين يختلط بهم في رحلاته المقبلة . وتوضح رسالته تقدمه هناك أصدق توضيح .

(ترجمة الرسالة)

القاهرة في ٣١ أغسطس ١٧٩٨

سيدي :

ذكرت في رسالتي الأخيرة عن عزمي مغادرة القاهرة في أواخر شهر مايو . ولكن الطاعون بدأ ينتشر في شهل ابريل ، ولذا أصبح من المناسب والضرورة الوقائية ، لا ان أؤجل رحلتي فقط بل أن أغلق باب منزلي . ولقد كاد حماسي لالتزامي الذي التزمت به يدفعني لاختراق هـذا السجن ومغادرة المدينة لألتحق بالتجار في مكان تجمعهم حيث ينطلقون إلى فزان مباشرة ، لو لم تمنعني مشكلات نشبت عن صعوبة في إنجاز المعاملة المالية اللازمة لي .

وحالما زال الوباء خرجت وجددت معرفتي مع كثير من أفراد القافلة الذين ظلوا في المدينة يتوقعون عودة أفراد آخرين من مكة : وقد ساعدتني مؤسسة تجارية فرنسية ليس لي عندهـا اعتمادات مالية ، ولكن من قبيل الصداقة والحماس الخاص ، فقدمت لي ما أحتاج من النقود ، وبذا استطعت التجهز للرحلة ، وبدأت السير مع القافلة حالما تهيـأنا للرحيل . ولكن كل جهودنا توقفت وشلت بوصول الفرنسيين إلى ساحـــل مصر . وسرعان ما تفرق أفراد القافلة القادمون من القاهرة ، أما القادمون من مكة فـلم يكونوا قد وصلوا بعد . ثم القي القبض علي أنا وعلى الاوروبيين الآخرين

وأودعنا القلعة كمكان آمن يقينا نقمة الجمهور وغضبه ، وبقينا فيها حتى وصول الفرنسيين للقاهرة .

وسرعان ما تعرفت على اثنين من العلماء المصاحبين للحملة الفرنسية ، وهما بيرتوليي (Berthollet) ومونج [1] (Monge) ، فأخرجاني من القلعة وقدماني إلى القائد الأعلى الذي استقبلني بكل ود وتقدير ، فهو غني عن التعريف كرجل يقدر العلم والعلماء . وقد وعدني بالحماية ، وعرض علي المال وكل ما احتاجه لاداء مهمتي ، وأمر بتحضير جوازات السفر الضرورية لي .

ولم أضع وقتاً في البحث عن اصدقائي من تجار فزان وتجديد صلتي بهم . فقد عادوا إلى المدينة فرداً فرداً عندما حل الهدوء في البلد ، إلى أن تجمع الكل ثانية ، وقد مضى الآن خمسة عشر يوماً على بداية التجهز للسفر ، الذي تحدد فعلاً بعد غد .

إن الذين يرتبطون للقيام بمهمة غير عادية لا بد أن يفكروا في وسائل خاصة بل ربما تكون غريبة كشرط لازم لنجاح مهمتهم . وخطتي التي قررت اتباعها في هذا الشأن طيلة رحلتي هي بسيطة وسهلة ، وهي بالاختصار : « أن اسافر كتاجر مسلم من تجار القافلة » . وانني واثق من قدرتي على السفر تحت ستار هذه الشخصية آمناً مثل رعايا البلد .

ويعرف الكثير من أفراد القافلة الذين ذهبوا إلى مكة أن هنالك الكثير من المسلمين الصالحين من البلدان المختلفة التي لا تتكلم العربية ، والتي تختلف طباعها ومشاربها . وعندما اتدرب على بعض الطقوس الدينية

---

[1] الأول منهما عالم طبيعي والآخر عالم في الهندسة ، وهما من بين الذين صاحبوا بونابرت لإرساء الثقافة الفرنسية في مصر .

والصلاة لن أجد صعوبـة في الانتقال كمسلم ، لأن الظهور بمظهر المسلم يبعد خطر الريبة والشك .

ويبدو ان السفر كمسيحي لن يصبح أمراً عملياً قبل مضي خمس سنوات على الأقل ، لأن من الصعب تصور مدى عمق وقوة الانطباع الذي تركته الحملة الفرنسية في أذهـان الحجاج الذاهبين إلى مكة والعائدين منهـا ، والذين سيحملون في نفوسهم ، عندما يتفرقون إلى بلدانهم الكثيرة ، حقداً على المسيحيين ، في طول البلاد وعرضها ، وفي قلب افريقيا .

وإذا وجد اعتراض على سفري كتاجر بحجـة انني أعرض مصيري للخطر ، كما حدث للرائد هوتون عندما سافر كتاجر ، فإنني أرد على ذلك قـائلاً : « ان السفر كتاجر مسلم يعني انني لن اسافر وحيداً ، وانني سأكون مع أفراد القافلة كواحد منهم » .

أما فيما يتعلق بالأدوات الفلكية فسأبذل عنايـة خاصة لعدم اكتشاف أحد لها أثناء استعمالها ، ولو حدث ان جذبت انتباه أحد فسيكون الجواب سهلاً على ذلك : « إنها أدوات للبيع » ؛ ولا خوف أبداً من اغتصابها مني . واود أن أبين ان زملائي يقدرون قيمـة الذهب أكثر مني عـلى الأقل ، فتجار فزان رجـال ثراء وأمانـة ، ولكنهم مسلمون متعصبون لدينهم .

انني لم أحدد بعد خطتي بالنسبة لبقية الرحلة لدواخل أفريقيا ، ولكنني تعرفت على رجل سبق أن ذهب إلى بورنو وكشنة ، وهو مكان عرفت من كل الأخبار التي جمعتها انـه يستحق اهتمامي المباشر بعـد الوصول إلى فزان .

وأتوقع بلوغ فزان في بدايـة شهر نوفمبر ، وقد عزمت على التوجـه في العام القادم إلى أغادس وكشنة ، حيث امكث فيهما عشرة أشهر للاكتشاف

والتجوال ، ثم أعود عن طريق مكة أو سنجابيا . ولو اضطرتني الامور للعودة إلى طرابلس ، فلن يعني ذلك اكمال رحلتي ، ولكنني (بموافقة الجمعية) سأظل مستعداً للقيام بمهمة أخرى .

سأكتب ثانية من فزان إذا استطعت ذلك دون ان اتعرض للخطر ؛ وأفضل خطة لذلك هي ربط حزمة من البضاعة مع رسالة عادية باللغة العربية ، بحيث يكون ذلك تغطية لحقيقة الأمر .

أرجو أن تكتبوا إلى القنصل الانجليزي في طرابلس كي لا يستفسر عني من أي تاجر من فزان ، وخاصة عندما يحمل أي شيء مني موجه اليكم ، لأن هؤلاء الناس ذوو طبيعة تتسم بالغيرة الشديدة والمزاج الفضولي ، وربما يؤدي أي استفسار عني من جانب أحد المسيحيين إلى اثارة ألف ريبة ، وربما يكون ذلك ذا نتائج مدمرة لي .

وإذا لم تسمعوا أي خبر مني في هذه السنوات الثلاث ، فلا تسألوا أو تتحروا عني . لأنني في ظل هذه الاحتياطات ، لن أواجه أي خطر حينما أسافر كتاجر مسلم ، ولكن الخطر الذي أواجهه هو ما يتولد عن ظروف المناخ ومتاعب السفر في هذه البلدان ، وهذا ما أنا واثق من التغلب عليه بقوة جسدي وشجاعتي وحالتي الذهنية المناسبة .

ولم يبق لي إلا تزكية الرجل الذي ذكرته في رسالة سابقة للجمعية . وقد تقابلت مع الرجل الذي نحن بصدده ، وهو جوزيف فرندنبرج Joseph Frendenburgh ، المولود في المانيا ، عشية اليوم الذي كان ينوي السفر فيه إلى بلده . واتفقت معه ليعمل كمترجم لي ، وقد سر بهذه الوظيفة . وعرض الاستمرار معي ومرافقتي في حملتي هذه . وكان قد أجبر قبل عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة على اعتناق الاسلام ، وسافر إلى مكة ثلاث مرات ، ويتحدث العربية والتركية بطلاقة ، وهو باختصار الرجل المناسب لي تماماً . وأرى ان ارتباطي معه سيؤكد على

شخصيتي المنتحلة ويمنحني ثقة الآخرين ، والواقع انني سأجد صعوبة بدونه في الاستمرار في رحلتي دون اعتناقي للاسلام. وقد مضى على معرفتي به ستة أشهر ، وأرى أن اعتمادي عليه دون غيره يبعد عني أي خوف من حوادث المسافرين الذين يسلبون وينهبون من قبل خدمهم .

وسأوكل اليه مهمة العناية بجمالي وخيلي ، (لأننا نحن التجــار نسير مسلحين في القافلة ، راكبين على الجياد) ، وهو سيعتني أيضاً بتجارتي، وبذا أتفرغ لأبحاثي والاهتمام بالتزامي الخاص. وليست مطالب هذا الرجل باهظة التكاليف ، وأرجو من الجمعية الموافقة على خدمته ولا شك انه سيقوم في حالة وفاتي بحفظ يومياتي وأوراقي وتوصيلها لانجلترا .

لقد كنت في حيرة حول وسيلة إرسال هذه الرسالة ، ولكن القائد بونابرت تلطف بالاهتمام بتوصيلها سالمة .

آمل أن أبعث برسالتي التالية من فزان ، وأن أتمكن بعد ثلاث سنوات من تقديم تقرير وبيانات عن دواخل افريقيا .

المخلص لكم
فردريك هورنمان

الى السيد ادواردز ، سكرتير الجمعية ،
المكلف بأمر استكشاف دواخل افريقيا .

* * *

وقد نقلت الرسالة السابقة إلى الجمعية[1] الافريقية ، مختومـة بخـاتم بونابرت ، الذي تعهد على نفسه ، بالاضافة الى الدلائل الأخرى عـلى حبه وحمايته لمهمة هورنمان ، بالاعتناء شخصياً بايصال رسائله ، كما ذكر سابقاً .

وتبتدىء يوميات هورنمان بعد خمسة أيام من كتابة الرسالة السابقة . وكان يكتبها هو بالالمانية ، وتنقل للجمعية بنفس اللغة . ثم كان يترجمها ، تحت اشرافها ، مواطن ألماني ، يجيد اللغة الانجليزية إلى درجة الاحتفاظ بروح النص الأصلي بصدق ووضوح . ومع ذلك ظهرت الحاجة إلى تصحيح بعض المصطلحات الأجنبية والأسلوب . وعندما قامت الجمعية بهذا الواجب حافظت على بقاء الوصف والملاحظات الأصلية والمعاني المحددة التي كتبها الرحالة ، وحافظت كذلك على روح النص وعلى سهولة السرد التي تميز يومياته . أما بالنسبة للأصل الألماني فإن الترجمة الانجليزية هذه تبدو حرفية بمقدار ما يسمح به الخلاف بين المصطلحات والسياق في اللغتين .

البَابُ الأَوَّل

من القاهرة الى اوجلة

الفَصـلُ الأوّل

الى ام الصغير

حدد تجار اوجلة (Augila) مكان تجمعهم قرب قرية كردسة القريبة مـــن القاهرة حيث التحقت بهم في الخامس مـن سبتمبر سنة ١٧٩٨ . وعندما غادرنا المكان ذلك اليوم وصلنا بعد ساعة القافلة الرئيسية التي ترجع سنوياً من مكة ، مارة بالقاهرة وفزان ، إلى بلدان غربـي افريقيا ، والتي كانت في انتظارنا بقرية صغيرة تسمى أبو رواس [١] . ولكننا لم نندمج في القافلة رأساً بـــل انتظرنا على بعد مسافة قريبة منها وخيمنا حتى الصباح عندما استيقظنا على صوت طبل شيخ القافلة ، إيذاناً ببدء المسير قبـــل شروق الشمس .

---

١ أبو رواش وكردسة قريتان غربي القاهرة على الطريق المتجه من الجيزة نحو الشمال الغربي .

الواقع انني لم أكن استخف بمشاق الرحلة ومتاعبها ، بل كنت أتوقع أنا بصفة خاصة الكثير من ذلك ، لأنني لم أسافر مع قافلة من قبل ، وكذلك لقلة معرفتي بعادات المسافرين .. وقد سرنا من الفجر إلى الظهر دون أن يبدو ما يدل على أن القوم سيتوقفون للراحة أو الطعام ، ثم رأيت كبار التجار وأغنياءهم يقضمون الخبز اليابس وبعض البصل اثناء السير ، وعلمت بعدها ان ليس من عادة القافلة التوقف أثناء النهار وفك حمولة الجمال من أجل وجبة من الطعام ، إلا عندما تحتم ذلك الضرورة الملحة . وقد اسعفني تلك المرة كرم بعض العرب الذين كانوا يركبون قربي فدعوني لأشاركهم طعامهم .

وحالما توارت الشمس بالحجاب أعطى شيخنا اشارة التوقف ، فتوقفنا ونصبنا الخيام ، وبدأنا نعد طعام العشاء .

كان ترجماني يصلح حتى في اوروبا كطاهٍ جيد ، فسرعان ما شرع يجهز عشاءً ممتازاً من بقايا ما زودنا به اصدقاؤنا في القاهرة من طعام . ولكن ، عندما لاحظ عجوز عربي من أُوجلة انشغاله وحده بتجهيز الأكل دون مشاركة مني ، دنا قائلاً : « انك شاب ولا تشارك في اعداد الطعام الذي ستأكل منه ؛ تلك عادة ربما وجدت في بلاد الكفار لا في بلادنا ، وخاصة في السفر . إننا نشكر الله على اننا لا نعتمد على غيرنا في هذه الصحراء ، كما هو الحال عند هؤلاء الحجاج المساكين ، ولكننا نأكل ونشرب مما تقدمه أيدينا . وأنت ان لم تفعل ذلك سيقل قدرك وتقل قيمتك عن قيمة المرأة ، وسيظن الكثير أنهم محقون في سلبك كل ما ملكت يداك ، ما دمت لا تستحق ذلك . (واضاف متهكماً) ربما كنت تحمل قدراً كبيراً من المال تدفع منه لهؤلاء الرجال أجراً عالياً » . ولم يذهب هذا الاحتجاج سدى ، فسرعان ما شرعت أساعد في كل عمل اطيقه ، ولذا أصبحت احظى بتقدير رفاقي ، ولم أعد اعتبر بينهم ضعيفاً أو كسولاً .

وبدأنا في صبيحة اليوم التالي سيرنا مبكرين ، فوصلنا بعد أربع ساعات وادي النطرون . وعندما صدرت اشارة التوقف للتزود بالماء العذب اقبلت من بعيد قوة من البدو تبث الرعب في قافلتنا . ولكن شيخنا كان يتمتع بثقة اتباعه واجلالهم لما عرف عنه من شجاعة ورجاحة عقل وتوقير ، فأمرنا بالشروع في احتلال موقع الماء ، وتقدم هو نفسه مع نحو من عشرين رجلاً من العرب والترك لاستطلاع الأمر ، ولكن البدو تراجعوا واختفوا عن الأنظار . ثم قضينا من الوقت ما يكفي لاعداد الطعام وملء القرب بالماء ، ولم نعتبر ذلك المكان مناسباً للمبيت فاستأنفنا السير عند الساعة الرابعة ، ثم توقفنا حوالي الثامنة مساءً وخيمنا عند أسفل تل رملي غير منتظم ، دون ان نشعل ناراً ، متجنبين كل ما من شأنه أن يدل على مكاننا .

وفي اليوم التالي ، الثامن من سبتمبر دخلنا الصحراء التي يمكن ان تعتبر حدود مصر ، وبعد مسيرة ثلاث عشرة ساعة خيمنا فوق رقعة من الأرض يسميها العرب (Muhabag) .

وكانت رحلتنا في اليوم التالي أقل ارهاقاً ، إذ وصلنا في غضون أربع ساعات ونصف المغرة ، وهو مكان يشتهر بمياهه ويقع على حافة واد خصيب .

والجدير بالذكر ان الماء اللازم لاستعمال القافلة يحمل في قرب من جلد الماعز الغير مشقوقة من وسطها ، إذ تسلخ بكاملها قطعة واحدة قدر الامكان . وتعتبر المصنوعة منها في السودان أمتن الأنواع وأجودها ، ويمكن حفظ الماء فيها خمسة أيام دون أن يتغير طعمه ، أما القرب المصنوعة من أنواع رديئة فإن ماءها يتغير طعمه ويكتسب رائحة الجلد في اليوم الثاني . ولكي تبقى الجلود مرنة تدهن من الداخل بالزبد ، أما إذا دهنت بالزيت ، كما يفعل العرب ، فإن طعمه يتغير ، ولكن

العرب يعتادون ذلك ولا يشعرون بتغيره .

وفي اليوم السادس عانت القافلة من رحلة أخرى صعبة وشاقة بمسيرتنا اثنتي عشرة ساعة دون توقف . وبينما كنا نقترب من نهاية رحلة ذلك اليوم مرض حصان أحد العرب ، وكان قريباً مني ولم يتمكن من السير بسرعة القافلة ، لذا بقيت في المؤخرة لرعايته وتقديم المساعدة الممكنة له. وعندما أدركنا القافلة بعد أن حطت رحالها ، أسرع العربي بإرسال خادمه يحمل لي قطعتين من قديد لحم الجمل مع التحية والرجاء بقبول الهدية كرد لبعض الجميل . وسرعان ما وجدت نفسي محاطاً بعدد من العرب الفقراء ينظرون الى اللحم بشره ، وعندما قسمته بينهم بدا عليهم العجب لسرعة تنازلي عن اللحم لهم ، الأمر الذي اعتبروه كرماً عظيماً .

إن الظروف والأحوال البسيطة العادية كثيراً ما توضح العادات وتميز الأمم ؛ فطريقة التجهز ووسائل التغذية التي يستخدمها العرب في السفر عبر هذه الصحاري ربما تشكل موضوعاً يثير الفضول ويفيد من يريد القيام بالسفر فيها .

عندما يشرع العربي في رحلته يحمل مقداراً من الدقيق والكسكسي والبصل وشحم الضأن والزيت أو الزبد ؛ ويضيف الأغنياء إلى ذلك قدراً من الخبز اليابس والقديد . وحالما تتوقف الجمال وتفك حمولتها يبدأ السائقون والعبيد بتهيئة حفر صغيرة لايقاد النار فيها ، ثم يتجهون لجمع الحطب وثلاثة قطع من الحجارة توضع حول الحفرة ليرتكز عليها الاناء . وعندما يوضع الاناء النحاسي فوق النار يترك حتى يغلي الماء ، وتنقضي هذه الفترة في النقاش ثم في تحضير ما يحتاج اليه المسافر في ذلك اليوم من طعام . والوجبة العادية هي « العصيدة » ، وهي طعام نشوي لين يقدم في اناء من النحاس . ويستخدم هذا الاناء أيضاً لتقديم الماء للجمل اقتصاداً في حمل المتاع والآنية . وعندما يوضع هذا الطعام على المائدة يصب عليه

الحساء. ويتكون طعام العشاء في اوقـات اخرى مـن دقيق يعجن حتى يتحول إلى عجينة قوية وتقسم إلى قطع صغيرة تغلي في الماء وتتحول إلى نوع من الزلابية. وهناك وجبة أفضل مما سبق ، تحضر من القديد المغلي مع شحم الضأن والبصل المقطع ، والخبز الجـاف المكسر والملح ومقدار وافر من الفلفل. ويستخرج اللحم عند العشاء ويقدم للسيد ، ويعتبر ما تبقى طعاماً لاتباعـه . وإذا ذبح أحد الجمال يباع ليكون طعامـاً لسائقي الجمال والعبيد ، ولأصدقـاء صاحب الجمل الأفضليـة في شراء اللحم ، ويأتي كل عبد بعد تقسيمه لأخذ نصيبه منـه . ولا يهمل أي جزء من لحم الحيوان يمكن ان تزدرده الأسنان ، وحتى العظام نفسها تتداولها أيدي وأفواه كثيرة قبل أن ترمى . ويستفاد من الجلد لصنع النعال ومـن الوبر لغزل الخيوط.

ولكن لا يسمح في كـل مناسبة بتحضير الطعام ، وكذلك لا تتوفر المواد دائماً لتحضيره وإعداده . لذا يحمل المسافر ، توقعاً لمثل هـذه الحالات الملحّة ، طعاماً يسمى « الزميطة » ، يتكون مـن الشعير المغلي في الماء حتى الانتفاخ ، ثم يحفظ في الشمس ، ويعاد تجفيفه على النار ، ثم يطحن ويخلط مع الملح والفلفل وبذور الكراوية ويوضع في وعاء جلدي. وعندما يراد تقديمه للمائدة يعجن بالماء الى درجة تحفظ قوامه ، ثم يقدم مع الزبد أو الزيت. ويمكن إضافة التمر اليه إذا زيد ماؤه . هذا هـو طعام المسافر إذا ندر الوقود أو الماء وتعذر غلي شيء ما . بل كثيراً ما كنا نواصل السفر أياماً دون تناول طعام سوى هذا الطعام النشوي اللين البارد المخلوط بقليل من التمر. ويعتبر البصل والفلفل الاسباني الأحمر هما التوابل الوحيدة مع كل وجبه ، بالاضافة الى الملح .

وبعد مسيرة أربع ساعات في اليوم السابع وصلنا مكاناً يسمى بلجورادك أو جاهودي ، ويعني ذلك ان الماء رديء أو أن المياه التالية لا توجـد إلا على بعد مسافة كبيرة .

وأصبحنا نسير في الثلاثة أيام التالية ليلاً ، وكان مجموع ما سرناه فيها أربعين ساعة ؛ وصلنا في اليوم الأول منها (التاسع منذ مغادرتنا لضواحي القاهرة) سلسلة الجبال التي تحد الصحراء التي اجتزناها. وعندما صعدنا هذه الجبال في اليوم العاشر رأيت السهل على قمتها يتكون من الملح المنتشر على مساحة واسعة من سطحه ، تمتد في إحدى الجهات الى بعد لا تدركه العين : أما عرضها فقد قدرته بعدة أميال . وكانت كتل الملح المتقاربة من بعضها البعض تأخذ لون الرمل وتكسب هذا السهل الفسيح مظهر حقل تمت حراثته منذ وقت قريب .

واكتشفت في أعلى مكان بهذا السهل الملحي ، عند وسطه تقريباً ، نبعاً من الماء ، وحينها تذكرت رحلة هيرودوت التي ذكر فيها وجود ينابيع من الماء العذب على التلال الملحية . فاتجهت الى حافة السهل ووجدتها تنتهي بالملح أيضاً . وعندما تذوق بعض الحجاج المرافقين لي طعم الماء وجدوه ممزوجاً بمادة ملحية تجعل شربه أمراً لا يطاق .

وفي اليوم الحادي عشر (١٥ سبتمبر) وصلنا مكاناً مأهولا بالسكان ، ثم بلغنا بعد مسيرة خمس ساعات قرية ام الصغير

الفَصْلُ الثَاني

مشاهدات في الصحراء من وادي النطرون الى جبال أم الصغير

تشكل الصحراء حداً طبيعياً لمصر ؛ فتمتد غرباً من وادي النطرون إلى جبال أم الصغير ؛ وفي الشمال يحد السهل القاحل الموحش سلسلة من التلال العالية ، ظلت تصاحب انظارنا طيلة سفرنا ؛ أما في الجنوب فيمكن للمسافر ان يسير أياماً عديدة ورتيبة في تلك المناطق . والصحراء نفسها تتكون تربتها من رمال سليكونية رخوة ، إذا عصفت بها ريح الشمال سببت للانسان ألماً أشد مما يسببه لسكان شمال اوروبا البرد الشديد الكثيف .

وتكثر في هذه الرمال الواسعة أخشاب متحجرة ذات أشكال وأحجام متنوعة : فترى أحياناً جذوع أشجار كاملة محيطها اثنا عشر قدماً أو أكثر : وأحياناً مجرد جذوع وأغصان لا يزيد قطرها عن ربع بوصة ؛ وأحياناً أخرى مجرد قطع من لحاء الشجر . والملاحظ أن الكثير من السيقان ما زالت تحتفظ بأغصانها المتفرعة عنها ، وان الكثير من الخشب لم يعانِ من تغيرات كثيرة . ولكن الأجزاء الداخلية من بعض الأخشاب قد

تحجرت بشكل لا يظهر معـــه تمييز بين الألياف والحبيبات ، بـل يبدو كمجرد صخر ، رغم ان الطبقة الخارجية والمظهر الخارجي لـه يكتسب مظهر الشجر .

وقد أخبرني الكثير من الأعراب أنهم كثيراً ما كانوا في سفرهم عبر تلك الصحراء يجدون الأشجار المتحجرة قائمة وكأنها أشجار فعلية تلتف حولها الرمال ، ولكنني افترض مما شاهدته وفحصته منها أنها مجرد جذوع شجر رفعتها أيدي البشر ، وسرعان ما تجمعت الرمال وكونت حولهـا أكوامـاً عالية . أما لون الخشب المتحجر فهو في الغالب أسود أو قريب من السواد ، ولكنه أحياناً يبدو رمادياً باهتاً يشبه الخشب عندما يكون في حالته الطبيعية ، الأمر الذي كان يغري عبيدنا بجمعه وإحضاره للوقود .

وتوجد هذه المتحجرات أحياناً كقطع منفردة متناثرة ، ولكنها عـلى الأغلب تكون على شكل طبقات غير منتظمة تغطي حيزاً معتبراً من الأرض.

ولو وجـد أي أثر لفرع غربي للنيل ، كما يذكر قدماء المؤلفين ، لكان من المحتمل أن يكتشف في مكان ما من هذه الصحراء . ولكنني لم ألاحظ أي قناة أو أثر لمثل هـــذا المجرى النهري في طريق القافلة . غير انني أود أن الفت انتباه أي باحث يأتي من بعدي الى المنطقة المحيطة بالمكان الذي خيمنا فيه عندما توقفنا أسفل التـــل الرملي غربـي وادي النطرون ، إذ بلغناها بعد الغروب وغادرناها قبيل طلوع الفجر ، ولم أجد فرصة لفحصها . ولكن اصطلاح « بحر بلا ماء » ، الذي يطلق عـلى هذه الصحراء ، والذي يفسر بعبارة « نهر بلا ماء » ، لا يشير بأي حال لأي مجرى من مجاري الأنهار ، أو لأرض يمكن أن يكتشف فيهـا مجرى نهر قديم : لأنـــه لو كانت الأشجار المتحجرة التي تناسب صنع صواري السفن ، ولو كان الخشب المتحجر الـــذي يتناسب والأغراض الأخرى لصنع السفن التي يقال بأنها وجدت في « بحر بلا ماء » ، لو كان

ذلك يميز قطعة الأرض التي يوجد بها ويعطيها اسمها (نهر بلا ماء) ، لكانت الترجمة الصحيحة ليست النهر بل « بحر بلا ماء » ، لأن هذه التحجرات منتشرة في الصحراء كلها . والواقع أن المظهر العام لهذه المنطقة القاحلة الواسعة يناسب تماماً اسم « بحر بلا ماء » ؛ فسطحها الرملي يشبه ذلك الجزء من الشاطىء الذي تغمره المياه عند العاصفة وتحمل اليه الأخشاب. ولا أقــول ان سفناً تحطمت هناك ، لأنني لم أشاهد خشباً له أو أدنى مظهر لخشب عملت فيه الأدوات أو تناولته يـد الانسان بالتغيير لاستعماله في أي غرض ما . أما ما اعتبرته الملاحظات العابرة من أجزاء صواري فإنها مجرد جذوع أشجار ، طولها يتراوح بين ثلاثين وأربعين قدمـــاً ، مكسرة ومجزأة الى شظايا كبيرة ، تبدو متقاربة وكأنها كانت قبـــل ذلك قطعٌ متكاملة .

وتمتد الى الشمال من الصحراء سلسلة من الجبال الكلسية كانت تلازم أنظار قافلتنا في سيرها على طريق موازية للجبال يتراوح بعدها عنها بين ثلاثة وسبعة أميال . ويجري عند أسفل الجبـــال واد خصيب وفير المياه ، يتراوح عرضه بين ميل واحد وستة أميال ، كنا نلجأ اليه كل يومين أو ثلاثة أيام للتزود بالماء ، ولكن معظم ينابيع الوادي كانت جافـــة وقت رحلتنا ، ولم يعد يوجد إلا برك من الماء هنا وهناك . أما المياه الباقية أو المنتشرة على السطح فكانت مُرّة المـــذاق ، ولكننا عندما حفرنا آباراً قرب هذه النهيرات أو المستنقعات وجدنا الماء العذب على عمق خمسة أو ستة أقدام .

الفَصلُ الثَالث

ام الصغير وبقية الرحلة الى سيوة

تربض ام الصغير في واد رملي يمتد داخل تجويف محصور بين شعبتي جبل . وتشاهد في هذا الوادي كتل صخرية ضخمة واسعة ومعزولة ، بنيت القرية على اكبر كتلة منها . ولكنها قرية صغيرة تضم قليلاً من السكان لا يزيد عدد القادرين منهم على حمل السلاح عن ثلاثين رجلاً ، منازلها قليلة الارتفاع مبنية من الحجارة المثبتة بالطين الكلسي والمسقوفة بعسف النخيل . وقد قيل لي بأن بعض هذه البيوت تغطي كهوفاً أو غرفاً منحوتة في الصخر ربما كانت في الماضي مقابر موتى . واستقر معسكرنا عند اسفل الصخرة وسط اشجار النخيل الذي تسير خلاله الطرق المؤدية إلى القرية . ورغم مظهر الفقر البادي على أهلها فقد استقبلونا بكرم واريحية ، وهبط رجالهم من منازلهم لمساعدتنا في سقاية الجمال وفي كل ما نحتاج اليه من مساعدة .

وقد صعدت قرب المساء إلى القرية على طول ممر ضيق شديد الوعورة . ولاحظت عندما وصلت إلى السوق صفقات بيع وشراء تدار بحماس وضجيج ومشاحنة ، ولكنني سرعان ما ادركت أن البائعين هم نفر فقير من حجاج

قافلتنا ، وأن بضاعتهم ليست سوى الحناء وخواتم الرصاص والزجاج وما شابه ذلك من حلى النساء ، يقايضون عليها بالتمر . غير أن جميع البضائع عند الطرفين لم يكن ثمنها يساوي خمسة (شلنات) .

والواقع أن سكان ام الصغير فقراء جداً يعتمدون بشكل كلي على تمورهم التي يبيعون جانباً منها لعرب الصحراء ، ويحملون الجانب الآخر إلى الاسكندرية لاستبداله بالحنطة أو الزيت أو الدهن .

أما طباعهم فهي بسيطة تميل إلى الخشونة ، كما هو الحال عند أي مجتمع صغير معزول عن غيره ، تفصله تلك المساحات الواسعة من الصحراء من كل اتجاه . وبهذه العزلة عن العالم والعجز الشديد عن مهاجمة غيرهم ، والفقر الشديد لمهاجمة غيرهم لهم ، استمد اولئك الناس من وضعهم ومن أسلوب معيشتهم حياة بسيطة مسالمة . وقد اخبرني أحد المتقدمين في السن أن البدو حاولوا مرة الاستيلاء على صخرتهم وما ينتجه لهم النخيل من قليل التمر ، وانهم كادوا ينجحون في ذلك ، لولا بركة الرجل الصالح « المرابط » المدفون في القرية ، فأعمت أبصار الغزاة ولم يستطيعوا العثور على القرية ، رغم انهم كانوا يحومون حولها باستمرار . وفي القاهرة كان يؤمِّل الناس في معجزة مشابهة تحميها من الغزو الفرنسي . ويبدو ان الاعتقاد في المعجزات من هذا النوع أمر شائع عند أمم المشرق .

وبيعت خلال اقامتنا في هذا المكان أمتعة رجل من توات ، توفي في الطريق ، وكان قد مات رجل آخر عندما سقط أثناء السير من فوق راحلته وارتطم رأسه بحجر مدبب ففاضت روحه من فوره . ووقع كذلك رجلان آخران من الحجاج ضحية الاجهاد ومتاعب السفر الطويل ، إذ لم يتزودا له جيداً بالطعام وسبل الراحة .

ثم تقدمنا بعد بضعة أيام من الراحة نواصل رحلتنا نحو سيوه التي تبعد عن ام الصغير مسيرة عشرين ساعة . وسرعان ما اجتزنا حدود الوادي

الرملي الواسع وصعدنا الجبال التي تتصل بالجبال المحاذية لوادي ام الصغير غرباً . ثم سلكنا ممراً طويلاً ممـــلاً ، قادنا في النهاية إلى واد أخضر خصيب ، رأينا الناس فيه يجمعون طعاماً لماشيتهم . وعندما أبصروا قافلتنا ثقيلة الأحمال ، أدركوا أننا لسنا قوات من البدو المعادين ،فتركوا أعمالهم وهرولوا لاستقبالنا وتهنئتنا بسلامة الوصول ، وحملوا الينا كذلك أنباءً تبشر بحلول السلام أرجاء المنطقة ، وبامكان الاقامة آمنين لا نخشى شراً . ثم ترجلوا من فوق حميرهم وأرشدوا قافلتنا إلى سهل غربي سيوه ، لا يبعد عنها كثيراً ... وهناك نصبنا الخيام .

الفَصلُ الرّابع

سيوه

تعتبر سيوه دولة صغيرة مستقلة ، تعترف بحكم السلطان ولكنها لا تدفع له الإتاوة . وتقع حول مدينة سيوه الرئيسية وعلى بعد ميل أو ميلين منها ، قرى « شرقي » (وتسمى أجرمي بلهجة سكان سيوه) و « مسلّم » ، و « المنشية » و « سبوشة » و « بريشة » . وقد شيدت مدينة سيوه فوق كتلة عظيمة من الصخر وكذلك حول هذه الكتلة ؛ وتقول الأخبار بأن السكان القدماء كانوا يعيشون في كهوف داخل الصخرة . والواقع ان نموذج وطريقة بناء المساكن يخيل للمرء انها كهوف حقيقية : فهي متقاربة إلى بعضها البعض إلى حد يجعل الكثير من شوارعها معتمة في وضح النهار ، وهي كذلك معقدة التنظيم الى درجة لا يستطيع الغريب معها معرفة الطريق إلى المدينة أو الخروج منها إلا بدليل يرشده ويقوده . وتتميز الكثير من المنازل المقامة على منحدر الصخرة ، وخاصة منها ما يقع في نهاية المنحدر المواجه للسهل ، بعلوها الشاهق وبسمك جدرانها وقوتها لتكون بمثابة متراس ودرع يحمي المدينة في الداخل.

كان رجال قافلتنا يشبهون سيوه بخلية من النحل ، والواقع ان هذا

التشبيه صادق ومناسب ، سواء من حيث المظهر العام للربوة التي تغطيها الأبنية ، أو من حيث احتشاد وتجمع سكانها ، أو الضجيج المتداخل ، أو الدوي المنبعث من ممراتها وطرقاتها الضيقة والذي يتناهى الى السمع من مسافة بعيدة .

وقد بنيت أسفل التل اصطبلات للجمال والخيل والحمير التي تعجز عن الصعود الى المدينة أو التي لا متسع لها فيها .

أما منطقة سيوه ككل فهي متسعة ؛ والجزء الرئيسي منها وفير المياه ، يبلغ محيطه حوالي خمسين ميلاً ؛ وتطوقه صخور قاحلة شديدة الانحدار ، أما تربته فهي مزيج من الرمل والطين ، وهي رخوة أو مستنقعية في بعض الأماكن ، ولكن السكان لا يبذلون كبير جهد لاستصلاحها . وتنتج هذه الأرض القمح والزيت والخضر اللازمة للانسان والحيوان ، ولكن المنتجات الرئيسية هي التمور ذات النوعية والنكهة الممتازة التي جعلت من المنطقة مكاناً يضرب به المثل من حيث الخصوبة بين عرب الصحراء. ولكل مواطن بستان أو أكثر يستمد منه ثروته ويشغل وقته في ريه وزراعته . ويعتبر البستان الكبير من هذه البساتين التي تدر الانتاج ، ثروة تقدر ما بين أربعمائة وستمائة دولار سلطاني . وتحيط بالبساتين الواقعة حول المدن والقرى جدران ترتفع أربعة أو ستة أقدام ، وترويها عدة مجاري من المياه التي تميل إلى الملوحة أو العذوبة ، والتي تنحدر من الصخور والجبال المجاورة أو المنسابة من الينابيع المتفجرة في السهل نفسه ، والمقسمة الى عدة قنوات صغيرة لأغراض الري ، لا تتجاوز في سيرها حدود تلك المنطقة . أما التمور الوفيرة فإنها تخزن في مستودعات عامة تنقل اليها في سلاسل تحشى جيداً وتسجل في سجل خاص ، ويحتفظ الشيخ عادة بمفتاح هذه المستودعات .

وإلى الشمال الغربي من سيوه توجد طبقة رملية تمتد ميلاً كاملاً

وبقربهـا ينتشر الملح على السطح على شكل كتل أو كومـات صغيرة . وتنتشر كذلك الينابيع في هذه المنطقة ، وكثيراً ما كنا نجد ينبوعاً عذباً بجانب ينبوع ملحي . وقد رأيت إلى الشمال من سيوه على الطريق المؤدي إلى جبل الموتى كثيراً من هذه الينابيع المتفاوتة بين الملوحة والعذوبة .
ليس من السهل تحديد التعداد الكلي لسكان المنطقة لقلة ما فيها من الشرطة ولصغر الجهاز الحكومي في سيوه ، ما لم تحدث فرصة مـا لرؤية أهلها مجتمعين في لقاء أو احتفال عام .

اما المحاربون فيمكن معرفة عددهم ، وقد قيل لي بأنهم يبلغون نحواً من ألف وخمسمائة رجل ، ويمكن بنـاءً على ذلك تقدير التعداد العام للسكان .

وتناط سلطة الحكومة هناك باثني عشر شيخاً ، يتناوب اثنـان منهم على رئاسة الحكم . غير ان عشرين آخرين من الأغنياء فرضوا لأنفسهم منذ سنوات قليلـة نصيباً من السلطة واتخذوا لقب الشيوخ ووسعوا دائرة الارستقراطية ، ووسعوا بذلك دائرة النزاع على السلطة ، واصبحوا يعقدون مجالس عامة لكل مسألة ذات أهمية عامة . وقد حضرت عدداً منها عقدت قرب سور المدينة ، كان الزعماء فيهـا يجلسون القرفصاء ، ولاحظت ان صاحب الصوت الجهوري والحركات العنيفـة والتعبيرات القوية هو الذي يحظى بتأييد واهتمام الجمع ويحظى بنفوذ كبير عليهم ؛ وربما كانت هذه الظاهرة أمراً شائعاً في معظم الاجتماعات العامـة . وإذا حدث أن فشلت تلك الاجتماعات في التوصل إلى الاتفاق حول مسألة مـا ، رأيت الجميع يهرعون إلى السلاح ، وحينهـا يسيطر على الموقف صاحب القوة والكتلة المهابة الجانب .

أما العدالة فإنها تسير وفق العادات القديمة والمفاهيم الشائعه عن المساواة ، وتتمثل العقوبة في فرض غرامة من التمر : فالرجل الذي يضرب شخصاً

آخر مثلاً ، يدفع مـا بين عشر وخمس عشرة « قفـة » من التمر ؛ ويبلغ ارتفاع هذه القفاف ثلاثة اقدام ، ومحيطها أربعة ، وهي التي تستخدم عموماً كأداة للكيل في سيوه .

والملاحظ هناك ان الرجل يلبس قميصاً قطنياً أبيض اللون ، وسروالاً قصيراً ، وقطعـة كبيرة مـن القماش المخطط بالأبيض والأزرق (يصنع بالقاهرة) ، تطوى وتتدلى من فوق الكتف الأيسر ، وتسمى «ملاية» . ويلبس الرجل على رأسه « طاقية » من الصوف المغزول أو من القطن ، وتصنع في تونس ، وهي شائعـة عند المسلمين ولا يلبسها يهـودي أو مسيحي علـى ساحل الشمال الافريقي . أمـا في أيام الأعياد فيلبس أهل تونس القفطان والبنيش ، كما يلبس العرب عامة في المدن .

وترتدي نساء سيوه قمصاناً نسائية زرقاء من القطن ، تصل إلى الرسغ ، وتأتي فوقها « الملايات » بحيث تلتف على الرأس وتتدلى فوق الجسم على شكل عباءة .

وتضفر المرأة شعرهـا في ثلاث ضفائر ، الواحدة فوق الأخرى ؛ وتثبت في الضفيرة الاولى – السفلى – مختلف أنـواع الحلي مـن الخرز والمرجان المزيف ، أو الفضـة . وتثبت فيهـا كذلك اشرطة طويلة من الجلد الأسود تتدلى على الظهر وينتهي كل شريط بجرس صغير . وتلف المرأة حول رأسها قطعة من الحرير أو القماش القطني ، تتدلى إلى الخلف . وتحلي المرأة اذنيها بزوج من الحلق ، وأحياناً بثلاثـة ، وتستعمل الخواتم من الفضة الكبيرة . اما العقد الذي يزين الصدر فهو من المرجان المزيف ، ولكن غنيّات النساء يستعملن أطواقاً من الفضة تتدلى منها عدة قطع فضية صغيرة مسطحة تحفر عليها اشكال الزهور وغيرهـا . وتزين المرأة كذلك ذراعيها وساقيها (فوق الرسغ تمامـاً) باساور وخلاخل من الفضـة أو النحاس أو الزجاج .

اني لا أستطيع اعطاء تقرير واف عن شخصيات أهل سيوه ، سواء من حيث السمعة العامة أو من نتائج ملاحظتي الخاصة . ولقــد وجدت أهلها فضوليين يميلون للسرقــة ، لذا كان أولئك الناس يحيطون دائماً بخيامنا ، وخاصة خيمتي بالذات ، وكان لا بد من العناية بحراسة أمتعة تجارنا ، لا من السرقة العادية فقط ، بل أيضاً من خطر هجوم معاد عام.

وقد سمعت الكثير عن ثروات هؤلاء القوم ، ولا بـد انهـم يتمتعون بقدر وافر من الغنى والممتلكات . فهم يسيـّرون تجارة تمور واسعة مع بلدان مختلفة ونائية ، وهم ، مع هذا لا يدفعون الضرائب ولا توجـد عندهم فرص كثيرة للانفاق وبعثرة النقود . ولكي يأمن أهل سيوه جانب عرب الشمال المجاورين لهم نجدهم يتبعون معهم سياسة وديــة ، ويأتي هؤلاء العرب لزيارة سيوه على شكل جماعات أو قوات صغيرة لمزاولــة تجارة المقايضة بالتمور . وقــد عرضت قافلتنا هنا بعضاً من بضاعتها لاستبداله بالتمور واللحم والسلال الصغيرة (القفاف) التي تجيد صنعهــا نساء سيوه ويعتبرنها مهنتهن الرئيسية .

أما الأمراض التي يتعرض لهــا البلد ويعاني الناس منها كثيراً فهي الملاريا والحمى[1] ، وأمراض العين[2] .

ولغة سيوه[3] ، بغض النظر عن كثرة المفردات التي دخلتهــا نتيجة للاختلاط المستمر مع الناس ، ليست عربية بشكل أساسي ، ممــا قادني في كثير من الأحيان الى التخمين والتفكير . فتشت في بادىء الأمر عن أصل شرقي لهذه اللغة ، ولكنني بعد تفكير ناضج ، وبعد اختلاطي مع

---

١ ربما الملاريا والدوزنطاريا .

٢ ربما كانت التراخوما هي المرض الرئيسي .

١ لغة سيوه هي بشكل أساسي لغة البربر الذين ينتشرون في شمال أفريقية .

الطوارق الذين صادقتهم ، علمت ان لغة سيوه هي إحدى اللهجات المستعملة عند أمة شمال افريقية العظيمة التي ينتسب اليها اصدقائي الطوارق ، والتي يمكن أن تعتبر لغة أصحاب البلاد الأصليين .

وقد جمعت في بداية الأمر مجموعة كبيرة من كلمات لغة سيوه ، ولكنني فقدتها ضمن أوراق أخرى لي في حادث سأتعرض له فيما بعد . أما القائمة التالية فقد أخذتها عن رجل من سيوه ، التقيت معه في أوجلة فيما بعد .

الشمس : اتفكت

السحاب : لوجمان

الاذن : تمسوشت

الرأس : أشفى

العين : تاون

الحاجب : تماوين

اللحية : إتمرت

اليد : فص

جمل : لجم

حصان : أكمر

خيل : اكمير

أعندك حصان : جوربك اكمر

لبن : آشي

لحم — أكسم

خبز : تجورة

زيت : تسمور

غنم : جليب

بقرة : فلنست

جبل : ادرارن

سيف المبارزة : أوس

سيف : لمشا

فم : أمبا

ماء : أمان

تمر : تينه

بيت : أكبان

بيوت : جبون

رمل : إتجيدا

طاقية : تشاتشيك

مقابر (تحت الأرض) : تمَ — ميجر

الفَصلُ الخامِس

آثار سيوه

عندما دنونا من المكان المحدد لمخيّمنا في وادي سيوه ، لمحت في اتجاه الغرب بعض آثار لبناء ضخم يبعد عن الطريق أميالاً قليلة ، واستنتجت انها نفس الآثار التي رآها رحالة انجليزي متأخر (السيد براون)[1] والتي سمعت لأول مرة عن اكتشافها عندما كنت في لندن ، ثم عندما قدمت إلى مصر . وكانت الظروف تحتم عليّ الحذر وتأجيل أي زيارة أو فحص للآثار حتى أكتسب ثقة الأهالي ، الذين اعتقدوا انني وترجماني مسيحيين ، وذلك عندما رأونا أول الأمر (كما قيل لي) . ومما جعلهم يميلون إلى هذا الرأي مزاجنا المتميز وسلوكنا وطريقة مشيتنا وملابسنا التركية .

عندما اغتنمت في القاهرة فرصة نشوب المتاعب فيها للتعرف على القافلة كمسلم ، لم استطع حينها التحدث باللغة العربية أو التركية ، ولكنني

---

١ يو . ج . براون . صاحب كتاب « رحلات في أفريقيا ومصر وسورية » وقد زار سيوه سنة ١٧٩٢ .

اقنعت نفسي بأن انتحال شخصية مملوك شاب ربمــا يكون ذريعة مقبولة بها . ثم اكتسبت ثقة من تجربة وقدرة مترجمي (كألماني المولد) الذي كان قــد أجبر على اعتناق الإسلام بالقسطنطينية طيلة اثني عشر عامــاً سابقــة ، والذي يمكن ، كما كنت آمل ان يدفع عني الحسد والريبــة وينقذني منهما .

وعندمــا فكرت في أهمية بعثتي والهدف العظيم من ارتيــاد شمال افريقيــا بأجمعه ، رأيت ان من الحكمـة والحصافــة الا أعرض نفسي للاندماج مع الناس حتى أصبح كفؤاً للظهور بالشخصية التي انتحلتهــا . ولو انني فعلت ذلك في هذه المرة أيضاً وامتنعت عـن زيارة آثار سيوه وتعريض نفسي للريبة في تلك المحاولة ، لتمكنت من تجنب خطر شديد (كما سيظهر فيما بعد) كاد يقضي علي شخصياً وعــلى هدفي من تلك الرحلة .

أما وقد اعترفت صراحة بافتقاري إلى الصبر اللازم للامساك عن حب الاستطلاع ، فإنني اواصل الحديث عن مجرى تحقيقاتي ونتائجها .

قمت بادىء ذي بدء بزيارة آثار البناء الضخم الذي لاحظته من قبل . وقد دنوت من بعض الرجال العاملين في البساتين المجاورة وسألتهم عمــا يعرفونه عن هذا البناء ، فأجابوا بأن « سيوة في سالف الأزمان كانت مقراً للكفار وأن معظم هولاء كانوا يعيشون في الكهوف ، ولكن بعضهم كان يسكن هذه الأبنيــة » . واشار أحد المتحدثين إلى البناء الواقع في وسطها قائلاً : « تحكي لنـا الأقوال المأثورة ان ذلك البنـاء كان القاعة التي يجتمع فيها الديوان ؛ وان الناس في تلك الأزمنة كانوا أشد منا قوة ، لأن هذه الحجارة الضخمة في السقف كانت ترفع وتوضع هناك بسواعد رجلين فقط : ان هنالك الكثير مـن الذهب المدفون تحت الجدران » . وعندما دخلت الآثار تبعني الرجال جميعــاً ، وبذلك منعوني أن أفحص

المكان فحصاً دقيقاً ، وكذلك لم أصادف نجاحاً في زيارة ثانية . وعندما عدت بعد أيام قليلة للمرة الثالثة ، قال لي بعض رجال سيوه: « لا شك انك ما تزال مسيحياً في أعماقك ، وإلا فما الذي يدفعك إلى هذا الحد للاصرار على زيارة هذه الآثار التي خلفها الكفار ؟ »[1] . وقد اضطررت، لأحافظ على الشخصية التي انتحلتها ، للتخلي عن أي محاولة أخرى لفحص المكان فحصاً جيداً ، واقتصرت على الملاحظات والمشاهدات العامة ، كما سأبين الآن بالتفصيل .

تقع ام البيضاء (Ummebeda) (اطلق السكان هذا الاسم على موقع الآثار) قرب قرية تسمى « شرقية » أو « أجرمي » ، بين هذه القرية وبين جبل منعزل يقال بأن فيه عيناً من الماء العذب الغزير . وقد وصل البناء إلى حالة سيئة لا يستطيع معها المشاهد العادي ، الذي ينظر اليه نظرة ظير دقيقة ، ان يحكم على الشكل الصحيح له ، وعلى الهدف الأصلي الذي بني من أجله . ولكن المادة التي بُني منها ربما توحي بأنه أُقيم في احط العصور عندما غادر سكان الكهوف كهوفهم في هذه المنطقة، وقلدوا في أول خطة بناء لهم أشكال البناء القديمة ، يضعون صخرة فوق أخرى ، يحاكون بذلك أماكن الاقامة التي هيأتها لهم الطبيعة من قبل .

وقد تأكدت من الشكل العام للبناء بمساعدة بوصلتي ، فوجدت أن الجدران الخارجية بنيت بحيث تواجه الجهات الأصلية الأربع ، مع انحراف يبلغ اثنتي عشرة درجة فقط ، ربما نتج عن انحراف في الابرة . ويبلغ المحيط الكلي عدة مئات من الياردات ، ويبدو من الأسس الواضحة للجدران انها كانت قوية غاية القوة . وقد هُدم الجدار الخارجي في معظم

---

١ حدثت هذه المواجهة لأن براون قام من قبله بزيارة المنطقة كمسيحي ، وأبدى اهتماماً كبيراً بالآثار ، ولكن الناس كرهوا زيارته وأبدوا له عداوة صريحة .

أجزائه ونقلت مواده ، أما الأرض الداخلية فقد قلبت وحفرت بحثاً عن الكنوز .

وتبدو في وسط هذه المنطقة الواسعة آثار بناء ربما كان يعتبر البناء الأساسي ، وكل ما يحيط به مجرد ملحق وتوابع له .

وينتصب الجزء الشمالي من البناء على صخرة جيرية ترتفع عن مستوى المنطقة المحيطة حوالى ثمانية أقدام . ويبدو ان ارتفاع البناء يبلغ حوالى سبعة وعشرين قدماً ؛ وعرضه أربعة وعشرون قدماً وطوله عشر أو اثنتا عشرة خطوة . ويبلغ سمك الجدران ستة أقدام ، وجدرانه الخارجية والداخلية مبنية من حجارة مربعة منحوتة تمتلىء الفراغات بينها بالحجارة الصغيرة والملاط . ويتكون السقف من قطع كبيرة من الصخر ، مزخرفة ومثبتة بحيث تمتد وتغطي البناء كله . ويبلغ عرض كل صخرة حوالي أربعة اقدام وسمكها ثلاثة اقدام . وقد سقطت إحدى هذه الصخور وتكسرت ، وكذلك تصدع الحائط الجنوبي للبناء ونقلت معظم مواده . ولكن الناس لم يستطيعوا نقل الكتل الكبيرة المتهدمة من السقف ، والتي استطاع أجدادهم جلبها من المحاجر ورفعها إلى قمة البناء . وهكذا تحدث تقلبات الفن والمعرفة والقوى والوسائل البشرية ، وكذلك تقلبات السعادة والحظوظ الانسانية .

وقد غرقت الحجارة الساقطة ، بحيث ينخفض مستوى سطوحها عن مستوى الجزء الباقي من الأساس . ويقودنا مظهر هذه الحجارة الساقطة الى الظن بأن قاعدة البناء الأصلي أقل انخفاضاً من قاعدة الجزء الشمالي . أما مداخل هذا البناء فهي ثلاثة : المدخل الرئيسي في الجانب الشمالي ، والمدخلان الآخران في الجانب الشرقي والجانب الغربي . وتزين الجدران الداخلية نقوش هيروغليفية بارزة ، ولكن يبدو ان الرسوم والصور لم تحفر جيداً

لكي تقاوم عوامل الزمن والجو ؛ وتبدو وقـد طمست تماماً في بعض الأماكن وخاصة على السقف .

وتظهر على أجزاء مختلفة من الجدار آثار طلاء ، يبدو انـه أخضر اللون . ولم استطع اكتشاف أي آثار في البناء تدل على وجود حفر تنزيلي بالحجارة أو المواد الدقيقة . ولاحظت على بعد خطوات من المدخـل الرئيسي حجرين مستديرين قطر الواحد منها حوالي ثلاثة أقدام ، وبكل منها تجويف عند الوسط كأنما الغرض منه تثبيت قاعدة تمثال ما أو مادة أخرى من مواد الزينة ، أما المادة العامة التي شيد منها البناء فهي من الحجر الجيري الذي يحتوي على تحجرات صدفية وحيوانات بحرية صغيرة ، ويمكن رؤية مثل هذه الحجارة في المنطقة المجاورة .

وعندما تفحصت المنطقة المحيطة بهذه الآثار ، وجدت التربة المجاورة لأسس الجدار الخارجي من جهة الجنوب تربة سبخية ، وقيل لي ان بها ينابيع مالحة . وعندما سألت عن وجود أي ينابيع عذبة أطلعني الناس على ينبوع يبعد عن الآثار مسافـة نصف ميل ، يتفجر وسط أشجار النخيل في موقع بالغ الجمال ، مثير للخيال . انه عذب الماء ، ينساب في عدد من الجداول الرقراقة . ولكن منظره البهيج ليس هو ما يجذب أهل سيوه ، بل اعتقادهم انه علاج لأحد الأمراض ..

أشعر ان الوصف السابق لآثـار سيوه ناقص تمامـاً ، لا يصلح لاستخلاص استنتاج دقيق ؛ فلا نستطيع التأكد مـن أن هذه الآثار هي حقاً آثار معبد آمون جوبيتر ، بل نظن ذلك ظنـاً .. ويتضح من نقاط عديدة أشرت اليها في وصفي أنني كنت واضعـاً في اعتباري هذا المعبد بالذات ، وأنه كان من أهدافي الرئيسية في بحثي وتفتيشي . ولكن الظروف التي كنت اعيشها ، والتي يعلمها القارىء منعتني من مواصلة تتبع هـذا الموضوع الهـام ، رغم شدة حب الاستطلاع الذي كان يدفعني لتفحصه

بعناية وانتباه . وإذا رجعنا إلى ما قاله المتحدثون القدماء وجدنا أن تشبيه الأبنية ووصفها لا يؤيد الفكرة التي أعلل نفسي بصحتها ، ولكنني رغم ذلك ، وبناءً على بيانات أخرى كثيرة ، اؤكد ان سيوه كانت موطناً لقدماء الآمونيين . وقد استخلصت هذا الاستنتاج من موقع البلد ومن نوعية التربة وخصوبتها ، ومن المعلومات التي استقيتها من السكان ؛ أيقنت انه لا توجد منطقة خصيبة أخرى في أي مكان مجاور ، هذا بالاضافة إلى التأكد من وجود بناء فاخر شيد يوماً في هذا المكان . وقد استخلصت أيضاً نتيجة أخرى من سراديب المقابر المتعددة الموجودة حول الآثار والتي سأتحين فرصاً أكبر لإعطائها مزيداً من العناية والفحص . وإذا كانت أوصافي للآثار الحالية لهذا البناء لا تتفق تماماً مع الأوصاف العامة لمعبد آمون ، إلا أنني أواصل الاعتقاد ، بناءً على الشكل العام وعلى موقع هذه الآثار ، انها ربما تكون آثار معبد آمون جوبيتر ، ويمكن ان يحسم الموقف في هذا الشأن وصف وتصوير وتحليل رموز الرسوم والاشكال الهيروغليفية التي تزين الجدران الداخلية للبناء .

وأود أن أضيف شيئاً آخر حول هذا الموضوع ، فعندما سألت عن « سنتريك » وهو الاسم الذي ذكره الإدريسي ، لم أجد أحداً يعرف موقعها أو يعرف هذا الاسم ، ولكن قيل لي عن وجود بلد يشبه سيوه على بعد مسيرة سبعة أيام من سيوه نفسها ، وستة أيام من الفيوم ، سكانه أقل عدداً من سكان سيوه ولكنهم يتكلمون نفس اللغة ، وأظن أن ذلك المكان هو سيوه الصغرى ، مقر قدماء السكان . انني اتحدث عن هذا المكان معتمداً على الأقوال وحدها ، ولا أستطيع الحصول على تقرير أكثر دقة ، وربما يوجد هذا المكان وسط الجبال التي تحجز الصحراء قرب ام الصغير .

ولنرجع الآن الى موضوع سراديب المقابر المتنوعة الموجودة في منطقة

سيوه ، والتي تمكنت من فحصها بحرية أكبر لأنها تقع في أماكن أكثر عزلة لم أتعرض فيها لكثير من الملاحقات .

فهمت من مرافقي ، أحد سكان سيوه ، ان هنالك أربعة أماكن رئيسية توجد فيها المقابر : الأول « بلد الكافر » ، والثاني « بلد الرومي » ؛ ويعنيان « بلد الكفار » ؛ والثالث « الموتى » وهو مكان الدفن ، والرابع « بلد الحميسة » . وقد اتجهت استفساراتي نحو « الموتى » الذي يبعد نحواً من ميل إلى الشمال الشرقي من سيوه ، وهو عبارة عن تل صخري به عدد من القبور عند منحدره ، غير ان أهمها على قمة التل . والملاحظ أن لكل قبر مدخلاً منفصلاً ينحدر نحو الداخل بيسر وتدرج . ويؤدي الممر من المنفذ إلى مدخل (باب) يتسع عنده حجم الغرفة ويوجد على كل جانب حفر صغيرة لاحتواء المومياء . ويبدو من طريقة تشكيل الحجارة البارزة عند العتبة انه كان يوجد في السابق باب يتدلى ليغلق المدخل . وتختلف احجام المقابر ، ولكنها جميعاً بنيت بمشقة ودقة ، وخاصة الأجزاء العليا منها التي لا تحتوي على أي مومياء . ويوجد في بعض المقابر الأخرى آثار متنوعة . ولقد حاولت يائساً البحث عن رأس إنسان كامل ، ولكنني لم أجد إلا قطعاً وأجزاء ، وخاصة من مؤخرة الجمجمة ، مجردة من اي كساء أو حلية ؛ وحتى في بقايا مؤخرة الرؤوس لم استطع كشف أي أصباغ أو علامة على امتلائها السابق بمادة الراتينج . وما يزال القماش ملتصقاً ببعض المومياء ، ولكنه بال ، ولا يتميز بشيء سوى انه من نوع خشن رديء .

ويلاحظ ان الأرض قد حفرت تفتيشاً عن الكنوز ، واخبرني دليلي ان الناس كانوا يجدون الذهب في جميع هذه الاضرحة ، وانه يعثر عليه احياناً في المكان الذي يستقر فوقه رأس المومياء .

وتشير الاحتمالات القوية الى امكانية اكتشاف عدد من المومياء الكاملة

في القبور النائية غربـي سيوه . وحدثتني مصادر موثوقة عن وجود مقابر أخرى تحت الأرض ، قرب المقابر المفتوحه فوق الجبال ، وان مداخلها ليست بعيدة عن السطح ؛ وعلمت ان « بيوت النصـــارى » تقع على جانبي ممر تحت سطح الأرض ، يكوّن حلقة اتصال بين جبلين يحتويان سراديب موتى . أما السراديب التي رأيتها في « جبـــل البلد » ، وهو التل الذي تقع عليه سيوه ، فهي صغيرة وتــؤدي الى كهفين كبيرين وضعت فيهما المومياء . واهم واكبر هذه الكهوف جميعاً كهفان في جهة الشمال ، تبلغ مساحة احدهما عشرين قدماً والآخر ستة عشر قدماً مربعاً، باب كل منهما يواجه الشمال .

وهناك ايضاً كهفان آخران متقاربان في الحجم مع الكهفين السابقين، ولكنهما أقل علوّاً ، ويشاهدان غربـي سيوه ، في الطريق الى أوجلة . والملاحظ ان مدخليهما منخفضان وضيقان ، وانهما متقاربان جداً ، الى درجة ان الجزء الحاجز بينهما من الأرض لا يزيد سمكه عن عشر بوصات.

وبينما اتوقف عن الحديث حول آثار سيوه ، أرى ان أضيف ملاحظة صغيرة عن وجود آثار كبيرة أخرى في اقرب سهل الى الغرب من المدينة، تدل على وجود بناء لا يبدو عليـه القدم الشديد مثلما يبـــدو على الآثـار التي وصفتها من قبل .

الفَصَلُ السَّادِسُ

الرحيل عن سيوه الى شعيبات والخطر الذي لحق بالرحالة فيها

بعد أن قضينا ثمانية أيام في سيوه ، طوينا خيامنا في الساعة الثالثة من بعد ظهر التاسع والعشرين من سبتمبر . وبعد مسيرة ثلاث ساعات توقفنا ونصبنا الخيام بجوار أحد التلال . ولكننا في اليوم التالي لم نواصل رحلتنا إلا عند الواحدة بعد الظهر لانشغالنا في التفتيش عن أحد العبيد التابعين لسلطان فزان ، كان قد اختفى عن القافلة . وانتهزت تلك الفرصة لزيارة بعض المقابر التي لمحتها من قبل عند أحد التلال المجاورة . وبعد مسيرة قصيرة اعترضت طريقي بحيرة واسعة يقارب محيطها سبعة أميال أو ثمانية ، تكوّنت كما يبدو من التقاء عدد من الينابيع وبرك الماء التي غذتها مياه المطر حتى اتصل بعضها ببعض . لذا عدت إلى القافلة وتناولت المقرّب (التلسكوب) كي أتأكد من بعض الأشكال التي لم أستطع رؤيتها جيداً .. ولقد دهشت لأن أول شيء رأيته هو العبد الآبق الذي نفتش عنه ، غير أنني لم أتحدث لأحد عن ذلك لأن العبد

المسكين كان طيب القلب ، ولم يهرب إلا من شدة القسوة التي كان يلقاها من سيده . ولكن أمل نجاته كان ضعيفاً للأسف ، إذ وعد أهل سيوه بالقبض عليه وتسليمه لصاحبه . وعندما رحلنا بعد ظهر ذلك اليوم امتد بنا المسير الى ما بعد الغروب . وتواصل سيرنا يومين وصلنا في نهاية الثاني منهما إلى وادي شعيبات الحصيب .

والجدير بالذكر أن الجبال التي كانت تحاذينا في طريقنا من سيوه إلى شعيبات هي امتداد للجبال التي ذكرت من قبل انها كانت تتراءى لنا طيلة الرحلة إلى الشمال من الطريق . وترتفع هذه الجبال كالجرف وبشكل حاد عن مستوى الأرض ، وتبدو كصخور صماء لا يخالطها رمل أو تربة . وهذا المظهر ، بالاضافة إلى « بحر الرمال » ، يدل على أن هذه المنطقة شهدت فيضاناً في زمن تال « للطوفان الكبير » . ويشاهد كذلك في السهل الرملي أسفل الجبل سطح صخري كلسي لا يحتوي على مواد متحجرة ، بينما نرى الجبال المجاورة له تتكون من حجر جيري يزخر بقطع مكسرة من الأصداف والحيوانات البحرية . والملاحظ أيضاً أن طبقات هذه الجبال الصخرية تمتد امتداداً افقياً .

وقد وجدت غربي سيوه كومتين من الأصداف والقواقع المتكلسة ، يبلغ حجم بعضها أكثر من بوصتين مكعبتين . وكذلك أخبرني ترجماني انه عندما ابتعد مرة عني في احدى الممرات شاهد جبلاً عالياً وحيداً لا يتصل بغيره من الجبال يتكون كله من القواقع والأصداف . والواقع أن كثيراً من هذه الجبال المنعزلة تشاهد في سائر انحاء هذه المنطقة ، وتمتلىء الفواصل بين طبقاتها الحجرية الافقية بمادة كلسية تميل إلى الحمرة ، وبذا تأخذ شكل الاهرامات وتخدع الناظر كثيراً . ولقد ظننت أكثر من مرة انني على وشك الوصول إلى الاهرام فعلاً . ويخيل إليّ ان مهندسي قدماء المصريين ذوي الطموح الشديد والتخطيط المذهل كانوا قد فكروا

في تحويل مثل هذا النوع من الجبال إلى اهرامات . فهذه الجبال أو التلال الصخرية شبه جاهزة ، وما عليهم إلا تفكيكها وتشكيلها على النحو الذي يريدونه ثم كسوتها من الخارج بحجارة مهيـأة . ويرى بعض العلماء ان اهرامات الجيزة وسقارة لم تكن في الأصل قد بنيت بكاملها ، بل انها كانت تلالاً مـن الحجارة والطين شكلتها يد الانسان وغطتها بطبقة صخرية . وبينما تبدو هذه الفكرة مقبولة فانها تواجه بالنفي القاطع لأسباب تاريخية ولأسباب اخرى ترتكز على أسس جدلية واخرى واقعية .

وانتقل الآن إلى حادثة تخصني شخصياً وبشكل أساسي ، وسأتحدث عنها بالتفصيل لما لها من أهمية بالغة بالنسبة لمستقبل سلامتي وبالتالي لتقدم الاكتشاف الذي التزمت به ، ولانها كذلك منحتني ثقة في النفس واعطتني دفعة جديدة من التوثب لتحقيق المزيد من النجاح في مهمتي . ولا شك ان هذه الحادثة ستكون مبعث رضى لأولئك الذين يرعون مهمتي ، ومصدر اطمئنان لإكمال وانجاز العمل العظيم الذي وكّل إلي .

عندما كنا نعسكر في شعيبات قطع علينـا حبل سكوننا وأمننا وصول نفر من سيوه ، جاءوا عند الثامنة صباحاً بخفة وذكاء يعلموننا أن عدداً كبيراً من بدو المناطق المجاورة للفيوم قادمون ، يشقون عبـاب الصحراء للايقاع بقافلتنا . وأكد لنا اولئك الرسل أيضاً أن أهل سيوه صمموا على مساعدتنا ومرافقتنا حتى نبلغ مورد المـاء التالي . واضافوا أن « جيشهم الصغير سيصل في غضون ساعات قليلة مصمماً عـلى التضحية بكل شيء لرد هجوم البدو الذين يقدرون مـا بين ثمانمائة والف رجل . وسرعان ما اجتمع شيخنا بالأعضاء البارزين من القافلة وتقرر عدم مبارحة المكان بل انتظار الأعداء . ومـا ان كاد ينفض مجلسنا الصغير حتى سمعنا من بعيد نهيق بضع مئات من الحمير يشعرنا باقتراب أهل سيوه . وهم عادة يعمدون إلى استعمال هذا الحيوان في حملاتهم العسكرية لما ييسره لهم من

اجتياز الممرات الضيقة بين الجبال ومراوغة أو مهاجمة العدو الذي يضطر لجهله بالبلاد أو للمحافظة على سلامة ماشيته ، للالتزام بسلوك الطرق الواسعة أو الوديان . وسرعان ما أُرسل نفر من رجالنا ليطلبوا من رجال سيوه التوقف على بعد نصف ميل من مركزنا . ومضى الليل في قلق وحذر ، يمسك كل فرد بسلاحه مستعداً للمعركة القادمة مع مطلع النهار . وتقدم رجال سيوه قبل طلوع الشمس بقليل واصدروا إشارة بالهجوم المباشر . وتقدم منهم بعض رجال أوجلة ليسألوا عن مقصدهم فأجابوا: « ان على القافلة الا تخشى شيئاً » . وعندما نُقل هذا الخبر للشيخ ، أعاد الرسل ليبلغوا القوم بأنه سيعتبرهم ويعاملهم كأعداء ان هم تقدموا خطوة واحدة . وعندما تلقى أهل سيوه هذه الرسالة توقفوا على شكل دائرة صغيرة ودعوا بعضاً من أهل أوجلة لحضور مؤتمر لهم . أما أنا فقد كنت طيلة هذه الفترة هادئاً عند متاعي وارسلت ترجماني لجمع الأخبار . وعندما رأيته يقبل مسرعاً كأنما يحمل أخباراً هامة ، سارعت للقيام ، ولكنه بادرني الحديث قائلاً : « لعن الله تلك اللحظة التي قررت فيها السفر في هذه الرحلة ؛ ان كلانا لا بد هالك انهم يعتبروننا من المسيحيين الجواسيس وسيقتلوننا حتماً » . وعندما فرغ من كلامه تركني واسرع نحو متاعنا واستبدل بندقيته الصغيرة ببندقيتي الكبيرة ، وأخذ مسدسين . ولكنني لمته على ذلك وقلت له : « ان التصرف الهادىء الحازم وحده هو الذي سيصوننا نحن انفسنا ويصون اصدقاءنا » . ثم ذكّرته بأن تصرفه الحالي سيؤكد هواجسهم وتهمهم ، وأكدت له ان عليه الا يخشى شيئاً هو نفسه لأنه مسلم منذ اثنتي عشرة سنة ، ويجيد معرفة عاداتهم وديانتهم ؛ وأن الخطر يتهددني أنا وحدي . وعندها أجابني ، « أيها الصديق : انك لن تواجه الخطر فقط ولكنك ستدفع ثمن تهورك هذه المرة » .

وعندها أدركت أن الخوف قد سلبه رباطة جأشه وذاكرته فتركته

وشأنه واتجهت نحو المؤتمر أعزل إلا من الصراحة والجرأة. وعندما دخلت الحلقة طرحت عليهم تحية الاسلام: «السلام عليكم»، ولكنني لم أتلق رداً على تحيتي من أهل سيوه بل سرعان ما سألني أحدهم: «أأنت من المسيحيين الجدد الذين دخلوا القاهرة وأتيت لارتياد بلدنا؟» لو أنني كنت حينها قد تعرفت جيداً على شدة تحمس المسلمين وعلى الشخصية العربية لاستخلصت الدفاع عن نفسي من نص الاتهام نفسه والاقرار بأنني حقاً من القاهرة ولكنني هارب من الكفار. غير أنني لم أجب ذلك الرجل بشيء بل جلست واتجهت بكلامي إلى أحد الزعماء الذي كنت أعرف شديد نفوذه، والذي كثيراً ما كان يتردد على خيمتي أثناء اقامتنا بسيوه: «أخبرني يا أخي: هل علمت من قبل قط ان ثلاثمائة من الرجال المسلحين ساروا ثلاثة أيام في إثر رجلين أقاما بينهم عشرة أيام يأكلان ويشربان معهم كأصدقاء لهم، خيامهما مفتوحة لهم جميعاً؟ انك أنت كنت تجدنا نقيم الصلاة ونتلو القرآن، ثم تقولون الآن بأننا كفار من القاهرة، أي أننا من القوم الذين هربنا منهم! ألا تعلمون أن اتهام أحد المؤمنين بالكفر أمر أثيم؟» كنت أتحدث بلهجة ودودة ولكنها حازمة، ويبدو أن ذلك استولى على قلوب الكثير من المجتمعين وأصبحوا مستعدين للتحول إلى صفي. وأجاب الرجل بأنه مقتنع بأننا لم نكن كافرين وانه لم يغرِ بنا أحداً لتتبعنا، بل انه مستعد للعودة إلى سيوه. وعندها اتجهت إلى أحد الأشرار الذي كان يشيع التهم عنا بين رجال قافلتنا: «لتصمت أنت؛ والله لو أن لساني ينطلق بالعربية دون تلعثم لأثرت الكثير من الشكوك حولك وحول المئات من أمثالك الذين لا يفهمون الاسلام كما أفهمه أنا.» وعندها قال رجل عجوز مستغرباً: «إن هذا الرجل أصغر من الآخر، لكنه أشد منه جرأة!» ثم تابعت حديثي من فوري: «إن صديقي لا يخشاكم بل عليكم أنتم ان تخشوه: ألا تعلمون معنى اتهام رجل كان يعيش مع السلاطين والامراء بالكفر؟»

ثم سئلت عن سبب حملي لأوراق مسيحية . وعلمت حينها أن صديقي كان قد أبدى لهم جواز سفر أمر به القائد بونابرت لي كي لا احتجز في أحد المراكز الفرنسية التي تمر بها القافلة . وفي هذه اللحظة جاء ترجماني ، وعندما وجدني ما زلت حياً وأن الجمع قد تضاءل غضبه وحدّته عما كان عليه من قبل عندما أهاجهم باجابات متلعثمة طائشة ، استعاد وعيه ووقف مسيطراً على أعصابه بينما كنت أتولى توضيح الأمر ، بالألمانية تارة وبالعربية تارة أخرى . وحينما أيقنت ان الورقة المعنية ستطلب مني ، ونظراً لعدم اطمئناني لطريقة صاحبي في إحضارها ، قمت إلى خيمتي ثم عدت أحمل القرآن بالاضافة اليها . وقدمت الورقة إلى أحد زعماء سيوه ففتحها وسأل عمن يستطيع قراءتها من الحاضرين . والواقع انني لم أخف ابتسامتي لذلك السؤال رغم الشدة التي كنت أعيشها . ثم توجه الينا بالسؤال فبادرته : « إننا لا نفهم محتواها ، ولكن قيل لنا بأنها تمكننا من مغادرة القاهرة دون مضايقة . » وحينها قاطعني صديقي قائلاً : « هذا هو الكتاب الذي أفهمه » وأخذ القرآن من يدي . ثم طُلِبَ منا أن نقرأ شيئاً منه لاثبات اننا حقاً على دينهم . والواقع أن معرفتنا به كانت تتعدى مجرد القراءة ، فصديقي يحفظ القرآن كله عن ظهر قلب ، وكنت أستطيع أنا إجادة الكتابة بالعربية ، الأمر الذي كان يعتبر عند اولئك القوم برهاناً قوياً وتقدماً في العلم . وما كدنا نقدم نموذجاً بسيطاً لمواهبنا حتى قام زعماء القافلة ، الذين كانوا من قبل صامتين ، ليعلنوا وقوفهم إلى جانبنا ، ثم تدخل الكثير من أهل سيوه لصالحنا . وبالاختصار انتهى التحقيق لما فيه خيرنا ، رغم تذمر البعض الذين فاتتهم فرصة النهب .

وهكذا تأكدت تماماً الشخصية الاسلامية التي انتحلتها ، ولن أتعرض بعدها لمثل هذه الاستفسارات التي ربما تحتاج الى براهين أخرى قاطعة يصعب تقديمها ، وتأكد لي كذلك سلامة بقية الرحلة ، وكانت هذه

الحادثة ذات نفع لي يفوق كثيراً ما فقدته فيها ، رغم أسفي على ما فقدته.

ففي الوقت الذي كنت أشهد فيه المؤتمر مع أهل سيوه ورجال القافلة، تركت متـــاعي عند ترجماني ، فقام خائفاً بأخذ آثار المومياء والعينات المعدنية وملاحظاتي المفصلة التي دونتها في الطريق من القاهرة الى شعيبات، وكتبي بصفة عامة ، وأعطاها لعبد يوثق به ، تابع للعربي الذي أشاطره مسكني ، لدفنها في مستنقع ، يوجد الكثير من أمثـــاله في شعيبات ... وقد دفنها فعلاً ، ولكنني لم أستطع استرجاعها بعد ذلك .

الفَصْلُ السَّابع

الرحيل عن شعيبات وبلوغ أوجلة

في اليوم الخامس (من الرحيل عن سيوه) غادرنا شعيبات وسرنا مدة أربع ساعات توقفنا بعدها ونصبنا الخيام . ووصلنا في اليوم التالي بعد مسيرة ساعتين ونصف مكاناً يسمى « طرفار »[1] (Torfare) حيث توقفنا للتزود بالماء ثم مضينا عند الساعة الرابعة والنصف نواصل مسيرتنا عبر صحراء منبسطة تتخللها كثبان عديدة من الرمال ، ولم نتوقف إلا في الثامنة من صباح اليوم التالي للاستراحة حتى الساعة الثانية . ثم تقدمنا نُغذّ السير حتى الثانية من صباح اليوم التالي . ولكننا عدنا لمواصلة الرحلة عند الواحدة ، واستمرت بنا الطريق طيلة الليل حتى اكتشف الفريق الذي كنت ارافقه أنه ضل عن القافلة أثناء الليل ، لذا قررنا التوقف حتى مطلع النهار . ووضعنا امتعتنا بجانب الجمال حتى نتمكن عند الطوارىء من سرعة الاستعداد للسير ، واستلقيت للنوم على الرمال ، أمسك اللجام باحدى يديّ والبندقية باليد الاخرى ولم أفق إلا مع الاشراق ..

---

١ بير الطرفاوي .

وعثرنا في الصباح على القافلة ، وعرفنا أيضاً أننا لا نبعد نصف ميل عن مكان وفير المياه والثمار ، فأسرعنا نحوه لاقامة خيامنا عنده . والواقع أن الرحلة من طرفار إلى هذا المكان كانت أشق رحلة خبرتها في أسفاري السابقة ، وقد بلغ التعب والانهاك بالرجال والماشية حداً جعل الجميع يستغرق في سبات عميق حالما حططنا الرحال . واستمرت اقامتنا هناك طيلة اليوم ، ثم بدأنا في اليوم التالي رحلتنا إلى أوجلة على فترات قصيرة (لا تصل المسيرة الواحدة إلى تسع ساعات) ولم نشعر بالحاجة إلى السرعة لأننا دخلنا بلاد أصدقائنا .

وكان دخولنا إلى « المجابرة »[١] ، وهي أحد ثلاثة أماكن تتبع سيادة أوجلة ، مهيباً ومؤثراً لما فيها ، للكثير من أعضاء قافلتنا من التجار من أهل وأقرباء . وصدف أن كان في المجابرة في ذلك الوقت « بلك » بنغازي ، وهو ممثل باشا طرابلس ، فأرسل نحواً من عشرين رجلاً من العرب لتدوين تقدير بأحمال القافلة وطلبوا ضريبة يسيرة عليها . ثم اصطف اولئك العرب وكونوا ميمنة لقافلتنا ، وكون التجار بخيولهم ميسرة لها ، أما الحجاج وبقية العرب فكانوا هم قلبها يتقدمهم الشيخ حاملاً راية خضراء . وتعالى نشيد الحجاج ورقصت خيول العرب ، واستمر ذلك حتى اقتربنا من المجابرة حيث قابلنا عددٌ من الشيوخ والأطفال للتهنئة ولرؤية أبنائهم واقربائهم الذين اعتبروهم في عداد الهالكين عندما سمعوا بالغزو الفرنسي لمصر .

ونصبنا خياماً في مكان مجاور للمدينة ، وأكرمنا أهلها أيما اكرام . وفي الليلة الثانية مضيت الى أوجلة بصحبة تاجرين ، وعندما وصلنا يسّر لي أحدهما أمر الاقامة فيها ، إذ كانت النية أن تتوقف القافلة أكثر من المعتاد .

---

١ طريق المجابرة .

وتضم منطقة أوجلة ثلاث مدن : أوجلة نفسها كعاصمة ، ثم المجابرة ، والملدّة (Meledda) المتجاورتين ، وتقعان على بعد مسيرة أربع ساعات من أوجلة ، بحيث تقع المجابرة الى جنوب الطريق التي سلكناها ، والملدّة الى شمالها . وتعرف المدينتان عموماً باسم « فالو[1] » Fallo .

كانت مدينة أوجلة مشهورة زمن « هيرودوت » ، وتغطي مساحة قدرها ميل مربع . ولكن مبانيها سيئة وطرقاتها ضيقة تفتقر الى النظافة. ويقطع الحجر الجيري من التلال المجاورة ويستخدم في بناء المنازل المتكونة من طبقة واحدة . ولكن هذه المنازل مظلمة لانعدام النوافذ ، وتلتف غرف كل منزل حول فناء صغير تؤدي اليه أبواب الغرف كلها . والأبنية العامة أسوأ وأحقر . وبينما تبدو المجابرة أصغر من أوجلة إلا أنها اكثر سكاناً . ويعمل سكان الملدّة في الزراعة بينما يزاول سكان المجابرة التجارة ويقضون حياتهم مسافرين بين القاهرة وفزان . ولكن سكان أوجلة أكثر استقراراً رغم أن بعضهم كان مع قافلتنا .

والملاحظ أن لكل رجل من أهل هذه الأماكن ممن يعملون في تجارة القوافل ثلاثة مساكن : واحد في كرداس بقرب القاهرة وآخر في المجابرة وثالث في زويلة أو في مرزق أحياناً . وللكثير منهم زوجة وأسرة مستقرة في كل واحد من هذه المنازل ، ويتزوج غيرهم زواجاً قصيراً إذا بقيت القافلة في مكان ما أطول من المعتاد . ويكرّس الرجال حياتهم لمهنة التجارة منذ باكورة شبابهم ، وقد شاهدت أولاداً في سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة يرافقون القافلة في رحلتها الطويلة الشاقة من اوجلة إلى فزان ، مشياً على الأرجل ، وقلما كانوا يركبون الخيول . وقد رأيت من ملاحظاتي العامة حول هؤلاء الناس أنانية وميلاً للمراوغة وتفاهة

---

[1] جالو .

اكتسبوها من مميزات التجارة القديمة التافهة ومن الطريقة التي كانت تدار بها ، الأمر المناقض لصفات المستقرين الذين لم يمتهنوا التجارة .

وبينما يعمل رجال تلك المنطقة في الزراعة والبستنة نجد النساء تتقن صناعة الملابس الصوفية الخشنة ، طولها خمس ياردات وعرضها ياردة ونصف ، وتسمى العباءة ، ويرسلونها إلى فزان بكميات كبيرة ، وهي تعتبر الكساء الرئيسي لاولئك الناس ، إذ يلفونها حول أجسامهم ، حتى دون أن يلبسوا أي سروال أو قميص تحتها .

والأراضي المحيطة بأوجلة مستوية وتربتها رملية ، ولكنها شديدة الخصب لكثرة مياهها . ولكن القمح لا يزرع بكميات تكفي حاجة السكان ، ويأتي عرب بنغازي الذين يبعدون مسيرة ثلاثة عشر يوماً ، لشراء القمح والشعير كل عام ، ويجلبون معهم قطعان الغنم لبيعها .

ويتكلم أهل هذه المنطقة اللغة العربية ، ولكن لغتهم العامية قريبة من لغة سيوه .

البَابُ الثَّانِي

الفَصْلُ الأوّل

من أوجلة الى تخوم تمسة

حالما بلغنا أوجلة ، أرسل شيخ القافلة رجلاً لتقصي وضع موارد الماء على طول الطريق حتى حدود فزان . وكان مما يحتم الحذر والتأكد من الماء ازدياد عدد رجال القافلة وجمالها والخوف من جفاف الينابيع لقلة المطر أو لأسباب أخرى ، مما لا يوفر ماءً كافياً للقافلة الكبيرة . ولما كان الرجل قد أمر بالسفر إلى أبعد نقطة ممكنة فإنه لم يعد إلا بعد اثني عشر يوماً يحمل أخباراً سارة عن وفرة المياه وانعدام ما يعوق الرحلة .

وتحدد الرحيل عن أوجلة في السابع والعشرين من اكتوبر ، ولكنني ورفقتي غادرنا المدينة في مساء اليوم السابق وخيمنا خارجها في الهواء الطلق لنكون مع أول من يبدأون مسيرة القافلة . وانطلقنا فعلاً صبيحة اليوم التالي قبل الشروق في اتجاه الجنوب الغربي . وقد انضم إلى قافلتنا عدد

من تجار بنغازي وميروت ومجابرة يبلغون نحواً من مائة وعشرين رجلاً . وكان الكثير من سكان أوجلة وفالو قد خرجوا معنا لوداعنا ، وبعد ان ساروا مسافة خارج المدينة قاموا باطلاق النار وارقاص خيولهم حولنا تعبيراً عن اكرامهم لنا وعنايتهم بنا . وما أن كاد اولئك يتوارون عن انظارنا حتى قدم اعرابي على عجل يخبرنا أن جمهرة من الخيل تلحق بنا وانها قريبة من مؤخرتنا . عندها صدر الأمر للعبيد والاولاد بقيادة الجمال نحو مكان مرتفع ، وانطلق حاملو البنادق لحماية الانسحاب ومنع العدو من النهب . وبينما كنا نستعد للموقف علمنا ان الفرسان هم من قوات بلك بنغازي أرسلهم لنجدتنا ظاناً أننا قد تعرضنا لهجومٍ ما عندما سمع اطلاق نيران التحية من جانب اصدقائنا الذين جاءوا لوداعنا .

ثم استأنفنا مسيرتنا التي طالت حتى المغيب ، كل واحد يتباهى بشجاعته وما قام به من قبل من أعمال بطولية ، وما كان سيفعله لو كانت قوات البلك من القوات المعادية فعلاً .

وفي ذلك المساء ضربنا خيامنا في الصحراء في مكان قاحل يخلو من الماء ، لم نجد فيه مجرد نبتة من العشب لمرعى جمالنا فاضطررنا لاطعامها مما لدينا من العلف .

وتقدم المسير في اليوم التالي طيلة اثنتي عشرة ساعة في الصحراء التي كانت أرضها تتكون من صخور كلسية رخوة ، وأحياناً عارية ، ولكنها في الغالب مغطاة برمال متحركة .

ولكن المشهد تغير في صباح اليوم الثالث إذ أصبحنا نرى التلال هنا وهناك تغير من مظهر الصحراء المسطح السابق . ويبدو أن هذه التلال تلتقي بأصولها مع قاعدة صخرية كلسية تجمعت الرمال حولها وفوقها وتكومت بفعل الرياح حتى بلغت ارتفاعاً معتبراً . وتبدأ من هذه المنطقة ذات التلال سلسلة من الجبال تسمى موراجي (Morai-je) تمتد بعيداً نحو

جنوب الجنوب – الغربي وتبدو أيضاً تتفرع إلى الشمال . وخيمنا ذلك اليوم فوق تل تنتشر أسفله كمية من القواقع والمواد البحرية المتحجرة ، وبقينا ساعتين انتظاراً لعودة بعض رجال الطواطر الذين افترقوا عنا عند الظهر طلباً للمرعى لإطعام جمالهم .

وفي صبيحة اليوم الرابع طوينا خيامنا مبكرين كي نصل إلى مكان معين تكثر فيه المياه العذبة لنخيم فيه . وانقضى الجزء الأول من رحلة ذلك اليوم في مسيرة هينة على سهل طويل يمتد فوق المرتفعات . كان الهبوط من ناحية الشرق سهلاً رفيقاً ، ولكننا عندما أتينا الى الجانب الغربي وجدنا الطريق شديد الانحدار بالغ الصعوبة ، ويسمى عند العرب « نديك » . ولم يكن الطريق منحدراً فقط بل كان أيضاً ضيقاً إلى درجة اضطرت القافلة إلى الهبوط فرداً فرداً وجملاً بعد جمل . وقد بلغ الارتفاع العمودي لهذا الجرف حوالي ثمانية اقدام ، ولكن منظره من القمة كان رائع الجمال ، رأينا من فوقها وادياً ضيقاً يمتد إلى أبعد من مرأى العين ويتلألأ بالضياء مع شروق الشمس التي مالت أشعتها فوق الجبل الذي كنا بسبيل اجتيازه . وكانت أمامنا على بعد مسافة طويلة أرض ذات صخور شديدة الانحدار ، وصدوع مخيفة تحت الظلال الكئيبة ، وقد ولّد هذان المنظران المتناقضان ، المنظر المشرق والمنظر الكئيب ، في عقولنا انطباعاً مثيراً في الوقت الذي كان علينا فيه الهبوط من فوق ذلك الجبل المرتفع عبر الممر الضيق الخطر . ولكنني لم أسلك هذا الممر الذي سلكته القافلة بل هبطت من طريق آخر بصعوبة لا تخلو من المخاطرة . وعندما بلغت القاعدة شاهدت قطعة من الخشب المتحجر طولها يقرب من عشرين قدماً وعرضها حوالي ثماني بوصات ، كانت هي الوحيدة من نوعها في تلك المنطقة . ورأيت في السهل بعد مسافة قصيرة حجارة ضخمة أشبه بالصخور ، ربما بقيت هناك في أعقاب فيضان كبير ، استنتجت من كل ما رأيته انه قد غمر هذه المناطق في أزمنة بعيدة ، وربما كان ذلك بعد

رسائل
الرائد الكسندر جوردون لينج
١٨٢٤–١٨٢٦

القسم الثاني

وأمضينا اليوم العاشر والحادي عشر والثاني عشر في السير عبر هـذه المنطقة المنعزلة الموحشة ، ولكننا لم نستطع إكمال الرحلة كما كنا نرغب، فكنا نضطر أحياناً للخروج عن خط سيرنا المستقيم لنتبع الطريق المتعرجة، وكنا أحياناً أخرى مجبرين على السير ببطء ومشقة فوق طبقات من الحجارة الرخوة طيلة نصف ميل متواصل ، وقد غامرت مرة بالاتجاه مع خادمي وبعض أفراد الطواطر صوب الجنوب . وكنت أجد في كل مكان جبالاً شامخـــة كالتي تبدو للمسافر على الطريق العام ، مع فارق وحيد ، وهو أننا كنا نرى مناظر شديدة الرعب والكآبة .

وخرجنا بعد ظهر اليوم الثالث عشر من المنطقة المظلمة إلى سهل واسع ، واصلنا السير فيه بضع ساعات حتى وصلنـا سلاسل من الجبـال الكلسية المنخفضة ، وخيمنا عند الغروب قرب مدخل ممر يعبر بين الجبال .

وفي صبيحة اليوم الخامس عشر سرت في مقدمـة القافلة مع الحجاج الذين كانوا يسرعون في مشيهم ليتقدموا على القافلة كي يكونوا أول من يروون ظمأهم عند العين التي كنا بسبيل الوصول اليها ذلك اليوم . وعندما وصلت ذلك المورد المسمى « عناته » رأيت بئراً نظيفاً يتمدد حوله عدد من الطواطر ، فجلست بقربهم وتهيأت للإفطار . وكان عند البئر رجل عجوز قدمت لـــه حفنة من التمر وبعض اللحم فتقبلها شاكراً وقبّلهـــا ورفعها إلى جبهتـه ثم وضعها على الأرض وتقدم إلى النبع وظل يشرب فترة طويلة ويحمد الله كثيراً في خشوع كبير . ثم اخبرني انـــه لم يذق للماء طعمـــاً منذ ثلاثة أيام ، وانـــه كان قـد تجاوز الستين من العمر . وعلمت منه أن رحلته هذه هي الثالثة من فاس إلى مكة ، دون أن تكون لديه أدنى لوازم السفر ، وأي زاد من طعام أو ماء إلا ما يجود به عليه المسافرون ذوو اليسار .

وأمضينا بقية النهار في هذا المكان ، وكان يبعد عن آخر مخيم لنـــا

مسيرة أربع ساعات . وأرسل شيخنا رسولاً الى مرزق ليعلن عن وصول القافلة إلى حدود المملكة ، وليحمل للسلطان رسالة تقدير واحترام من كل تاجر من تجار القافلة .

والآن ، وفي اليوم السادس عشر (من رحيلنا عن أوجلة) وصلنا مرة أخرى الى منطقة مأهولة ؛ إذ أننا بعد مسيرة تسع ساعات نكون قد وصلنا تمسة داخل منطقة فزان ..

الفَصَلُ الثَاني

مشاهدات في منطقة الحروق

تعتبر صحراء الحروق الجبلية أهم منطقة تسترعي النظر مما شاهدناه خلال هذه الرحلة ؛ فاتساعها يمتد كما قيل لي مسيرة سبعة أيام من الشمال الى الجنوب ، وخمسة أيام من الشرق الى الغرب . ولكنني في رحلتي التالية من فزان الى طرابلس التقيت مصادفة مع جزء آخر من الحروق وعلمت حينها انه يمتد الى الغرب مسافة طويلة . وعلمت في مرزق كذلك عن وجود جبال سوداء على الطريق المتجهة جنوباً إلى « بورنو » ، كانت الحرارة على قممها تنخفض الى درجة كبيرة ، ويحصل أهل مرزق منها على ما يحتاجونه من حديد ؛ واظن ان هذه الجبال ربما تكون فرعاً من جبال الحروق ، ولكنني في الواقع لم اجد دليلاً أو معلومات اكيدة عن اتصال مباشر بين هذه المناطق .

ان المنظر المتجعد المتكسر ، والغريب المرعب لهذا الجزء من الصحراء يقودنا الى الافتراض بأن سطحها اكتسب شكله الحالي المضطرب على

إثر ثورة بركانية . ولا يبلغ التفاوت بين ارتفاعاتها قدراً كبيراً ، ويبدي المظهر العام سلاسل متواصلة من التلال التي تجري في اتجاهات متنوعة ، لا ترتفع اكثر من ثمانية او اثنى عشر قدماً عن متوسط مستوى الأرض ، وترتفع بين هذه السلاسل جبال معزولة وشامخة ، جوانبها شديدة الانحدار ابتداء من قواعدها . وقد صادفنا جبلاً من هذا النـوع على منتصف طريق القافلة في هذه الصحراء والى الشمال منه ، يسميه العرب « ستراس » ويبدو وكأنه منشطر من القمة الى منتصفه . ولكنني مُنعت من اجراء فحوصات خاصة عليه ، غير انني حظيت بفرصة أخرى عندما توقفت قافلتنا لتفحص جبل آخر من نفس النوع ، غير بعيد عنه . وقد رأيت ان هذا الجبل مكسو من قاعدته الى قمته بطبقة من الحجارة المنفصلة عن بعضها البعض ، تشبه الحجارة التي تتكون منها التلال المنخفضة . وكان السهل الصغير الذي يرتفع فيه هذا الجبل مطوقاً بصفوف من التلال من النوع الذي وصفته سابقاً ، تتصل ببعضها البعض وكأنها تشكـل جداراً (حول السهل) . وكان السهل المنبسط داخلها مغطى برمـال بيضاء خفيفة ، تتناثر عليها قطع كبيرة من الصخر ذات نوعية وطبيعة متشابهة مع الصخور الموجودة في أنحاء هذه الصحراء . وقد وجدت صعوبة في الحصول على عينة من الطبقة الواقعة تحت الرمل ، وكـان يبدو عليها مظهر رماد قذفه بركان ، ولكنني فقدت الورقة التي حفظت العينة فيها ، ولا استطيع ان اؤكد مدى دقة ملاحظتي الاولى . ووجدت قرب الجبل حجارة صغيرة ذات لون يميل الى الحمرة ويشبـه الطوب المحروق ؛ وكان بعضها ذا لونين بحيث يكتسب نصف الحجر لونا أحمر والنصف الآخر لونا أسود ، ويختلف الجزء الأحمر عن الأسود مـن حيث الوزن والكثافة والتماسك . فالاول اكثر انفـاذا للسوائل واكثر مسامـات ويحمل

الصفات العامة للمادة المتخلفة عن صهر المعادن .

وتتنوع نوعية الصخر التي تتكون منهـا هذه الجبال من حيث اللون والكثافة ، فهي ثقيلـة ومتماسكة في بعض الاجزاء ، ومثقبـة في بعضها الآخر . والواقع ان هذه الصخور متمازجـة ولم استطع اكتشاف مـواد غريبة بينها .

وتأخذ طبقات هذه الحجارة وضعاً أفقياً ، ولكنهـا كثيراً ما تكون مشوشة ، إذ تتداخل أجزاء من الطبقة الاولى مع الطبقة الثانية تحتها . وتأخذ الطبقة أحياناً اتجاهاً متعرجاً ، وتختلط الطبقات احياناً ببعضها البعض ، ولا تظهر احياناً أخرى طبقات على الاطلاق . أمـا سلاسل الهضاب المخفضة فتتكون من كتلة صلبـة واحدة من الصخر مع ظهور تصدعات متجهة نحو الشمال . وينكشف السهل أحياناً عن صخر من نفس النوعيـة والمادة . وكثيراً مـا تتخلل هذه المنطقة من الهضاب والصخور والجبال وديان ذات ميـاه ، تربتها رمليـة بيضاء ولكنها خصيبـة تنبت الشجر والمرعى ، تشاهد بهـا من آن لآخر آثار حيوان وانسان . وكثيراً مـا كنت أشعر بالأمان فأسلك احد الوديان الضيقة التي تسير في اتجاه سير القافلة ، وكانت تقودني أحياناً إلى شعاب ضيقة ، تزداد ضيقاً ووعورة ، فأشعر بالندم على ابتعادي عن القافلة وتعريض نفسي لخطر البدو ، معتمداً فقط على سيفي ومسدسي . ولكنني عندمـا كنت اعود للقافلة أشعر أن الخطر لم يكن شديداً ، لأن من المستبعد أن يترصد أحد قطـاع الطرق في مثل هذه المناطق لمسافر ما ، أو أن يفترض اقتراب أحد منها ، اللهم إلا ان يكون أحد الحجاج المغاربة البؤساء يبحث عـن الماء !

ولاحظت أثناء احدى تلك النزهات بين الجبـال مدخلاً ضيقاً تنطبق الصخور عند نهايته وتشكل كهفاً عمقه حوالي تسعة أقدام ، وعرضه خمسة أقدام . وعندما تأملت مظهره ووضعـه في ذلك المكان المنعزل الموحش

انتابتني مشاعر وكأنني أنظر إلى مدخل عـالم خفي تحت الأرض يؤدي إلى الجحيم .

واخبرني ترجماني انه ذات مرة ، عندما كنت أسير في طريق آخر ، وعندما كانت القافلة في طريقها بين الجبال ، رأى كهفاً حجارته سوداء، تقع تحتها طبقة من الصخر الأبيض . وقد لاحظت كذلك عنـد سفري من فزان إلى طرابلس ، في منطقة أرى أنها استمرار للحروق ، سلاسل من الهضاب البازلتية ، تتلوها سلاسل من الهضاب الكلسية . وأحضر لي ترجماني عينة من الصخر الأبيض جلبها من الكهف الذي رآه ، ولكنـه لم يكن سعيداً باختياره لها ، لأنها كانت مجرد كتلة من الطين الصلصالي القاسي المشابه للحجر الجيري .

وهنالك تشابه بين التلال الكثيرة بسلاسلها الدائريـة في الحروق وبين الأجزاء البارزة من جبال الحدود التي سأشير اليها في رحلة تالية،وتتشابه أيضاً باحتواء السطح على حجارة منفردة ومتناثرة ، ولكن حجارة الحروق ذات مادة ونوعية واحدة تنفرد بها المنطقة .

ويمتد قرب الحروق الأسود الحروق الأبيض ، وهو سهل فسيح تنتشر فيه التلال المنعزلة ويمتد حتى يصل إلى الجبال القريبة من فزان . وتتميز الحجارة التي تغطي سطح هذا السهل بمظهرهـا المصقول اللامع ، وتبدو بنفس المظهر الصخور التي ترتفع من حين لآخر عن مستوى سطح الأرض. وتوجد داخل الصخور كسر وأجزاء من حيوانات بحرية كبيرة متحجرة، معظمها أصداف وقواقع مغلقة .

ويعتبر العرب التلال الكلسية المنخفضة العارية التي تحد السهل جزءاً من الحروق الأبيض ، وان كانت ذات طبيعة مغايرة له تماماً . فقد وجدت هذه السلاسل الهضابية تحتوي على أكثر المواد تحجراً . وترتفع هذه التلال

كجبال شديدة الانحدار ، مادتهـا كلسية تتخللها مواد متحجرة يمكن استخراجها بسهولة ، وهي عبارة عن محارات وقواقع وأسماك وحيوانات بحرية أخرى متحجرة . وقد وجدت رؤوس سمك يثقل عـلى الانسان حملها . وتوجد كذلك في الوديـان المجاورة أعداد كبيرة من الأصداف تبدو وكأنها مصقولة لامعة .

الفَصْلُ الثَّالث

الوصول الى تمسة والرحيل عنها

كنا ما نزال على بعد مسيرة ساعة من تمسة عندما استقبلنا أهلها مرحبين ومهنئين بسلامة الوصول ، ثم انهالوا علينا بأسئلتهم عن صحتنا، وأعربوا عن تمنياتهم لنا بالأمن والسلام على الطريقة العربية . وبدا لي تكرار نفس الكلمات أمراً غير عادي ، ولكنني سرعان ما أدركت أن ذلك يدل على حسن الأدب ، كما اعتاد عليه أهل هذا البلد[1] . فكلما سما الرجل في نبله وكرمه زاد من تكرير أسئلته . وقد استأثر انتباهي شاب أنيق الملبس ماهر في إطالة التحية والإسهاب فيها . فعندما دنا من أحد عرب أوجلة مد له يده وظل مستوقفاً إياه مدة طويلة يحييه ويجامله، وعندما اضطر العربي إلى السير بسرعة عظيمة ليلحق برفاقه ، ورأى الفتى

---

١ ربما يبدو مفاجئاً بعد ذلك الاختلاط الطويل مع العرب أن يجد هورنمان تكرار التحيات أمراً « غير عادي » . ولكن فزان ، شأنها شأن غربي السودان ، تتميز بتكرير عبارات التحية أكثر مما في بقية البلدان العربية .

أن من غير المناسب تركه بمثل تلك السرعة ، ظـل طيلة نصف ميل يجري محاذياً لحصانه ، يردد عليه هذه الاستفسارات : كيف حـالك ؟ حسناً كيف انت ؟ الحمد لله على وصولك سالماً ! في أمان الله ! كيف حالك ؟.. الخ .

وعندما دنونا من تمسة ، تهيأ الحجاج وأعدوا طبلهم ورايتهم الخضراء، وشكّل التجار مجموعة تتقدم القافلة ، تثب خيولهم وترقص . وما زلنا على هذا الحال حتى وصلنا مكان مخيمنا قرب المدينة ، بينما كانت النساء تتجمع خارج الجدران يرحبن بنا على طريقتهن العربية بهتافـات مبتهجة متكررة ، أجبنا عليها بإطلاق النيران . واستمر ذلك حتى نصبنا خيامنا وسط بستان من النخيل .

لقد كان ذلك اليوم حافلاً بالتهاني والبهجة بالنسبة للتجـار خاصة والقافلة عامة . ذلك لأن القافلة هذا العام غادرت القاهرة في جو مـن الكآبة والخوف لم تشاهد مثله منذ عشر سنوات ، كيف لا وقد فاجـأ جيش الكفار المدينة الرئيسية بأفريقيا واستولوا عليها ، محطمين القوة الحاكمة من المماليك ، ومعرضين للخطر تجارة العبيد التي تعتمد عليها القافلة . ولم يمض على مغادرتنا القاهرة سوى بضعة أيام عندما أوقع ظهور جمع من البدو الرعب في صفوف قافلتنا ، والواقع انه كان من غير المألوف أن نصل إلى سيوه دون تعرض لمهاجمة أحد ، في حين أن العرب كانوا الى وقت قريب يتجرأون على المواقع الفرنسية ويقومون بحوادث نهب كانت أحياناً تحدث قرب العاصمة نفسها . وعلمنا في سيوه عن تحركات قبائل من بنغازي وغيرها . ثم اكتشفنا في الطريق بين أوجلة وحدود فزان آثاراً عديدة لحوادث سلبهم ونهبهم ، إذ رأينا مئات من الجمال الميتة وحيوانات الحمل

نهبوها ثم تركوها ، بسبب قلة الماء . وقد سطوا كذلك على الأماكن المجاورة ، وهاجموا تمسة ، وانتظروا قدومنا في هذه النواحي مدة طويلة حتى ظنوا اننا لن نمر هذا العام بسبب احتلال القاهرة . لذا فقد أصبحنا الآن في منجى من الخطر ، نسير في طريق مأهولة بالسكان في مملكة فزان ، وبذا تبددت مخاوفنا تماماً .

تعتبر تمسة اليوم مكاناً قليل الأهمية ، لا يزيد عدد القادرين على حمل السلاح فيها عن أربعين رجلاً ، وهي مشيدة فوق صخرة يحيط بها سور عال يحفظها من غارات الأعداء طالما ظل هذا السور يلقى العناية والتعمير ، ولكنه متهدم في كثير من جهاته . وعلمت عن وجود نقوش على بعض الأبنية ، ولكنني لم أجد شيئاً منها ، ولا أظن ان شيئاً من ذلك وجد على الاطلاق . فالخرائب والآثار ليست سوى منازل متهدمة مبنية من الحجر الجيري مثبتة بملاط أحمر ، ولكن هذه الآثار تبين أن سكان تمسة القدماء كانوا أكثر خبرة ومهارة في فن البناء من سكانها الحاليين الذين بنوا منازل سكن لهم بين الآثار ، لا تكاد تصلح في أوروبا كمأوى للماشية .

ويقتني هؤلاء الناس الكثير من الغنم والماعز ، أما حيوان الحمل الوحيد فهو الحمار . وتحيط بالمدينة بساتين النخيل التي تعتبر المصدر الرئيسي لغذائهم ، وهم يزرعون القمح ، ولكن بكميات قليلة للغاية .

بعد زيارتي للمدينة وجدت في طريق عودتي إلى المخيم عدداً من المواطنين يقايضون الغنم والطيور والتمور بالتبغ والزبد وحلي النساء والاقمشة الصوفية الخشنة التي يلبسها العرب عموماً . ثم انقضى ذلك المساء في تبادل التهاني وعبارات التحية وفي الابتهاج والسرور ، وأضاء الشباب من العبيد وصبيان المخيم شعلة من النار .

ولما كانت رحلاتنا بعد هذا المكان قصيرة ، لم نقوض الخيام في

الصباح التـالي إلا بعد نصف ساعــة من شروق الشمس ، ثم تحركنـا متمهلين بين النخيل على طريق مستو ، تعترضه هنـا وهناك بعض التلال الرمليــة الصغيرة التي كونتها الرياح ، التي جمعت رمـالاً كثيرة حول جذوع النخيل اخفتهـا حتى عسفها . وفي الساعـة الثانيــة بعـد الظهر أصبحنا على مرأى من زويلـة ، ثم تقدمنا نحو المكان المقصود لمخيمنا شمال غربـي المدينة .

الفَصلُ الرّابع

زويلـــة

تعتبر زويلة مكاناً هاماً في منطقة فزان ، ومقراً لأقرباء عائلة السلطان وللكثير من الشخصيات البارزة والثرية ، لذا توقفنا قرب المدينة وتهيأنا لمراسيم الاستقبال بمناسبة الوصول .

فلبس التجار وغلمانهم وعبيدهم أبهى حللهم ، وأمر الشيخ بحمل الراية الخضراء أمامه ، تكريماً للأشراف الذين يسكنون هذه المدينة . وما كدنا نشكل المسيرة حتى رأينا عشرين فارساً يمتطون صهوات خيول بيضاء يتوسطهم علم أخضر . انه «هندي» الشريف ، زعيم المدينة ، مع أبنائه الثمانية واقربائه الآخرين ، جاءوا لتحيتنا واستقبالنا ، يتبعهم على بعد قريب منهم عدد من الرجال والصبيان مشياً على الأقدام . ثم انضموا إلى قافلتنا وسرنا جميعاً قرب المدينة في ابتهاج وسرور واطلاق الرصاص ، إلى أن وصلنا مكان المخيم ونصبنا الخيام .

ثم جاء الينا الكثير من السكان ، بعضهم من قبيل حب الاستطلاع والبعض الآخر للمقايضة ، ولكنهم جميعاً يتصرفون بأدب وذوق سام ،

غير أن أسرة الشريف كانت تتميز بلطف من نوع خاص وأدب وتهذيب بالغين ، وكانت تلبس الملابس الطرابلسية وعليها القميص السوداني الأنيق « الثوب » . وكانت صفقات القافلة هذه المرة كثيرة ، وخاصة مع النساء اللاتي اشترين مختلف أنواع الزينة مقابل المواد الزراعية واللبن والطيور الداجنة .

يطلق على زويلة « بلد الشريف » ، ولكنها في سالف الأزمان كانت مركزاً هاماً ، ويبدو أن محيطها السابق كان يبلغ ثلاثة أضعاف المحيط الحالي [1] . وقد أخبرني بعض أقرباء الشريف أن زويلة كانت منذ بضعة قرون مقراً للسلاطين والملتقى العام للقوافل ، وأصبحت الرحلة الى فزان منذ ذلك الحين تسمى الرحلة الى « سهلة » من قبل القادمين من بورنو [2].

وترتفع هذه المدينة الصغيرة (زويلة) على مساحة يبلغ محيطها ميلاً تقريباً ؛ ومنازلها ، كما في اوجلة ، تتكون من طبقة واحدة ، يدخل النور الى غرفها من الأبواب فقط . وتوجد قرب وسط المدينة آثار بناء عال من عدة طبقات ، جدرانه سميكة جداً ، ويقال بأنه كان قصراً فيما مضى . وهنالك خارج المدينة قرب السور الجنوبي مسجد قديم ، لم تنل منه عوامل الزمن إلا قليلاً ، وما زال ماثلاً يدل على عظمة زويلة القديمة . ويضم المسجد في وسطه قاعة واسعة تلتف حولها أقواس عالية ، ووراءها ممر واسع وله مداخل تؤدي إلى غرف متنوعة تتبع المسجد . وتبدو على بعد قريب من المدينة أبنية قديمة شديدة الارتفاع ، هي قبور للشرفاء الذين سقطوا في المعارك في أزمنة تعرضت فيها البلد لهجوم الكفار .

---

١ ظلت زويلة عاصمة لفزان من القرن السابع حتى القرن الثالث عشر عندما احتلها أهل بورنو وجعلوا من تراغن عاصمة لهم .

٢ ما تزال زويلة هي الإسم الذي يطلقه سكان غربي السودان على فزان .

وتعتبر المناطق المحيطة بزويلة مستوية السطح خصيبة التربة تغذيها مياه وفيرة . وتتسع بساتين النخيل وتمتـــد الى مسافات كبيرة ، ويبدو أن سكانها يوجهون للزراعة عنايـــة تفوق عنايـــة غيرهم من سكان المناطق المجاورة .

وفي المساء تلقينا برهاناً آخر على كرم العرب ، فقد أحضر أحـــد عبيد الشريف إلى خيمتنا طبقاً من اللحم والمرق وعشرة أرغفة صغيرة ، تمشياً مع عادة قديمة للشيخ يتبعها ويلتزم بها بدقة عند وصول كل قافلة ، ثم سرعان ما أرسل لكل واحد منا ثلاثة أرغفة صغيرة لطعام الإفطار .

الفَصلُ الخامِس

ما بعد زويلة والوصول الى مرزق

غادرنا زويلة المضيافة في الصباح التالي ، وبعد أن مررنا عبر بستان من شجر النخيل وصلنا إلى سهل واسع مفتوح سرنا فيه سبع ساعات وصلنا بعدها الحمرا ، وهي قرية صغيرة قليلة السكان بائسة المظهر ، رغم أن الأراضي المحيطة بها شديدة الخصب . وقُدِّم لي هنا ولأول مرة طعام من الجراد ، الوجبة اللذيذة عند أهل فزان ، وشراب مستخرج من شجر النخيل « لوجبي » . وعندما يكون الشراب طازجاً ، يكون حلواً مقبول الطعم ،ولكنه يمكن ان يتسبب في تكوين الغازات والاصابة بالدوزنطاريا . لم استمتع في البداية بطعم الجراد المشوي ، ولكنني سرعان ما أصبحت مغرماً بـه . وعندما يعد الجراد للأكل تنزع أقدامه واجنحته واجزاءه الداخلية ، ويصبح لما تبقى نكهة تشبه نكهة سمك الرنكة ، ولكن طعمه أكثر لذة من السمك .

وبدأ السير في صباح اليوم التالي قبل شروق الشمس على طول طريق تخترق سهلاً واسعاً ، وقد كانت تحاذينا إلى الجنوب من الطريق أشجار نخيل رأيت بينها عدة قرى صغيرة . وقد انفصلت عن جماعتي حتى وقت

الظهر ، لأن شيخ السلطان على زويلة سُرَّ باختياري كرفيق خاص له . وكانت ملابسه العاديـة رثّة ، وكان يرتدي عباءة تدل عـلى مركزه العالي . وقد اختار مرافقتي لأنه (كما قال) رأى أنـه ليس من اللائق الركوب مع التجار ، وعندما سمح لي بالانفصال عنه والانضمام إلى التجار وجدتهم في معنويات عالية لاقترابهم مـن مكان بيوتهم وأسرهم . ولكن سرعان مـا تكدر سرورهم لأن ضباط السلطان قابلونا ليحصوا الأمتعـة والتجارة ، الأمر الذي لم يعتادوا عليه قبل الوصول إلى بوابات مرزق ، ولأن التجـار اعتادوا في السابق اخفاء ثلث تجارتهم عـلى الأقل لتجنب الضرائب . وقد احتال البعض للأمر بخلط امتعتهم مع امتعة الحجاج لأنهم لا يدفعون الرسوم . ثم وافق تجار قافلتنا على اقتراح للشيخ ان نقوم بسير اضطراري إلى « تراغن » (Tragen) حيث وصلناهـا فعلاً عند المغيب .

واسترحنا في هذا المكان طيلة اليوم التالي نستعد للمثول الكريم أمـام السلطان ، الذي يخرج عادة لاستقبال القافلـة احترامـاً لعودة الحجاج من مكة . وأرسل السلطان الينـا بعض الجمال المحملـة باللحم والخبز وزعت علينا في تراغن . ثم تقدمنا في الصباح التالي ، وبعد مسيرة ثماني ساعات نصبنا خيامنا قرب ضريح « سيدي بشير » ، وهو من الصالحين الواسعي الشهرة في الأزمنة القديمة ، والذي سميت القرية المجاورة باسمه « سيدي بشير » . وكان اليوم التالي هو يوم مقابلتنا مع السلطان ، حيث انهينـا في (السابع عشر من نوفمبر) رحلتنا الطويلة المهلكة ، ثم وصلنـا بعد مسيرة ثلاث ساعات إلى ضواحي مرزق .

كان السلطان قد استقر فوق مكان مرتفع ، يجتمع حوله رجال بلاطه العديدون وحشد من رعيته .

وتوقفت قافلتنا وترجل كل من فيها ، مهما سمت منزلته ، لتحيـة السلطان . فاقتربت مع الآخرين ووجدت السلطان يجلس على أريكة مـن

الطراز القديم ، يغطيها قماش مخطط بالأحمر والأخضر ، وتستقر على طرف دائرة بيضاوية الشكل يلتف حوله الجنود في مظهر متواضع . وكان السلطان نفسه يرتدي الثوب الطرابلسي فوقه قميص محلى بالفضة على الطريقة السودانية . وكان يقف قربه من كل جانب مماليك بيض وعبيد سود ، بسيوف مشرعة ، وخلفه ست رايات ، وعبيد سود نصف عراة يحملون الرماح والمطارد التي ربما ترجع الى عصر صلاح الدين . ودخلنا الدائرة من فتحة مواجهة للسلطان ، وعند منتصف المكان ، قمنا حسب التقاليد بخلع نعالنا واقتربنا حفاة لنقبّل يد السلطان السامية . وبعد تقديم كل واحد لمراسيم التحية يتجه إلى اليسار أو اليمين بالتناوب ويجلس خلف السلطان ، وبذا ينقسم التجار إلى فرقتين متساويتين على جانبي العرش . ودخل أخيراً شيخ الحجيج ، بسيفه المشرع وطبله وراية مكة الخضراء محمولة أمامه . ثم تلاه الحجاج يرددون أدعية الشكر لله الذي رعاهم وأوصلهم سالمين ، واستمروا في ذلك حتى تكرم السلطان بإصدار إذن الانصراف لقائدهم ، واعداً بإرسال هديته السلطانية من تمر ولحم الى كل خيمة .

ثم انتهت حفلة الاستقبال وامتطى السلطان جواده ورجع إلى مدينة مرزق بين رجاله المسلحين تتقدمه الطبول والرايات ، بينما سار أهل بلاطه وعرب قافلتنا ترقص خيولهم على حافتي الموكب .

الباب الثالث

تقرير عن فزان

يبلغ أقصى طول للمنطقة المزروعة من فزان حوالي ثلاثمائة ميل من الشمال الى الجنوب ، وأقصى عرض لها مئتا ميل من الشرق الى الغرب؛ ولكن منطقة الحروق الجبلية الى الشرق ، والصحارى الأخرى في الشمال والغرب ، تعتبران جزءاً من أرض فزان .

ويجاور الحدود الشمالية عرب[1] يخضعون لطرابلس خضوعاً اسمياً ، ويستغلون جميع فترات الضعف والاضطراب السياسي لرفض سيطرتها عليهم . ويحد فزان من جهة الشرق الحروق وشريط من الصحراء ، وتوجد الى الجنوب والجنوب الشرقي منه بلاد التيبو[2] (Tibboes) ، والى الجنوب الغربي بلاد الطوارق[3] الرحل ، والى الغرب قوم من العرب .

---

١ خاصة المغارة وحسونة .

٢ التيبو هم سكان تيبستي المسماة باسم سلسلة الجبال الممتدة شمالي فزان .

٣ طوارق هجار .

وتضم السلطنة مائة واحدى مدينة وقرية ، عاصمتها مرزق وتليها في الأهمية مدن سوكنة وسبها وهون وودان شمالاً ، ومدينة القطرون جنوباً، وجرمة غرباً ، وزويلة شرقاً .

ليس المناخ في فزان معتدلاً او مقبولاً في أي فصل من فصول السنة .. ففي الصيف تشتد الحرارة الى درجة عالية ، ولم تحدث في الفترة ما بين نوفمبر ١٧٩٨ الى يونيو ١٧٩٩ أي عاصفة رعدية ، بل كل ما شهدناه مجرد وميض واهن من البرق في ٣١ ينـاير ١٧٩٩ . غير ان الزوابع كثيرة ، وتأتي من الشمال والجنوب محملة بالرمال والغبار الذي يلون الجو بالصفرة . ولا يوجد في البلد أي نهر او مجرى ماء يستحق الاهتمام. أما التربة فهي طبقة من الرمـال العميقة التي تغطي الصخر أو الأرض ، وهي احياناً طبقة من مادة صلصالية .

تعتبر التمور الانتاج الطبيعي الدائم لفزان ، غير أن المنـاطق الغربية من المملكة تزرع بعض السنامكّي من نوعية افضل مما يستورد من بلاد التيبو . وتكثر الاعشاب والخضر بوجه عام ، وكذلك تلائم التربة والمناخ زراعة القمح والشعير ، ولكن القمح لا يكفي السكان لقلة خبرة الناس في زراعته ، وكذلك لكسلهم وظلم حكومتهم لهم ، ولذا يعتمدون على استيراده من البلدان العربية الواقعة شمال فزان [١] .

ولا يلتفت الناس الا قليلاً لتربية الحيوانات . وتوجد الحيوانات ذات القرون في أخصب المناطق ، ولكنها قليلة ، وتستخدم في رفع الماء من البئر ولا تذبح إلا في أشد الحالات إلحاحاً . أما الحيوان الشائع فهو الماعز ، وتربـى الأغنام في الأجزاء الجنوبية من المنطقة ، ولكنهـا تستورد عادة من العرب المجاورين ، ويصنع الناس من صوفهـا العباءات التي تعتبر

---

١ لم يحاول الفزانيون انتاج ما يزيد عن حاجتهم من المحاصيل بسبب غارات قبائل الصحراء عليها .

اللباس الشائع في البلد ، اذا ذبحت يؤكل لحمها وكذلك يشوى جلدها وهو طازج . أما الخيل فهي قليلة ، ولكن الحمير هي حيوانات النقل الشائعة ، سواء لحمل الأثقال أو لجر العربات . والجمال غالية جداً ولا يقتنيها إلا زعماء القوم وأغنياء التجار . وتتغذى جميع هذه الحيوانات على التمور أو النوى .

أما تجارة فزان فهي واسعة ، ولكنها تقتصر على التجارة الأجنبية بشكل أساسي . ففي المدة ما بين اكتوبر وفبراير تغدو مرزق سوقاً عظيماً وملتقى لمختلف القوافل القادمة من القاهرة وبنغازي وطرابلس وغدامس وتوات والسودان والأقوام التجارية الأخرى كالتيبو والطوارق والعرب . وينقل المواد التجارية من القاهرة تجار أوجلة ، وينقل تجارة طرابلس سكان سوكنة بشكل أساسي بالاضافة الى قليل من تجار فزان وطرابلس. أما تجارة السودان فتتركز في ايدي الطوارق ، وخاصة من سكان أغاديس وتجارة بورنو في أيدي التيبو . وتحمل القوافل القادمة من الجنوب أو الغرب العبيد من الجنسين وريش النعام والطيب وجلود النمر والذهب لتصاغ منه الخواتم وغيرها من الحلي لتباع لسكان دواخل افريقيا . وكذلك يستورد النحاس من بورنو بكميات عظيمة [1] . وتصدر القاهرة الحرير والملايات والأقمشة الصوفية والزجاج والمرجان الاصطناعي والعقود وما شابه ذلك من بضائع الهند . ويستورد تجار بنغازي ، الذين ينضمون لقافلة القاهرة في أوجلة ، التبغ المصنع للمضغ ، والسعوط (المستعمل للاستنشاق) ، والآنية الخزفية التركية .

وتتاجر القوافل الآتية من طرابلس بالورق والمرجان الاصطناعي

---

١ لا يوجد نحاس في بورنو ، ولكن ربما اختلط على الرحالة اسم النطرون باسم النحاس (باللغة العربية) والقريب من الاسم الأول .

والأسلحة والسيوف والمدى والملابس المسماة «عباءات» ،والطرابيش الحمراء. ويجلب تجار غدامس نفس البضائع تقريباً . أما قوافل الطوارق والعرب فإنها تستورد الزبد والزيت والدهن ، وتحضر القوافل القادمة من أقصى الجنوب السنامكّي وريش النعام والجمال المخصصة للذبح .

يحكم فزان سلطان ينحدر من أسرة الشرفاء[1] ، وتقول الأخبار المتواترة بأن أسلاف الأمير الحالي الحاكم جاءوا من غربي افريقيا واستولوا على فزان منذ نحو من خمسمائة سنة . ويتمتع السلطان بسلطات غير محدودة على المناطق الخاضعة له ، ولكنه يحكمها كتابع لباشا طرابلس ، ويدفع له جزية تقدر بنحو من أربعة آلاف دولار ، كانت في السابق ستة آلاف. ويأتي أحد ضباط الباشا سنوياً من طرابلس لاستلام المبلغ أو ما يعادله من الذهب أو السنامكي أو العبيد ، ويسمى هذا الضابط أثناء قيامه بالمهمة « بك النوبي » . وعندما يوجه من طرابلس في نوفمبر من كل عام يأخذ معه جميع التجار المسافرين تحت حمايته ، وعندما أعود من طرابلس إلى مرزق سأغتنم هذه الفرصة (لمصاحبة البك) .

ويلقب السلطان الحالي باسم « السلطان محمد بن السلطان منصور » ؛ وينقش هذا الاسم على خاتم كبير يستعمله لختم الأوراق الخاصة بأمور السلطة والمراسلات داخل سلطنته ، ولكنه يستعمل عند الكتابة إلى باشا طرابلس خاتماً أصغر عليه كلمة « الشيخ » فقط بدلاً من اسم السلطان .

والحكم في فزان وراثي ، ولكن ولي العهد لا ينحدر دائماً من الأب الحاكم ، وانما يتولى هذا المنصب أكبر أمير في العائلة الحاكمة ، وربما كان هو ابن الأخ بدلاً من الابن الصغير للسلطان . وكثيراً ما تسفك

---

١ هم القرهمنليون الطرابلسيون الذين طردهم الأتراك عندما أعادوا سيطرتهم على البلد سنة ١٨٣٥ .

الدماء عندما يأتي وقت اختيار الوريث في الحكم ؛ فربما يكون ابن السلطان الميت مناسباً للحكم من حيث السن ، رغم كونه أصغر من الوريث الشرعي ، وخاصة إذا كانت لدى الأول الرغبة والأنصار الذين اكتسبهم من صلاته السابقة ووضعه السابق كابن للسلطان ، وحينها يكون على استعداد لمخالفة ونقض قانون الوراثة في الحكم بحجة أنه غير مناسب للتطبيق بالنسبة لوضعه هو ووضع منافسه ، وحينهـا يقرر السيف أيهما أحق بالملك .

ويقع قصر السلطان داخل قلعة مرزق ، يعيش فيه منعزلاً لا يشاطره السكن إلا الخصيان الساهرون على راحته . ويقع بجواره مقر حريمه ، ولكنه لا يدخله أبداً ، وإذا ما أراد رؤية أحد من نسائه أُحضرت اليه في مقره . ويتكون الحريم من السلطانة التي يجب أن تكون ، حسب أحكام السلطنة ، من أشرف شرفاء ودان أو هون ، وكذلك من حوالي أربعين أمة ، وكثيراً ما تباع الأمة وتستبدل بغيرها إذا لم تنجب أطفالاً للسلطان أو إذا لم تنجح في التودد اليه .

وفي القصر مكان مخصص لمن يحضر لمقابلة السلطان ؛ يؤدي منه دهليز طويل ضيق الى باب مقر السلطان الرئيسي ، ويفتح هذا الباب ثلاث مرات في اليوم . ويمر الذين يحضرون للسلام على السلطان أو لقضاء مهمة ما على طول الدهليز بين العبيد الذين يرددون باستمرار « أطال الله عمر السلطان » . وعندما يصل الواحد منهم الى الباب يجد السلطان في مواجهته جالساً على أريكة من طراز قديم ترتفع بضع درجات كعرش له. ويقترب الشخص من السلطان ويقبل يده ثم يرفعها إلى محاذاة جبهته ويركع امامه . وعندها يؤذن له بعرض مسألته فيخاطب السلطان بلغة عادية واضحة ، ولكنه ينبغي ان يكرر بين الحين والآخر « اطال الله حياتكم » ، « حفظ الله بلادكم » . ومن المعتاد تقديم هدية صغيرة عند

كل مقابلة . والسلطان لا يظهر خارج اسوار قصره إلا يوم الجمعة وفي بعض الاحتفالات ، وحينها يكون محاطاً بجميع رجال قصره . ففي يوم الجمعة يتوجه إلى المسجد الكبير على ظهر جواده ، وفي الأيام الأخرى ذات المناسبات العامة والدينية يخرج الى واد خارج المدينة حيث يقوم رجال بلاطه بإرقاص خيولهم والعدو بها حوله ، وعرض فنونهم ومهاراتهم الفروسية والحربية .

ويتكون رجال البلاط من : الكلديمة (Kaledyma) ، أي الوزير الأول، والكيجومة (Keijumma) ، أي الوزير الثاني [1] ، وقواته العامة من العبيد السود وقليل من العبيد البيض الذين يسمون « المماليك » . ويتحتم أن يكون الكلديمة والكيجومة من الأحرار ، ولكن سلطتهم الحالية ضعيفة رغم رتبهم الرسمية ، إذ أن القوة الحقيقية في أيدي المماليك الذين هم في الغالب من أصل اوروبي ، يوناني أو من جنوة . ويُشترى العبيد السود منذ صغرهم ويدربون على أعمال البلاط حسب وظائفهم ومواهبهم ، وقد نال بعضهم منزلة عالية عند السلطان .

ويتألف زيُّ السلطان أيام الأعياد من قميص أبيض من صنع السودان، محلى بالذهب والفضة ، أو من الساتان الموشى بالفضة . ويلبس تحت هذا الثوب الزي الطرابلسي العادي ، ولكن أهم مظهر للسلطان هو العمامة التي تمتد من الأمام للخلف ياردة كاملة ، وعرضها لا يقل عن ثلثي الياردة .

أما مصادر دخل السلطان فتجمع من ضرائب معينة على البساتين والأراضي المزروعة ، ومن الغرامات والمصادرات . وإذا لم يرتش العبيد

---

[1] الكلديمة والكيجومة ألقاب كانت شائعة عند شعب كانوري في بورنو .

العاملون على جمعهـا يتصرفون بظلم واجحاف . وللسلطان دخل آخر من الرسوم المفروضة على التجارة الخارجية تدفعها لـه مختلف القوافل القادمة من القاهرة ما يعادل ثمانية دولارات عن حمل كل جمل ، وتدفع قوافل بورنو والسودان مثقالين عن كل عبد يباع . وللسلطان أيضاً مصادر دخل محلية من برك الملح وبحيرات النطرون ، ومن البساتين والغابات السلطانية . وقد اثرى السلطان الحالي كثيراً من حملات السلب والنهب التي يوجهها من آن لآخر ضد التيبو .

وتنفق المصاريف العامة بشكل أساسي على السلطان وبلاطه وقصره ، ويُعطى القاضي وجهاز القضاء وعلماء الدين وكبار موظفي الدولة من انتاج النخيل والبساتين . ويتلقى الأمراء عوائد من الأراضي المخصصة لهم ومن أنصبة معينـة من القمح تسلم اليهم أسبوعياً من مخازن السلطان ، ومـن ضرائب معينـة يفرضونها على الناس هم وعبيدهم . وهـذا الظلم هو نتيجة طبيعيـة للسلطات التي يخوّلها كل صاحب مكانة أو وظيفـة تتصل بجمع الضرائب .

ويدير القضـاء موظف يسمى « القاضي » ، يستمد أحكامه مـن القانون الإسلامي (الشريعـة) ومن العـادات القديـمة والعرف الراسخ الجذور ، عدا قضايـا الجنايات ، ففيها يكون الحكم صارمـاً أو تحال الى السلطان للبت فيهـا . وفي حالة غياب القاضي يقوم نائبـه مقامه في ادارة القضاء .

ويعتبر شرف تولي القضاء وراثياً في عائلة معينة منذ أن تربعت أسرة السلطان الحالي على عرش الحكم . وعندما يشغر مكان القاضي يقوم السلطان باختيار شخص مـن هـذه الاسرة يناسب الوظيفة ، بحيث يكون أفضل المتعلمين في الأسرة .

ويستطيع أيٌّ من أمراء الأسرة الحاكمة، بالاضافة إلى القاضي ، البت

في القضايا وإصدار أحكام قد تصل الى الاعدم .

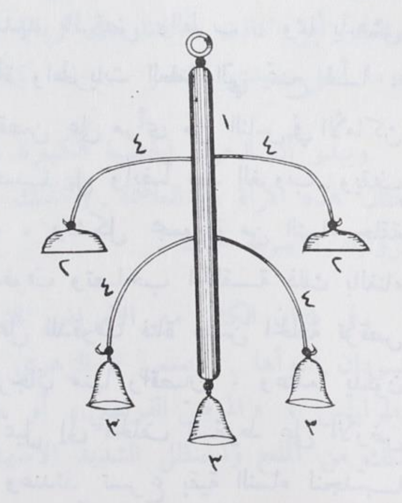
ويعتبر القاضي في نفس الوقت كبير علماء الدين ، وله نفوذ وسلطة كبيرة على الناس ، ويأتي من بعده في الأهمية الامام الكبير .

ليس من السهل تحديد عدد سكان فزان ، ولكنني أقدّر تعدادهم بنحو من سبعين أو خمسة وسبعين الف نسمة ، جميعهم مسلمون . ولكن طباعهم والوانهم تتنوع : فلسكان الاجزاء الشمالية طباع والوان العرب ، أما في المناطق الجنوبية فقد اختلط السكان بأهل الأمم الكبيرة التي تجاورهم ، وهم يشبهون التيبو والطوارق . ويمكن وصف الجنس الفزاني الأصلي بأنهم قوم لهم قوام عادي ، واطرافهم ليست قوية ذات عضلات ، لونهم بنيّ داكن وشعرهم أسود قصير ، وشكل وجوههم معتاد ، وانوفهم أقل فلطحة من أنوف الزنوج .

وتدل مشية أهل فزان وحركاتهم وعواطفهم على افتقار إلى الحيوية الذهنية والجسدية ، ويرجع السبب في ضعف أجسادهم وقلة حيويتهم لظلم الحكم الواقع بهم والفقر العام للبلد ، ولكون غذائهم الوحيد من التمر والمواد النشوية ، دونما يجدون اللحم ، وقلّما يحظون بشيء من الارز أو الشحم . ولا توجد ، حتى في المناطق التي يفترض ان يكون الجنس فيها قد تحسن بالاختلاط مع العرب ، حيوية شخصية أو صناعة ما . وتعتبر الصناعة والفنون جانباً ضعيفاً فقيراً في حياتهم ، وإذا عرض القليل من الأدوات فإنها خالية من الأصالة والعمق ، ولم استطع أن أجد في مرزق كلها صانعاً ماهراً واحداً يتخصص في حرفة أو مهنة ما . والواقع انه لا يوجد من الحرفيين إلا صانعو الأحذية والحدادون . ويقوم الحدادون بتشكيل كل المعادن دون تمييز بينها ، فنفس الرجل الذي يصنع حذوة حصان السلطان يصوغ الخواتم لأميراته . والواقع أن النساء يحكن الملابس الصوفية المسماة بالعباءة ، ويمكن للقارىء أن يتصور ويقدر مدى جودة

وقيمة هذه المنسوجات عندما يعلم أن « المكوك » ليس معروفاً هناك ، وأن النسيج كان يصفُّ خيطاً خيطاً ، وأن العمل كله كان يتم باليد .

ويتألف لباس أهل فزان من ثوب مخيط من قماش الكتان أو القطن المستورد من القاهرة ، والعباءة التي ذكرناها كثيراً من قبل . وتلبس الطبقات المتوسطة ثياباً تصنع في السودان من قماش أزرق ، أما الأغنياء ومماليك السلطان فيلبسون كأهل طرابلس ، بالاضافة إلى الثوب السوداني المتنوع الأشكال والألوان ، وكذلك العباءة . وتمتاز المرأة في مظهرها بما تلبسه من أنواع الزينة سواء على رأسها أم في يديها ورجليها من الأساور . فتصفف زوجة الرجل الغني شعرها في سبع ضفائر ، توصل إحداها بأشرطة طويلة من الجلد تنتهي بعقد ، أما الضفائر الأخرى فإنها تلف بقطعة جلد عريضة تشبه مشحذة الموسى ، في نهاية كل واحدة منها حلية صغيرة يوضحها الرسم التالي أحسن توضيح :



رقم ١ : قضيب طويل من المرجان

رقم ٢ : قطع صغيرة من الكهرمان

رقم ٣ : أجراس فضية صغيرة

رقم ٤ : شريط فضي أو نحاسي

وبالاضافة الى الحلى السابقة تثبت المرأة الفزانية في أعلى رأسها خيوطاً حريرية يتدلى منها عدد من الخواتم الفضية تتدلى على كـل جانب إلى كتفيها . وفي اذن المرأة ثقبان ، في كل واحد حلق فضي سميك . وتحلي أيدي النساء في الأوقات العادية تسع اساور أو عشرة من القرون أو من الزجاج على كل معصم ، تخلع منها أربعة أو خمسة في المناسبات الهامـة لافساح المجال لأساور فضية عريضة ، عرض الواحدة منها أربع بوصات. وكذلك تطوق المرأة مـا فوق رسغيها بخلاخل قوية من النحاس الأصفر أو الفضة. أما قلادة العنق فهي من شريط حريري تثبت بـه عشر أو اثنتا عشرة قطعة من العقيق ، وتثبت به من الأمام قطعة فضية مستديرة. وتلبس النساء الفقيرات مجرد عقد من الزجاج ، وتضفر الواحدة شعرهـا فوق جبهتها على شكل حلقات بهـا قطع من الخزامى وبذور الكراوية والبرسيم والفلفل وأوراق الغار ، ويمزج ذلك بالزيت .

وتمتاز نساء فزان عموماً بولع شديد بالرقص والطرب . ومما يدهش المسافر المسلم ذلك المظهر المرح للمرأة والحريات العامة التي تمنح لهـا ، رغم كونها مسلمة : فالنساء هناك يرقصن على مرأى من الناس في الأماكن العامـة من المدينة ، لا في النهار فحسب بل وأيضاً بعد الغروب . ويقف رجلان أو ثلاثة معاً يحملون الدفوف ، وتشكل مجموعة من النساء حلقة حولهم . ثم يضرب الرجال على الدفوف وتصاحب الحلقـة ذلك بالغناء والتصفيق . ثم تتقدم من الضاربين على الدفوف فتاة مـن الحلقة ترقص متجهـة نحوهم ، وحينها يقترب الرجال منها راقصين ، وعندما يدنون منها كثيراً تتراجع بضع خطوات ثم تميل إلى الخلف للسقوط على الأرض وكأن جسمها قطعة واحدة متيبسة . وعندئذٍ تسرع بقية النساء لنجدتهـا

قبل أن تصل إلى الأرض ، ثم يقذفنها في الهواء فتنزل واقفة على قدميها. بعد ذلك يأخذ الرجال مكانهــم في الوسط وتأتي امرأة أخرى لتكرر الرقصة ، وهكذا حتى تكرر ذلك كل نساء الحلقة .

ويدمن رجال فزان على شرب المسكرات ، والشراب العام عندهم هو اللوجيبي أو البوسة المصنّع من التمر . وإذا التقى الأصدقاء في المساء كان الشراب هو التسلية الوحيدة عندهم ، واحياناً تغني لهم فتاة تسمى الكدنكة ، وهذا اسم سوداني .

وتغني هذه الفتيات أغانيَ سودانية ، ويستعملن الربابــة فقط كأداة للموسيقى ، وهي مشقوقة على شكل نصف دائرة ، مصنوعة من اليقطين على شكل صدفة مغطاة بالجلد ومثبت بها ذراع طويل يشد عليــه وتر رفيع من شعر الخيل ، ويعزف عليه باستخدام القوس . وقد كنت مرة بصحبة « سيدي منتصر » ، اخِ السلطان ، في بيت صغير قريب من القصر عندما أمر باحضار فتاة من الكدنكة وانصرف معها . وعندما رجعت سئلتْ أين كانت ، فتناولت الربابة وأخذت تغني بالعربية اغنية مطلعها : « ما أحلى سيدي المنتصر ... انه كماء النيل عذوبة .. » .

ويبدو أن للحرية الجنسية الكبيرة في مرزق تأثيراً على وجود الكثير من أمثال هذه المرأة في العاصمة . وكذلك للفقر والتعاسة تأثير كبير على تفكك الروابط الأسرية هناك .

وفي فزان الكثير من الأمراض التناسلية ، وتعتبر الأمراض المنتقلة من السودان أسوأها . ويسمى « الزهري » الشائع ، الذي ينتقل من القاهرة وطرابلس ، « المرض الفرنسي » أو « الشر الفرنسي » . ويستخدمون دواءً لذلك من الملح والحنظل الشديد الاسهال . وتغسل القروح بمـاء النطرون

أو الصودا المحلولة . والواقع أن هذه الأدوية قلما تعجز عن الاشفاء ، ما لم يكن المرض عميق الجذور .

والبواسير هو المرض الآخر الشديد الانتشار هنا ، وذلك للاسراف في استخدام الفلفل الأحمر ، وتنتشر كذلك الحمى والملاريا التي تعتبر ذات خطورة على الأجانب بشكل خاص . ولا يوجد لهذه الأمراض دواء فعال إلا التمائم التي هي عبارة عن آيات من القرآن أو قطعة من الورق يضعها المريض على رقبته ، ويبلعها في اسوأ الحالات . وليس الفَصْد معروفاً في هذا البلد ، ولكن الدم يستخرج بين حين وآخر بالحجامة . أما عن الجراحة فقد سمعت ان في مرزق أشخاصاً لديهم القدرة الكافية على شفاء الكسر أو التمزق البسيط .

تبنى البيوت في فزان على نحو بائس ؛ من الحجارة أو الطوب المصنوع من الطين المجفف في الشمس . ولا تستعمل أي أدوات في البناء غير أيدي العمال . وعندما يتم بناء الجدران يجتمع أصدقاء صاحب المبنى ويساعدونه في تغطيتها بملاط من الطين الكلسي ، كل ذلك يتم بالأيدي فقط . والملاحظ أن جميع البيوت شديده الانخفاض ، لا يدخلها النور إلا من الأبواب .

أما من حيث الغذاء فلا أعلم ان شعباً ما يشبه شعب فزان في الاعتدال في مأكله . ولكن اللحم طعام لا يستطيعون الامتناع عنه عندما يقدم لهم ، لأنه ليس شائعاً عند عامة الناس . ومما يميز الرجل الغني في مرزق أن يقال عنه : « انه يأكل اللحم والخبز كل يوم » .

ربما يعطي ما تقدم فكرة عامة عن مرزق وأهلها . وبما أنني أنوي الرجوع الى البلد فربما أحظى بفرصة لاكتساب المزيد من المعلومات والتوسع

في بعض النقاط وتصحيح أي خطأ أكون قد وقعت فيه . وسأقدم حينها للجمعية تقريراً كاملاً ومنقحاً ، خاصة وانني أنوي الاعتماد على صديق لي من أهل البلد لنقل تقريري ، وهو ذاهب مع القافلة إلى مرزق وسيرجع الى طرابلس في شهر مايو أو يونيو من سنة ١٨٠٠ ، وحينها سيحمل (من مرزق) أوراقي الى القنصل البريطاني .

توقيع

فردريك هورنمان

ملحق

أولاً

حول هورنمان بعد وصوله إلى مرزق

ربما كان من المطمئن أن تتلقى الجمعية والجمهور في بريطانيا معلومات أخرى من السيد هورنمان حول استئناف رحلاته ذات الصلة المباشرة بيومياته .

ففي رسالة بعث بها من طرابلس بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، يبدو انه عندما وصل الى مرزق في نهاية اكتوبر من العام السابق علم باستعداد قافلة للتوجه إلى السودان ، تنقسم الى ثلاثة أفواج ، يبدأ الأول منها سيره بعد ثلاثة أيام من وصوله . وكان التاريخ المحدد لرحيل الفوج الثاني يسمح له بالمضي معه إلى أغاديس وكشنة ، ولكنه تلقى فيما بعد معلومات أقنعته بتغيير هدفه . فقد علم أن القافلة ربما تتعرض للخطر . ولاحظ كذلك انها تتشكل في الغالب من التجار السود الذين كان يخشى ألا يجد في مصاحبتهم والاندماج معهم حسن العاقبة والرعاية التي تمكنه من تأمين

استقبال ودي له من جانب البربر في دواخل افريقيا . وقد أقنعته هذه الأمور ، بالاضافة إلى ظروف أخرى ، بتجاوز الفرصة الحالية . ومما خفف عنه الضيق علمه بتوقع وصول قافلة عظيمة من بورنو يمكن أن يصاحبها عند عودته (من طرابلس) متوجها إلى غايته الكبرى . وقد أصيب هورنمان وخادمه فرندنبرج بالحمى أثناء الاقامة بمرزق ، وشُفي منهـا هورنمان غير أن خادمه لاقى فيها منيته .

وعندما استعاد هورنمان كامل صحته وجد أن أمامه عدة أشهر ستنقضي قبل قدوم قافلة بورنو . ولما كانت مرزق تتحول ، أثناء الفترة التي تخلو فيها من القوافل ، الى بلد قليل المتعة وقليل والاثارة لحب الاستطلاع ، فقد قرر التوجه الى طرابلس كي يبعث للجمعية بالمعلومات التي جمعها من قبل . ووصل فعلاً الى طرابلس بعد رحلة دامت شهرين ، إذ بلغها في منتصف اغسطس سنة ١٧٩٩ وبدأ في أول ديسمبر رحلة العودة الى مرزق ووصلها في العشرين من يناير سنة ١٨٠٠ .

ومن مرزق بعث هورنمان برسالتين ، كان لدى كتابة الثانية منهما على وشك المسير مع القافلة القادمة من بورنو على أمل ان يحقق في تلك المملكة البعيدة مزيداً من الاكتشافات نحو الغرب وفي قلب افريقيا .

تقول الرسالتان اللتان بعث بهما من مرزق :

مرزق في ٢٠ فبراير ١٨٠٠

سيدي

غادرت طرابلس في اول ديسمبر من سنة ١٧٩٩ ، ثم وصلت الى العاصمة مرزق في العشرين من يناير سنة ١٨٠٠ بعد رحلة آمنة ، رغم

بطئها وطولها[1] . انني اتمتع بأفضل صحة وآمل ان أبقى كذلك .

ان الطريق الى السودان ليست آمنة بالقدر الذي يسمح بالتوجه اليه عبر اغادس .

وفي مرزق الآن شريف من بورنو ، وهو رجل عاقل وذو منزلة عالية عند سلطان بلده ، اتخذت منه صديقاً وسأرحل برفقته في الخامس عشر من مارس نحو بورنو ، واعتقد انني من هناك سأتمكن من الوصول الى كشنة في اغسطس او سبتمبر ، وهي تبعد عن بورنو مسيرة نحو من من خمسة عشر يوماً .

سأكتب لكم كلما سنحت الفرصة ، وآمل ان تصلكم مني رسائل تطمئنكم وتطمئن أسرتي .

انني سيدي دوماً

المخلص لكم

فردريك هورنمان

السير جوزيف بانكز ، ك. ب.

رئيس الجمعية الملكية .

مرزق في ٦ ابريل ١٨٠٠

سيدي :

ان قافلتنا توشك على الانطلاق وسأنضم اليها بنفسي في المساء . انني

---

١ سافر هورنمان إلى فزان مع محمد المقنى ، بك النوبة ومحصل ضريبة الباشا من سلطان فزان .

في حالة صحية ممتازة وقد تأقلمت مع المناخ تماماً ، وكذلك تعرفت على عادات رفاقي المسافرين ، اتحدث اللغة العربية وشيئاً من لغـة بورنو ، واتزود بالسلاح الكافي . انني لا افتقر الى الشجاعة واتمتع بحماية شريفين عظيمين ، وهكذا تراودني أفضل الآمال بالنجاح في مهمتي .

لقد غادرت قافلة السودان منذ شهر تقريباً ، وقد أحسنت صنعاً اذ لم ألتحق بها ، فلقد شوهد منذ قريب بعض رجال التيبو الذين يريدون مهاجمة تلك القافلة .

لما كنت أول رحالة اوروبي يقوم بمثل هذه الرحلة الطويلة في هذا الجزء من العالم فلن أُعرِّض مكتشفـاتي للخطر بتعريض نفسي لمغبات الاقامة والتأخر في أي مكان ، وأنوي ألا أمكث في بورنو الى ما بعد سبتمبر ، حيث سأواصل السير الى كشنة مع القافلة العظيمة التي تنطلق دائماً في ذلك الوقت من بورنو الى السودان .

لا استطيع الآن ان أقرر شيئاً مـا حول اجراءات رحلتي فيما بعد السودان أو كشنة ، ولكن يمكنكم الاعتماد على حسن رغبتي في تحقيق رضى الجمعية .

أرجو ان تعتبروا رسالتي هذه آخر رسالة أبعث بها هذا العام ، أو آخر رسالة قبل وصولي الى إحدى موانىء الساحل الافريقي . وقد أرسلت لكم من طرابلس كتاباً مطولاً في الرابع والعشرين من مارس ، آمل أن يكون قد وصلكم سالماً[١] .

---

١ لم تصل هذه الرسالة مطلقاً .

لقد لاحظت ؛ بالاضافة إلى ما ضمنته رسالة الرابع والعشرين مـــن مارس ، ان الناس هنا يستخدمون البصل والتمر هندي في حالة الاصابة بالجدري وذلك لحماية أعين الأطفال المصابين ، وقيل لي بأن لذلك تأثيراً جيـــداً .

وقد أجريت تحريات خاصة عن الأمراض التناسلية ، ويمكنني تأكيد ما كتبته من قبل أن الأملاح والحنظل علاج فعال لهذا المرض في هـــذا البلد ، ويستخدم بالطريقة التي وصفتها . وعلمت من جميع المعلومـات التي جمعتها حول الأمراض التناسلية أن سكان فزان لا يتعرضون لها أكثر من مرة واحدة في العمر . والغريب أنـــه ، رغم الاختلاف الكبير في طبيعة هذا المرض بين النوع الذي يحمله القادمون من السودان ، وذلك الذي يحمله القادمون من القاهرة وطرابلس ، فإن أحـــداً ما لا يصاب بهذين النوعين طيلة حياته .

تحدثت قبل أيام مع رجل رأى السيد براون في دارفور ؛ وقد زودني ببعض المعلومات حول البلدان التي تنقّل فيها ، وأخبرني ان اتصال النيل بالنيجر أمر لا يتطرق اليه الشك ، ولكن هذا الاتصال يتضاءل في هذه الأجزاء قبل فصل المطر ، لأن النيجر يركد في هذه الفترة .

وكانت تجري العادة في بورنو حتى عهد قريب أن ترمى في هـــذا النهر فتاة تلبس أبهى الحلل ، كما كان الأمر عليه في مصر قديماً .

عندما تأملت وقارنت معلوماتي حول السودان واتصاله بسواحل افريقيا الجنوبية – الغربية أدركت ان هذا الاتصال لا بد أن يكون عن طريق نيفي (Nyffé) وجربة (Jerba) ، وان هذا الطريق يبلغ في طوله اثني عشر

ضعفاً من الطريق الواصل بين فزان والسودان .

آمل أن تذكروني ، وانني إذ أؤكد لكم عظيم تقديري ، أبقى

المخلص لكم

فردريك هورنمان

السيد الجليل السير جوزيف بانكز

رئيس الجمعية الملكية

قام السيد هورنمان ، قبل التوجه إلى بورنو ، بالتودد الى الحجاج الناهبين وتجار القوافل المصرية وغيرهم ممن كانوا في مرزق ، والذين ينتمون الى المناطق المختلفة بافريقيا أو الذين يجاورونها ، وذلك لجمع أكبر قدر من المعلومات عن البلدان التي كان متوجهاً اليها ، وبعث بالنتائج التالية .

ثانيــاً

معلومات عن دواخل أفريقيا

— ١ —

يسكن الجزء الواقع غربي وجنوب، وجنوب غربي فزان[1]، قبائل التيبو التي تسيطر أيضاً على المنطقة الواقعة بين فزان ومصر والتى تفصلها عنها صحراء واسعة ، كما يقال . وتعتبر أُوجلة وسيوه أقرب الأماكن المأهولة شمال التيبو . ويحد التيبو من الجنوب قبائل من العرب الرحل ، ومن الغرب بلاد الطوارق .

وليس التيبو شديدي السواد ، وهم يميلون إلى النحافة ، سواعدهم مفتولة ، ومشيتهم خفيفة وسريعة ؛ عيونهم سريعة الانتباه ، وشفاههم غليظة وانوفهم غير محددة أو كبيرة . أما شعورهم فليست طويلة ،ولكنها أقل تجعداً من شعور الزنوج . ويبدو انهم يتمتعون بطاقــة كبيرة ولكن فرص تطويرها قليلة ، لأنهم محاطون بالأمم المتوحشة . ويُتهم التيبو بالخيانة والغدر والخداع ، ولذا لا يسافر الفرنسيون معهم على انفراد لأنهم يخشون

١ الأصح القول جنوب شرقي .

الغدر بهم وقتلهم . والملاحظ أن التيبو يتحدثون لغتهم بسرعة كبيرة ، وتمتاز هذه اللغــة بكثرة الحروف الساكنة وخاصة حرفي اللام والسين . أما الأرقام فهي :

واحد : ترونو Trono

اثنـان : — —

ثلاثـة : أجيسو Agesso

أربعة : فوسو Fusso

خمسة : فو Fo

عشرة : ماركم Markum

ويتخذ التيبو ملابس لهم من جلود الغنم ، يلبسونها مع صوفهــا أو بدونه ، بحيث يلبسونها بصوفها في الشتاء ، وبدونه في الصيف ؛ ولكن سكان المناطق الرئيسية يرتدون عند سيرهم إلى فزان مثل أهل «بورنو» ، ثيابــاً واسعة زرقاء ، ويلفون رؤسهم بقماش شديد الزرقــة ، وبطريقة لا يظهر معها إلا أعينهم . ويتسلح الرجال بالرماح التي يبلغ طولها حوالي ستة أقدام ، وبالسكاكين ، وطولهـا مـا بين خمسة عشر وعشرين بوصة يحملونها على أذرعهم اليسرى تثبت أغمدتها بحلقة جلدية اتساعها ثلاث بوصات تحمل على الرسغ .

وينقسم التيبو إلى عدة قبائل أهمها قبيلة تيبو بلمة (Bilma) ويقيم زعيمها في ديركي (Dyrke) على بعد مسيرة يوم من بلمـة ، وقد اختلطت هذه القبيلــة مع أجناس أخرى ، إذ استقرت بالقوة بين الزنوج الذين كانوا وما زالوا يعيشون في تلك الأنحاء . والملاحظ أن معظم سكان بلمــة من الزنوج ، غير أن ديركي تضم سكانـاً غالبيتهم من التيبو . وتسيّر هذه

القبيلة تجارة بين فزان وبورنو باطمئنان كبير لأن أفرادهـا يسافرون في مجموعات صغيرة ما بين ستة رجال وثمانية ، ولكن سوء طباعهم يجعل عبيد بورنو المحررين يبتعدون عن مصاحبتهم خشية معاودة استرقاقهم أو قتلهم .

وديانة تيبو بلمة هي الاسلام ، ولكن يقال بانهم لا يهتمون بتطبيقه .

أما قبيلة رشادة (Reschde) فقد عرفت بهذا الاسم لأن أهلها يسكنون بيوتاً بنيت في الصخر ، ويعيشون أحياناً في الكهوف ويبنون أمامها أكواخاً حقيرة يقيمون فيها صيفاً . ويعيش زعيم هذه القبيلة في « ابو » (Abo) وتأتي بعدها تيبستي . ويتوجه تيبو الرشادة إلى فزان بأعداد كبيرة وحينها يلبسون كالطوارق ، ولكنني رأيت الكثير منهـم يلبسون جلود الغنم . ويقال بأن هذه القبيلة شديدة التمسك بالاسلام .

ويقال بأن قبيلة بوركو (Borku) ما تزال وثنية ، وتكثر في مناطـق اقامتها زراعة النخيل والقمح كما يكثر فيها العشب .

وقد سطا هذا العام قوم من البوركو على جماعة من الفزانيين كانت تسافر بين برقـامي ومرزق ، فأرسل اليهم سلطان فزان جيشاً صغيراً (لتأديبهم) يتكون من اثنين وثلاثين فارساً وأربعين من المشاة العرب ، ونحو مائتين من تيبو الرشادة . واتجه الجيش من مرزق الى القطرون ، على بعد أربعة وخمسين ميلاً جنوبي مرزق ، ثم الى تجرحي (Tegerhi) على بعد ثلاثة وثلاثين ميلاً الى جنوب الجنوب الشرقي مـن القطرون ، ثم إلى « أبو » على بعد مسيرة سبعة أيام ، ومنها إلى تيبسي على بعـد ثلاثة أيام في اتجاه الشرق ؛ ثم الى بورجو على بعد مسيرة ثمانية عشر يوماً (كل يوم مسيرة ثمانية عشر ميلاً) . وقد أسر الجيش نحواً من مائتي شخص ، بيع معظمهم في طرابلس .

تزين نساء قبيلة بوركو شعورهن في ضفائر تتدلى من الرأس ، ويقص الشعر فوق الجبهة . ويشاع بأن الفتيات هناك يحملن من إخوانهن .

وإلى الشرق تقع « عرنة » (Arna) وهي مركز قبيلة أخرى من التيبو على بعد مسيرة خمسة أو ستة أيام .

ويسكن « التبابو » (Tebabo) [1] جنوب غربي أوجلة ، ويتعرضون سنوياً لحوادث النهب من قبل عرب بنغازي إذ يتوجهون مع عرب أوجلة لسرقة الرجال والبلح ، ويقودون معهم لهذا الغرض مئات الجمال .

وقد أخبرني أهل أُوجلة ان المسافة إلى تبابو تبلغ مسيرة عشرة أيام ، لا يوجد الماء طيلة الأيام الستة الاولى منها . أما التيبو الذين يسكنون أقصى المناطق جنوباً فهم قبائل من التيبو الرحل الذين يعيشون في بحر الغزال ، والذي يقال بأنه واد طويل خصيب ، على بعد مسيرة سبعة أيام إلى الشمال من « برقامي » .

— ٢ —

يعيش الطوارق غربي فزان وجنوبها ، وهم شعب عظيم ، تحدهم بورنو من الجنوب الغربي ، وبورنو والسودان وتمبكتو من الجنوب ، ويحدهم من الشرق بلاد التيبو وفزان ، ومن الشمال جزء من فزان والعرب المقيمون خلف منطقة طرابلس وتونس والجزائر ، ومن الغرب مملكة فاس العظيمة ومراكش . وتوجد مستوطنات قليلة (من الطوارق) في سوكنة

---

١ تزربو ، وهي اليوم اسم مكان وليست اسم قبيلة .

(ضمن مملكة فزان) وفي أوجلة وسيوه ، وفي الأخيرة يتحدث الناس لغة الطوارق فقط .

ينقسم الطوارق إلى شعوب وقبائل متعددة ولكنهم جميعاً يتحدثون لغة واحدة ، ولكن يبدو من لونهم وطريقة عيشهم أنهم يختلفون من حيث الأصل . ولما كنت سأقدم معلومات معينة فسأقتصر على الحديث عن طوارق « كلوفي » (Kolluvi) وقبيلة هجار (Hagara) [1] . ويلاحظ ان هؤلاء يميلون الى النحافة وطول القامة ، مشيتهم رشيقة ومظهرهم جاد ميال إلى القتال . ولو أنهم كانوا ذوي ثقافة لمكنتهم مواهبهم الطبيعية من الوقوف في مصاف أعظم أمم الأرض . والواقع ان شخصية الفرد منهم تبعث على الاحترام الشديد لهم . ويتميز أفراد القبائل الغربية ببياض البشرة ، بالدرجة التي يسمح بها المناخ وطريقة العيش . ولكن يلاحظ ان لون الكلوفيين ، الذين وصلوا « اسبن » وهزموا أغاديس واختلطوا مع الأمم الأخرى ، يميل إلى السواد ، إلا أن هيئتهم تختلف عن هيئة الزنوج . ويميل أهل هجار ، كالعرب ، إلى الصفرة ، أمـا القبائل المجاورة للسودان فهي سوداء تماماً . ويتكون ملبس هذه الأمة من سروال واسع أزرق اللون ، وثوب قصير من نفس اللون ، له أكمام قصيرة يربطونها خلف رقابهـم كي تصبح أذرعهم حرة طليقة . ويلفون على رؤوسهم قماشاً أسود اللون ، بطريقة تجعله يبدو من بُعد وكأنه خوذة ، ولا تبدو منه إلا الأعين . وهم يقصون شعورهم ويتركون بعضاً منها على قمة أعلى الرأس . ويلفون حول الخصر حزاماً داكن اللون ، وكذلك تتدلى عدة حبال من الكتف تعلّق فيها مصاحف في حقائب من الجلد ، وعدد من الحقائب الجلدية الصغيرة تضم الأحجبة والتعاويذ . ويحمل الرجال دائماً في أيديهم رماحـاً صغيرة دقيقـة الصنع طولها يقارب خمسة أقدام ، ويلبسون في أعـلى المرفق

---

[1] هي اتحاد قبائل وليس قبيلة واحدة .

الايسر شارتهم القومية ، وهي عبارة عن إسورة غليظة،سوداء أو داكنة، من العظم أو الحجر .

واللباس الخارجي هو ثوب سوداني يتدلى فوقه من الكتف سيف عظيم . ويحمل التجار المتجولون من هذه الأمة أسلحة نارية ، ويستعمل غيرهم مجرد السيوف والرماح والمدى ، يحملونها على أذرعهم اليسرى، كالتيبو ، ولكن مقابضها أجمل صنعاً ، لأن لهم قدرة كبيرة على تشكيل النحاس بلون براق ، كما يفعل الفنانون الانجليز ، وهم يحتفظون بهذا الفن سراً بينهم .

يسيّر الطوارق تجارة بين السودان وفزان وغدامس ، وتبعث قوافلهم الحياة في مرزق ، التي تصبح بدونهم مجرد صحراء قاسية ، لأنهم ، كالسودانيين ، يحبون المعاشرة والمرافقة ، والأغاني والرقص .

وليس الطوارق جميعهم مسلمين ، ففي المناطق المجاورة للسودان وتمبكتو يعيش قوم من الطوارق البيض من أصل وثني، وهذا ما يذكّرني بأقوال عدد من المتعلمين الذين ذكروا وجود مسيحيين بيض بجوار تمبكتو، ولكنني مقتنع بأن الالتباس ناشىء من « نصارى » التي يطلقها العرب والمسلمون على الكفار عموماً .

ويعيش معظم الطوارق الشرقيين حياة متنقلة . فهنالك ، مثلاً ، موقع تحت سيطرة هجار يتكون من نحو خمسة وعشرين بيتاً من الحجر ، ولكنه وقت الأسواق يشهد عدة مئات من الرجال الذين يجتمعون في ذلك المكان في خيامهم الجلدية .

- ٣ -

تقع تمبكتو خلف هذه البلدان ، غير اني لن أقول الآن شيئاً عن تمبكتو ، لأنني لم أجمع معلومات اكيدة عنها ، لاتصالها المحدود بفزان، ولكنها أهم مدينة في دواخل افريقيا .

والى الشرق من تمبكتو تقع السودان أو هاوسة Hausa أو أسنة Asna ، والاسم الأول هو الاسم العربي لهذا البلد ، أما الثاني فهو المستخدم هناك ، وأما الثالث فهو الاسم الذي يطلقه عليه أهل بورنو . وقد اخترت من بين هذه الاسماء الاسم الثاني لأنه أكثر شيوعاً ويعرفه العرب جنوب السودان وكذلك جميع سكان الأراضي الواقعة جنوب غادن Ghaden . والملاحظ ان الاسم الذي يستخدمه أهل بورنو يدل على كانو وعلى كشنة [1] والمنطقة الواقعة شرقي « اسنة » ، وهم كذلك يعنون خطأً مدينة « تمبكتو » .

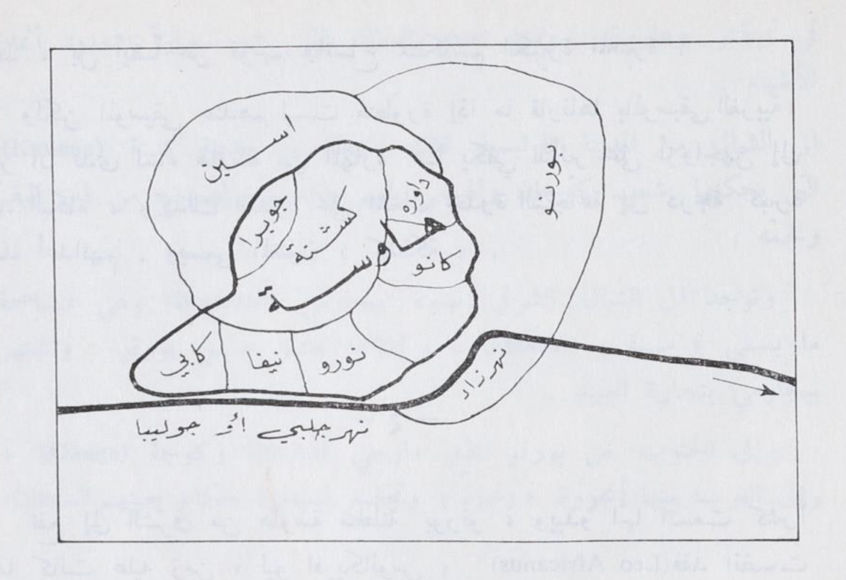
أما ما يسميه السكان أنفسهم باسم « هاوسة » فإن لدي كما اعتقد معلومات أكيدة عنها . فقد أعطاني أحد السكان ، وهو مرابط ، رسماً للمناطق المختلفة المحيطة بحوسة من جميع الجهات ، أقدمه كما تلقيته .

ويلاحظ أن الأراضي الواقعة داخل الخط البارز هي هاوسة ، وقد حذف صديقي الزنجي « آسبن » .

ويحكم هذه المناطق سلاطين ، أقواهم هم حكام كشنة وكانو ولكنهم جميعاً يدفعون الضرائب لسلطان بورنو ، عدا سلاطين كبي أو نيفي ، لأن بلدهم بعيد جداً . وتتحد زمفرة (Zamfara) مع جوبر (Guber) ،

---

١ كشنة هي كتسينة ، وهي مدينة شمال النيجر ، وفيه أيضاً توجد كانو . (المعرب)



لأن سلطان الثانيـة استولى على الاولى وقتل السلطان وباع جميع الاسرى الذين أسرهم .

ويعتبر سكان هـاوسة من الزنوج ، ولكنهم ليسوا شديدي السواد ، وهم أذكى شعب في دواخل افريقيا ؛ وهم يتميزون عن جيرانهم بهدوء واضح ، وانوفهم أصغر وأقل فلطحة ، وقاماتهم أكثر اعتدالاً من قامات الزنوج . ثم ان لديهم ميلاً شديداً للطرب والرقص والغناء ، وشخصياتهم معتدلة ومطبوعة على الكرم . وتنتشر في بلادهم الصناعة والفنون والزراعة ، وهم متفوقون عـلى أهل فزان الذين يجلبون الجانب الأكبر من ملابسهم وامتعة منازلهم من السودان . ويستطيع أهــل هاوسة صبغ أي لون عدا اللون الارجواني ، ويصنعون الجلود بدرجة تضاهي جلود اوروبا ، رغم أن الطريقة التي يتبعونها في صنعها متعبة جداً . وأقول ، باختصار ، ان لدينا فكرة سيئة وظالمة عن هذا الشعب ، لا بالنسبة للزراعة وقدرات أفراده

فقط ، بل أيضاً عن قوتهم واتساع ممتلكاتهم الكبيرة المعتبرة .

ولكن الموسيقى عندهم ليست متطورة إذا ما قارناها بالموسيقى الغربية ، غير ان لدى نساء هاوسة من المهارة ما يكفي للتأثير على أزواجهن إلى حد البكاء ، وكذلك القدرة على اشعال جذوة الشجاعة إلى درجة كبيرة ضد أعدائهم . ويسمى المغنون « كدنكة » .

— ٤ —

تقع إلى الشرق من هاوسة سلطنة بورنو ، ويبدو انها اتسعت كثيراً عما كانت عليه زمن « ليو افريكانوس » (Leo Africanus) فقد انضمت اليها مناطق أخرى ، ذكر هو انها كانت مستقلة ، منها ونقرة (Wangara) ، وكوجا (Cauga) التي ذكرها الادريسي .

ويعتبر سلطان بورنو أقوى سلاطين المنطقة وتدفع جميع الدول المجاورة الضرائب له .

ويعتبر أهل بورنو أشد سواداً من أهل هاوسة ، وهم زنوج تماماً ، إلا أنهم أشد قوة وأكثر صبراً على العمل ، واكبر صفة مميزة لهم هي اللامبالاة . وهم كذلك اكثر جرأة وأشد صلابة من أهل حوسة . والملاحظ أن رجالهم مولعون بالنساء البدينات ، في حين أن السودانيين ، على العكس من ذلك ، يفضلون الرشيقات زوجات لهم .

والغذاء الوحيد لأهل بورنو هو عجينة من الدقيق واللحم ، أما شرابهم فهو نوع مركز من البيرة . ويعتبر النحاس أهم انتاج لبورنو ، ويقال بأنه موجود على شكل قطع صغيرة . ويقابل النحاس في بورنو الذهب

في تمبكتو وهاوسة ، ومنه تصنع العملة التي تعتبر معياراً لتحديد أثمان الأشياء .

الى الشمال من المدينة الرئيسية لتلك المنطقة تقع مدينة كنينة (Kanena) التي يسكنها شعب كوجان والمسمى باسم طعامهم المصنوع من لبن البقر ولحمه .

وتوجد الى الشمال الشرقي مدينة بيجارمي (Begarme) وهي عاصمة ما يسمى « مسنة » (Mesna) ، وكلتاهما تعتمد على بورنو . وتشتهر بيجارمي بتجارة العبيد .

وإلى الجنوب من بورنو تقع مارجي (Margi) وكوجة (Couga) ، وإلى الغرب منها أنجورة « ونجرة » وتخضع لسيطرة حكام يعينهم السلطان.

— ٥ —

تقع الى الشمال سلطنة لوسي (Lussi) ، ويسميها السكان « فترى » (Fittri) ، ويسميها سكان الشرق كوجو (Cougu) وتقع ممتلكات سلطان فتري حول بحيرة تحمل نفس الاسم[١] . وقد كانت هذه السلطنة فيما مضى أقوى البلدان ، ولكنها أصبحت الآن ذات قوة مضمحلة لكثرة اعتداءات سلاطين بيجارمي ووادي . ويعيش السكان في أكواخ صغيرة يفضلونها على المنازل ، ويقال بأنهم لا يتمتعون إلا بقدر ضئيل من الحضارة . والغريب انه لا يوجد ملح في هذا البلد ، ولكن الناس يصنعونه بالطريقة التالية :

---

١ هي سبخة فتري في تشاد حالياً (المعرب) .

يحرقون كوماً كبيراً من القصب ثم يجمعون رمـاده ويضعونه في سل ويصبون المـاء عليه ، ثم يتلقونه أثناء مروره من السل . وعندما يغلون هذا الماء يتبخر عن الملح .

وإلى الجنوب الشرقي من فتري تقع متكو (Metko) ، وهي منطقـة مستقلة صغيرة في جهات جبلية . وتوجد إلى الشرق « وادي »[1] وكانت في السابق تتكون من عدة دول ، ولكن العرب فتحوها ووحدوهـا في في سلطنة واحدة ، لغتها الرئيسية هي العربية ، بجانبها الى الشرق نحو من عشر لغات أخرى . والواقع أن العرب يسيطرون على المنطقة من وادي حتى بجرمي في الشمال .

وإلى الشرق من وادي تقع دارفور ، ينبع منها نهر تزدهر على ضفافـه زراعة قصب السكر ، ويسير عبر وادي ثم يصب في بحيرة فتري المذكورة آنفاً . وقد وجدتُ صعوبة في حساب محيط هذه البحيرة لأنها تتسع في فصل المطر الى الضعف ، ولكن محيطها في الأيام العادية يبلغ مسيرة أربعة أيام إلى ثمانية أيام .

— ٦ —

يسير النهر الذي شاهده السيد بارك في رحلته لتمبكتو الى الجنوب من هاوسة ، وهو يروي نيفي وكابي ، ويسمى هنـاك جلبي ، ويسير نحو الشرق في منطقة بورنو ، حيث يصبح اسمه نهر زاد ، وهذا يعني : النهر

---

١ في السودان حالياً .

العظيم ؛ ويسمى كذلك في بعض اجزاء هاوسة « كورة » ، أي النهر العظيم .

وقد اتفق قول جميع من سألتهم عن المناطق البعيدة من هذا النهر بأنه « يجري في أراضي المجوس (الكفار) ، قرب سنار ، وأكد آخرون انه يمر بدارفور في سيره نحو الشرق ثم يتجه الى القاهرة مكوناً مجرى واحداً مع نيل مصر » .

وقد أخبرني مصري من اسيوط ، سافر مرات الى دارفور والجنوب لجمع العبيد ورجع أخيراً عبر وادي وفتري وبجرمي الى السودان ، بأن النهر الذي يسمى « بحر العرب » هو نفسه هذا النهر ، ولكنني لم استطع جمع أخبار عن بحيرة داخلية كبيرة ، رغم انني قمت بكل التحريات الممكنة .

ويوجد ، بالاضافة الى هذين النهرين العظيمين اللذين وصفتهما ، سبعة بحار صغيرة في هاوسة ، وهي تصب في جلبي قرب برفة . ويقع الى الشمال من بورنو نهر يختفي بين الجبال ، ويقال بأن مياهه تغور في الأرض . والملاحظ ان مياه جميع هذه الأنهار تنخفض كثيراً وقت الجفاف ، ثم ترتفع وتتسع الى درجة مذهلة في فصل المطر . وقيل لي بأن عرض نهر زاد ميل واحد (وقال آخرون بأنه ميلان) ، ولكن عرضه في فصل المطر يصبح مسيرة يوم كامل (أي ثماني ساعات) [١] .

ويعيش « البدوماس » (Budumas) دائماً وسط هذا المجرى ، وهم وثنيون متوحشون .

هذه المعلومات هي أفضل ما تمكنت من جمعه عن دواخل افريقيا .

---

١ لقد أخطأ هورنمان إذ اعتبر ان تشاد (زاد) هي نهر لا بحيرة .

وقد تغاضيت في هذا الصدد عن ذكر رجال لهم ذيول ، لا رقاب لهم ولا شعر ، ولا يعيشون على الأرض بل في البحر العظيم [١] .

سيكون من السهل كتابة رسائل عديدة لكم من دواخل افريقيا ، ولكنني أخشى نقل معلومات غير دقيقة أو غير حقيقية . وبالاضافة لذلك، ألست عائداً الى انجلترا ؟ وان عدت ، ألا يجب ان احتفظ بمعلومات جديدة ومثيرة تكون عذراً لعودتي ؟

إذا لم أهلك في رحلتي فإنني آمل ان أتمكن في غضون خمس سنوات، من تقديم معلومات واسعة للجمعية عن الناس الذين اوجزت القول عنهم.

١٧٩٨ توقيع

فردريك هورنمان

مقتطفات من رسالة مرافقة للمعلومات السابقة ، مؤرخة بطرابلس في ١٩ أغسطس ١٧٩٩ :

بعد رحلة من سيوه دامت أحد عشر يوماً ، كنا نسافر في أربعة منها ثماني عشرة ساعة عبر الصحراء كل يوم ، وصلنا الى أوجلة ، وهي قرية صغيرة وبائسة ، تتبع طرابلس . ثم وصلنا بعد رحلة دامت ستة عشر يوماً أخرى الى تمسة ، وهي أول قرية بفزان . وكنت في سبعة من هذه الايام الستة عشر أسير في صحراء صخرية سوداء ، هي بالتأكيد أسوأ طريق في العالم، ولا بد أنها تكونت بفعل ثورة بركانية . انها تسمى « الهروج » ، وتمتد بعيداً في اتجاه الجنوب الغربي .

ومن تمسة مررت بزويلة وطويلة وتراغن الى مرزق (التي تسمى

---

١ هذه إحدى خرافات ذلك الزمن (المعرب) .

أيضاً فزان من قبل شعب بورنو) وتقع مرزق على خط عرض ٢٥° .

وقد قمت بجمع كل التحريات الممكنة عن دواخل افريقيا وسأبعث لكم بنتائج ذلك في أول فرصة مواتية ، وارجو حالياً قبول الملاحظات التالية حول هذا الموضوع .

إن النهر الذي تسمونه بالنيجر — ويسمى في السودان « جلبي » ، او جاورة ، وفي بورنو « زاد » — هو نهر عظيم [١] ، يصب فيه أكثر من اثني عشر نهراً آخر . وهو ، كما قيل لي ، يأتي من تمبكتو ويسير جنوب هاوسة في امبراطورية بورنو ؛ ويتخذ هنا مسيرة أكثر انحرافاً نحو الجنوب ، ثم ينحدر جنوب دارفور الى النيل (لم يوجد واحد على الأقل يقول عكس ذلك) . وهناك نهر آخر قادم من دارفور يمر بوادي وميثو وينتهي في بحيرة عظيمة تسمى « فتري » وهي في مملكة تسمى عند اهلها باسم « فتري » ، وتسمى عنـــد الشعب المجاور لهم من الشرق باسم « كوجو » ، وعند المجاور غرباً باسم « لوسي » . ويبلغ محيط فتري مسيرة أربعة أيام ، ولكنه يزداد كثيراً في فصل الأمطار ، حيث تفيض البحيرة على الأراضي المحيطة بها ، ولكنها بعد الجفاف تحرث وتزرع .

وهنالك نهر كبير آخر قرب « مسنة » (Mesna) ولكنه يكتسب أهمية في فصل الأمطار فقط . وايس بحر الغزال نهراً ولكنه واد طويل خصيب يسكنه التيبو الرحل في بيوت من الجلد .

وتعتبر بورنو أقوى مملكة في دواخل افريقيا ، وتأتي بعدها « اسبن » ، ويسكن سلطانها في اغاديس . ويدفع ملوك بلدان هاوسة ضرائب لبورنو ، وهذه البلدان هي : كشنة ودورة (Daura) وكانو (Kano) وسوفاو (Sofau) ونورو (Noro) ونيفي ، وجواري (Gwari) وكابي (Cabi) وجوبر (Guber) .

---

١ كان هورنمان يعتقد ان بحيرة تشاد جزء من النيجر .

وتدفع كشنة كل سنة مائة عبد . ويدفع البعض لبورنو واسبن . ويعتبر ملك أسبن مع الجزء الأكبر من شعبه من طوارق كلوفي . ويلاحظ أن الكثير من طوارق تمبكتو من البيض ، وتوجد كذلك قبيلة أخرى بيضاء قرب بورنو ، شأنهم شأن عرب الساحل الافريقي .

وتدفع بيجارمي الجزية إلى بورنو ؛ ويحكم ونجاره وكوجو ضباط يعينهم السلطان .

هنالك اعتقاد شائع عند أهل بورنو وأهل فزان بأن بلديهم يقعان على خط طول واحد ، علماً بأن بورنو تبعد عن كشنة مسيرة عشر يوماً ، أي نحواً من ٣٣٠ ميلاً ، وتبعد فترى عن بورنو مسيرة خمسة وعشرين يوماً .

ويعتبر الجانب الأكبر من سكان وادي ، بالاضافة إلى ملكهم ، من العرب . وهنالك إلى الجنوب الغربي من أوجلة ، وعلى بعد عشرة أيام منها ، أي حوالي مائتي ميل ، قوم يسمون الفيبابو (Febabo) ، ويوجد كذلك على بعد بضعة أيام إلى الجنوب شعب بيرجو (Birgu) ، وكلاهما من التيبو ، أرضهم جميلة وخصيبة ويقال بأنهم وثنيون . ويردد أهل أوجلة في حديثهم عن هؤلاء ما قاله هيرودوت عندما تحدث عن التروجولديت الاثيوبيين ، ممن كان يصطادهم الجرمنتيون ، وأن « لغتهم تشبه صفير الطيور » .

ولكن الطوارق هم أهم شعوب أفريقيا ، ويسيطرون على الأراضي الواقعة بين فزان وغدامس ومملكة مراكش وتمبكتو والسودان وبورنو وبلاد التيبو . وينقسم الطوارق إلى عدة شعوب ،منهم الكلوفي في آسين والهجارة قرب فزان ، وهم في مقام الزعامة بينهم .

واعتقد انه لا يوجد في دواخل افريقيا أحد من المسيحيين أو ذوي

الأذنـــاب ، والملاحظ ان المسلمين يطلقون اسم « النصارى » لا عـلى المسيحيين وحدهم ، بل أيضاً على جميع الأقوام الأخرى الغير مسلمة . وبالنسبة لذوي الأذناب فلم أسمع خبراً عنهم إلا مـن شخص واحد قـال بأنهم على بعد مسيرة عشرة أيام جنوبي كانو ، وقد سماهم الـ « يم يم » Yem, Yem ، وقال بأنهم من أكلة لحوم البشر [1] ، وسأصل خلال عشرة أشهر قريباً من تلك الجهات .

عليّ الآن ان انهي رسالتي التي آمل ان تصلكم وأنتم في أحسن صحة وعافية .

فريدريك هورنمان

---

١ يطلق السودانيون على أكلة لحوم البشر اسم « نم نم لم لم » وهذا قريب من اسم هورنمان .

رسائل
الرائد الكسندر جوردون لينج
١٨٢٤—١٨٢٦

القسم الثاني

مقـدّمة

الفَصـلُ الأوّل

مادة الرسائل

نشرت مذكرات موجزة عن جوردون لينج في مجلات مختلفة ، وذلك بعد مرور سنتين على وفاته ، ومنذ ذلك الحين ظل اسمه بالاضافـة لما أنجزه ، يتردد في مؤلفات لا حصر لها ، مما يدور حـول المكتشفات الجغرافية وتاريخ أفريقيا . غير أنه لم تبذل محاولة ما بعد ذلك لكتابـة تقرير محدد حول الرحلة التي كانت سبيله الى الشهرة ، وأصبح بالتـالي أكثر الرواد الافريقيين إهمالاً . ويرجع السبب في ذلك ، مـن جهـة ، الى انه ، مثل هورنمان ، لم تكتب له الحياة ليقص حكايته ، وكذلك لأنه ، من جهة أخرى وبخلاف هورنمان ، لم يترك يوميات تستحق النشر ، ثم أيضاً لأن الناس فقدوا الاهتمام بتمبكتو حالما علموا من كاليه (Caillié) ، بعد وفاة لينج مباشرة ، ان تلك المدينة لم تكن قريبة بشكل مـا من الصورة الرائعة التي رسمت في أذهانهم من حيث الثروة والعظمة المعمارية .

وقد خيب ذلك آمال الجمهور الذي تغذى خياله وحبه للقصص من مصادر أخرى ، ولم يعد راغباً في سماع المزيد من أخبار لينج، مما جعله بالتالي يتوارى في طي النسيان .

ولكن الوثائق الأساسية عن لينج ظلت طيلة هــذا الوقت متوفرة لمن يريد دراستها .

كانت آخر رسائل لينج التى كتب لها البقاء رسالة مؤرخة من تمبكتو في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٢٦ ، أي قبل أيام ثلاثة فقط من وفاته . ولكننا لم نعرف قط كم فقدت من رسائل هذا المراسل الذي لم يعرف الملل ، غير ان ما تبقى منها يكفي لنسج قصة عن رحلته العظيمة ، فيما عــدا مرحلتها النهائية والمأساة التي توجت تلك الرحلة [1] .

كانت رسائل لينج تتوجــه إلى ثلاثة أشخاص هم : العقيد هانمر وارنجتون (Hanmer Warrington) [2] القنصل البريطاني العام في طرابلس، وادوارد سابين (Edward Sabine) [3] ، وجيمز باندينال (J. Bandinal)[4]. وقد عنونت جميع الرسائل المدونة في هذا الكتاب لواحد منهم أو لآخر ، بالاضافة الى الرسائل الرسمية التي وجههـــا الى وزارة المستعمرات وبعض الرسائل التي بعث بها لأسرته في اسكتلندة ، ولم نحظ إلا بواحدة منهـــا فقط . والجدير بالذكر ان معظم مـــا تبقى من رسائله يرجع السبب في

---

١ في الصفحات التالية نشاهد معظم رسائل لينج ، لا كلها .

٢ كان لينج يسجل مظاريف رسائله باسم وارنجتون ، لا الرسائل نفسها . وقد قال وارنجتون بأن الكثير منها لم يصل ، لكننا لا نعرف عددها .

٣ النقيب أدوارد سابين (١٧٨٨ – ١٨٨٣) وهو الذي أصبح سنة ١٨٦١ برتبة لواء ، ثم تهيأ لاستلام وظيفة « رئيس الجمعية الملكية » .

٤ كان باندينال حينذاك كاتباً في وزارة الخارجية البريطانية ، ثم لعب فيما بعد دوراً هاماً في مكافحة تجارة الرقيق .

نجاتها لأنهـــا كانت معنونة باسم وارنجتون الذي كان ، كقنصل عام ، يضعها في السجلات الرسمية . أما رسائل سابين وباندينال فقد حفظت في ظروف سنتعرض لها قريباً .

وكان لينج يكتب أيضاً مذكرات خاصة به ، لكنها لم تكن تعـــدو ملاحظات موجزة على أوراق رديئة ، وإن كانت أحياناً عـــلى شكل دراسات طويلة جيدة التحضير والاعداد ، مثل « ملاحظات عـن مجرى ومصب نهر النيجر العظيم » وكذلك « ملاحظات حول غدامس » وكلاهما مدونة في نهاية هذا الكتاب .

ويوجد مع جميع هذه الاوراق جزءان مـــن يوميات لينج ، لكنهما يضمان قصة رحلته الى غدامس فقط ، ويبدو انهما مجرد ملخص ليوميات خاصة مسهبة ، أعدّا وأرسلا الى لندن كتقرير رسمي لوزارة المستعمرات حول سير بعثته وتقدمها . ورغم أنهما أكثر فتوراً وأقل معلومات مـن رسائل لينج فإنهما مفيدان كتعريف وتدقيق للرسائل، ولذا فقد ضُمنا أيضاً في هذا الكتاب .

وليس أقل من ذلك أهمية ما كان يرسله وارنجتون مـــن تقارير الى وزير الخارجية (البريطانية) ووكيل الوزارة ، وتعتبر هذه التقارير بالنسبة لقصة « بعثة تمبكتو » (كما كانت تسمى رحلة لينج) كاملة الى حد ما. غير انه لم يبق إلا القليل من رسائل الوزير الى وارنجتون ، ولم يبق شيء من رسائله الى لينج .

يمكن الرجوع إلى أصل معظم مادة هذا الكتاب في مقرين : « مكتب المحفوظات العام » و « سجلات الجمعية الملكية » . وطبيعي ان يكون الأول أكثر أهمية لاحتوائه على جميع سجلات مطلع القرن التاسع عشر الواردة من القنصلية البريطانيـة في طرابلس والتي تكون رسائل لينج إلى وارنجتون جانباً منها .

غير ان مصدر مجموعة وثائق الجمعية الملكية هام أيضاً ، فهي تضم مفكرتين من مفكرات لينج ، إحداهما مسودة لسيرة حياتـه فيها قصة حياته القصيرة حتى مغادرته جزر الهند الغربية ، والأخرى فيها جزء من كتابه حول رحلاته في سيراليون . وهنالك عدد من الرسائل الأصلية حول رحلته إلى تمبكتو موجهة إلى سابين وباندينال بالاضافة الى نسخ ومسودات لرسائل كتبها لينج أو كان ينوي كتابتها ، ويوجد مع هذه الرسائل عدد من المذكرات بخط لينج حول موضوعات متنوعة . ويبلغ عدد هذا الخليط من الرسائل والمسودات والمذكرات ، بالاضافة الى المفكرتين ، ١٤٨ بنداً .

وقد وصلت مجموعة وثائق الجمعية عن طريق روبرت سكوت وكان قد تلقاها من السيدة سابين كي يحفظها في الجمعية الملكية أو في « الجغرافيا الملكية » . وكان السيد سابين قد تسلم ذلك من ج. باندينال عندما أحس الأخير بدنو أجله ، كما تبين رسالتان محفوظتان في « محفوظات الجمعية الملكية ». وتشمل هذه الوثائق ثلاث عشرة رسالة موجهة الى باندينال .

ولكن لا يعرف بالضبط كم وقعت في يدي سابين مـن رسائل لينج الشخصية أو من نسخ رسائله للآخرين أو المذكرات التي كتبها بخصوص رحلته . وتشمل المجموعة أوراقاً كانت معه في تمبكتو ، ولكن لا يحتمل أن يكون أي منها معه عندما توفي .

وتحمل الكثير مـن سجلات لينج الموجودة في « مكتب المحفوظات العام » تواريخ قريبة من وفاته ، وتتصل بالمتاعب الدبلوماسية التي نشبت بين بريطانيا وفرنسا والمتسببة عن اختفاء الأوراق التي كانت معه ، وخاصة مذكراته ، وقت وفاته أو قبيل وفاته مباشرة . ويقال بأن القنصل الفرنسي في طرابلس هو الذي سرق الأوراق المفقودة ، وأن للباشا صلة بمقتل لينج .

ويوجد ضمن الأوراق المحفوظة في « مكتب المحفوظات العـام » وثيقة ، رغم انها غير ذات أهمية كافية لتضمينها كاملة في هذا الكتاب ،

إلا انها تفيد في سرد قصة لينج المتناثرة الأجزاء في جزء متكامل . وهي عبارة عن تقرير غير مؤرخ ، يحكي قصة جوردون لينج منذ وصوله إلى شمال افريقيا حتى تاريخ التحقيق الرسمي في طرابلس حول الاختفاء المريب لأوراقه بعد وفاته . ويغطي هذا التقرير ستاً وستين صفحة مكتوبة بخطين مختلفين ، ولكن يبدو بسبب الأخطاء الاملائية في الأسماء المحلية ، انه نسخة من تقرير كُتب في أفريقيا . ويبدو انه كتب باملاء من وارنجتون أو بايحاء منه على الأقل، وسنشير اليه في المستقبل باسم «التقرير المجهول»

الفَصلُ الثاني

مشكلة النيجر

بعد فشل بعثة هورنمان تولت الحكومة البريطانية القيام بالاشراف على مهمة اكتشاف افريقيا وتمويل ذلك وتنظيمه وكانت الحاجة المباشرة تدعو لاكمال عمل « بارك » (Park) وذلك بتتبع نهر النيجر حتى مصبه ، الأمر الذي كان غامضاً تماماً وباعثاً للتأمل والخيال الواسع . وهكذا وضعت الحكومة يديها على مهمة ربما تستغرق ربع قرن لاكمالها ، وربما كانت ستتركها لولا خوفها من قيام حكومة اخرى كفرنسا من جني الثمار التي كانت تنتظر من يكتشفها في دواخل افريقيا . وكان يعتقد بأن النيجر هو مفتاح لتلك الثروات المجهولة .

كانت هنالك ثلاثة آراء حول مصب النيجر . فربما كان هو نفسه نهر النيل ، أو انه نهر الكنغو ؛ أو انه ، كما قال رينل ، يضيع بالتبخر أو التوزع في مكان ما من قلب القارة . وقد وجد حل أقل احتمالاً ، اقترحه الجغرافي الألماني ريتشارد (Reichard) وهو انه يفيض ويصب في

« خليج بنين » « Bight of Benin » ، ولكن هـذا الرأي واجـه الرفض بحجة أن سلسلة من جبال الجرانيت تجعل دخوله للخليج أمراً مستحيلاً . وكان الواضح ان أفضل طريقة لحل المشكلة هي تتبع مجرى النهر في اتجاه مصبه ابتداءً من حيث انتهى « منجو بارك » عند سالا (Sélé)

ولذا قامت الحكومة (البريطانية) سنة ١٨٠٥ بشن حملـة من أكثر من خمسة وأربعين رجلاً من الاوروبيين وعلى رأسهم « بارك » . ولكن النتيجة كانت مصيبة كبرى ، إذ لم يبق منهم أحد عـلى قيد الحياة ولم يعرف عن الأمر شيء ما .

ثم حاولت الحكومة بعد بضع سنوات ، في ١٨١٦ ، اختبار نظرية النيجر – الكنغو ، بارسال حملة لكل من النهرين ، إحداهما تحت قيادة النقيب (كابتن) « تكي » (Tuckey) لمتابعـة الكنغو من مصبـه ؛ والاخرى تحت قيادة الرائد (ميجور) « بيدي » (Peddie) لمحاولـة السير من ساحل غينيا . ولكن كلتا البعثتين انتهتـا بمأساة دون الوصول إلى معلومات ما .

بعد هذه البعثات المفجعة المتجهة من الساحل الغربي أصبح يبدو وكأن الجمعية الافريقية هي الصائبة في رأيها بتمسكها بضرورة بدء الارتياد من شمال القارة ، وقد وجد هذا الرأي تشجيعاً من جانب البحرية البريطانية . ففي سنة ١٨١٦ توجه اميرال بحري هو يو. هـ. سميث (W.H. Smyth) من مالطة إلى طرابلس موفداً لفحص « بعض الآثار المعمارية ، كان الباشا قد قدمها باقتراح من القنصل العام العقيد وارنجتون ، كهدية للوصي على العرش » . وفي هذه المناسبة ، وفي زيارات تاليـة بخصوص الآثار التي أخذت من « لبدة » ، عرف سميث الكثير عن البلد وعن مناطقه الخلفية ،

وتأثر بطبيعة الباشا يوسف القره منللي الودية إلى درجة اقتنع معها بضرورة استئناف محاولات ارتياد دواخل افريقيا من جهة الشمال. وكتب في مارس سنة ١٨١٧ قائلاً: « يستطيع المسافر عندما يتجه من طرابلس صوب الجنوب أن يصل إلى بورنو قبل أن يخرج من حيز نفوذ يوسف؛ ومهما بلغ من مواقع فإنه سيشعر بالأمان كمواطن بريطاني. والواقع انني عندما افكر في مهالك الملاريا التي تنتشر على طول ضفاف الأنهار على الساحل الغربي، أجد ان هذا الطريق (الشمالي) ينبغي أن يكون هو الطريق المرغوب فيه، لأنه الطريق العملي المتجه إلى قلب أكثر أجزاء العالم غموضاً » لقد كان من غير المرجح أن نسمع المزيد عن هذا الاقتراح لو لم يكن وكيل البحرية في ذلك الوقت هو الرجل اللامع «جون بارو» (John Barrow)[1] والذي كان نفوذه يمتد في ميدان واسع من ميادين المعرفة. فمن بين الموضوعات التي كان حجة فيها موضوع ارتياد افريقيا، حيث يعتبر لرأيه وزن راجح. وكان من الطبيعي أن يصل اقتراح سميث إليه في « إمارة البحرية »، وقد وجد فعلاً التشجيع من جانب «بارو» ويبدو انه حوّله إلى وزارة المستعمرات[2] مع توصية قوية بتبني ذلك الاقتراح. وبعد عدة سنوات أعلن سميث، الذي أصبح برتبة «عميد في البحرية » مفتخراً بأن نتائج تحرياته في شمال افريقيا كانت ناجحة إلى درجة أدت إلى توسيع المعرفة الجغرافية وبعثت على قيام رحلات ريتشي وليون وأودني ودينهين وكلابرتون .. وفوجل ».

ويبدو ان ادعاء سميث وجد له ما يبرره، فبعد ستة أشهر من

---

[1] عين بارو سكرتيراً ثانياً للبحرية من ١٨٠٤ إلى ١٨٤٥، وقد قام بجهود كبيرة لتشجيع اكتشاف الآثار وكان مهتماً بشمال افريقيا.

[2] كان وكيل وزارة المستعمرات مسئولا عن البعثات الحكومية لافريقيا، وتتبعه مباشرة القنصليات البريطانية فيها.

اقتراحـــه بارتياد القارة من الشمال كان صديق للسير جوزيف بانكز (Joseph Banks) يخطط للوصول الى تمبكتو عن طريق طرابلس . وقد بدأت فعلاً في العام أول حملة من طرابلس يقودها السير جوزيف ريتشي (Joseph Ritchie) ، ومعه النقيب لايون كمرافق له ، وكان هدفهما اختراق الصحراء وارتياد الدواخـــل . ولكن ريتشي توفي في مرزق ولم يستطع لايون التقدم أكثر من ذلك قبل العودة للتزود بالنقود . وقد أدت تحريات لايون حول النيجر إلى استنتاجه بأن مياه هذا النهر تلتقي مع نيل مصر العظيم ، بطريقة أو بأخرى .

وسرعان ما قررت الحكومة إرسال بعثة أخرى ، بدأت فعـــلاً سنة ١٨٢١ سالكة نفس الطريق ، وهي حمـــلة الدكتور « أودني » والرائد ديكسون دينهام ، والنقيب هيو كلابرتون التي عبرت الصحراء وارتادت هاوسة وبورنو وبحيرة تشاد . وقد حققت إنجازاً عظيماً إذ تحولت بخفـــة ويسر في إحدى أغنى المناطق من الدواخل التي لم يسمع عنهـا إلا القليل منذ رحلات « ليو أفريكانوس » في مطلع القرن السادس عشر الميلادي. ولكن « بعثـــة بورنو » ، كما كانت تسمى ، فشلت في الوصول إلى النيجر .

غير أن دينهام وكلابرتون (أما أودني فقد توفي في كانو) قامـــا بإجراء تحريات مستفيضة حول مجراه ومصبه . وقد علم كلابرتون في كانو وفي « سكوتو » بأن نهر النيجر يصب في البحر عند خليج بنين . ولكن الخريطة التي رسمها له سلطان سكوتو تبين ان هذا النهر هو الذي يصل مصر ويسمى النيل ، وهذا مناقض لما قاله السلطان نفسه من انه يسير في اتجاه الغرب . وقد تطابق ذلك مع ما قيل لدينهام في بورنو .

لا بد انه كان من المخيب للأمل أن يتقدم الرائدان لتقديم تقرير عند وصولها الى لندن في سنة ١٨٢٥ ، يفيد انهما بعد سفر دام ثلاث سنوات ،

لم يستطيعا التأكد من مجرى النيجر . ولكن مفاجأة كانت تنتظرهمـا .. فبينما كانا بعيدين في بعثتهما استطاع ضابط شاب اسكتلندي (لينج) يخدم في سيراليون ، ان يثبت بشكل مقنع أنه ، بغض النظر عن مجرى النيجر ، فإن هذا النهر لا يمكن بحال مـا أن يكون نفسه نهر النيل . هذا الأمر هو أول اكتشاف لجوردون لينج اكسبه شهرة عالية .

الفَصَلُ الثَالث

الكسندر جوردون لينج : الجندي

ولد الكسندر جوردون لينج في السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٧٩٤، وهو ابن وليام لينج، مدير مشهور لمدرسة أدنبرة. وأمه هي ابنة وليام جوردون من أكاديمية جلاسكو. وبهذه الخلفية كان من الطبيعي لولدهما، بعد اتمامه الدراسة الجامعية في أدنبرة في سن الخامسة عشرة، ان يستهل حياته كمدير مدرسة. وبعد أن ظل مديراً في مدينة «نيوكاسل» لمدة ستة أشهر عاد ليعمل مساعـداً لأبيه في ادنبرة. ثم التحق هناك بكلية ادنبرة للمتطوعين كي ينضم للجيش. وفي سنة ١٨١١ وافق أبواه، بعد تردد، على خروجه مع الجيش، فاتجه الى بربادوس، حيث كان يعمل خاله جبريل جوردون كعقيد مع الجيش. وقـد أمَّن له خاله هناك رتبة ملازم في المدفعية في انتيجوة (Antigua)، ثم انتقل بعد سنتين الى «لواء جزر الهند الغربية» وتوجه الى جامايكا. ولكنه أصيب هناك بداء في كبده لم يعد بعدها صالحاً للجيش فرجع إلى بيته في اسكتلندة وظـل يتقاضى نصف راتبـه. ولكن جوردون كسب ثقة ضباطه الكبار فرقّي

سنة ١٨١٩ الى رتبة ملازم أول وعاد للخدمة مع لوائـــه في سيراليون (بعد ان تحسنت صحته) .

وفي سيراليون كان نشاط المغتربين البيض عــلى طول ساحل غربي افريقيا ، سواء أكانوا تجاراً أم موظفين أم ضباط جيش ، يقتصر على المنطقة الساحلية ، وذلك لصعوبة السفر في الغابة الاستوائية للحزام الساحلي ، والأهم من ذلك الغاء تجارة الرقيق منذ وقت قريب ، مما جعل تجار الرقيق يحقدون على البيض . وفي سنة ١٨٢١ ، أي بعد خمسة عشر عاماً من الغاء تجار الرقيق ، تبين أنه يمكن استفادة الكثير تجارياً ، وبالتالي سياسياً من ارساء صلات جيدة مع بعض القبائل القوية في الدواخل . وقرر السير تشارلز مكارثي في نهاية ذلك العام ارسال بعثة الى المنطقة الخلفية مـــن كامبيا (Kambia) ومندينجو (Mandingo) ، وذلك « للتأكد من حالة البلد ومدى ميل الناس للتجارة والصناعة ، ولمعرفة أمزجتهم وردود فعلهم تجاه تحريم تجارة الرقيق »[١] . وقد تم اختيار الملازم الذي كـــان يبدي شغفاً عظيماً لارتياد الدواخل .

وقد أدت هذه البعثة وبعثتان تاليتان إلى توغل لينج مسافة مائتي ميل داخل البلاد فوصل إلى « فلابـــة » (Falaba) التي لم يرتدها أحد من قبل ، وهي عاصمة قبيلة سوليمة (Soliam) القوية ، ثم وصل إلى منبع نهر روكيل (Rokelle) . وما أن اكمل ذلك العام حتى أصبح رحالـــة ناضجاً . وقد أبدى براعة كبرى واظهر جميع الصفات اللازمة للمكتشف : فكان شجاعاً وحازماً ودقيق الملاحظة ، والأهم من ذلك انه عرف كيف يتصرف مع القبائل البدائية ، فكسب ثقتهم بما لديه من حزم وعطف . وقد نشر فيما بعد تقريراً عن رحلاته في كتاب يبين مهارته في الوصف .

---

١ من « تعليمات للملازم لينج للتوجه في مهمة إلى كامبيا ومندينجو » – ٧ يناير ١٨٢٢ .

وفي فلابة وجد نفسه ، كما أخبره الناس هناك ، على بعـــد مسيرة أيام قليلة من منبع نهر النيجر في جبل « سومة » (Soma) ، لكنه لم يستطع زيارته لأسباب سنتعرض لها فيما بعد .

وفي سنة ١٨٢٣ ، بعد أن رُقّي إلى رتبة قائد سرية في « القوات الملكية الاستعمارية الافريقية » صدر لـه الأمر بالانتقال إلى ساحل الذهب حيث نشبت حرب بين بريطانيا وقبيلة « أشنتي » . وقد أظهر في تلك الحرب بسالة وشجاعة تجلتا في تطوعـه لانقاذ رقيب بريطاني وقع في أسر القبيلة وسجن في كوماسي (Kumassi) ، ولكن تطوعـــه رفض على اعتبار أن تلك المهمة « شديدة الخطورة » .

وواجهت الحملة زاوية حرجة في العام التالي عندما تغلبت أشنتي على قوة بريطانية يقودها « مكارثي » حيث أُسر ثم قتل .

وتم بعد تلك الكارثة اختيار لينج ، الذي ساءت صحته ، للعودة إلى انجلترا ليقدم بنفسه تقريراً إلى وزير الخارجيـة عن الأحوال الخطيرة على ساحل الذهب ، وبذا أصبح لينج في مجـــال الاهتمام المباشر من جـانب اللورد باثورست [1] .

كان من المفروض ان تنتهي آنذاك مهمة لينج العسكرية لولا الظروف القاسية التي رافقت مغادرته النهائية لغربـي أفريقيا . ويبدو انه كان يوجد هناك بعض اعدائه من ذوي الرتب العالية . فقد شعر لينج ان من حقه ان ينال ترقية بعد كل أعماله إلى رتبة « رائد » ولذا قام عند وصوله إلى لندن بتقديم مذكرة إلى القائد العام دون الاتصال بقائده المباشر . وقد رفض طلبه ثم وافق عليه بتأثير من اللورد باثورست ، مما جاب له سخط

---

١ هنري باثورست منشيء « وزارة المستعمرات » التي ترأسها كوزير ثالث للخارجية من سنة ١٨١٢ إلى ١٨٢٧ .

قائده المباشر الذي قام بكتابة تقارير في غير صالح « لينج » . وكان رد لينج أن وجه رسالة إلى اللورد باثورست كي يوصي القائد العام به خيراً، وارفق برسالته المؤرخة في ١٢ يناير ١٨٢٥ سجلاً بخدماتـــه في السنوات الثلاث السابقة ، يقول فيه :

« قمت في سنة ١٨٢٢ برحلة إلى داخل افريقيـا دامت سبعة أشهر وبطلب من السير تشارلز مكارثي ، أرسيت فيها علاقات ودية مع الكثير من زعماء البلدان الداخلية ، وعملت عموماً على تقوية تجارة ساحل العاج وساحل الذهب مع سيراليون — وقد تلقيت شكراً على ذلك رسالة ثناء وقطعة معدنية ثمينة من تجار المستعمرة .

« وفي الثاني من ديسمبر سنة ١٨٢٢ انقذتُ المستوطنة الأمريكيـــة في ميسورادو (Mesurado) من الابادة على أيدي جيش من السكان،وأمَّنْتُ لها سلاماً ظلت تتمتع به حتى الآن .

« وفي السادس والعشرين مـــن ابريل ١٨٣٢ تقدمت أقود الحرس المتقدم للجيش البريطاني في دنكوة (Donquah) (على بعد عشرين ميلاً شرقي رأس كوست كاسيل) وهزمت به عدداً كبيراً من أشنتي والفانتي .

ونجحت بعد ذلك ، بالمفاوضات وبالحركة العسكرية الحازمـــة ، في استمالة ومحالفة الفانتي ، وبقيت بينهم أربعة أشهر أنظمهم في قوة عسكرية ، استطعت بها طرد جيش كبير مـــن اشنتي وجيشاً كبيراً آخر منهم في في أغسطس سنة ١٨٢٣ .

« وبعد الموت المؤسف للسير تشارلز مكارثي جمعت جيشاً من الفانتي المتفرقين ونجحت في مقاومة أشنتي ، طالما ظلت صحتي تسمح لي بالبقاء في الميدان ، أمنعهم من دخول بوسمبرة وأطردهم من المدن الواقعة عـلى الميـــاه » .

جوردون لينج

ويبدو أن التقرير السابق واقعي ، فقد وجدت إشارة أخرى في « السجل السنوي » عن حادثتين أخريين تشهدان له بالجدارة . ولكن قائد لينج المباشر في غربي افريقيا « اللواء تيرنر » قام عندما تلقى نسخة من التقرير بالتنديد بلينج في بيان أدهش اللورد باثورست، ويبدو أن شخصاً ما كان السبب في ذلك الهجوم على لينج .

غير انه كان في غربي افريقيا آنذاك ضابط شاب ولامع ، يكنّ للينج تقديراً عالياً ، وهو النقيب إدوارد سابين من المدفعية . وقد كان سابين عالماً مشهوداً له، يقوم بمهمة علمية في غربي أفريقيا، وكان مقدّراً له أن يصبح رئيساً للجمعية الملكية . وقد طبع سابين نفسه كتاب لينج حول رحلاته وحفظ رسائله الشخصية الموجودة حالياً في سجلات الجمعية. ولو أن لينج كان سيئاً ، كما كتب عنه تيرنر ، لما رفعه سابين الى تلك المنزلة ولما اختاره العقيد شيسهولم ليقوم شخصياً بتقديم تقرير للورد باثورست عن المتاعب على ساحل الذهب .

الفَصلُ الرّابعُ

لينج والنيجر

بعد أشهر قليلة من وصول لينج لغربي افريقيا كتب يقول ! « تستبد بي منذ سنوات عديدة رغبة شديدة للتوغل في دواخل افريقيا ، وقد تصاعدت هذه الرغبة مع وصولي الى الساحل . » جاءت هذه الفقرة ضمن رسالة موجهة الى النقيب شيسهولم مؤرخة في ١٥ مارس ١٨٢١. وقد أُرفق مع الرسالة اقتراح رسمي بالسماح له بمحاولة الوصــول الى تمبكتو عن طريق تمبو (Timbo) ، دون ان يكلف الحكومة أي مصاريف ، عدا معدات معينة لم يستطع شراءها ، وهي « بندقية جيدة أعتمد عليها ، وبارميتر لقياس الارتفاعات وآلة سدس جيبية ، وآلــة سمت لقياس الزوايا ، وكرونومتر صغير ، » كما قال لينج .

وقد أرسل اقتراح لينج الى لندن ليقدم للورد بــاثورست مع رسالة تزكية من حاكم سيراليون تقول :

مبنى الحكومة
فري تاون ، سيراليون
٤ ابريل ١٨٢١

سيدي اللورد :

يشرفني ان أرفق اليكم رسالة سلمها لي النقيب شيسهولم ، من لواء الهند الغربية ، موجهة اليه من الملازم لينج من نفس اللواء ، تصحبها اقتراحات تقدم بهـا الملازم للتغلغل في دواخل افريقيا حتى تمبكتو عن طريق تيمبو .

إنني لا أتردد في القول بأن السيد لينج شاب يمكن الاعتماد عليه تماماً في هذا الشأن ، فهو حاد الذهن ، قوي البدن ، يتحمل المصاعب ، ويمتاز بثقافة متحررة .. وهذه الصفات لا تعكس فقط عظمة مؤهلاته ، ولكنها أيضاً ذات مزايا أكيدة لمصلحة البلد .

وأرجو ، في حالة قبول خدماته ، أن تتفضلوا باصدار توجيهاتكم لتزويده بالمعدات التي يذكر بأنها ضرورية له ، وذلك في أقرب فرصة ، مـع إصدار التعليمات الخاصة به ، يشرفني سيدي أن أكون الخادم المطيع لكم .

(توقيع) أ. جرانت

القائم بأعمال الحاكم

في ذلك الوقت لم يكن في افريقيا كلها اسم يثير الخيـال مثلما يثيره اسم « تمبكتو » ، ولا بد أنها كانت باستمرار في ذهن لينج . ولم تعمل رحلات منجو بارك على جذب انتباه جديد لها فقط ، بـل ان تلك

الرحلات أوضحت أيضاً أن أول رجل يكتشف تمبكتو سيكون هو أيضاً أول من يكتشف وسط نهر النيجر . لذا كان من الطبيعي أن يجعل لينج من تمبكتو هدفه المباشر ، ولكن كخطوة أولى لإكمال مهمة بارك .

لم تكن في ذلك الوقت مشكلة تثير اهتمام الحريصين على كشف مجاهل افريقيا مثلما يثيره غموض مجرى النيجر ومصبه ، وكان هذا هو ما يشغل بال لينج باستمرار . وقد حاول من قبل الإسهام في حلّه بما قام به من رحلات في افريقيا ، فجمع نتائج تحرياته ونشر تقريراً عن الرحلات الهامة التي قام بها معارفه وخاصة رحلات محمد مسراح من الاسكندرية . ولكنه لم يجد في ذلك نتائج هامة واضطر للاعتراف بأن الاستكشاف هو الطريقة الوحيدة لنيل المعلومات الصحيحة المؤكدة .

ولكن اقتراح لينج لم يفز برضى وزارة المستعمرات ، رغم رسالة التزكية القوية من الحاكم ، وعلم لينج ان ضابطاً آخر كان قد عُين للقيام بمهمة مشابهة في الدواخل انطلاقاً من الساحل الشمالي لافريقيا ، ولذا « لا يوجد في الحاضر ، كما يبدو ، مجال لاستخدام الملازم لينج » ، كما كتب اللورد باثورست . ورغم انـــه لم يوجد احتمال لتصادم مهمة لينج المقترحة مع عمل « بعثة بورنو » بقيادة « أودني » التي كان باثورست يشير اليها ، إلا أن تلك البعثة اتخذت حجة لرفض اقتراح لينج ، بينما السبب الحقيقي للرفض ربما كان صغر سن لينج أو قلة تجربته .

لكن لينج ما انثنى له عزم ، خاصة وقد عاد إلى لندن صديقه النقيب سابين الذي كان من قبل ذا أهمية في دنيا العلم ، وكان يحاول مساعدته ، لأنه كتب في أول فبراير ١٨٢٢ إلى لينج يقول :

« يود « بارو » أن أقول بأن فكرة وزارة المستعمرات وفكرة الجيش عن مؤهلاتكم للسفر في أفريقيا تبلغ درجة تجعل من السهل اقناع الحكومة

لقبول آرائكم. وقد اقترحت تقديم مبلغ ٥٠٠٠ جنيه فأجاب بقوله : « نعم ان الحكومة ستدفع هذا المبلغ لرجل يحظى بهذه الخبرة » [١].

ولكن طبيعة تجربة وخبرة لينج التي تؤهله استلام مبلغ خمسة آلاف جنيه من الحكومة أمر مشكوك فيه . فلم يكن لينج قد جرب بعد أي مهمة استكشافية . لا شك أنه قد تدرب على استخدام المعدات الفلكية وعرف شيئاً عن الجيولوجيا ، وكان أيضاً مصمماً ورساماً من الدرجة الاولى ، وبدأ في افريقيا تعلم لغة أو أكثر من اللغات المحلية ، ولكن تفاؤل « بارو » لم يكن له ما يبرره .

كان لينج ، كما رأينا ، على وشك اكتساب خبرة قيمة من عمله الاستكشافي العملي ، مما سيعمل على تحسين فرص استخدام الحكومة له في ذلك الميدان بشكل خاص . وربما كان اهتمامه بالبلد ورغبته الجارفة في ارتياد المجهول هما السبب في اختياره للمهمات التي كلف بها خلال الجانب الأكبر من سنة ١٨٢٢ ، والتي رجع منها أكثر تصميماً للقيام برحلته التي كان يخطط لها . ولكن اهتمامه أصبح يتركز على النيجر . ففي ٢٥ نوفمبر ١٨٢٢ كتب إلى سابين في لندن يخبره عن عودته إلى الساحل ، ويضيف قائلاً :

« إنني ما زلت مصمماً على القيام برحلة طويلة في الدواخل ، لذا أرجو أن تذكرني بالخير عند السيد بارو – لديّ خطتان ، أكثرهما مصاريفاً ربما تكلف حوالي خمسة آلاف جنيه – وسأقدمها لك في رسالة تالية ، وأود . في نفس الوقت ، أن ألفت انتباهكم إلى انني اعترف بأنه قد يوجد آلاف الرجال الذين يمكن اختيارهم ممن عندهم قدرة أكثر مني على هذا العمل ، رجال يمكن أن يبدأوا بتصميم مثلي ، ويمكن كذلك

---

١ الجمعية الملكية ، ٣٧٤ – ٧٤ .

ان تكون لهم رغبة مثلي للمحاولـة ، وقدرة أشد لتنفيذ ذلك ، ولكنني أشك كثيراً في ايجاد شخص ما تتضح المهمة في ذهنه أكثر مني ، وبالتالي فلا يحتمل أن يوجد أحد ممن يصل بالأمر إلى نتيجة مشرفة وناجحة أكثر مما أصل به . ولهذا – لأن رغبتي في اكتشاف مصب النيجر لم تأت عن حماس أو جشع أو الرغبة في الشهرة ولكن عن امنيتي في الافادة باكتشاف اكثر بلدان العالم عمومـاً – فانكم تشعرون تمامـاً بدوافعي ، ولا داعي لتكرارها هنا . انني أصرح لكم فقط بما اتوقعه من مساعدتكم لتحقيق رغبتي هذه – وأرسل اليكم غطاء سرج جميل ، أُهدي إليَّ مـن ملك سوليمة راجياً ان تتلطف بقبوله » .

لقد تحسنت كثيراً فرص لينج لتحقيق طموحه العظيم ، فبالإضافة الى الخبرة التي اكتسبها في السفر عبر البلاد المجهولة ، نجح بشكل ملحوظ في اكتساب صفة مميزة في ميدان الكشف الجغرافي . فقد أوصلته رحلته لفلابه ، كما رأينا ، إلى نقطة قريبة من جبل سومة ، وهو المنبع المزعوم لنهر النيجر ، ورغم انه مُنع من بلوغه ، فإنه اقترب كثيراً وإلى درجة كادت تقلب رحلته إلى اكتشاف كبير .

وفي سنة ١٨٢٣ روت « مجلة العلوم الرباعية » [١] سلامـة عودتـه إلى الساحل ، وأضافت :

« يتمتع هذا البلد ، الذي يزوره أوروبي لأول مرة ، بأهمية جغرافية خاصة كمصدر لنهر النيجر الغامض : وقد علمنا ارتفاع جبل سومة عن سطح البحر ، وعلمنا كذلك خط طـوله وخط عرضه ، بالاضافة الى المكان الذي يبدأ عنده الجبل ، كل هذه الاشياء تأكد منها النقيب لينج » .

---

١ المجلد ١٥ (١٨٢٣) ، ص ١٧١ .

وهكذا إذن: لقد أصبحت معرفة خط العرض تحمل على الاعتقاد بأن من غير الممكن أن يصب النيجر في النيل.

كان من الطبيعي أن يؤدي إعلان استنتاج لينج، باختلاف النيل عن النيجر، إلى جلب الانظار، وربما أورد اليه رسائل استفسار من المهتمين بمشكلة النيجر. ويوجد بين أوراق لينج في الجمعية مسودة يبدو انهـا إجابة لإحدى أمثال هذه الاستفسارات، أرسلت اليه عن طريق الحاكم، السير تشارلز مكارثي، كتبت بين سنة ١٨٢٢ و ١٨٢٤. تقول الاجابة:

« سيدي — لقد تسلمت مذكرتكم عن طريق صاحب السعادة السير تشارلز مكارثي، وأرجو ألا أكون متطفلاً إذ اكتب اليكم بضعه سطور حول الموضوع الذي أشرتم اليه — لقد كنت دائماً اعتبر معرفة ارتفاع منبع النيجر أمراً ذا أهمية قصوى، لأننا لو عرفنا ذلك لاستطعنا بالتأكيد تقرير المكان الذي لا يمكن أن ينتهي فيه مجراه، وبالتالي نوفر الكثير من المتاعب والمصاريف في المستقبل حول البحث عن تلك الحقيقة الجغرافية — لذا قررت القيام برحلة داخل بلاد سوليمة. وقد وعدت نفسي إرضاء طموحها في الوصول إلى منبع هذا النهر والتأكد من ارتفاعه الحقيقي عن مستوى سطح البحر. ولكن جهدي لم يثمر ما كنت آمله، فقد تضافرت معضلات عديدة لسد الطريق أمام أي تقدم ممكن بالاضافة الى مرض قاس كاد يودي بحياتي في فالابه، ثم لم تنجح بعد شفائي أي جهود للتقدم في ثلاث أو أربع محاولات مختلفة، إذ احبطتها الغيرة وشكوك السكان، ناهيك عن الحواجز التي اعترضتني بسبب وجود النهر في بلد يقع في حالة حرب مع القبائل التي كنت في زيارتها. وأخيراً اضطررت للاقتناع بمشهد أخذته للنقطة التي يرتفع منهـا، من على بعد حوالي ثلاثين ميلاً... ثم حظيت بمشهد آخر للنهر من عند منبع نهر « روكيل »، وهو يرتفع ١٤٤١ قدماً عن سطح البحر، كما قسته بالبارومتر. ويبدو من مظهر

الأرض ان مصدر النيجر لا يرتفع أكثر من مائة قدم عن مجرى روكيل. وهكـذا تطرح جانباً وإلى الأبد فكرة اتحاد النيجر مـع النيل — فارتفاع النيجر عنـد منبعه لا يكفي لتمكينه من السير حتى نصف المسافة الى النيـل ، ناهيك عن حقيقة أن النيل عند سنار أعلى من النيجر عند منبعه[1].

« ولقد وضحت هذه الحقيقـة في رسالة بعثت بهـا منذ أيام للسير تشارلز مكارثي لمعلومية اللورد باثورست (كي أمنع ان أمكن أي بعثات اخرى تشرع لارتياد النيجر من شمال افريقيا ، ولكي يتمكن اللورد من التفكير في أمر استدعاء بعثـة الرائـد ديمان (Denman) الرجوع مـن مرزق — انها رغبتي منذ زمن بعيد ان ارتاد مجرى هذا النهر الغامض ، وقد عرضت مرة القيام بهذه المهمة ، ولكن اقتراحي لم ينل الموافقة لأنني لم أكن معروفاً عند اللورد باثورست ، ومـا زلت أشعر بالرغبـة للقيام بذلك . وثق بأن الخبرة التي اكتسبتها ، بالاضافة إلى الأسلوب الاقتصادي الذي قدت به بعثة سوليمة (لم أكلف الحكومة ٢٠٠ جنيهاً) ربما تيسران لي تحقيق أحلامي — انني لم اتطلع قط للنقود كتعويض عمـا أفعله ، بل كنت على العكس من ذلك ، انفق من حسابي الخاص لنيل المعلومات ، وتقديم الهدايا للزعماء . وأُعلن كذلك بانني لو كنت أملك ما يكفي لتغطية مصاريفي لما تقدمت للحكومة طالباً أدنى مساعدة لتحقيق الهدف الذي آمل ان انجزه ، والذي يعتبر اتمامـه أمنية لبلدي ، لأن هـذا الاكتشاف لو حققتـه قوى اخرى لكان صدمة لمصالحنا . انني عازم — حالمـا تنتهي حرب أشنتي — على زيارة بنين للتـأكد من مدى نجاح التقدم من تلك

---

١ يبلغ ارتفاع سنار ١٣٧٨ قدماً عن مستوى سطح البحر .

الجهات ، ولو لم تكن الفرص قويــة فانني أفضل التوجه من سيراليون وعبور النيجر عند كنكان ، وتحاشي بلاد سنجرة (Sangara) وبذا أصل إلى نوبـي (Nupe) حيــث استرشد في تقدمي حسبما تقـدم لي الظروف والمعلومات التي أجدها هناك» .

ربما كتب لينج هذه الرسالة في الوقت الذي كان يقوم فيـه بمحاولة ثانية لارساله في حملـة إلى النيجر . ففي ١٢ ابريل ١٨٢٣ بعث مكارثي من رأس كوست كاسيل إلى باثورست رسالة من لينج ، رغم انها على الأغلب تدور حول بعثتـه الأخيرة الى فلابــة ، إلا انها تنتهي بالكلمات التالية :

« إذا كنتم سيدي راضين عن الطريقة التي انجزت بها مهمتي الحالية، فآمل ان تتفضلوا بتزكيتي عند اللورد باثورست كرجل قـادر على القيام بأبحاث اخرى في افريقيا – انني متلهف لاكتشاف مصب النيجر، وارغب في الالتزام بهذا العمل عـلى ضوء نفس الشروط التي وضحتهــا في المرة السابقة ، وذلك دون التطلع إلى تعويض أو مكافأة » .

وقد كتب مكارثي في رسالته المرافقة إلى باثورست : « ... انه لمما يسعدني جل السعادة أن أُخوّل في المستقبل قبول خدماته (لينج) لارتياد مصب النيجر . واستطيع ان اقرر واثقاً بأن الهدف الوحيد لذلك الضابط هو ان يكون وسيلة لخدمة العلم ... » .

كُتبت هذه الرسالة وأرسلت الى لندن في وقت كان فيه كل من لينج ومكارثي يقومان بخدمات فعالة على ساحل الذهب . ولكن طــول حملة « اشنتي » لم يترك مجالاً لقيام لينج ببعثة مبكرة للاستكشاف ، ولذا فليس من الغريب ألا نجد مادة ما حول تطورات ذلك الوضع . والواقع أننا نستطيع لمس مدى ما كانت تسيطره تلك الفكرة على لينج من تخطيطه لها وتفكيره فيها حتى خلال حرب العصابات التي كانت تشغله . وقــد

استطاع أيضاً التوصل الى استنتاج حول نهاية النهر ، إذ اصبح مقتنعاً بأن نظرية ريتشارد حول انتهاء النيجر في خليج بنين هي النظرية الصحيحة . ولذا فإنه ابتهج عندما سمع ان « بعثة بورنو » تجولت حول بحيرة تشاد « ولم تجد منفذاً ما ، وهذا مما سيفسد تماماً نظرية بارو ويؤكد نظريتي وهي نظرية ريتشارد التي اتشبث بها تماماً[1] » .

١ وثائق الجمعية الملكية .

الفَصلُ الخامِس

الطريق الى تمبكتو

رغم أن لينج سيظل يُذكر دوماً كرجل اكتشف تمبكتو ، ورغم أن حملته عرفت باسم « بعثة تمبكتو » إلا أن غايته كانت هي الوصول الى نهر النيجر . وقد أعلن في بداية رحلته بأنه سيكمل مهمة « بارك » في اكتشاف المجرى الرئيسي للنهر ، وفوق كل ذلك اكتشاف نهاية النهر ، غير ان اكتشاف تمبكتو كان هدفه المباشر كبداية لنهاية أعظم وأكبر .

ويذكر القارىء ما كان يشيع عند الناس أيام « هورنمان » بأن نهري النيل والنيجر إن هما إلا نهر واحد ، وكان يُظَن كذلك بأن مدينة « هاوسة » في « كستينة » هي المدخل الذي يؤدي إلى منتصف النيجر. أما الآن ، على مشارف رحلة لينج ، وبناءً على دليل قوي ، فقد أصبحت تعتبر مدينة تمبكتو الشهيرة ، والتي لم تكتشف بعد ، هي التي كانت فعلاً المدخل الرئيسي للنهر ، وأصبح من الواضح ان تمبكتو هي المنطلق لتتبع مجرى النيجر الى مصبه . وكان من الأفضل على الأقل تتبع الجزء الأوسط أو المجرى المنخفض للنهر من تمبكتو ، لا البحث الأعمى عنه في قلب القارة الذي لم يكتشفه أحد من قبل على الاطلاق .

وفي نفس الوقت كان من المعروف أيضاً أن أقرب طريق يؤدي إلى تمبكتو هي طريق القوافل المتجهة من مراكش صوب الجنوب ، وإلى الشرق من تلك الطريق وجدت طريق أخرى تخترق « ورجلة » و « توات » . ولكن الطريق الشرقي الآخر الذي يبدأ من طرابلس بدأ يجذب الأنظار بشكل ملحوظ . والواقع أن طرابلس كانت أول مدينة في الشمال تقع على أقصر وأسهل طريق يؤدي إلى السودان — وهو طريق الجرمنتيين المار بفزان . وكانت طرابلس كذلك منذ أيام الرومان المدخل الرئيسي من الشمال إلى دواخل أفريقيا ، والميناء البحري الأساسي الذي تصدر منه منتجات السودان ، التي تعتبر عصب الحياة لتجارة البربر . ولهذا المركز الممتاز التي تمتعت به طرابلس كمدخل سهل إلى السودان ، انطلق منها من قبل « ريتشي » و « ليون » و « بعثة بورنو » ، وكان هورنمان كذلك يفضل الانطلاق منها .

ولكن اتصال طرابلس بالسودان لم يقتصر على الطريق القديم المتجه إلى الجنوب ماراً بفزان ، بل كان يوجد طريق آخر شديد القدم يسير نحو الجنوب الغربي عبر غدامس وتوات وتمبكتو . ورغم أن هذا الطريق الذي يعبر الصحراء في خط مائل كان شاقاً مهلكاً وقليل الاستعمال ، نادر الماء والكلأ ، وعرضة لسطو المغيرين من الصحراء — إلا انه كان بالغ الأهمية ، من الناحية السياسية والتجارية ، ولذا لم يهجره المسافرون هجراً تاماً . أما أهميته السياسية فكانت تأتي من كونه أداة وصل بين تمبكتو وبين الجزء الشرقي من المغرب ومصر ومكة . وأما الأهمية التجارية فكانت ترجع إلى رواج تجارة الذهب مع تمبكتو التي أصبحت مركز التوزيع الرئيسي لمناجم ذهب « بامبوك » ، رغم أن هذه التجارة تضاءلت مع مجيء القرن التاسع عشر وأصبحت الآن ذات أهمية قليلة . ومع ذلك فقد ظلت الطريق هامة تجارياً لأنها تمر بغدامس أكثر من كونها توصل إلى طرابلس في أقصى الشمال .

كانت واحة غدامس ، الصغيرة النائية وفيرة المياه ، واحدى أعظم مراكز الصحراء التجارية . ففيهـا كانت تتجمع وتلتقي طرق التجـارة المتجهة من مرزق وغـات والقيروان وطرابلس ، وتمنحهـا مدخلاً إلى جميع الأسواق العظيمة في شمال غربي أفريقيا ؛ في المغرب والسودان ، ومن القاهرة إلى تمبكتو ، ومن فزان إلى كانو . وحتى في أيام الرومان بلغت غدامس من الأهمية درجة جعلت سبتيموس سفيروس يتخذها مقراً لكتيبة ليجيو أوغسطا . وبالاضافة إلى اجتذاب غدامس للتجار والحجاج الذاهبين إلى مكـة من كل حدب وصوب والراجعين منها ، فقد كانت مقراً لمجموعة من التجار الأغنياء الذين كوّنوا لأنفسهم صلات وثيقة مع أسواق الجنوب [1] .

في بداية القرن التاسع عشر ربما لم يكن أحد في اوروبا يعرف شيئاً عن طريق طرابلس — غدامس المتجه إلى تمبكتو. وعندما سمع « سميث » سنة ١٨١٧ بأن مرزق تتعامل في التجارة مع تمبكتو ، اقترح محـاولة الوصول إلى تمبكتو عن طريق فزان ، وكتب يقول : « ينبغي ان نمعن النظر في أهمية استهداف قوافل مرزق مدينة تمبكتو ، فالقوافل من فزان تسير من آن لآخر إلى تمبكتو ، إمـا مباشرة ، أو تتجه الى توات ثم منها إلى تمبكتو . وقد اقتنعتُ تماماً بعد كل التحريات بأن هـذا الطريق عملي وموثوق » .

وقد وجد كلام سميث فعلاً آذاناً صاغية، فبعد أشهر ستة كتب هنري جلبورن ، وهو سكرتير باثورست ، الى « جون بارو » الرسالة التالية:

---

١ عندما احتل المراكشيون تمبكتو عام ١٥٩١ وجدوا أكثر الاحياء ازدهاراً هو حي تجار غدامس .

عزيزي بارو :

ان اللورد باثورست كما تعلم شديد التلهف لتنفيذ مشروع صديق السير جوزيف بانكز ، وذلك بالتوجه إلى تمبكتو عن طريق طرابلس ، وسيبذل كل ما في وسعه لمساعدته . وكذلك سيقوم في الحال بإعطاء الاذن لشراء جميع الهدايا التي تقدم للباي وابنه ، وسيبعث بتعليماته للقنصل لكي يحث الباي عـلى تنفيذ وعده وتذليل المصاعب . أرجو التفاهم مع السير ج. بانكز حول أفضل ما يمكن القيام به ، وسأكون رهن إشارتكم لتنفيـذ ما تقررونه .

في ٢٣ سبتمبر ١٨١٧ المخلص لكم

هنري جولبورن

وعندما تسلم بارو هذه الرسالة بعث بالكتاب التالي الى بانكز :

عزيزي بانكز :

وصلت رسالة جولبورن أمس ، وكان قد كتبها منذ اسبوعين . يا لها من فرصة جميلة تسنح لنا ، لو وجد رجل كفؤ ، وإذا لم تجد هـذا الرجل ، فلا أعرف أنا أين أجده . أرجو التفتيش عن شخص يعرف قليلاً من العربية ، سواء أكان في انجلترا أم في القارة الاوروبية ؛ فربما لن نقدر على العثور على رجل آخر هنا مثل اللورد باثورست ، أو على باشا آخر في طرابلس ، ملائمين تماماً لهذا الغرض .

المخلص لك

جون بارو

ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق ... ثم حدث في تلك السنة ان تحدث

الباشا الى سميث عن طريق آخر مباشر ويمر بغدامس . ومع ذلك لم يتحقق أيضاً أي شيء حتى نهاية سنة ١٨٢٠ ، عندما بعث سميث برسالة الى القائد الأعلى للبحرية (البريطانية) لفت فيها انتباهه الى هذا الطريق وأكّد على أهمية غدامس « كمدينة أعتقد أنها أهم المدن بالنسبة للمسافرين في الدواخل ، لأنها ملتقى مختلف قوافل التجارة » .

أما طرابلس فكانت ، كنقطة البداية إلى تمبكتو ، تقدم للرواد البريطانيين عدة مزايا ، منها قلة وجود مخاطر تدخل الفرنسيين الذين كانوا إلى الغرب من طرابلس ويوطدون لأنفسهم مركز نفوذ واسع يغارون عليه غيرة شديدة . ومنها أيضاً ما كان السير جون بارو قد ذكّر به السير جوزيف من حسن نوايا الباشا ، الذي كان حريصاً ، بسبب نفوذ القنصل البريطاني ، على مساعدة المكتشفين البريطانيين . والمزية الثالثة لطرابلس هي وجود عدة طرق تتشعب منها : الطريق الجرمنتي القديم الذي يمتد حتى مرزق ، ومنها تتفرع طريقان تصلحان لنفس الرحلة ، إما مباشرة إلى تمبكتو أو عبر توات ، والتي لفت سميث الأنظار اليها عام ١٨١٧ ؛ وكان هنالك أيضاً الطريق القصير الذي يمتد مباشرة من طرابلس إلى جبال غريان فغدامس ومنها إلى توات ، وهذه الطريق هي التي كتب عنها سميث سنة ١٨٢٠ م .

ولم ينعدم المتطوعون الذين تقدموا للقيام بتلك الرحلة . ففي أواخر سنة ١٨٢٠ أو مطلع ١٨٢١ تقدم « ديكسون دنهام » ثم تقدم بعد سنة أو سنتين « ليون » يعرض خدماته لنفس الغرض .

ولكن اللورد باثورست أصدر قراراً مفاجئاً بتكليف لينج بسلوك الطريق الطويل المار بفزان ، غير انه كما يبدو لم يحدد للينج سلوك أي الطريقين المتشعبين من فزان . وليس من المعروف تماماً السبب في قرار اللورد باثورست بتحديد طريق فزان ، ولكن ذلك ربما يُعزى إلى الاعتقاد

آنذاك بأن القوافل من طرابلس إلى تمبكتو مباشرة كانت تسير مرة واحدة في السنة وانها كانت تمر بفزان[1] . وعندما وصل لينج إلى طرابلس ، كما سنرى فيما بعد، قرر سلوك طريق غدامس، ولكن هذا الطريق كان مغلقاً نظراً للمتاعب السياسية في جبال غريان آنذاك ، ولذا اضطر لينج إلى سلوك طريق طويل متعرج إلى فزان . وبدلاً من مواصلة رحلته من فزان إلى تمبكتو مباشرة ، حسب الأوامر المعطاة له ، فإنه كان ما يزال مصراً على رؤية غدامس ، فاتجه إلى الشمال الغربي كي يصل إلى الطريق التي قرر هو أصلاً سلوكها .

ولكن لينج حُرِمَ ، لسوء حظه ، من إحدى أهم المغريات التي كانت طرابلس قد عرضت تقديمها للمكتشف . فقد بدا الباشا يوسف القره مانلي فجأة قليل التحمس لتقديم المساعدة التي وعد بها لبعثة بورنو .

---

[1] كان ليون قد عرض مصاحبة « القافلة إلى تمبكتو » ، وصدرت الأوامر إلى لينج بالسير مع « القافلة » إلى تمبكتو . توحي هاتان الإشارتان لكلمة « القافلة » بأنه كان يعتقد في لندن بوجود قافلة منتظمة سنوية ، ولكن هذا لم يكن صحيحاً ، بل كانت القوافل من طرابلس إلى تمبكتو تعتمد على مجرى التجارة والأحوال السياسية في الصحراء المضطربة .

الفَصْلُ السَّادِسُ

يوسف القرهمانلي

تنحدر أسرة القرهمانلي من أصل مختلط النسب يجمع بين الانكشارية العثمانية ونساء العرب والبربر المحليين . وكان أحمد القرمنلي [1] قد أطاح سنة ١٧١١ بالداي التركي وقضى على الانكشاريين وأسس أسرة حاكمة في طرابلس استمرت في الحكم طيلة ١٢٥ سنة تالية . ولكن النظام التركي للحكومة بقي دون تغيير ، وظل اقتصاد البلد القلق مبنياً على القرصنة وتجارة العبيد . وكان البلد كذلك ما يزال اسمياً جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، وبالتالي كان معظم الاوروبيين في طرابلس يتمتعون بحماية « امتيازات سنة ١٧٦١ » الخاصة بالأجانب في الامبراطورية العثمانية . وقد خولت هذه الامتيازات قناصل الدول الاوروبية الكبرى صلاحيات تمكنهم من حماية رعاياهم أمام الباشوات .

وقد تمتع القناصل كذلك بسلطات قضائية غير مقيدة على بني أوطانهم ،

---

١ كان أحياناً يسمى « علي » القرهمانلي .

وكانوا يستطيعون عند الحاجة استدعاء السلطة المحلية لتنفيذ أحكامهم . وكانت قنصلياتهم تتمتع بالحصانة وبالتالي أصبحت ملجأ للناس من كل جنس (من الأجانب) . وفي اوقات القلاقل كان باستطاعة قناصل القوى البحرية الكبرى ، وخاصة البريطانية والفرنسية ، ردع الحكومة المحلية ، كما حدث ذلك فعلاً ، باستدعاء السفن الحربية للاستعراض امام قصر الباشا .

ولكن ، رغم وجود ثمانية قناصل اجانب في هذه المدينة الصغيرة ، يتمتعون بهذه السلطات الغير اعتيادية ، فإن القيود التي كانوا يفرضونها على سيادة الباشا لم تكن كبيرة كما يمكن ان يتصور البعض . فلقد كان القره منليون سادة المكائد ، مهرة في تحريض قنصل على آخر ، ويسهل عليهم منع وتعطيل أي عمل قنصلي . وقد جرت العادة الرسمية أن يزود الباشا كل قنصل باثنين من الشرطة من رتبة « شاويش » (عريف) ، مهمتهما مصاحبة القنصل ايما اتجه ، وكذلك تبليغ الباشا باستمرار عن كل ما يحدث في القنصلية . ولم يكن من الصعب على الباشا الذكي الاحتفاظ بقوته أمام قوى القناصل الأجانب ، ولم يكن أحد من الباشوات أقدر من يوسف القره مانلي في هذا الميدان .

ويوسف هذا هو ابن علي القره مانلي ، الباشا الثالث ، وهو كذلك ابن حفيد مؤسس الاسرة القرمنلية . وقد صمم يوسف منذ مطلع شبابه على ألا يسمح لأخويه الأكبر منه سناً بالوقوف في وجه توليه الحكم بعد أبيه ، فقتل أخاه الأكبر « حسن » ، وأما الآخر « أحمد » والذي تولى الحكم شهراً واحداً ، فقد استطاع يوسف طرده من البلد [1] ، وبهذا استولى سنة ١٧٩٤ على سدة الحكم التي ظل يسيطر عليها ويحكم البلد

---

١ هنالك قول بأن أحمد قد قتل مثل حسن ، ولكن الأصح انه توفي فقيراً في مصر .

منها طيله ثمانية وأربعين عاماً بنفس الصرامة التي استولى بها على الحكم .

ومع أن يوسف كان قاسياً لا يخضع لنظام ولا يحافظ على وعد لا يروق له ، فإنه كان أعظم الحكام القره منليين . ولقد كان يسيطر عليه طموح واسع لرفع منزلة بلده ، وعمل على تحقيقه بكل قوتـه وجبروته ، فقام مثلاً باستخدام جيشه لترويض القبائل المتمردة ونجح في ذلك نجاحـاً أعلى من منزلتـه ومد نفوذه ، وأصبح الناس يخشون حتى من مجرد ذكر اسمه في أقاصي البلدان حتى بورنو .

وبذكائه ، وبما تمتع بـه من تأثير وسحر شخصي كبير ، كان حاد البصيرة في رفقة القناصل الأجانب الذين كانوا يرتفعون منزلـة عنده أو يهبطون حسبما يشاء ،وحسب سير السياسة العالمية آنذاك . ففي بداية حكمه مثلاً شعر بالفزع من انتصارات نابليون ، وخاصة عندمـا احتل مالطة ومصر ، إلى درجة منحت القنصل الفرنسي منزلة ملحوظة بين انداده في طرابلس . ثم توثقت فيما بعد صداقة الباشا مع فرنسا بمعاهدة مهدت لها مباحثات جرت بين « ناودي » وهو مالطي أرسله نابليون لذلك الغرض ، وبين وزير خارجية الباشا « محمد دعفيس »[1] .

ولكن الانتصارات البريطانية التي جـاءت بعد ذلك في البحر المتوسط أضعفت النفوذ الفرنسي في البلاط القره مانلي ، غير أن هـذا النفوذ لم يستسلم تماماً للنفوذ البريطاني إلا سنة ١٨١٤ عندمـا عُيِّن العقيد « هانمر وارنجتون » قنصلاً بريطانياً عاماً في طرابلس . ومع شدة نفوذ وارنجتون

---

١ كان محمد دغيس رجلا يتمتع باحترام شديد وواسع آنذاك ، لطيفاً مع المسافرين الأجانب ، مشهوراً في شمال افريقيا كلها .

إلا أن يوسف باشا لم يدعه أبداً يشعر بأن هذا النفوذ دائم لا يتزعزع. وتميزت سياسة يوسف تجاه قنصلي بريطانيا وفرنسا، صاحبي أقوى اسطولين في البحر المتوسط، بإثارة الواحد على الآخر، فكانت نتيجة ذلك أن تعمقت جذور الغيرة والمرارة الأنجلو - فرنسية في طرابلس، واستمرت طويلاً تطغى على العالم القنصلي الصغير في عاصمة الباشا القره مانلي.

الفَصلُ السَّابع

العقيد وارنجتون

لم يتردد ذكر اسم في تاريخ المحاولات المتكررة لاختراق افريقيا من جهة الشمال ، مثلما تردد اسم العقيد هانمر وارنجتون (Hanmer Warrington) [1]، الذي يعتبر شخصية ملحوظة في تاريخ البحر المتوسط في النصف الأول من القرن التاسع عشر . فنراه ، لعميق اهتمامه باكتشاف افريقيا ، لا يدخر جهداً في مساعدة عدد كبير من المكتشفين والرحالة .

لسنا نعرف شيئاً عن أصل وارنجتون ونشأته ، ولكن يبدو انه ولد في سنة ١٧٧٨ . ويبدو من رسالة قدمها للورد باثورست بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٢٦ ، حول خدمته العسكرية ، أنه دخل هذا الميدان العسكري وهو في سن السادسة عشرة برتبة ملازم مع سلاح الفرسان ، ثم تدرج مع رتب نقيب، فرائد ، ثم أصبح قائداً لقوات الفرسان المتطوعين ، رُقي بعدها الى مرتبة مقدم . وأُرسل بعد ذلك إلى اسبانيا وخاض بعض المعارك في فرنسا ، جرح في إحداها وعاد إلى انجلترا ، واشتهر بالعقيد وارنجتون .

---

١ يشار اليه عادة باسم العقيد وارنجتون ، ولكن معظم معارفه كانوا ينادونه باسمه المجرد ، وهكذا كان يسمى في المراسلات الرسمية .

وقد انتهت خدمته العسكرية سنة ١٨١٢ نتيجة سوء تفاهم مع الفريق أول بللاستيروس ، ثم ظهر فجأة كقنصل عام بطرابلس سنة ١٨١٤ ، ولا نعرف كيف توصل إلى هذا المنصب .

ولكن يقال بأن صلة مريبة كانت تصله مع الأمير ريجنت Regent ، ولي العهد البريطاني ، غير انه لا توجد وثائق رسمية أو رسائل في الارشيفات الملكية تثبت أو تشير إلى ذلك . وقد صرّح عن تلك الصلة الغير عادية القنصل الفرنسي العام في طرابلس سنة ١٨٥٠ في وثيقة اعتبرت هامة للغاية [١] . ورغم العداء الشديد آنذاك بين فرنسا وبريطانيا ، والتنافس بينهما في شمال افريقيا ، إلا أن القنصل الفرنسي العام (بليسيه) عرف بالنزاهة والاستقامة ، وبالتالي فلا يحتمل أن يكون قد تحامل على وارنجتون في الكلام عن صلته المريبة بالامير البريطاني .

وفي طرابلس استطاع وارنجتون بعد ثلاث سنوات من وصوله اليها أن يحظى بنفوذ كبير عند الباشا ، كما روى سميث ، وكتب ديكسون دينهام حول ذلك يقول : « لا نبالغ إذا قلنا بأننا قد اكتسبنا من مزاجه المرح وحماسه وادارته الممتازة هذا النفوذ الذي تتمتع به بريطانيا لدى هذه الحكومة أكثر منه لدى أي حكومة أخرى في شمال افريقيا . بل لقد أصبح اسم انجلترا في طرابلس هاماً إلى درجة ان الباشا ندر ما يقضي في حادثة هامة أو نزاع ما دون استشارة القنصل البريطاني حول ذلك » ، ويضيف بأن القنصلية كانت ملاذاً لمن يريد الحماية .

ويعتبر هذا المديح أمراً يثير الانتباه لما كان يقوم به وارنجتون من

---

١ تصف الوثيقة وارنجتون على انه رجل عاطفي وعنيف شديد الاستثارة ، يحب فرض نفوذه على زملائه ، وانه متزوج من بنت غير شرعية للملك جورج الرابع ، وبذا يفسر تغاضي الوزراء البريطانيين عنه .

تفضيل كلابرتون على دينهام في خصامهما . وقد كتب جيمز ريتشادرسون (J. Richardson) يقول ، بعد انتهاء حكم القرمنليين ورجوع العثمانيين : « لم تعد توجد هذه الأيام تلك الحرية التي كان يتمتع بها وارنجتون زمن يوسف باشا ، فقد ظل العقيد مدة طويلة ، وخاصة زمن الحرب الفرنسية ، الباشا الفعلي لطرابلس » . ويضيف ريتشادرسون كيف أن وارنجتون تجرأ يوماً وغضب نتيجة لأحد الأعمال التي قام بها الباشا وهدد بضربه ، ثم عاد في اليوم التالي وتناول معه طعام الغداء في الحديقة البريطانية [1] .

كانت هذه الاطراءات أمراً مبالغاً فيه ، كما يمكن أن يعترف القنصل نفسه ، وهي صادرة على رحالة حديثي العهد بالبلد ، متأثرين بمعرفة وارنجتون الواسعة بالبلد ، تبهرهم شخصيته الودودة ، وكذلك لما كان يبذله من جهود كبيرة لمساعدتهم ، وما يقدمه من كرم واسع تحت سقف ضيافته .

كان وارنجتون ولا شك صاحب نفوذ ، يشتد أحياناً ، لكنه لم يكن كما توحي هذه الاطراءات ، وكما أكد عكسها بليسيه فيما بعد ، يغطي على جميع القناصل الآخرين ، ولم تكن القنصلية البريطانية بسبب من نفوذه تتمتع بحماية من يدخلها ، بل كان ذلك حقاً لجميع القنصليات الأجنبية (حسب اتفاق مع الباب العالي التركي) . واما أن يكون « الباشا الفعلي لطرابلس » كما ادعى له أبناء بلده فهذا غير صحيح على الاطلاق ، كما يوضح وارنجتون نفسه . ورغم انه تمتع وقتاً ما بعلاقات حميمة مع الباشا ، فقد مرت فترات طويلة كان يتمتع القنصل الفرنسي فيها بقرب أوثق عند الباشا . وكان من أسباب ارتباك وارنجتون الدائم

---

١ الواقع ان هذا الكلام مناف للحقيقة التي رواها الكتاب نفسه والتي سيرويها ، فلم يكن القنصل البريطاني إلا رجلا جامحاً عصبياً ، مما أثار عليه سخط وزارة خارجيته ، وقد عرف الباشا بشدته وحنكته في التلاعب بالقناصل الأجانب . (المعرب)

امام الباشا الاستياء الذي سببته حملة اللورد إكسماوت (Exmouth) على طول الساحل الشمالي لافريقيا لمنع بلدانه من استرقاق المسيحيين [1] .

وكان من نتائج نشاطات إكسماوث عودة السود بين فرنسا والباشا ، وظل سنوات طويلة على هذا الحال . وفي سنة ١٨٢٥ كتب وارنجتون إلى باثورست يقول : « في هذا العام احتُلت وظيفتان هامتان في طرابلس من قبل رجلين زادا من تقويض النفوذ البريطاني لدى البلاط . انني آسف سيدي إذ أخبرك عما رأيته منذ عدة أشهر من انحطاط في النفوذ البريطاني عند هذه الحكومة ؛ ولما كنت في عمل دائب فإنني أخشى التأكيد لكم بأن السبب الحقيقي في ذلك يرجع إلى تعيين حسونه محمد دغيس » . وكان هذا الرجل هو ابن الوزير السابق « محمد دغيس » ، وقد تعلم بفرنسا ، ويتحدث الفرنسية بطلاقة ويُعرف بحبه لفرنسا وثقافتها . وقد ذهب مرة إلى لندن فاراً من دائنيه في مرسيليا ، ثم استدعاه الباشا ، ويبدو ان تجربته بانجلترا كانت من الضعف بحيث انها لم تعدّل من تفضيله الواضح لفرنسا .

والوظيفة الهامة الثانية هي التي ملأها سنة ١٨٢٥ البارون روسو (Rousseau) كقنصل فرنسي عام في طرابلس . كان روسو عالماً مستشرقاً سرعان ما أصبح مفضلاً ومحترماً عند أهل البلد ، وكان أعرف من وارنجتون وأكثر علماً بأحوالهم . والواضح أن روسو وحسونة أصبحا صديقين حميمين ، مما أضر بالمصالح البريطانية بصفة عامة ، ومصالح لينج بصفة خاصة .

كان من سوء طالع لينج أن يبلغ طرابلس في لحظة كان فيها النفوذ

---

١ أرسل الأميرال إكسماوث سنة ١٨١٦ إلى ساحل شمال أفريقيا في حملة لتأمين اطلاق سراح الرعايا البريطانيين الذين تعرضوا للاسترقاق ، وكان من نتائجها اضطرار دول الساحل للتخلي عن هذه التجارة الرابحة .

البريطاني في الحضيض ، بينما صعد النفوذ الفرنسي إلى القمة . ولكن من المشكوك فيه أن يكون الفرنسيون قد حاولوا منع لينج من بـــدء رحلته إلى تمبكتو ، كما ألمح وارنجتون ، وكما أكد لينج صراحة . وقد أصبح واضحـــاً ان الباشا الذي عمل كل مـــا في وسعه لمساعدة ليون ، وعمل الكثير لمساعدة « بعثة بورنو » ، أخذ يتبنى اتجاهاً مغايراً نحو لينج وعقد الأمور في وجهه ما وسعه التعقيد . والواضح كذلك ان وارنجتون لم يعد يتمتع بالنفوذ القوي الذي ما زال ابناء بلده يدعونه له .

والجدير بالذكر ان وارنجتون كان يمكن أن يكون فعلاً كما قال عنه المعجبون بـــه ، لو ان قدرتـــه كانت تتمشى مع شخصيته اللامعـــة وتعادلها . فالواقع انه كان رجلاً تافهاً وبليداً ، وكثيراً ما سبب لأسياده في « داونتج ستريت » (مقر الحكومة بلندن) القلق ، ان لم نقل سهر الليالي . وفي يونيو سنة ١٨٢٥ بلغ الأمر حداً دعى اللورد باثورست إلى تحذيره « بالامتناع ما أمكنه الأمر عن التدخل في علاقات الباشا مع القوى الأجنبية » . ولكن مناسبات كانت تمر تفيض على وارنجتون بتوبيخ عنيف من الحكومة البريطانية . ولا بد أن أمراً غير عادي قد حمل القنصل على كتابة رسالة متأنقة للورد باثورست في يناير ١٨٢٦ ، يضرع فيهـا لنيل رضى اللورد ، ولكن سخط الحكومة عليه ازداد مع الأيام .

كانت أخطاء وارنجتون في الميدان الدبلوماسي تنبع من طبيعته المهتاجة المثيرة ، وكانت في بعض الأوقات أيضاً مصدر حيرة وورطة للرحالـــة الذين كانوا يجدون عنده كل كرم ومودة ، وكان مـــن أسوأ ضحاياه حظاً جيمس ريتشاردسون . فقد كتب ريتشاردسون إلى وارنجتون مـــن غدامس يخبره أن تجاراً معينين من طرابلس ، سماهم له ، ممن هم تحت الحماية البريطانية ، يمولون تجـــارة الرقيق التي يسيرها رجال غدامس ، ورجاه أن يعلن ذلك حتى يخرج من مجال نفوذ غدامس . ولكن القنصل

اعتبر الأمر شيئاً يعنيه وحده وسرعان ما عادت الأنباء المشاعة الى غدامس وتأكد الناس ان ريتشاردسون لا بد أن يكون هو الذي نقل الخبر ، وكان لسوء حظه ما زال هناك ، فكتب يقول : « لذا فإنني مدين للعقيد وارنجتون ، لا في تسهيل مهمتي للتقدم في الدواخل ، بل في مضاعفة مشاكلي مائة ضعف » .

ولم تكن لوارنجتون خبرة في ارتياد الدواخل ، لذا فإنه كتب إلى لندن قبل بدء بعثة بورنو يقول بأن الطريق من طرابلس إلى بورنو « سهلة كسهولة الطريق من لندن إلى ادنبرة » ، ثم أخبر ريتشاردسون بعد سنوات بأن تلك الطريق « آمنة كطريق لندن – باريس »[1] .

وعندما وصل لينج طرابلس استقبل كأي زائر بريطاني آخر بحرارة وكرم من جانب القنصل وأسرته ، وكانت تسكن حينذاك فيما تسميه « الحديقة » أو « الحديقة البريطانية ، وتبلغ مساحتها ستة أفدنة ، وتقع على بعد ميلين من المدينة تطل على البحر والريف . وقد بنى وارنجتون فيها منزلاً كلفه حوالي ستة آلاف دولار اسباني[2] . ويحيط بها سور ارتفاعه خمسة عشر قدماً[3] . وقد تطورت الحديقة بعد خمسة وعشرين عاماً فأصبحت تجود بكل أشجار الفواكه المعروفة في شمال افريقيا ، وتزينها جميع أنواع أشجار الزينة .

وقد كان وارنجتون شديد التدين ، يجتمع في منزله كل أحد البروتستانت الذين يأتون اليه ، ويقيم هو معهم صلاة الأحد . وكان

---

١ رحلات ريتشاردسون .

٢ كان الدولار الاسباني يساوي حوالي ربع دينار (ليبي) ومن أثمن العملات وأكثرها طلباً في شمال افريقيا .

١ كانت الحديقة البريطانية تقع قرب البحر في المنطقة المساة حالياً « المنشية » وتمتد على طول الساحل شرقي طرابلس .

كذلك يضرب حول أسرته نطاقاً من الاحتجاب ، ويقال بأن لـه أربعة أولاد ، كان الثاني منهم يقيم في المدينــة بين الأهالي ، يتحدث لغتهم ويلبس ملبسهم .

وكانت له ثلاث بنات ، الثانية منهن هي « إمَّة » ،وسرعان ما مال اليها لينج ، وانشدّ قلبها هي اليه ، فتزوجا قبل يومين من رحيلــه إلى تمبكتو . وقد عقد قرانهما وارنجتون نفسه ، كقنصل من حقـه ان يفعل ذلك ، ولكن قصــة « إمَّة » كانت قصة محزنة ، ستنكشف لنــا في الوثائق فيما بعد . وقد أصيب والدها بحزن ساعة عقد القران ، وقال في نفسه : أيمكن أن يكتشف الزوجان يوماً أن زواجهما غير شرعي ؟ ولكن أتم الزواج ، وأصدر وثيقة بذلك .

الواقع انه كان يسيطر على اسرة وارنجتون جو من الصرامة والشعور بالواجب الثقيل الظل أحياناً ، فنجد ان وارنجتون مثلاً قد كتب إلى لينج بعد شهرين من رحيله وفراقه عن زوجته الكسيرة الجناح : « إن زوجتك إمّــة العزيزة هي في حالة جيدة وسعيدة ، كما يحتم عليها واجبهــا أن تكون .. » .

ولقد عانى لينج أشد المعاناة بسبب من بلادة صهره . فقد تسلم بعد أشهر من سفره رسالة من وارنجتون يخبره فيهـا عن الضيق الشديد الذي انتاب وزير المستعمرات لشدة تكاليف حملته . ولكن تلك الرسالة كانت عديمة النفع ، بل انهــا زادت من تعاسة لينج الذي لم يجد الطريق إلى تمبكتو تشبه « الطريق مــن لندن إلى باريس » ، كما قال القنصل من قبل، وكان حزنه شديداً إلى درجة كاد معها أن يعود أدراجه إلى طرابلس . ولقد هلع وارنجتون عندما أدرك ما فعله ، ولكن اخطاءه كانت شنيعة .

لسنا نعرف إلا القليل عــن وارنجتون لكي نتمكن من الحكم عليــه حكماً قاطعاً ، وربمـا كان هذا القليل في صالحه . ورغم أن خدماتــه

لبلده كقنصل عام، كانت معتبرة تماماً، إلا أن ريتشاردسون كان يعوزه الدليل في ثنائه عليه وقوله بأنه كان يتمتع باحترام شديد وإلى درجة يُظن معها في الصحراء وفي أماكن مثل غدامس وغات ، بأن طرابلس كانت تبعاً للبريطانيين أو تحت حمايتهم . والواقع أن أحـــداً لم يعانِ من ضعف شخصية وارنجتون مثلما عانى لينج ، الذي ظل ، رغم ذلك ، ينظر اليه باحترام واجلال .

الفَصْل الثَامِن

كلابرتون ولينج

كان إعجاب وارنجتون بكلابرتون (Clapperton) مصدراً لاثارة الغضب عند لينج ، وكان وارنجتون يبدو في بعض الأوقات وكأنما يشجع البحار المجرب (كلابرتون) كي يغتصب من الجندي الشاب نصف ما كان يأمل في تحقيقه في عالم الاكتشاف .

عندما وصل لينج طرابلس وجد ان وارنجتون قد أشار على لندن بإعادة إرسال كلابرتون إلى افريقيا للبحث عن أسفل النيجر ابتداءً من خليج بنين ، علماً بأن كلابرتون كان قد غادر طرابلس من توه عائداً إلى انجلترا .

ورغم ان الاقتراح السابق كان معقولا ، لكنه أيضاً كان مخيباً لأمل لينج الذي كان يأمل في القيام بنفس العمل عن طريق تمبكتو ، وقد كتب إلى باندينال يقول « انني آمل أن أصل بنين في منتصف مارس القادم تقريباً ، وأرى ان من الأفضل للحكومة انتظار نتائج محاولتي قبل التفكير في القيام بأي عمل ابتداءً من ذلك المكان » .

وكانت رسائل وارنجتون إلى لينج أمراً لا يطاق ، لأنها كانت تتعقبه في الصحراء ، ترى بأنه لو توجه كلابرتون الى نفس الميدان لأمكن لهما أن يلتقيا في منتصف الطريق مما يوفر على لينج جزءاً من رحلته . ولكن ذلك بالطبع كان آخر ما يرغب لينج فيه ، لأنه كان يتعطش للمجد واثقاً من نيله . ولم تجد اقتراحات وارنجتون أي قبول من جانب لينج ، فكتب وارنجتون إلى اللورد باثورست يقول : « لقد حاولت ان أغرس في ذهن الرائد لينج الاحتمال البهيج بلقائه مع كلابرتون في سوكاتو (Sockatoo) » . وبعد أشهر قليلة كتب الى لينج قائلاً : « انك ولا شك ستقابل كلابرتون عند يوري (Youry) ، وأرى ان من غير الضروري حينذاك أن تتوجه الى بنين » . ثم أكد عليه نفس الفكرة في رسالة بعثها له بعد أسبوعين .

لقد كان من المزعج تماماً للينج الذي يقوم برحلة تحمل في طياتها الموت والهلاك ، أن يسمع من صهره بأنه يتوقع تماماً أن يسبقه كلابرتون إلى إنجاز يعتبر الهدف الأساسي من رحلته هو نفسه . ورغم ذلك ظلت ثقة لينج بنفسه ثابتة لا تتزعزع فكتب لباندينال يقول : « إنني مدرك ان كلابرتون قد توجه إلى خليج بنين ليقوم بالاكتشاف الذي أنشده منذ زمن طويل ، ولكن كان الأولى به أن يوفر المشقة على نفسه ، لأن اكتشاف ذلك السر الدفين مودع لي ، وآمل تحقيقه مع قدوم مارس أو ابريل . » ورغم ان وارنجتون ظل يرسل لصهره أحر الأماني ، إلا أن لينج ظل ينظر اليه وكأنه يضع كل امكاناته المادية في خدمة كلابرتون لاستخدامها في سباق ، لا ليصل الى سوكوتو أو يوري فقط ، بل للوصول الى تمبكتو نفسها أيضاً . ولكن لينج عقد العزم من جانبه على استغلال وقته بما يفيد مهمته ، لا للقيام « بمسابقة كلابرتون الذي أصبح يبدو وكأن هدفه الوحيد هو السبق الى الاكتشاف . ولو انه نجح في

في الوصول إلى تمبكتو ، وهذا ما أشك فيـــه ، فإنني سأكون مسروراً بلقياه فيها[1] ».

ولكن، هنالك أساس للاعتقاد بأن كلابرتون كان يغار من لينج، وربما كان ينظر اليه كمتطفل في ميدان أراد أن يحتكره لنفسه. أما وارنجتون، الذي كان في الواقع أشد اهتماماً بنتائج الارتياد ممن سيحقق ذلك ، فقد طلب من كلابرتون عندما كان في طرابلس ان يترك له أي معلومات عن الدواخل تساعد لينج ، الذي كان ما يزال في مالطة متوجهاً إلى طرابلس. وقد جشم وارنجتون نفسه مشقة تسجيل هذا الطلب في رسالة إلى كلابرتون الذي كان ضيفه آنذاك ، يقول بأنه قد تلقى تعليمات من وزارة المستعمرات لتقديم هذا الطلب ، وكان من قبل قد طلب ذلك شفهياً ولكنــه لم يتلق جواباً مرضياً من كلابرتون . وقـد كتب كلابرتون إلى وارنجتون رسالة في اليوم التالي ، بعد أن تلقى رسالة وارنجتون ولا شك ، ولكنه لم يُشر اليها ، مما أكد الاتهام بأن كلابرتون لم يكن يضمر أي قدر من مساعدة لينج ، ان أمكنه منع تلك المساعدة . وعندما عاد إلى لندن وجد وزير المستعمرات على غير استعداد لاحتمال مسلكه الأناني الذي سلكه .

وفي اغسطس وصل لينج إلى بني وليـد وكتب إلى ويلموت هورتون (W. Horton) وكيل الوزارة ، معترفـاً بلهجة أقرب إلى السخرية ، باستلام رسالة « تبين الآراء والاقتراحات التي طُلب من الملازم كلابرتون ارسالها لي لأسترشد بها ... وقد طبق فحواها العام فعلاً » . وأرسل في نفس اليوم تقريراً إلى وارنجتون بما قاله كلابرتون وبرأيه هو في ذلك : « وتلقيت بالمناسبة تلميحات من وزارة المستعمرات عما أرسله وارنجتون ، والواضح انها انتزعت منه انتزاعاً كي أسترشد بها، وتشير بأن أتعاون معك

---

[1] الجمعية الملكية ، ٣٧٤ – ١٠٧ . الواقع ان كلابرتون تلقى أوامراً من باثورست في ٣٠ يوليو ١٨٢٥ للتوجه إلى سوكوتو ثم إلى تمبكتو شريطة تأكده من أن لينج لم يصل اليها .

تعاوناً صادقاً .. ويجب أن البس لباساً تركياً بسيطاً ، وأن أكون لطيفاً مع المواطنين صبوراً عليهم . ولكن ليس من طبعي أن اكون خلاف ذلك ، و « يجب ألا ادون ملاحظاتي سراً » ، فالشمس لا تشرق في الزوايا المظلمة . ويقول : « يجب الا اتحدث عن النساء دونما احترام » ولكنني أعجب كيف عرف انني أفعل ذلك . انني لو بقيت قرناً في افريقيا لما عرفت عنه مثل ذلك . ويقول « يجب ألا اتدخل في شئون النساء في هذا البلد » شيء مذهل ومدهش ! و « يجب أن تكون معي هدايا اوزعها » .. انني لا احتاج إلى اشباح تظهر من قبورها لتحكي لي هذا الكلام » .

كان يمكن لرجل اعقل من وارنجتون إخفاء رفض كلابرتون تقديم المساعدة إلى لينج ، وكان من نتائج ذلك أن بات لينج مهموماً مما جعله يتحامل على رجل – كلابرتون – برز في ميدان كان فيه لينج ما يزال وافداً جديداً ، ألا وهو ميدان اكتشاف أفريقيا . وكتب إلى صديقه سابين يقول : « انني استخف بفكرة بلوغه تمبكتو قبلي .. بل كيف يمكنه التفكير في ذلك ، ألم تكن لديه القدرة على ذلك من قبل ؟ ألم يلق بالفكرة ويطرحها جانباً ؟ إنني لا استطيع تصور هذا الأمر : رجل يصبح على بعد يومين من النيجر ثم يرجع دونما يراه . استطيع التأكيد بأنني لو وصلت سوكوتو حُلت المشكلة منذ زمن بعيد ، وانني أشعر متأكداً بأن شرف حل هذه المشكلة متروك لي انا »[1] .

---

١ الجمعية الملكية .

الفَصْلُ التَاسِع

حطيطـــة

كان من احدى شروط تعيين لينج ان يقوم برحلته الى تمبكتو بصحبة دليل من الطوارق اسمه « حطيطة » (Hatita) [1] . وقــد كان غريباً ذلك الشرط الصادر عن وزارة المستعمرات ، لأن لينج لم يكن يعرف إلا القليل عن الطوارق آنذاك ، ولم يعرف إلا القليل كذلك عن حطيطة نفسه . ولكن المعروف عنه كان كافياً لإلقاء الضوء على شخصيته الغريبة. والواقع انه كان غير عادي الى درجة الشذوذ ، وكان شذوذه يتجلى في ميله الشديد للرواد الانجليز الكفــار من اولئك الزوار الغير محبوبين الذين ظل يختلط بهم طيلة ثلاثين عاماً . وقد عرفه الرحـالة جميعاً من لايون سنة ١٨٢٠ الى ريتشاردسون وبارث سنة ١٨٥٠ .

---

١ لم يعثر على نسخ من تعليمات باثورست إلى لينج حول ذلك ، ولكن يفهم شيء عن ذلك من ردود لينج عليها ، إذ كتب في يومياته يقول : « تقصياً للتعليمات الصادرة لي ، رأيت ان رغبة سيادتكم تقتضي التوجه من فزان إلى تمبكتو ، إما مع قافلة ما ، أو أن أضع نفسي تحت حماية زعيم من الطوارق يدعى حطيطة . » . يبدو أنه تم الاتفاق على مصاحبة حطيطة قبل التفكير في الالتحاق بقافلة ما أو عدم الالتحاق ..

كان حطيطة ابن خودن ينتمي لطوارق هجــار ممن يسكنون حول غات . وقد وصفه ريتشاردسون ، الذي لم يكن يعرف عنــه سوى أنه عجوز متعب ، بقوله : « انه رجل شديد الهدوء ، يحظى بمحبة شديدة نظراً لنزعته السلمية ، ولكنه شيخ من المرتبــة الثانية ، ليس له نفوذ سياسي على الطوارق يتعدى ما يتمتع به زعيم قبيلة »[1] « كــان من احدى خدماته للمكتشفين الاحتفاء بهم في أرض قــاسية وعنيفة ، ولم يكن غيره على استعداد للقيام بذلك . وقد أصبح لديه استعداد شخصي لمسايرة اسلوب حياة الاوروبيين الغريبة ، وكان نافعاً في حمايــة ضيوفه من الإهانة التي يتعرضون لها كمسيحيين ، ومن حب الاستطلاع والفضول الواسع والعنيف الى درجة تجعل السريــة أمراً شبه مستحيل . من أجل هذه الخدمات كان حطيطة يجد المكافأة الحسنة . ويبــدو أن قدرته على كسب ثقة الرحالة البريطانيين المتتابعين اكسبته سمعــة ومكانة خاصة بين بني قومه ، لان الانجليز ، رغم ما كانوا يواجهونه من احتقار ككفار ، كانوا أيضاً يجدون معاملة خاصة لأنهم طردوا نابليون من مصر . ولكن حب حطيطة للأوروبيين لم يكن في البداية نابعاً من المكـافأة التي قدموها له ، بل يبدو انه من دافع تطوعي ، لانــه كان يشعر بالفخر عندما ينشد الناس مساعدته . وقد اقتُرح على ريتشاردسون تعيينه نائبــاً للقنصل البريطاني في موطنه بغات ، لأنه كان شخصية يعرفها الجميع هناك وعلى الطريق إلى مرزق وغدامس ، وما يزال اسمه باقياً يتردد .

كانت سنة ١٨٢٠ أول فرصة التقى فيها حطيطة مع الرحالة ، كما يبدو . فقد كتب ليون حول رحيله من مرزق في تلك السنة يقول : « وجاء حطيطة الطوارقي للاستئذان بالانصراف ؛ وألح عليّ هــذه المرة

---

١ رحلات ريتشاردسون ١١ ، ١٠٠ ، ١٠٢ .

كثيراً بأن أمرّ عند عودتي لافريقيا ، ببلده الذي يعتبر هو زعيماً لها ، وأن آخذه معي إلى بلاد النيجر . وأضاف قوله بأنه سيكون راضياً تمام الرضى لو أحضرت له سيفاً كالذي احمله . إنـــه الطوارقي الوحيد الذي رأيته ، لم يكن يتسول أو يقدم الهدايا توقعاً للحصول على هدايا بديلة » .[1]

وبعد مرور أكثر من سنتين وصل دينهام الى مرزق في ابريل مـــن سنة ١٨٢٢ وكان يحمل سيفاً مرسلاً من ليون ، هدية منه الى حطيطة . وقد كان من الصعب وصف ما اعتراه من سرور ، كما قال دينهام ، وسرعان ما سرى الخبر في المدينة كلها ، حول السيف الذي تلقاه حطيطة والذي يقدر بمائة دولار .

وفي الأشهر الثلاثة التالية كانت بعثة بورنو كثيراً ما ترى حطيطة في مرزق وحولها ، وفي غات ، إلى حيث اصطحبهم . ويبـــدو أن مهمته لم تكن تتعدى كثيراً استئجار الجمال للمكتشفين ، ولكنه كان يتمتع برغبة غير عادية لجعل مستخدميه يتصرفون تصرفات مقبولة في مجتمعه ، وكان يستمتع بتعليمهم اصول السلوك المألوف . وقد كتب أودني مرة يقول : « ان صديقنا حطيطة كان متلهفـــاً لجعلنا أشخاصاً مرموقين ، وقد ألقى عدة محاضرات على كلابرتون » . والواقع أن العثور على رجل كحطيطة مستعد ، بـل متلهف للمساعدة وتقديم النصح حول السلوك الاجتماعي ، كان أمراً غير عادي في قـارة كانت العادات الغريبة للغرباء فيهـا كثيرة السخرية ، لا الاستحسان . وربما كانت هذه الميزة النادرة ، اكثر ممـا سواهـــا ، هي التي حببت حطيطة عند المكتشفين . وقـــد أعرب أودي وزملاؤه عن جزيل امتنانهم له واهتمامهم به عندما اوقعه المرض ، رغم انه كان مجرد إصابة بالملاريا .

---

١ ليون ، ٢٩٣ .

وينبغي ان نتذكر هنـا عرض حطيطة لمصاحبة لايون إلى « بـلاد الزنوج » ، ويعني بذلك هاوسة . وأوضح لأودي وزملائه انهم يستطيعون، بنفوذه فقط ، الوصول سالمين إلى تمبكتو . ولما كانت هذه التصريحات تأتي من افريقي محترم، فقد ترددت في لندن ووصلت إلى مسمع رجال من أمثـال اللورد باثورست وجيمز رينل وجون بارو ، ممن كانوا مهتمين باكتشاف افريقيا . وقد كانت تصريحاته عند اولئك الرجال وكأنها كلمات رجل مقدس يستطيع فتح كل بـاب يغلق الطريق الى قلب أفريقيـا . وهكذا أصرّ باثورست عـلى أن يصطحب لينج حطيطة الى تمبكتو ، بدلاً من السير وحده [1] .

واستدعي حطيطة بالتالي الى طرابلس ، غير انه لم يكن من الممكن اقناعه بالقدوم اليها ، وقام بدلاً من ذلك بانتظار لينج في غدامس ومنها رافقـه الى توات فقط . ويبدو ان وارنجتون لم يدرك السبب الوجيه في تردد حطيطة ـ في المغامرة والابتعاد كثيراً عن بلده . وقد كان حطيطة، كجميع الطوارق المهابين عند جيرانهم وعلى غير وفاق معهم ، يستطيع الوصول الى طرابلس دون المرور بالبلاد الشديدة العداء للطوارق [2] . واما سيره من توات الى تمبكتو فهـو أشد خطورة ، لأن الطريق تقع تحت سيطرة قوم هم في عداء تقليدي وشديد مع الطوارق .

ومـع السنين ذبلت ابتسامة حطيطة وتضاءلت قواه ، فقد سجل ريتشاردسون في مذكراته في أحد الأيام من سنة ١٨٤٦ قوله : « لقـد

---

١ كان باثورست يظن أن حطيطة موجود بطرابلس حينذاك فأرسل إلى وارنجتون كي يبقيه بها حتى وصول لينج .

٢ كان حطيطة قد وصل إلى طرابلس في أغسطس السابق ، واستطاع وارنجتون بعد عشر سنوات إقناعه بالحضور إلى طرابلس مرة أخرى ، ولكن حطيطة لم يحضر إلا بعد أن تأكد من سلامة الطريق .

أصبح حطيطة طويلاً نحيلاً واهن القوى » ، يسخر منه أبناء قبيلته . ثم ازداد ضعفه بعد أربع سنوات أخرى ، وكان ما يزال يتودد سراً للاوروبيين ، رغم تظاهره بالعداء لهم . وكان يمكن للتجار البريطانيين زيارة سوق غات بأمان لأن حطيطة كان يتمكن من حمايتهم ، وكان ينال الكثير من الهدايا .

يبدو أن مستخدمي حطيطة قد أفسدوه بكثرة الهدايا ، ولكن يبدو ان حطيطة قد بذل لهم وقدم من الخدمات ما يفوق هداياهم ، فقد استمر على خدمتهم حتى آخر أيام حياته : ولا بد للأجيال أن تبقى كريمة لذكرى رجل متواضع من بدو الصحراء ، فهو ذو سجل يستحق تكرار ذكر اسمه في مذكرات الكشف الجغرافي طيلة ما يزيد على ثلاثين عاماً من الزمن .

الفَصلُ العَاشِر

قصة تمبكتو

كان اكتشاف تمبكتو مجرد بداية لاكتشاف نهاية النيجر ، الامر الذي يعتبر الطموح المتوج لحياة لينج القصيرة . والواقع ان لينج كان على استعداد للتضحية بأي شيء في سبيل ذلك ، ولكنه لم يكن يستخف بقيمة تمبكتو ، أو يستهين بالتقدير الكبير لها من قبل الجمهور « كعاصمة لوسط افريقيا » .

ظلت تمبكتو طيلة خمسة قرون ، ان لم يكن اكثر من ذلك ، معروفة بهذا الاسم في غربي أوروبا ، وكانت تعتبر إحدى أشهر المدن المجهولة في العالم ، بل انها كانت في أذهان الكثيرين ذات أهمية لا تدانيها أهمية غيرها من المدن الخافية .

وقد اكتسبت تمبكتو شهرتها من المخاطرات التي تكتنف جغرافيتها ومن حوادث تاريخها المليء بالمتاعب ، وارتقت في وقت ما من القرن الثاني عشر الميلادي الى منزلة هامة كسوق حيادي يخدم مصالح الشعوب المختلفة من البلدان المحيطة بها . ورغم انها تعتبر مدينة في الصحراء ،

إلا انها تنتصب على ضفة نهر النيجر وعلى قرب شديـــد من البحيرات العظمى ومستنقعات أعالي النهر . وقد نالت شهرة عالمية كملتقى للتجار الذين يحملون بضائعهم على ظهور الجمال الصحراوية ، والثيران والحمير السودانية ، وفي مراكب الانهار والبحيرات . وكان يتجمع فيها خليط عجيب من الشعوب ، من مسلمين ووثنيين ، ومن عرب وبربر وزنوج ، لتبادل الملح والتمر بحبوب السافانا والعبيد وجوز الكـــولا ، وفوق كل ذلك ، بذهب أقصى الجنوب . كانت حركة المرور فيها مـــا تزال مبهمة كما كان عليه الحال ايام هيرودوت ، واتسعت تجـــارة تمبكتو في القرن الرابع عشر حتى أصبحت تمتد من ساحل غينيا إلى البحر المتوسط ، حيث كان تجار شمال أفريقيا يقايضون بضائع اوروبا بذهب السودان ، ثم ينقل إلى خزائن اوروبا الغربية حاملاً اسم « تمبكتو » .

وهكذا اصبح ذهب غينيا وذهب تمبكتو مطبوعاً في أذهان الناس[1] .

ولهذه الأهمية لذلك السوق العـــالمي ثارت شهية جيران تمبكتو التي لم تكن تملك من وسائل الدفاع الطبيعية مـــا يقاوم الغزوات عليها ، ولذا كان تاريخها سجلاً للحوادث ، يتقاتل الزنوج والبربر والعرب للسيطرة على طرقها التجارية أو على المدينة نفسها . وليس يهمنا في هـذا المجال تاريخها المتعب الطويـــل ، إلا في فترة متأخرة عندما وقع لينج ضحية الحوادث التي انهكتها عبر القرون ، وهذا ما سنعود اليه قريباً .

لم تقتنع أوروبا في العصور الوسطى بثروة بلدان الزنوج المخبـــأة في قلب أفريقيا ، وبالمستوى العالي من ثقافتهم ، الأمر الذي تجلى في وصول

---

[1] الواقع ان بريق الذهب هو الذي كان يدفع الغربيين ، أفراداً وحكومات ، إلى اكتشاف أفريقيا طمعاً في استغلال خيراتها ، ولم يكن الدافع هو فتحها على الحضارة ، كما تجلت حقيقة ذلك في موجات الاستعمار ونكباته التي ألحقها بالقارة وأهلها . (المعرب)

قافلة منساموسي الفاخرة الى القاهرة . ففي سنة ١٣٢٤ عبر امبراطور مالي العظيم الصحراء في طريقه إلى مكة للحج ، وقد أدهش القاهرة بسخائه وكرمه وبما أنفقه من ذهب . وبعد خمسين عاماً ، عندما قام رسام الخرائط الماجوركي ابراهام كريسكي برسم أطلسة للملك تشارلز الخامس ، ظهر اسم تمبكتو لأول مرة على إحدى الخرائط تحت اسم « تنبك » (Tenbuch) .

وعندما طبع راموسيو في منتصف القرن السادس عشر كتاب افريكانوس « تاريخ افريقيا ووصفها » ، كانت تمبكتو قد وصلت الى اوج شهرتها . وقد أسعد الحظ ليو افريكانوس (Lio Africanus) بزيارة تمبكتو في مهمة ديبلوماسية في بداية القرن عندما كانت مقراً لحكومة « أسكيا العظيم » (Askia the Great) . وكانت تمبكتو من قبل ومنذ زمن بعيد ملاذاً لتجار شمال أفريقيا ، ولكن زيارة بعثة دبلوماسية لها من قبل رجل عظيم كشريف فاس كانت تعتبر مجاملة تستحق ابتهاجاً خاصاً تبديه لهذه المناسبة ، ومن سمات ذلك الكرم الباذخ . ومما كتبه ليو عنها قوله : « إن لدى ملك تمبكتو الغني الكثير من صفائح وصولجانات الذهب ، ويزن بعضها ١٣٠٠ رطل ، وله بلاط فخم جيد الأثاث » . وثبتت هذه العبارة بالذات في أذهان الناس ، لكنهم نسوا وصف ليو الواضح للاكواخ المبنية من الجير ، المسقوفة بالقش . وظل كتاب ليو افريكانوس المصدر الشهير في أوروبا حول أفريقيا حتى القرن التاسع عشر ، وبقي الناس طيلة ذلك الوقت يرسمون لتمبكتو صورة تبهر الأنظار ، أوحى لهم بها أفريكانوس.

وقد تعزز ذلك الوهم وتغذى بنتائج احتلال المراكشيين لتمبكتو في في أواخر القرن السادس عشر ، إذ دهش تجار الغرب لما بدأوا يتلقونه من تقارير من عملائهم ومراسليهم في مراكش . فأرسل لورنس مادوك (Laurence Madoc) تقريراً في أغسطس سنة ١٥٩٤ ، إلى رئيسه في

لندن عن وصول ثلاثين بغلاً من السودان محملة بالذهب ، ولم يكن هذا التقرير إلا بداية لسيل منهمر من الأخبار ، أدهشت العالم كله . وبعد شهر كتب مادوك يقول : « يبلغ ريع تمبكتو ستين قنطاراً من الذهب سنوياً ... ويقال بأن محمداً (القائد المراكشي) أحضر معه كنزاً لا يقدر بثمن ، ولم أسمع عن مثله من قبل . ويبدو أن عند الناس هنا من الذهب ما يزيد عما لدى بقية الدنيا ... ان هذا الملك المراكشي سيكون أعظم امراء العالم إذا ظل يسيطر على هذا البلد ... »[١] وبعد خمس سنوات أرسل تاجر بريطاني آخر يتحدث عن تمبكتو عن وصول بضائع متنوعة ، منها ثلاثون جملاً تحمل تبر الذهب ، ويقدر ثمنه بستمائة ألف جنيه استرليني ، وهذا مبلغ كان يعتبر هائلاً في ذلك الوقت .

ولكن المراكشيين فقدوا سيطرتهم على السودان في المائة سنة التالية ، حيث اعقب ادارتهم الفاسدة ظلم مطبق ، توافق مع قرب استنزاف حقول الذهب ، مما تسبب في ضآلة تدفق الذهب على مراكش . ولكن الذهب لم يتوقف تماماً ، وظل يستخرج إلى درجة جعلت اكتشافه بالنسبة للكثيرين (في اوروبا) أمراً يفوق أهمية حل لغز مصب النيجر .

كان من الواضح عند لينج وعند معظم المفكرين ان تمبكتو لن تكون كما يتوقعها الجمهور ، ولكن من المؤكد ان اكتشافها سيكون نقطة تحول في تاريخ الاكتشاف ، وهذا ما ثبت فعلاً فيما بعد ، لأن تحقيق اكتشافها من جانب لينج جعل منه رجلاً مشهوراً ، ولكن ذلك الأمر كلفه حياته .

تتكون غالبية سكان تمبكتو من السونغاي ، وأصلهم كما يبدو من

---

١ ريتشارد هكلويت : مبادىء الملاحة .

ديندي وراء جاو العاصمة التقليدية للسونغاي . ولكن هؤلاء القوم قلما كانوا في تاريخهم الحافل بالمتاعب،سادة في تمبكتو . ورغم أن المدينة كانت تقع تحت جحافل الماندينغ والمراكشيين إلا أن غزواتهم كانت مجرد حوادث في صراع دائم مع الطوارق ، الأعداء التقليديين للسونغاي ، الذين دأبوا على الاغارة على تمبكتو لنهب ما يستطيعون نهبه منها ، وخاصة الذهب. ولما كان الطوارق يحتلون الصحراء المحيطة بالمدينة من ناحيتي الشمال والجنوب ، فقد ظل الخطر يخيم على تمبكتو ، وظلت الغارات تداهمها دون توقع وعلى حين غرة ، إلى أن اعتاد الناس فيها اجراء المعاملات وعقد الصفقات خلف الأبواب المغلقة ، لا في السوق المكشوف . ومن المدهش حقاً أن تزدهر التجارة والثقافة عبر القرون العديدة في مكان قلّما تمتع بالراحة والأمن ، وحيث كانت الحياة الانسانية والممتلكات دوماً تحت رحمة قبائل الصحراء ، إذ لم تكن المدينة قادرة على حماية نفسها من غزواتهم حماية فعّالة .

وكان من سوء حظ لينج ان يصل تمبكتو عندما كانت تتعرض لعدد من المخاطر والتقلبات .

في ذلك الوقت كانت قبيلة فولاني التي تسكن مسينة قد بدأت تفكر في القيام بحملة تبشير بالدين الإسلامي ، الأمر الذي أثار قبيلة بربارة في نفس البلد . ولكن السكان بصفة عامة تحمسوا للمسلمين مما شجع زعيمهم سيكو ، فتوسع في نشاطه وخلص مسينة من حكم بربارة الظالم ، وأصبح يسيطر على المنطقة الواقعة بين فولتا السوداء في الجنوب وبين تمبكتو في الشمال .

وعندما بلغ لينج تمبكتو سنة ١٨٢٦ ، كان لسيكو نفوذ كبير على

تمبكتو ، وعندما سمع بأن أحد الاوروبيين يقترب منها أمر بطرده في الحال ليرجع من حيث أتى .

ولم يتخذ سيكو هذا القرار لأن لينج مسيحي بل لأنه اوروبي . ومن الغريب انه أصدر قراره بناءً على طلب بللو ، سلطان سوكوتو ، ويبدو ان السبب في تدخل بللو ، الذي يبعد مسافة ٦٠٠ ميل عن تمبكتو ، جاء نتيجة زيارتين قام بهما كلابرتون للبلد سنة ١٨٢٤ وسنة ١٨٢٧ ، أي قبيل وصول لينج إلى تمبكتو وبعد الزيارة مباشرة .

كانت المقابلة الأولى بين كلابرتون والسلطان بللو حارة وودية، ولكن ذلك الحماس فتر بعد أن تحدث الأوروبي عن إلغاء تجارة الرقيق ، والأهم من ذلك عن خطط البريطانيين في استغلال دواخل افريقيا تجارياً ، قدوماً من ساحل غينيا . ولكن الشكوك زادت مع الوقت ، وشاع أن الحديث عن التجارة لم يكن إلا ستاراً لخطة بريطانية للاستيلاء على البلاد ، وأصبح من الواضح أن كلابرتون لن يستطيع إكمال رحلته نحو الساحل . وواجه السلطان المستر كلابرتون قائلاً : « انكم شعب غريب ، وأقوى الأمم المسيحية ، لقد أخضعتم الهند كلها لحكمكم » . وقد وافق بللو على التعامل مع انجلترا طالما كان ذلك عن طريق طرابلس والصحراء ، لا عن طريق ساحل غينيا ، وعارض بشدة فتح الطريق إلى الساحل لأن نشاطات الانجليز هناك لم تكن تشجع على الثقة فيهم بأي حال ، ولكنه وافق فقط على حضور قنصل وطبيب بريطانيين إلى سكوتو من جهة الساحل .

وعندما رجع كلابرتون سنة ١٨٢٧ وجد الناس ينظرون اليه بمزيد من الارتياب ، وقيل له « لو وجد الانجليز منا تشجيعاً كبيراً فإنهم سيأتون إلى بلادنا واحداً تلو الآخر ، حتى يبلغوا قوة يسيطرون بها على البلد ،

كما فعلوا في الهند التي اغتصبوها من أيدي المسلمين » . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح الحديث الشائع هـو « إن البريطانيين يبيتون النية في الاستيلاء على هاوسة[1] » .

ومع مخاوف بللو مـن التغلغل الاوروبي ، وبعلاقته الوثيقـة مع سيكو ممادو ، لم يكن من الغريب ان يحذره من لينج ويطلب طرده من تمبكتو ، مما كلف لينج حياته وأتى به الى انهاء رحلته .

---

١ يوميات كلابرتون في يومياته الثانية .

الفَصَلُ الحَادي عَشَر

الكسندر جوردون لينج المكتشف

من غير العدل أن نحكم على لينج من خلال رسائله فقط ، لا لقلة الرسائل التي بعث بها ، وخاصة في الأيام الأخيرة ، وإنما لأن هذه الرسائل لم تكتب بقصد تقديم مواد وافية للقارىء حول رحلات لينج . ولا يتوقف الأمر عند قلة ما يقوله عن الاقوام والبلدان التي زارها ، بل انه لم يقل شيئاً عن الرحلة ولم يقل إلا القليل عن نفسه . فلسنا مثلاً نعرف شيئاً عن كيفية تنظيم رحلته وسيرها ، ومتى وأين كان يرعى جماله ويرويها ، وما هي الصعاب التي واجهها في سفره المهلك . ويبلغ الصمت حداً يجعلنا نظن انعدام المصاعب في وجهه . وأما عن نفسه فلسنا نعرف كيف كان يمضي يومه ، سواء في المخيّم أم في المسير ، متى وماذا كان يأكل ويشرب ؛ ويكاد من الصعب أن نسمع عن أي لحظات من القلق الكبير ، أو عن فرحة الوصول الى بئر خفي أو العثور على أصدقاء في بلد الأعداء .

ولكن لينج كتب تقريراً وافياً ومناسباً حول غدامس ، ولم يكد

يكتب بعـده شيئاً بتوسع ، إلا تقريره عن الهجوم الذي تعرض لـه في وادي اهنّت ، ولم يتحدث شيئاً عن عين صلاح التي لا تقل أهميـة عن غدامس .

ولكن لينج لم يكن جلفاً بليداً في رحلاته ، فقد عثرنا لحسن حظه على تقريره « رحلات في غربـي افريقيا » ، حول تجاربه في دواخـل سيراليون سنة ١٨٢٢ ، حيث يقدم تقريراً وافياً حول حملته ويصف كيف كان يعيش في رحلاته وأسفاره ، متحدثاً عن البلد والناس وسلوكهـم نحوه ، وانطباعاته الشخصية في الحوادث المختلفة التي شهدهـا في البلاد الغريبة .

ولا بد أن لينج قد تعلم من وارنجتون في طرابلس ان ينظر إلى جميع الاوروبيين والكثير من العرب بعين الريبة . وأصبح كذلك يشاطر القنصل رأيه في أن الفرنسيين لا يألون جهداً في افشال خططه ، على أمل إحباط مهمته . وعندما بدأ رحلته حذره وارنجتون ثانيـة بضرورة التزام التكتم والسرية ، وكانت نصيحته له ألا يخبر أحداً شيئاً ما ، حتى عن خطوط الطول والعرض للأماكن التي يمر بها . وفي هذه الظروف ، وخشية وقوع رسائله في أيد غير أمينة ، كان من الطبيعي ان يكون لينج حذراً فيما كتبه غاية الحذر . ويبدو كذلك أن تكتمه في رسائله لم يكن من أجل السرية فقط بل لإخفاء مكتشفاته عن أعين منافسيه الذين يغارون منه .

والواقع ان لينج أظهر قبـل الشروع في رحلته إلى تمبكتو أن لديـه الصفات الذهنية اللازمة للمكتشف ، ومنها العقل الباحث المتحري ، كما يتبين من كتابه حول سيراليون . ويتبين كذلك انـه بحاثة ومتقصي ماهر يحسن جمع الأخبـار والمعلومات ، وقـد سجل وارنجتون مثلاً وصول

صندوق من « النماذج الجيولوجية » ، أرسلها لينج من توات .

ولا شك انه قد استغل في رحلته العظيمة مواهبه إلى أقصى حد ليحظى بالشهرة التي كان يرنو اليها . فيبين تقريره حول غدامس أنــه لم يضع شيئاً من وقته فيها دون الاستفادة منه . واعد كذلك تقريراً جيداً أثناء تأخره الطويل في الصحراء ، واخبر سابين انه قد جمع معلومات قيمــة حول عادات وطباع السكان المنعزلين في الصحراء،ووعد وزارة المستعمرات بإرسال ذلك عند بلوغه تمبكتو. ولا شك أن معظم كتاباته كانت تدون ضمن يومياته التي فقدت .

ولو أن يومياته كتبت لها الحياة لأثبتت انها عمل عظيم الأهمية،ولكانت ذات معلومات أكثر مما في اعمال دينهام وكلابرتون ، التي ما زالت ذات مقام رفيع في عالم الأدب الكشفي ، ولكن اختفاءهـا في ظروف أزّمت من العلاقات الانجلو – فرنسية ، كان خسارة للعلم .

ومما يعاب على لينج تردده وتراجعه عن بعض المواقف. فقد وجدناه اكثر من مرة يعيد النظر في مواقفه ، فيفعل أو يقول ما قد عاب غيره عليه منذ فترة قصيرة . كان في السابق مثلاً قد عاب على غيره البحث عن النيجر من طريق الشمال ، ولكنه أصبح بعد أشهر قليلة أهم بطل في هذه الطريق . وكذلك احتقر كلابرتون لتبنيــه اللباس التركي ، الأمر الذي تبناه هو نفسه بعد أسابيع قليلــة . وقد ظل فترة لا يتزحزح عن رأيه في أن مصب النيجر ينتهي في خليج بنين ، إلا أنه كان أحياناً يظن بامكان جريانه في اتجاه الغرب .

ولكن ما يلفت النظر حقاً تلك الصفة التي تميزه ، وهي انه طالما ظل في صحة جيدة ، لم يكن ليتردد في شيء أو يتراجع عنه . والغريب انه كان يشعر باقتناع داخلي بأن الله يريد له اكتشاف مصب النيجر ، وأصرّ على القول بأن « ذلك السر الذي ظل محجوباً زمناً طويلاً متروك لي » ،

وكتب ذات مرة « انني سأفعل اكثر مما فعله أحد قبلي ، وسأبدو كما كنت دائماً اعتبر نفسي : رجلاً ذا عبقرية وروح مغامرة » .

أصبح موضع الضعف هذا يبدو فيه أكثر وضوحاً بعد الهجوم الذي تعرض له في وادي أهنّت حينما كاد يهلك . ورغم طول فترة نقاهة لينج تحت رعاية الشيخ العربي الودود فإنه لم يستعد كامل قواه العقلية ، وربما كان ما يزال مريض الجسد . وهنالك دليل قطعي على ان عقله الضعيف بدأ ينحدر إلى حالة محزنة ، فقد كتب في أول يوليو سنة ١٨٢٦ الى وارنجتون يقول بأنه لو فشل في الوصول إلى تمبكتو فإن « العالم سيبقى جاهلاً بهذا المكان ، ولن يزوره مسيحي من بعدي » . ثم جاءت آخر رسالة مأساوية الى زوجته ، وربما كانت آخر رسالة كتبها على الاطلاق : « عزيزتي إمّه : أرجو أن تغفري لي كتاباتي ، لقد بدأت كتابة مائة رسالة لك ، ولكنني لم أستطع إكمال واحدة منها » ..

ويبدو ان الظروف ، لا الصحة المتدهورة ، هي التي تسببت في تغيير الخطط التي ميزت آخر اسبوع في حياة لينج [١] . وربما كان العجز الجسدي هو الذي أجبره على هجر مشروع النيجر واقناع نفسه بالاكتفاء باكتشاف تمبكتو . ولكن الأحوال السياسية المحلية أجبرته على الحيرة فيما عساه أن يفعله وأين يتوجه . فقرر أولاً ان يركب جملاً ويرجع إلى طرابلس ، ثم قرر عدم التراجع وعزم على تتبع مجرى النهر حتى يبلغ جنّي Jenne ،

---

١ كان في صلاح قد ظنه الناس « منجوبارك » نفسه ، وأصبح هدفاً للحقد الذي اثاره الأبله منجو بارك باطلاق النار على السكان دون تمييز أثناء إبحاره إلى النيجر ، وهذا ما أجبر لينج على التخلي عن فكرة ركوب قارب إلى مصب النيجر ومحاولة السير براً .

ليسير في بلاد كان يعرفها حيث يصل الى سيراليون ويقترب من البحر . ولكنه عندما وصل تمبكتو وجد أن فولاني مسينة قد أغلقوا الطريق إلى جنّي . ولكنه رغم ذلك لم يتخل عن تصميمه في التوجه إلى أعالي نهر النيجر ، فقرر التوجــه إلى سيجو سيكورو ، البعيدة عن جني ، ولكن الوصول اليها كان يحتاج الى اسلوك طريق طويل يمر باروان وولاته، وفي هذا الطريق الطويل لاقى لينج منيته .

والواقع ان لينج كان يتمتع بموهبتين يحتاج اليهما المكتشف الناجح أكثر من غيرهما ، وهما الشجاعة والتصميم ، وقد أظهر كلتيهما عندمـــا غادر صلاح . فقد وصلت أنباء عن حدوث متاعب خطيرة على الطريق في آخر وأخطر مرحلة الى تمبكتو . وكان معه مائة وستون تاجراً من غدامس ، يقدّرون المخاطر أكثر منـــه لأنهم أصحاب البلاد ، فقرروا البقاء حيث كانوا . ولكن لينج صمم على المضي وحده مهما حدث له ومهما واجه من حوادث . وقد شهد بشجاعته من كان معه من مسافرين ، غير ان فقدانه ليومياته حرمه من مكانته المرموقة بين كبار المكتشفين لافريقيا .

ولا يكاد يوجد مثله إلا القليل في تاريخ الاكتشاف الجغرافي ممن تحملوا ما تحمله بارادة فولاذية في الظروف القاهرة التي مرت به في رحلته المدهشة من وادي أهنت الى معسكر المختار ، فقد استطاع ان يقطع مسافة أربعمائة ميل من رحلته في الوقت الذي كان يعاني فيه من عشرة جروح في رأسه ، ورصاصة في وركه ، يداه مشوهتان وساقاه مصابتان ، ولا يرافقه إلا عدد قليل من الأفارقة يعتنون به .

وسيظل لينج يذكر دوماً كمكتشف تمبكتو ، رغم أن عدداً مـــن الأوروبيين قد زارها من قبله ، إلا انه هو الذي يعتبر مكتشفها ، لأن أحداً من اولئك لم يتحدث للعالم شيئاً عنها .

وكما تبين الرسالة التالية ، لم يتردد أصدقـاء لينج في الاعتراف له بعظمة رحلته الى تمبكتو :

من جيمس باندينال الى هانمر وارنجتون :

وزارة الخارجية في ٢٤ مايو ١٨٣٠

سيدي :

بتشجيع من السيد بارو والسيد هاي ، أخذ النقيب سابين على عاتقه بذل جهده لإعداد تقرير حول حياة صديقك وصديقـه وصديقي العزيز الرائد لينج ، لكي يترك للعالم سجلاً عنه وعن قيمته ، وعما أنجزه .

ومما يسهل عليه مهمته تكرمك بامداده بما عندك من مادة حول هذا الموضوع ، من رسائل وصلت للرائد لينج أو صدرت عنه ، ومن اوراق تتحدث عنه أو تخصه ، وأي مذكرات تستطيع تقديمها انت عنه . وإذا وجهت هذه الأوراق إلى النقيب ادوارد سابين من المدفعية الملكيـة ، وأرسلتها في الحقيبـة الرسمية إلى وزارة المستعمرات ، فإنهـا ستصل إلى النقيب سابين سالمة ، وتكون حينها قد تفضلت بالاسهام في تخليد ذكرى واحد تعتبر ذكراه عزيزة علينا ، ويعتبر من كل الوجوه مناسباً للعمل الذي تولاه أكثر من غيره في أي مكان آخر .

(توقيع) جيمس باندينال

ملاحظة : لم أقل لك بأن سابين ، الذي بدأ التقرير ، سيقدمه للمطبعة في اكتوبر القادم .

ورغم ذلك ، ورغم مكانـة الذين رعوا هـذا المشروع وحمـاس

سابين عند البدايـــة ، فقــد مر اكتوبر ولم تصل السيرة المقترحـــة إلى الناشر .

ولا بد هنا أن نذكر فضل الفرنسيين ، فرغم المرارة التي كانت تسود علاقاتهم حينذاك مع البريطانيين ، وخاصة في إفريقيا ، فإنهم لم يكونوا فقط أول من أكرم لينج علانية بعد وفاته ، ولكنهم كانوا أيضاً أول من فعل ذلك طيلة مائة عام . ففي سنة ١٨٢٩ قدمت الجمعية بباريس الميدالية الذهبية لأرملة لينج ، اكراماً لزوجها الميت .

وفي سنة ١٩٣١ وضعت الجمعية الجغرافية بلندن لوحة تذكار برنزية على المنزل الذي أقام فيه لينج بتمبكتو .

[illegible]

[illegible] عنه أو [illegible] ، وفي مذكرات [illegible] [illegible] ، ولذا

وجهت هذه الأوراق إلى الشعب [illegible] من [illegible] ،

وأرسلتها في الحقيبة الرسمية إلى وزارة المستعمرات ، [illegible] إلى

[illegible] ، ويكون [illegible] بالأسهام في [illegible] ذكرى

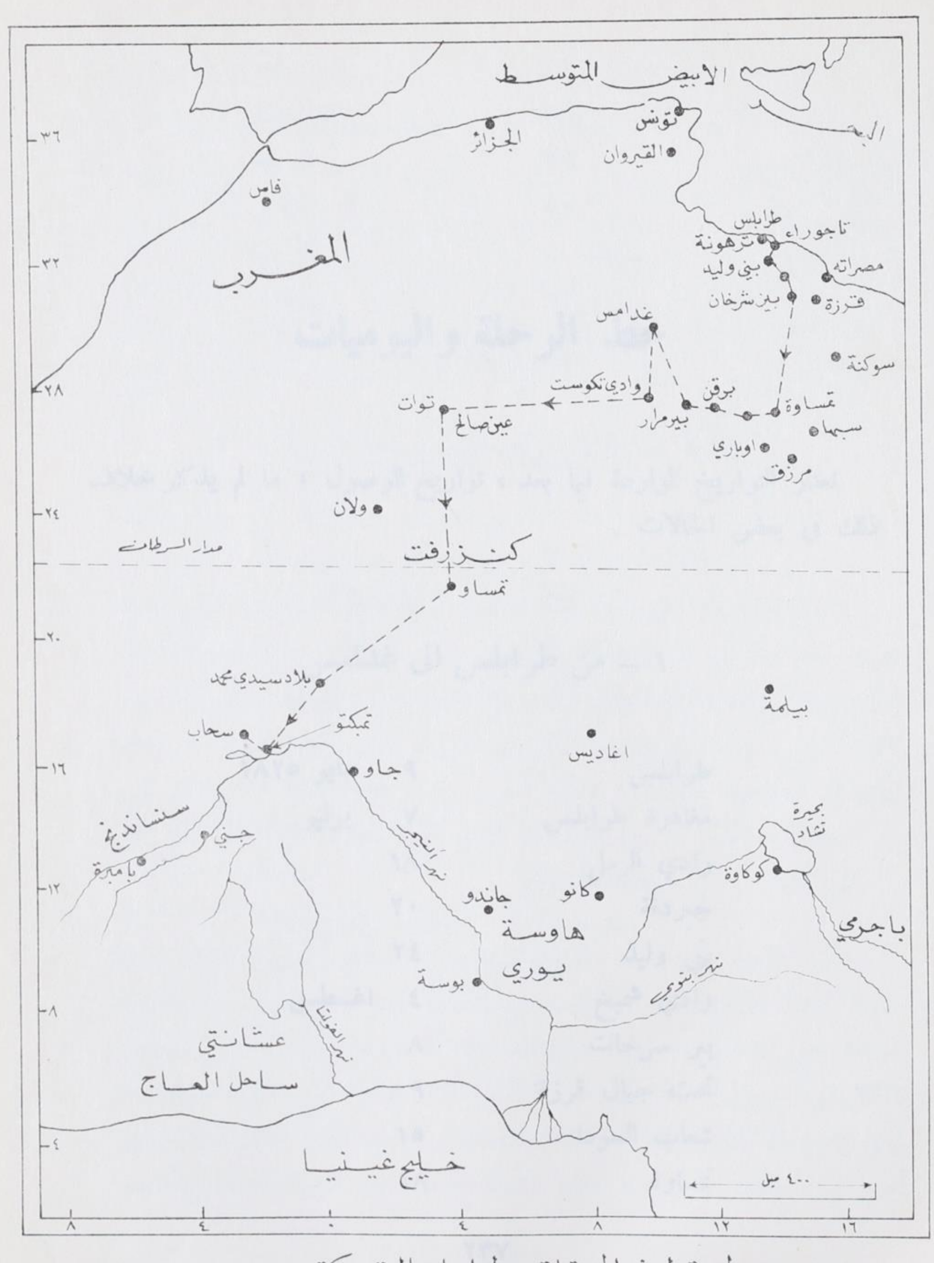
[illegible] ذكراه عزيزة علينا ، [illegible] من كل [illegible] العمل

الذي تولاه أكثر من غيره في أي مكان آخر .

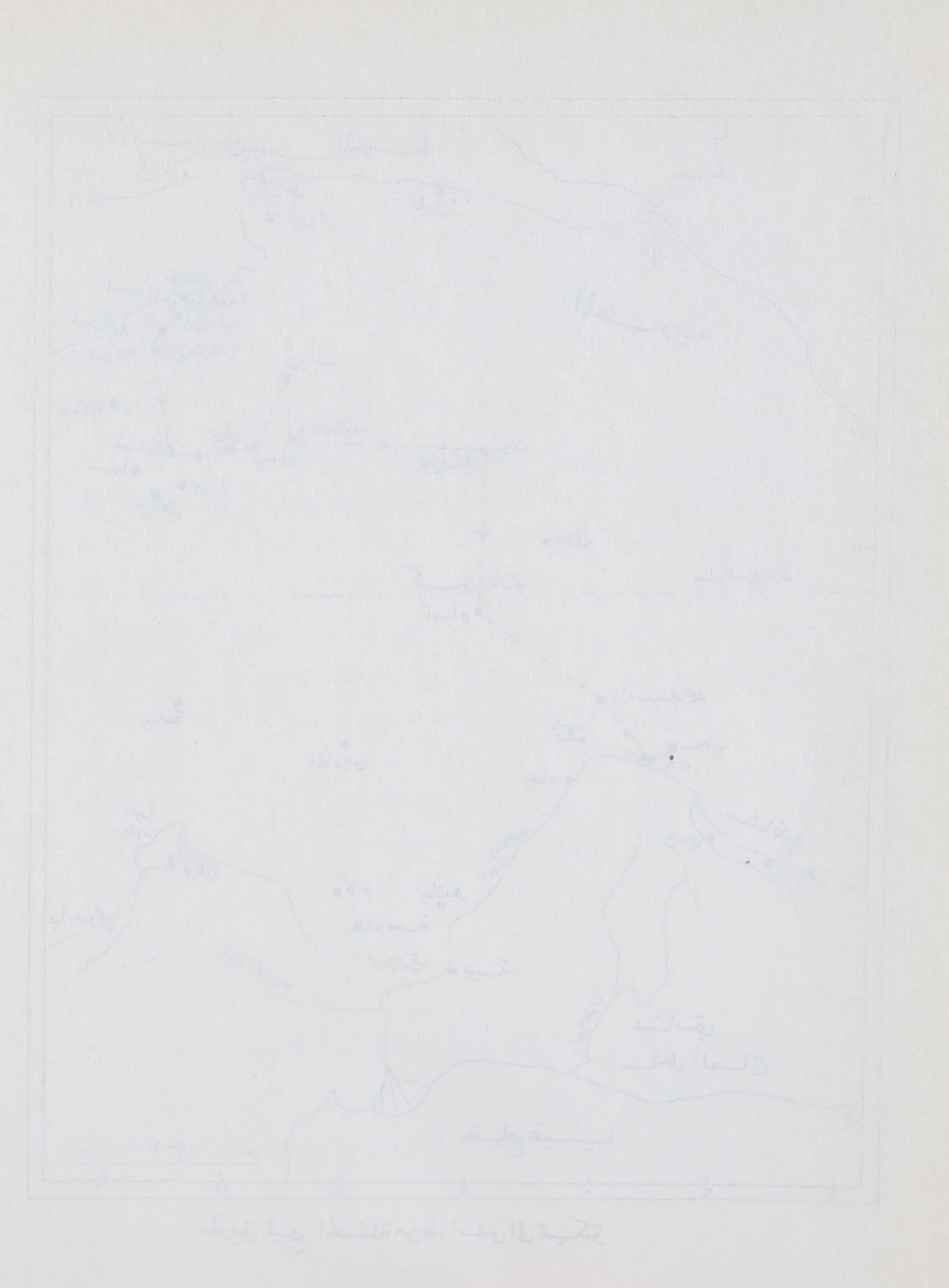
(توقيع) [illegible]

ملاحظة : لم أقل لك بأن [illegible] ، الذي بدأ التحرير ، [illegible]
في الحرب القائمة .

ورغم ذلك ، ورغم مكانته التي [illegible] هذا المشروع [illegible]



طريق لينج المحتملة من طرابلس الى تمبكتو



خط الرحلة واليوميات

تعتبر التواريخ الواردة فيما بعد، تواريخ الوصول، ما لم يذكر خلاف ذلك في بعض الحالات .

١ ــ من طرابلس الى غدامس

طرابلس	٩	مايو ١٨٢٥
مغادرة طرابلس	٧	يوليو
وادي الرمل	١٨	
جبر دقة	٢٠	
بني وليد	٢٤	
وادي شميخ	٤	اغسطس
بير سرخات	٨	
تحت جبال قرزة	٩	
شعاب السودا	١٥	
تمساوة	١٨	

أجار	٢١
المحروقة	٢٣
جرمة	٢٣
برقن	٢٥
بير المرايا	٢ سبتمبر
غدامس	١٣

٢ ـ من غدامس الى سحاب (قرب تمبكتو)

الخروج من غدامس	٣ نوفمبر ١٨٢٥
وادي ثكوست	١٣
عين صالح	٢ ديسمبر
الخروج من عين صالح	٩ يناير ١٨٢٦
تنزوف	٢٦
وادي أهنت	(أول) فبراير
بلاد سيدي محمد	(؟) ابريل
تمبكتو	١٣ أغسطس
الخروج من تمبكتو	٢٢ سبتمبر
سحاب	٢٤

الفَصلُ الأوّل

الإعداد للسفر

كانت الحكومة البريطانية في اغسطس سنة ١٨٢٤ شديدة القلق حيال مجرى الحوادث في ساحل الذهب إلى درجة دفعت وزير الخارجية لابداء اهتمام مباشر بالضابط الشاب الذي وصل لندن من توّه ليقدم تقريراً حول حملة أشنتي . ولسنا نعرف ما دار بين اللورد باثورست والنقيب جوردون لينج في اجتماعهما الأول ، ولكن مضى وقت طويل قبل أن يتمكن لينج من استقطاب اهتمام الوزير لمشروعه الذي ظل ينتظره طويلاً لاكمال عمل « منجو بارك » في اكتشاف النيجر .

وكان اللورد باثورست منذ تعيينه وزيراً للمستعمرات سنة ١٨١٢ يبدي اهتماماً عميقاً بالاكتشاف . فإليه يرجع السبب في حملة ريتشي — ليون سنة ١٨١٨ على حساب الحكومة والحاقها ببعثـة بورنو بقيادة أودني ودينهام وكلابرتون . ولولا أن باثورست تذكر الاتصال السابق الذي اجراه معه لينج لاستحال ان يعرف اسم ذلك الضابط الشاب الذي كان أول مـن أعلن عن احتمال ان يكون النيجر شيئاً يختلف عن النيل . ولذا يمكننـا

التأكد بأن باثورست قد أصغى لما قاله لينج في أول لقاء ، ولكن سنة مرت قبل أن يهتم الوزير بالأمر اهتماماً جدياً .

ففي مطلع اكتوبر رجع لينج إلى لندن ، بعد اقامة قصيرة في اسكتلندة ليجد عند باثورست حماساً شديداً . ولكن رغبة وزير الخارجية في اقتراح لينج لارتياد النيجر كانت تعادل معارضته للشروع من سيراليون من أجل ذلك الهدف . والواقع ان سجل محاولات الوصول إلى النيجر من ساحل افريقيا الغربي كان قاتماً إلى درجة جعلت من الصعب تبرير انفاق المزيد من أموال الحكومة على أي حملات أخرى تبدأ من تلك الجهة . لا شك أن بارك نجح أولياً في اكتشاف النيجر ابتداءً من الغرب ، ولكنه عندما حاول اكمال عمله بتتبع نفس الطريق ثانية ، كان ثمن ذلك كثيراً ، إذ كلفه حياته وحياة خمسة واربعين من رفاقه . وكذلك فقد هوتون حياته من قبل ، ولاقى هوتون حتفه من بعد بارك في محاولات مشابهة . ولم يعد هنالك أدنى شك في أن دواخل ساحل غينيا ، التي اثبتت عدة قرون لأسباب جغرافية وسياسية وتجارية انها مستحيلة النفوذ من جانب الاوروبيين ، كانت حاجزاً يمنع الوصول إلى الدواخل ، وينبغي تفاديه بعد ذلك .

ومن جهة اخرى ، كان من الشائع أن دواخل غربي أفريقيا يسهل الوصول اليها قدوماً من الشمال الافريقي ، وأثبت ليون وهورنمان ان باستطاعة المسيحيين السفر على نفس الطريق مثل المسلمين ، وانه حيثما ذهب الافريقي يمكن للاوروبيين أيضاً أن يذهبوا ، وأيدت ذلك التقارير الواردة من طرابلس ومن اودني ودينهام وكلابرتون . اذن كانت فرص النجاح من الشمال أعظم بكثير منها في الجنوب . ومع ذلك فقد طلب باثورست من لينج ان يدون أسباب رغبته في البدء من سيراليون وان يبين خطته العامة . وقد فعل لينج ذلك متعللاً بأسباب ثلاثة : أولها سفره السابق في تلك الانحاء ومعرفته الشخصية للكثير من الزعماء المحليين الذين

وعدوه بالمساعدة ، وثانيها معرفته للغة ماندينغو ، واما السبب الثالث فهو علمه من المستوطنين الاوروبيين مدى الفوائد التجارية في فتح ذلك الطريق الى الدواخل .

وقد اقترح لينج ان يقوم بالسفر شرقاً في هاوسة ليطوف حول بحيرة تشاد ويعرف ما إذا كان لها مخرج من الماء يتصل بالنيل أم لا ، وإذا لم يجد المخرج يرجع متتبعاً مجرى النهر العظيم الذي سماه « نهر زاد » الذي يخترق البحيرة ، ولكن هذا النهر لم يكن إلا نهر « بينو » الذي لم يكن يصب في البحيرة أو يخرج منها .

كان لينج قد أعلن قبل أشهر قليلة أن البحث عن النيجر من جهة الشمال يعتبر حماقة وانه من غير الممكن اكتشافه ، انطلاقاً من تلك الجهة .

والواقع ان الأسباب التي قدمها للبدء من سيراليون واهية ، فهي بالتأكيد لم تؤثر على اللورد باثورست الذي أصرّ على الطريق الشمالي (ابتداءً من من طرابلس) ، ويبدو أنه اقنع لينج أنها هي الطريق الصحيح ، كما يتضح من الحماس والثقة بالنجاح عند بداية الرحلة ، واستمرار ذلك الحماس والثقة لا يتزحزحان حتى النهاية .

وقد التزم لينج بالعمل الجديد قبل نهاية الشهر ، وحصل على اجازة بإذن من القائد العام للقيام ببعض « الأبحاث العلمية في دواخل افريقيا » ، كما كتب سابين في مقدمة « رحلات لينج » التي كان يعكف على اخراجها للمطبعة ؛ وأضاف قوله : « انها فرصة منحت له للتوجه تحت رعاية اللورد باثورست لاكتشاف المجهول من مجرى النيجر ونهايته ... وقد تم ترتيب الأمر ليصحب الرائد لينج القافلة المتجهة من طرابلس إلى تمبكتو في صيف السنة الحالية ، على ان يشرع في رحلة الخروج من انجلترا في وقت مبكر من السنة . » وتبين سرعة قرار رحيل لينج لبدء بعثته مدى تأثير باثورست في وزارة المستعمرات ، هذا اذا علمنا حدوث

ذلك في لحظة صعوبات مالية شديدة عنـد الحكومة ، وفي وقت كان يوجه فيه النقد لارتفاع تكاليف رحلات اودني ودينهام وكلابرتون .

كان اول عمل للينج أن يحضِّر لباثورست تقديراً بتكاليف الرحلة ، ويبدو انه لم يتبادر الى ذهن لينج أو وزارة المستعمرات ان تقدير لينج للنفقات لن يكون دقيقاً ، لأنه لم يسبق أن سافر الى شمال أفريقيا .

وقد طلب لينج ان يستخدم مرافقين اثنين له من السود يقومان على خدمته ، بالاضافة إلى الرجل الذي رافقه في رحلاتـه بافريقيا « جاكلي بور » من الدمنيكو ، وقرر راتبـاً لكـل الرجلين ثلاثين جنيهـاً في السنة ، وحدد لنفسه مصروفاً يومياً حوالي خمس شلنات ، وشلناً ونصفاً لكـل من الرجال الثلاثة . وقد ارفق بمذكرته البيان التالي :

مصاريف محتملة للنقيب جوردون لينج وفريقه للوصول إلى تمبكتو :

شراء خمسة جمال	٧٥ جنيهاً استرلينياً
اجرة ونفقة رجلين من العرب للعناية بالجمال	١٨ »
مأكل ومشرب للجمال	٥٠ »
	١٤٣ جنيهاً .

وفي تقدير لتكاليف هدايا لتقديمها للزعماء في الطريق إلى تمبكتو ومصب النيجر وضع قائمـة بأنواع من الهدايا تقدم إلى « مولاي اسماعيل » أو خليفة ، وهو « زعيم البلاد التي تقع ضمنها مدينة تمبكتو ، وفي مقدمتها بندقية وسيف وساعة ، ومجموع أثمانها كلها أربعون جنيهاً استرلينياً .

وطلب هدايـا أقل تواضعاً لزعيم تمبكتو « سيدي محمد المختار » ، وزعيم هاوسة « محمد بللو » سلطان سكوتو ، لكل بحوالي ثلاثين جنيهاً .

وقدّر لينج تقديم هدايا أخرى لمن يقابله من الزعماء الآخرين ، وخاصة في نهاية الرحلة ، بنحو من ثلاثمائة جنيه ، وتشتمل هذه الهدايا على البنادق والسيوف والمسدسات والبارود والمُدى والمقصات والمنظارات وعشرين ذراعاً من الأشرطة الذهبية .

وعدّد لينج في بيان آخر المعدات التي يحتاجها هو : آلة سدس للجيب ، وتلسكوب وثلاث بوصلات وبارميتر وآلتين لقياس الرطوبة ، وكرونومتر وساعة ، بتكاليف إجمالية قدرها مائة وعشرون جنيهاً ، وأضاف لهذا المبلغ خمسين جنيهاً ثمن تجهيزات خاصة له .

وانتهت المذكرة برجاء اللورد باثورست أن يضع تحت تصرفه مبلغاً احتياطياً قدره خمسمائة جنيه ، لا يمسه إلا في الحالات الضرورية الطارئة ، ثم أوجز جميع المصروفات كالتالي :

مجموع مصاريف الرحلة :

هدايا للزعماء	٣٠٠	جنيه استرليني
معدات وتجهيزات	١٧٠	« «
مصاريف الوصول الى تمبكتو	١٤٣	« «
مصاريف نفقات المرشد	٢٧	« «
	٦٤٠	جنيهاً

المصاريف السنوية للبعثة :

نفقة معيشة ومصاريف لينج	٩١	جنيهاً
نفقة معيشة ومصاريف للمرافقين	٨٢	جنيهاً
	١٧٣	جنيهاً

مبلغ احتياطي للمصاريف المحتملة الأخرى ٥٠٠ جنيه .

تلقت وزارة المستعمرات هـذه البيانات في ديسمبر ، وتمت الموافقة عليها بالطبع ، نظراً لتأثير باثورست . وكتب لينج أيضاً في الرسالة المرفقة إلى وكيل وزارة الخارجية، ويلموت هورتون (Wilmot Horton يخبره عن استعداده للسفر إلى طرابلس في أي وقت .

وقد أبحر فعلاً في السادس من فبراير ونزل إلى بر مالطة في الثالث من مارس ، ومنها وجه رسالة إلى ويلموت هورتون يخبره عـن سحبه لراتبه ومصاريف المعيشة له ولرفاقه من الرجال الثلاثة ، وهذه أول مرة نسمع فيها عن استخدامه لاثنين بالاضافة إلى جاك بور ، وكانا افريقيين من بناة السفن ، ربما اتفق معهما في ليفربول حيث يكثر الافـارقة الغربيون .

وفي مالطة استطاع استكمال معداته ، غير ان مرضاً بالكبد ألم به منعه من مواصلة رحلته إلى طرابلس بالسرعة التي كان يرجوها . وظل طيلة الشهرين اللذين قضاهمـا في مالطة يتلقى رسائل تشجيع وود مـن العقيد هانمر وارنجتون ، القنصل البريطاني العـام في طرابلس ، حيث وصلت مؤخراً بعثة بورنو بعد غياب دام سنوات ثلاثاً . وكتب لينج إلى صديقه باندينال يقول : « لقد عاد دينهام وكلابرتون ، ولم يفعل الأول منهما سوى القليل ، غير أن الثـاني ، كما فهمت ، قـام بأبحاث هامـة في السودان . وقد كتب إليّ وارنجتون من طرابلس بأن كلابرتون علم من « بللو » زعيم السودان[1] بـأن النيجر ينتهي في بنين حيث يصب فيـه

---

[1] كان بللو زعيماً للسودان يمتد سلطانه إلى هاوسة ، ويبدو ان جميع أو معظم البلا د الواقعة غربي السودان من تشاد وغيرها كانت تسمى عموماً « السودان » في تلك الأوقات . (المعرب) .

متفرعاً إلى عدة فروع ، وهذا يوافق افتراضي ، ولكنني أرى أن من الواجب أن يسير المرء مع مجرى النهر قبل أن يدعي لنفسه حق الاكتشاف »[1] .

وفي الثالث من مايو كتب إلى وزارة المستعمرات ان باستطاعته السفر إلى طرابلس في اليوم التالي ، واضاف بأنه تلقى رسائل من وارنجتون : « الذي يزودني بأطيب الاحتمالات حول رحلتي إلى تمبكتو . وقد أرسل يستدعي الزعيم الطوارقي حطيطة الذي سيرافقني في الطريق ، ويتوقع وصوله إلى طرابلس قرب منتصف الشهر الحالي » .

أما الى وارنجتون فقد كتب يقول :

مالطة في ٣٠ ابريل ١٨٢٥

لقد سعدت بتلقي رسالتك الرقيقة المؤرخة في السادس والعشرين من الشهر الماضي ، واؤكد لك انها كانت مبعث سعادة كبيرة لي ، فاحتمالات الرحلة التي ذكرتها إلى تمبكتو هي احتمالات مبهجة حتماً ، وتقدم الكثير من التشجيع لرجل مثلي كرّس نفسه لقضية اكتشاف افريقيا ؛ والواقع ، سيدي ، أن كل أفكاري تتجه منذ خمس سنوات نحو القارة المغلقة ، لأكشف الأسرار التي كنت أرغب أشد الرغبة في الوصول اليها ، قانعاً بأنني لو أفلحت في ذلك وعرّفت أبناء بلدي بقدرات ونزعات سكانها ، فإنني سأؤدي دوري في رفع الظلم الذي أوقعه بهم أجدادنا في عمليات الاسترقاق المرعبة . وانني لسعيد حقاً ان أسمع عن النجاح العظيم للملازم كلابرتون ، وقد عللت نفسي دائماً بفكرة انتهاء النيجر في خليج بنين ، ورسمت له مسلكاً على خريطة في وزارة المستعمرات في اليوم السابق لرحيلي

---

[1] الجمعية الملكية ، ٣٧٤ (لينج) ٧٣ .

من لندن ، وبنيت فكرتي هذه على رأي بطليموس القوي ، وعلى معلومات الكثير من الناس من سكان هاوسة ويوري ، ممن سلكوا الطريق كله مع الماء . والآن تأتي معلومات بللو لتجلو الموقف كله ، أو تجلوه إلى أن يتم ركوب النهر الى مصبه ، ولكنني أرى أن هذا لن يسرّ السيد بارو الذي يصرُّ على ان نهر « يوو » أو تشاد هو النيجر .

كان ينبغي أن أكون عندكم منذ وقت طويل ، ولكن نوبة من المرض عاودتني ، كنت قد شكوت منها خلال حملات سابقة بافريقيا ، ولكنني لا أخشى منها شيئاً ، فأنـــا اتماثل للشفاء بسرعة ، وآمل ان أستعيد كامل عافيتي قُبيل العاشر من مـــايو ، وان اكون مستعداً للسفر إلى طرابلس للتوجه منها الى فزان — مع بالغ الشكر لـكم ، سيدي ،

المخلص لـكم

جوردون لينج

الفَصْلُ الثَّاني

طرابلس: لينج والباشا

وصل جوردون لينج طرابلس في التاسع من مايو سنة ١٨٢٥ ، واستقبله وارنجتون فيها استقبالاً حاراً ، وكان ما يزال ينتظر قدوم حطيطة من الدواخل . وقد ترك لينج عند من رآه منذ البداية انطباعاً حببه إلى الناس ، غير أن أمرين أحدثا لدى القنصل اهتماماً بالغاً ، أولهما صحة لينج التي بدت واهنة والى حد جعل وارنجتون يحاول اقناعه بضرورة أخذ طبيب يرافقه في رحلته ؛ وثانيهما تقدير تكاليف الرحلة التي اعدها لينج وقدمها لوزارة المستعمرات دون أن يكون لديه أي علم بالظروف المحلية . وكان لا بد ، إما من زيادة المصاريف زيادة كبيرة ، ولا يوجد ما يخول زيادتها ، أو الانتظار حتى وصول تعليمات جديدة من لندن . كانت وزارة المستعمرات ، لسوء حظ لينج ، تصر على أقصى التوفير كإصرارها على الحاجة إلى السرعة ، وذلك كي لا تفوت لينج القافلة السنوية إلى تمبكتو ، وكي لا يسبقه الفرنسيون إلى ذلك العمل .

واسرع وارنجتون في العاشر من مايو بارسال خطاب إلى ويلموت هورتون ، وكيل وزارة المستعمرات ، يخبره عن وصول لينج ويطلب

تخويله ارفاق طبيب خاص معـــه ، نظراً لحالته الصحية « الرقيقة » ، ولما يمكن ان يقوم به الطبيب من خدمة من يمر بهم من أصحاب البلاد . ثم تحدث في الرسالة عن تقدير مصاريف الرحلـة « البعيد عن الواقع » والتمس تخويله تحديدها ، كما فعل من قبل مع البعثات السابقة .

وتحدثت الرسالة في مساحة واسعة منها عن ضرورة تقديم مبلغ مناسب من المال للباشا ، « لانني ان افعل ذلك فإنني متأكد مـــن زيارة وزير بيت المال لي ملحاً علي بالاذعان . ان الظروف الحالية تضعني في موقف دقيق ، وأظن من المحتمل ، ان لم يكن من المؤكد ان سعادته (الباشا) سيحتاج الى بعض المال لدفع مصاريف ما .... » وأخيراً يعبر وارنجتون عن أمله في توديع لينج لبدء رحلته في أسرع وقت ممكن .

وفي رسالـــة وارنجتون الى باثورست يعد بتقديم لينج للباشا في أقرب فرصة ممكنة ، وأن يسرع في رحيله قدر استطاعته . ولم يُضع وارنجتون وقتاً في طلب المقابلة التي تعتبر مقدمة ضرورية لأي نجاح ، ولكنه سرعان ما وجد نفسه يواجه مقاومة عنيفة من الباشا حول كل ما يتصل بلينج ، وكان الأمر يحتاج عدة أسابيع لإذابة الجليد ، إذ الواضح أن الباشا مصرّ على التأخير ، ان لم يكن على منع رحيل لينج إلى تمبكتو .

لم يكن هذا الاتجاه الواضح للعرقلة راجعـــاً إلى فقدان وارنجتون ود البلاط ، أو لضغط فرنسي ، كما ظن وارنجتون ، بل ربمـا كان ذلك هو التصرف الذي ظنه الباشا يجيء بأفضل النتائج بالنسبة لمـا يهتم بـه هو نفسه . وقد علمتـــه التجارب كذلك أن من الواجب كسب النقود من الاكتشاف الاوروبـي ، كما فعل مع بعثة بورنو .

وتسجل الرسالة التالية المتاعب التي واجهت وارنجتون ولينج معاً :

من هانمر وارنجتون إلى ويلموت هورتون :

طرابلس في ١٣ مايو ١٨٢٥

لم أستطع رؤية الباشا هذا الصباح ، لذا اتجهتُ إلى القلعة وقابلت الحاج محمد حاجب بيت المال ، ورجوت منه ان يحمل الباشا على تحديد يوم اتشرف فيه بتقديم الرائد لينج له ، فأخبرني ان الباشا يرغب في تأجيل ذلك إلى ما بعد الصيام الحالي . وعندما ابلغته ان الحكومة البريطانية تتوقع سفره في أقرب وقت ممكن ، رد باستحالة ذلك نظراً لاشتباك الباشا في حرب مع خليفة [١] . ولكنني رددت على ذلك قائلاً بامكان التوجه عن طريق بني وليد تجنباً لغريان كلها . ولكنه قال بأن من الواجب انتظار مقدم حطيطة ، فأخبرته بأن حطيطة سيكون هنا في غضون أيام قليلة ، ما لم يُحتجز عن قصد [١] . ثم قال بأن من الأفضل الانتظار إلى أن يصل المسافرون الآخرون إلى انجلترا ، وبالتالي انتظار الخطوات التي تقوم بها انجلترا [٣] . لقد كنت دائماً اشك في كلامه ، وانتقدت التصرف بتلك الطريقة الغامضة ، واخبرته أن انجلترا لا ترغب في أن يخسر الباشا شيئاً ، أو أن يعاني لينج من التأخر هنا قرابة أربعة أشهر . لذا فإنني لا اتردد في دفع مبلغ صغير للباشا لمواجهة المصاريف . ثم عاد بجواب يقول فيه بأن الباشا لا يمكن أن يفكر في أخذ شيء من المال ، لأن ذلك يحط من شرفه ، فأجبته بأنني اوافقهم تماماً ، وانني آمل بألا توجد عوائق أمام رحيل الرائد لينج . ورغبت في أن ينقل بيت المال (وزير المالية) للباشا

---

١ هو بلقاسم بن خليفة ، شيخ جبال غريان التي كانت متمردة على الباشا .

٢ كان حاجب بيت المال يعلم ان من غير المحتمل أن يأتي حطيطة إلى طرابلس .

٣ كان الباشا قد وعد مكافأة أخرى عند عودة بعثة بورنو إلى طرابلس ، ولما لم يتلق شيئاً ، توقع ذلك عند وصولها إلى انجلترا .

بأني استطيع صرف مبلغ ألفي دولار ، فنقل له ذلك ورجع يحمل رداً قائلاً : « اخبر القنصل أني راض عن كل ما يفعل »[1] .

لذا كتبت للسير هانكلي[2] أطلب الألفي دولار ، وهي لن تسلَّم إلا بعد التأكد من رحيله (لينج) . اني اتصرف في هذا الأمر ، وكل الأمور الأخرى ، بنية صافية ، وأثق من موافقتكم على ما فعلت وسأكون آسفاً حقاً لو ان خوفي من المسئولية ألحق الضرر بهذه البعثة الهامة ، والأكثر من ذلك انني علمت عن محاولة فرنسا انجاز هذه المهمة .
(انتهت الرسالة)

هانمر وارنجتون

من هانمر وارنجتون الى جون روسّوني ، نائب القنصل البريطاني .

رسّوني :
أخبر وزير بيت المال اقتناعي بتقديم عرض مالي هذا الصباح يمكنني من ابلاغ حكومتي بتحديد رحيل الرائد لينج . ولكنني أتراجع في حالة عدم الموافقة على ذلك العرض ، لأنني لست مخولاً من جانب حكومتي لدفع دولار واحد ، ومن الأفضل لي ، في ظل جميع هذه الظروف ، ابلاغ حكومتي عن الصعوبات الغير متوقعة ، وربما تكون حكومتي مسرورة

---

١ يبدو من هذا الكلام وكأن الباشا كان يستغل تلك المناسبة لابتزاز الأموال ، ولكن لينج نفسه يعترف بعد قليل بأن الباشا كان يتحمل الكثير من المصاريف لتأمين حماية لينج ويكلف نفسه مشقات متنوعة لصيانة البعثة .

٢ كان السير فريدريك هانكلي السكرتير الأول لمالطة ، ومنه كان القنصل يسحب ما يحتاجه من نقود .

في القيام بمحاولة مع بلد آخر يستطيع لينج عن طريقه الوصول الى تمبكتو دون التعرض لنفس الصعوبات والمعضلات .

ه. وارنجتون

يحتفظ بهذا كوثيقة رسمية .   ١٩ مايو ١٨٢٥

من هانمر وارنجتون إلى الرائد جوردون لينج

طرابلس في ٢٣ مايو ١٨٢٥

سيدي :

نتيجة لما حدث في مقابلة أمس ، أقـدم اليكم مسودة بالمصاريف الضرورية ، تجدونها مرفقة بهذه الرسالة . ولما كنت لم أتلقَّ أي تخويـل مـن وزارة المستعمرات لسحب أي مبلغ من الخزانة أجد من الضروري مصادقتكم عليها .... وإنني أوصي بسحب مبلغ الألفي دولار في الحال.. ويتوقع الباشا ، بالاضافة الى هذا المبلغ ، ألفين آخرين عند رحيلكم عن غدامس ، وألفين عند رحيلكم عن توات ، وأربعة آلاف عند الرحيل عن تمبكتو ، وبذا يصبح إجمالي المبلغ كلـه سبعة عشر ألف ومائتي دولار .

ولضخامة هذا المبلغ ينبغي ألا نطلب من حكومة صاحب الجلالة أي مبلغ آخر ، ولعله يكون واضحاً لديكم أن الباشا بتوقعه المبالغ بالترتيب في الفترات المقررة سيجعل مـن ذلك سبباً في تسهيل جميع اجراءاتك وتأمين النجاح للبعثة .

المخلص لكم

ه. وارنجتون

الى الرائد اليكسندو لينج طرابلس .

وكتب لينج في ٢٤ مايو رداً على القنصل يقول فيه :

رغم أن الجدول يفوق كثيراً التقرير الذي قدمته أنا إلى حكومة صاحب الجلالة ، ولكن لما كانت الزيادة تشكل علاوات للباشا ومكافآت للمرشدين ، الأمر الذي حذفته من تقريري نظراً لجهلي التام به ، فلا أستطيع التردد في اعطاء موافقتي لما اقترحته ، وخاصة في ظل الظروف الراهنة حيث يقوم الفرنسيون بجهودهم لانتزاع هذه الاكاليل من جبين بريطانيا ...

وقد أرسل وارنجتون رسالة إلى باثورست في الرابع والعشرين من مايو يلتمس منه الموافقة على المصاريف التي قدّرها هو لبعثة لينج وما يتضمنها من هدايا ومبالغ للباشا ، معرباً عن استعداد الباشا وحسن نواياه لمساعدة بعثة لينج في الوقت الذي يحاول الفرنسيون فيه من بنغازي التدخل في مهمة لينج .

وكتب وارنجتون في نفس اليوم أيضاً رسالة إلى هورتون يعرب فيها عن ثقته بموافقة الحكومة على آرائه ، وعن سروره بشخصية لينج وتصرفاته وموفور صحته ، وثقته في اداء مهمته على أحسن وجه .

أما لينج فقد كتب في ذلك اليوم رسالة إلى باثورست :

طرابلس الغرب

في ٢٤ مايو ١٨٢٥

سيدي :

في رسالتي الأخيرة التي تشرفت فيها بمخاطبة ويلموت هورتون ،

وكيل وزارة الخارجية[1] ، اخبرت سيادتكم عن وصولي إلى طرابلس وتحسن صحتي ، وقد استرددتها الآن تماماً ، وإلى درجة أستطيع معها في هذا الفصل الحار الذي يراه الناس أسوأ فصل للسفر في الصحراء ، بدء رحلتي مغموراً بالثقة ، في العشرين من الشهر القادم ، وهو اليوم الذي حدده لرحيلي سعادة الباشا .

وفي الاتفاق مع الباشا على هذا الترتيب لا بد من التعبير عن أسفي في إعلام سيادتكم عن ضرورة صرف مبلغ كبير من جانب حكومة صاحب الجلالة ، ولكنني لاحظت من فتور معالي الباشا وتردده انه سيبقى محتجزاً لي في طرابلس عدة شهور ، إذا لم يتلق دفعة مالية ، خاصة وانه تلقى مبلغاً كبيراً عن آخر بعثة . لذا فإنني مضطر بتردد للخضوع للاقتراحات المرفقة برسالة القنصل العام الذي يعتبر ، نظراً لتجاربه في هذا الجزء من افريقيا ، خير من يقدّر ما هو ضروري في هذا الشأن .

وقد اقتنعت بألا أعرِّض مهمتي للخطر ، لأنني علمت بوجود بعض الاتصالات بين الحكومة الفرنسية والباشا ، قامت تلك الحكومة بإجرائها لأنها تغار من نجاحنا وتتمنى لو سبقتنا للوصول إلى تمبكتو ، وعندما اشعر بالتضحية الكبيرة في المال والرجال من جانب بريطانيا أحس بأن تقدم أمة منافسة لجني الثمرة لن يخيب أمل سيادتكم فحسب ، بل أمل الأمة باكملها ، وخاصة في لحظة تبدو الثمرة فيها بين أيدينا فعلاً .

وهنالك سبب ثالث للاذعان لهذه المقترحات ولترتيبات القنصل العام ،

---

[1] كثيراً ما يتردد ذكر وزارة الخارجية بمعنى وزارة المستعمرات .

وهو اقتناعي الكامل بأن سيادتكم لن ترغب في تحملي شخصياً دفع أي مصاريف للباشا مقابل مساعدته للبعثة الحالية ، وانني كذلك مقتنع تماماً ، من خلال معرفتي بالعلاقة السياسية التي تربط زعماء أفريقيا ، ان فتح طريق جديد (بهذه البعثة) يكلف الباشا نفقات كبيرة (وذلك للضرورة وللرغبة العميقة الجذور عند جميع الافريقيين في اظهار أهميتهم) . ويتحتم في مثل هذه المناسبة ، كما يحدث في الانتخابات الانجليزية ، شراء أتعاب أشخاص معينين ممن يتوقعون بشكل طبيعي جني نتائج جهودهم ، أما خيبة أملهم فإنها لا توقف فقط تقدم سير البعثة ، بل ربما تعرض نجاحها النهائي للخطر .

ان أملي وطيد في موافقة سيادتكم على هذه الاجراءات ، وثقتكم في توفيري وحسن تدبيري للمبالغ الموضوعة تحت تصرفي .

جوردون لينج

تقرير بالمصاريف اللازمة لوصول الرائد لينج وفريقه الى تمبكتو ونهاية النيجر .

البند	المبلغ	المجموع
الى سعادته قبل مغادرة طرابلس		٢٠٠٠ دولار
عند وصولك الى تمبكتو		٣٠٠٠ «
هدية لحطيطة لابلاغك توات	٥٠٠ دولار	
هدية للشيخ ، مرسلة من الباشا	٥٠٠ «	١٥٠٠ دولار
الى صديق حطيطة في توات ليأخذك الى تمبكتو	٥٠٠ «	
الى أشخاص مراكشيين أوصى بهم دنهام وكلابرتون	١٥٠ دولار	
الى حاكم غدامس	٢٥٠ «	٧٠٠ دولار
مصاريف محتملة	٣٠٠ «	
لشراء جمال وخيول وبغال وتجهيز وتسليح سائقي الجمال	١٠٠٠ «	٢٠٠٠ دولار
مصاريف من طرابلس الى تمبكتو	١٠٠٠ دولار	
للباشا عند الرحيل من غدامس	٢٠٠٠ دولار	
« « « توات	٢٠٠٠ «	٨٠٠٠ دولار
« « « تمبكتو	٤٠٠٠ «	
		١٧,٢٠٠ دولار

هذه المبالغ كبيرة ولكنها ضرورية لتأمين نجــاح البعثة وكذلك من أجل سلامتــكم الشخصية ، ويتوقع كل من تراه من الافريقيين الحصول على شيء ما منكم ، وبذلك تترك انطباعاً دائماً بالكرم .

وفي نفس اليوم كذلك كتب لينج رسالة إلى صديقه جيمز باندينال يخبره عن الموقف المربك الذي وقع فيه :

انني مدرك ان مبلغ الألفي جنيه الذي طلبته ، بعد التقرير الذي قدمته (في لندن) ، سيفاجىء المسئولين في وزارة المستعمرات ، لكنني أميل إلى الاعتقاد بأن ذلك لن يبدو غريباً عندهم ، كما بدا لي ، ذلك لأن لهم خبرة طويلة بطلبات الباشا ، وكان ينبغي منحي سلطة التعامل معه .

انني في موقف لا أُحسد عليه مطلقاً ، وأخشى ، بينما أبذل جهدي ، أن أكون معرضاً نفسي للتأنيب الرسمي ، وهذا احتمال لا ابتهج بمواجهته في أفريقيا ... وربما قد افتُرِضَ من قبل انه طالما كانت الرحلة « سلهة وآمنة كالطريق من اوروبا الى ادنبرة » ، فإن المصاريف أيضاً يسهل تقديرها مثلما يسهل تقدير « أجرة رحلة في سفينة بخارية [1] » .

وكتب لينج في رسالة أخرى إلى باندينال في مايو ١٨٢٥ يقول :

لقد قاسيت من متاعب جمة مع الباشا ، ولما وجدت الفرنسيين يحاولون رشوته كيما يؤخر البعثة ، اضطررت إلى تقديم مبلغ له قبل النجاح في اقناعه للاصغاء إليّ ... انني أتوقع الوصول إلى بنين في مارس القادم .

---

١ هذا ما كان وارنجتون قد قاله من قبل .

الفَصلُ الثَالث

إمّة وارنجتون

جاء يوم العشرين من يونيو ، وهو ما حدده الباشا كموعد لانطلاق لينج ، ومرّ ذلك اليوم على لينج وهو ما يزال في طرابلس غير متأكد من الخروج،وكان ما يزال هو ووارنجتون قلقين حول ما أن يقوله وزير المستعمرات عن الأمور المالية ، فكتب لينج إلى اللورد باثورست موضحاً:

من الرائد لينج الى اللورد باثورست

المعسكر ، طرابلس الغرب

في ٢١ يونيو ١٨٢٥

...... إلحاقاً بما أرسلته عن نيتي في مغادرة طرابلس في العشرين من الشهر الجاري ، فقد انتقلت فعلاً من المدينة في الثالث عشر من الشهر ونصبت خيامي على بعد ميلين منها داخل الريف ، في موقع صحي قرب مكان إقامة القنصل البريطاني ، حيث أقوم باكمال تجهيزات السفر ، وسأكون في حالة استعداد تامة للانطلاق ، على أفضل الاحتمالات ، في أول يوليو ، أي اليوم الذي حدده الباشا بدلاً من الموعد السابق ، وذلك

أولاً ، لعدم وصول الشيخين من غدامس ، ويتوقع وصولهم ساعة بعد أخرى ، وينوي الباشا التحدث اليهما حــول مساعدتهما للبعثة . والسبب الثاني في التأخر هو الضرورة لقيام الباشا بوضع بعض الترتيبات الخــاصة لحمايتي داخل جزء من بلده ، كان قد ثار مؤخراً ضده . وأرجو إحاطة سيادتـكم علماً انه كان يمكن ، من جهتي أنا ومن جهة القنصل، التحرك أمس ، لكنني كنت انتظر طيلــة الاسبوعين الأخيرين مقدم حطيطة ، بقلق شديد ، لمرافقتي إلى تمبكتو ، ولكنني آسف إذ أقول بأنه لم يصل بعد . ومع ذلك يسرني ان أفيدكم بوصول رسالة منه تبعث على الرضى البالغ ، وقد فهمت منها انه ينتظر قدومي إلى غدامس فيلقاني فيها ، أو فيما بينها وبين بلد الطوارق، في مدى أربعة عشر يوماً ، ابتداءً من هذا اليوم . والآن ، ربما كانت هذه آخر فرصة اكتب فيها من طرابلس ، لذا أرجو أن أعبّر لكم عن بالغ امتناني لخدمات القنصل العام ، وارنجتون، في هذه المهمة البارزة التي يتحمس لها شديد التحمس . ولست أتردد في القول بأنني متأكد منذ وصولي إلى هذا البلد من الحماية الكاملة التي أتمتع بها بجهود القنصل العام ، وأشعر كأنني في نزهة أقوم بها خلال المناطق الآمنة من بلدي .

(انتهى رسمياً)

أ. جوردون لينج

كانت الرسالة الواردة من حطيطة إلى وارنجتون ، والي أشار اليهــا لينج ، مؤرخــة من غات في الخامس من شوال ١٢٤٠ هـ (٢٧ مايو ١٨٢٥ م) ، تقول بأن حطيطة كان عازمــاً على التوجه إلى طرابلس ، كما أشار عليه القنصل ، ولكن الأنباء « وصلتني من بلدي بأن طوارق هجار قد تنازعوا مع طوارق السودان ، وأن طرق المواصلات قد سدت

بحيث لم تعد لنا اتصالات معهم ...... وإذا أرسلت ابناء بلدك إلى فزان فسأقابلهم هناك وأسلك بهم الطرق خلال بلدي دونما خطر عليهم » .

من هانمر وارنجتون إلى اللورد باثورست :

طرابلس في ٢٢ يونيو ١٨٢٥

سيدي :

يشرفني أن أخبر سيادتكم عن رجوع رسولي في التاسع عشر من هذا الشهر ، وإليكم سبب التأخر ، بالاضافة إلى آراء حطيطة :

فقد أرسلت اليه منذ قرابة شهر رسالة مزودة بالتعليمات للتوجه إلى غدامس والانتظار فيها حتى وصول الرائد لينج ، وأرسلت له في نفس الوقت ثلاثين دولاراً اسبانياً كمصاريف له .

وقد استقر الأمر الآن على سفر لينج في الأول من يوليو ، لذا ، ومنعاً للخطأ ، سأرسل رسولي (الساعي الخاص) لمرافقة حطيطة إلى غدامس ، إن لم يكن قد توجه اليها فعلاً .

أما الأسباب التي دفعتني ولينج لتفضيل طريق غدامس [1] ، فهي ببساطة كما يلي : ان تقديمه لأهالي تمبكتو عن طريق رجل أقام فيها تسع سنوات ويرافقه الآن اليها [2] ، بالاضافة إلى سلوكه الطريق التجاري العظيم ، سيجعل منه حلقة في السلسلة الكبيرة ويكسبه نفوذاً قوياً دون أن يثير أدنى شك أو يبعث على الغيرة .

سيصل التاجر الغدامسي اليوم وبذلك تكتمل كل الجهود لخلق انطباع جيد في ذهنه .

---

١ تفضيلها على الطريق المباشر من فزان إلى تمبكتو .

٢ الشيخ باباني .

وكلما أسرع الرائد لينج في الخروج من نطاق سيطرة الباشا ، كلما زالت من طريقه العوائق التي تعوقه عن القيام برحلته الهامة ، لأن صفة التأجيل موجودة في طبيعة الناس هنا ، وإذا توجه عن طريق فزان أمكنه تلافي فصل الصيف المتعب في مرزق [1] .

والواقع أن أحداً ما لم يرتدْ طريق فزان، وهناك فرصة في كل بوصة لاحراز اكتشاف جغرافي ومساعدة العلم في فروع متنوعة — وفي ظل هذه الظروف كلها اعتبر نفسي واثقاً من موافقة سيادتكم على اجتياز هذا الطريق الجديد [2] .

وقد تلقيت رسالة من بوخالوم ، لا أرى من الضروري إرسال نسخة عنها — رقم ٢ من المرفقات هو رسالتي إلى حطيطة ، ورقم ٣ صك اعطيته للينج ليتمكن من سحب أي نقود يضطر اليها ، ورقم ٤ توصية وضمان من الباشا ، ورقم ٥ ضمان من السيد دغيس .

والآن اسمح لي سيدي القول بأنه لم يكن من الممكن وضع ترتيبات أفضل من هذه الترتيبات ، ولم تكن لتوجد احتمالات نجاح أفضل من هذه الاحتمالات ، والواقع ان الروح الحماسية للرائد لينج تجعلني أشعر بالتفاؤل الكبير .

هذا ، وقد حاولت ان اطبع في ذهن لينج الاحتمال السعيد بمقابلة كلابرتون في سوكاتو ، وسأحمله رسالة إلى السلطان بللو .

ولقد اوصيته أن يقوم بعد تجديد صحته ونشاطه بالتقدم بسرعة . والآن بعد أن أصبحنا نعتبر بنين هي نقطة النهاية له ، نرجو أن تحوطه

---

١ الواقع انه مر بفزان مروراً خاطفاً .

٢ كان الطريق الجديد عبر غدامس مخالفاً لتعليمات وزير المستعمرات ، وكان على البعثة ، للوصول إلى غدامس ، أن تسير في طريق طويل تجنباً لجبل العرب الذي كان يشهد تمرداً ضد الباشا .

عناية السماء من شر ذلك المكان الكثير الأمراض ، وأن يغادرها دونما تأخير ، لأن الاقامة هناك اسبوعاً من الزمن تعرضه لخطر يفوق مخاطر الرحلة كلها .

وسيصل بنين ، حسب تقديري ، خلال شهر يناير القادم ، واتوقع ، في نفس الوقت ، استلام رسائله من تمبكتو ورسائله من توات في اكتوبر القادم .

انني اشاهد في الرائد لينج صفات الرجل المهذب والسلوك المشرف والمبادىء الأخلاقية السامية إلى درجة تجعلني أنظر اليه كصديق قديم ، ولا شك أن هذه الصفات ستكون حافزاً ومساعداً له لتنفيذ واجبه .

مع أسمى آيات التقدير والاحترام

هانمر وارنجتون

كنا قد أشرنا من قبل إلى رسالة حطيطة ، أما رسالة وارنجتون اليه (المرفق رقم ٢) والمؤرخة في ٢٢ يونيو ، فهي كما يلي :

سيصل الرحالة الانجليزي صديقنا الى غدامس في غضون ثلاثين يوماً وينتظر فيها مدة عشرة أيام . وقد كتبت لك قبل شهر معرباً عن رغبتي كي تتوجه إلى غدامس ، وأرسلت لك كذلك مبلغ ثلاثين دولاراً اسبانياً لدفع مصاريف الطريق ، آمل أن تكون قد تسلمتها من بوخالوم أو من رسولي الذي بعثته ، وان تكون الآن متوجهاً إلى غدامس ..

. . . .

وإذا أمكنك مرافقة هذا الرحالة إلى تمبكتو باتَ ملكنا ممتناً لك وكوفئت أفضل مكافأة ، عاجلاً أو آجلاً . ونرجو ، إذا تعذر ذهابك

إلى تمبكتو ، ان تصل معه إلى توات ، وتوكل فيها للعناية بهذا الرجل بعض اصدقائك ممن يمكنهم مصاحبته إلى تمبكتو .

أما رسالة اعتماد لينج (رقم ٣) فهي ذات أهمية خاصة لأنها توضح لنا الآن كيف كان الوضع عليه منذ وقت طويل قبل وجود المصارف ، وكيف كانت تمول التجارة الداخلية في غربي أفريقيا . والواقع ان الصفة العالمية المدهشة لهذه التجارة التي كانت تحتم تحويل الأرصدة عبر الصحراء من الموانيء العظيمة للبحر المتوسط إلى أبعد أسواق السودان ، كانت تمنح الرحالة والمكتشفين القادمين من الشمال مزية كبرى بالنسبة لزملائهم الذين كانوا يحاولون فتح أجزاء أخرى أقل تقدماً في القارة .

وفيما يلي رسالة الاعتماد التي دونها وارنجتون لصالح لينج ، وقد ضمنها الباشا ووزيره محمد دغيس :

نحن القنصل العام لصاحب الجلالة البريطاني في طرابلس نخول حامله الرائد لينج سحب أي مبلغ يحتاجه خلال رحلته في دواخل افريقيا .

توقيع ه. وارنجتون

خاتم القنصلية البريطانية	خاتم الباشا

بسم الله الرحمن الرحيم .

إلى كل من يرى هذا الكتاب في دواخل افريقيا ؛ إن حامله ضابط بريطاني اسمه الرائد لينج ، وإذا احتاج أي مبلغ من النقود ، يقرض له

مقابل ايصال منه بذلك ، وستدفع قيمـــة الايصال من قبل القنصل في طرابلس ، وإننا نضمن ذلك .

مع التحيات

في ٢٢ يونيو ١٨٢٥

العبد لله

توقيع ، يوسف باشا القرهمنلي

إن حامله هو الرحالة البريطاني ، وإذا احتاج أي نقود خلال هـذه الرحلة ، يمكن لأي صديق لنا أو من يتصل به ، أو لمن لنـــا أرصدة لديهم ، ان يقدموا له أي مبلغ يحتاجه مقابل ايصال بذلك لدفعه مـــن جانب القنصل الانجليزي هنا في طرابلس .

في ١٤ يونيو ١٨٢٥

توقيع محمد دغيس

وتعتبر الفقرة التاليـــة ذات أهمية كبيرة ، لأنهـــا تبين مقدار تلهف وارنجتون للتأكد من التقاء حطيطة مع لينج في غدامس ، ومقدرة الثاني على الاتصال بطرابلس طيلة الطريق إلى توات :

« على الساعي سالا التوجه إلى مرزق وغات والرجوع إلى غدامس مع حطيطـة ، ثم القيام مع أخيه بمصاحبـــة الرائد لينج إلى توات واحضار رسائله إلى طرابلس » .

وفي طرابلس كان على لينج أيضاً اكمال المعدات اللازمة لرحلته النهرية حتى نهايـة النيجر ، فكتب في ٢٥ يونيو إلى صديقه العالم إدوارد سابين،

يبين له ما اشتراه من معدات نهرية : « وقد اشتريت أيضاً حبال الصواري . ان رفاقي بحارة ممتازون ، وسيبرهنون عن عظيم قدرتهم عندما أصل النهر » .

ولكن أوقات لينج لم تكن كلها في طرابلس مكرسة للتحضير للرحلة ، ولم يجد التأخير مملاً ، كما يمكن ان يتوقع . فقد كتب في وقت مبكر ، في السابع من يونيو ، إلى صديقه باندينال يطلب منه « شراء خزنة معدنية صغيرة للمعادن ، تناسب ذوق امرأة ، وكذلك شراء كتاب « براند » في المعادن والكيمياء لأقدمه للآنسة إمّة وارنجتون ... وينبغي الا يذهب بك التفكير بعيداً حيال هذا الطلب الغريب ، انني لا أعدو الاهتمام الشديد بالسيدة المذكورة » . وقد نضج اهتمامه بها ووصل به إلى حد الافتتان ، ولم يضع ذلك الاهتمام سدى .

من هانمر وارنجتون إلى اللورد باثورست :

طرابلس في ١٤ يوليو ١٨٢٥

سيدي :

أتشرف إذ أزف اليكم نبأ اقتران الرائد لينج هذا الصباح بابنتي الثانية . ورغم شعوري بأن الرائد لينج رجل مهذب ومحترم ، فإنني لن أسمح بتطوير مودة رومانسية وارتباط عنيف لم يحدث من قبل . وقد كنت حاولت اللجوء الى المعارضة والاحتجاج لأن الظروف الحاضرة لا تلائم الارتباط بابنتي .

ووجدت بعد مراسلات كثيرة ان لا فائدة في رغباتي وتوسلاتي وان من الخير ، في ظل الظروف الحاضرة ، الموافقة على إقامة حفلة الزواج رسمياً ، تحت الالتزام المقدس بعدم الاقتران الفعلي حتى تتم مراسيم الزواج رسمياً على يدي كاهن من الكنيسة الانجليزية ، ولما كان شرفي مرتبطاً بهذا الأمر فإنني سأحرص أنا والسيدة وارنجتون ، على ألا يخلوا وحدهما ثانية واحدة .

والآن ، سيدي ، لا أعتقد ان أباً يمكن أن يواجه موقفاً أكثر حساسية من هذا الموقف ، طالما وجدت شكوك حول السلطة والشرعية الموكولة لي ، كقنصل عام لصاحب الجلالة ، للجمع بين اثنين من رعايا صاحب الجلالة ، كرجل وامرأة . وحتى يزول تماماً ذلك الشك ، سأظل ساهراً لتبقى ابنتي طاهرة كالثلج .

وانني اتشرف بأن اقدم إلى معاليكم شهادة الاحتفال الذي أقمته ، في حدود سلطتي الرسمية ، وأود أن أعلم إذا ما كان الزواج الذي يتم بهذا الشكل ملزماً مثل الذي يتم على يدي راهب من الكنيسة الانجليزية .

لقد تمت زيجات مختلفة في الجزائر وتونس ، في أوقات مختلفة وظروف متنوعة ، ولكنني غير مقتنع بشرعيتها ، لذا أرجو التماس رأيكم حول هذا الموضوع البالغ الأهمية .

هانمر وارنجتون

إلى معالي الأيرل باثورست
وزير خارجية صاحب الجلالة ،
وزارة المستعمرات .

الفَصلُ الرّابع

وداع لينج

من هانمر وارنجتون إلى اللورد باثورست :

طرابلس في ١٨ مايو ١٨٢٥

لقد جدّت أمور كثيرة غير متوقعة ، تسببت في تأخر لينج طويلاً في طرابلس .

كان من المفروض ان يقابله حطيطة في غدامس ، ولكن الشيخ باباني لم يصل إلا منذ أيام ثلاثة ، لأنه منع من السير عبر غريان إلى أن أرسل صاحب المعالي (الباشا) نحواً من خمسة آلاف من جيشه لحمايته عبر أراضي خليفة[1] .

ورأينا من المستحسن في السابع من هذا الشهر أن تتحرك القافلة من

---

[1] كان سكان غريان يميلون للعنف وكثيراً ما كانوا يثورون على الباشا ، معتصمين في جبالهم المنيعة ، وكان يطلق عليهم « الجبليون » ، وكان زعيم المتمردين في ذلك الوقت هو بلقاسم بن خليفة شيخ بني نوير .

طرابلس إلى تاجوراء والانتظار فيهـا حتى نتأكد من سلامـة المرور في غريان أو المرور عن طريق بني وليد . وعندما تقرر سلوك الطريق الثاني قامت القافلت بالتحرك صباح هذا اليوم ، ولكنها ستنتظر مدة يومين أو ثلاثة في بني وليد حتى يصل الشيخ باباني الذي سيصاحب الرائد لينج إلى تمبكتو . وفي اليوم السادس عشر اصطحبت لينج لمقابلـة الباشا ، وانني سعيد إذ أقول لـكم بأن لينج كان يتحلى باللياقة وأطيب السلوك إلى درجة عالية لا تدانى .

ورغم ان باباني لم يلتحق بلينج بعد ، إلا انه وعد بالتوجه صوب تمبكتو خـلال عشرة أيام ، ولكن الباشا منحه فرصة ستة أيام فقط ، واستقر الأمر على ذلك .

كان باباني هذا قد سكن تمبكتو منذ عشرين عاماً ، ويبدو أنه من أفضل من رأيت من الناس ،فهو يتمتع بخير مزاج وهدوء ورزانة،وقد تعهد باصطحاب لينج الى تمبكتو والوصول بـه اليها خلال شهرين ونصف ، وتسليمه هناك إلى اصدقائه المقربين ، ومنهم الشيخ الكبير وزعيم المرابطين، مختار [1] الذي يتمتع بسلطة كافية لإرساله آمناً إلى البحر . وانني واثق من اتخاذ الاجراءات لعدم احتجازة في بنين .

وعندمـا يصل الشيخ باباني بالرائد لينج سالماً الى تمبكتو ويسلمه الى ذلك الزعيم ، فإنه سيرجع من توه الى طرابلس للتصرف في تجارته وترتيب أموره ، ومنه سأتسلم رسائل لينج ، والتي ستصلني حسبما أظن في ديسمبر القادم . أرى انه يستحيل ان تتهيأ ظروف نجاح أفضل من هذه الظروف، ومما يزيد في هذا النجاح زواج لينج ، كما قال الباشا يوم أمس ، لأن

---

١ يبدو ان هذا الرجل هو سيدي مختار بن أحمد ، من عرب الكونتا الذين كانوا يحتلون الصحراء شمال تمبكتو ، أو أنه هو ابن سيدي محمد المختار البكلي الذي قام بالمجازفة بحماية هنري باشا ممن حاولوا قتله في تمبكتو سنة ١٨٥٣ .

مصاهرة لينج لي ستدفعه ليفعل ويجتهد اكثر مما فعل واجتهد من قبل ، ولا أزال اؤكد لكم ان القنصل البريطاني يعتبر رجلاً عظيماً في دواخل افريقيا .

المرفق رقم واحد هو بيان بالمصروفات التي أقرها الرائد لينج .

رقم ٢ رسالتي إلى حاكم غدامس وتوات .

رقم ٣ الى شيخ تمبكتو العظيم .

رقم ٤ الى السلطان بللو .

رقم ٥ توصية بالرائد لينج ، كولدي .

والآن ، سيدي ، أختم رسالتي بالدعاء والتمني للبعثة بالنجاح الذي يبدو أكيداً لي .

هانمر وارنجتون

المرفق رقم ٣

طرابلس في ٣٠ يونيو ١٨٢٥

الى سلطان مملكة وبلاد تمبكتو[1] ، حفظه الله ورعاه ... الخ .

ان سيدى الجليل ملك انجلترا يرغب دومـاً في بسط صداقته ونواياه الطيبة الى كل مكان في العالم ، وهو راغب في غرس روابط الصداقـة مع كل حاكم عظيم وطيب ، لذا فإنه مرسل حامله الرائد لينج ، وهو انجليزي ، ليعبر عن أصدق عواطف الصداقة لعظمتكم .

---

١ تتجلى في هذه الرسالة عبارات النفاق ، ولو كان نفوذ وارنجتون قوياً في دواخل افريقيا إلى الحد الذي زعمه سابقاً لما احتاج إلى هذا الأسلوب (المعرب) .

إن صاحب الجلالة يعرف جيداً أن سموكم رجل طيب وصديق للغرباء، وهو يشعر بثقــة كاملة في ان معاليكم ستعاملون خادمــه مثلما يعامل هو رعاياكم في أي جزء من العالم. وكلما أراد معاليكم استغلال النفوذ البريطاني القوي في طرابلس ، أو كلما اردتم الحصول على أي شيء من بريطانيا ، أرجو أن تكتبوا لي ، فإنني أعرف جيداً لطف المعاملة التي سينالها صديقي وابن وطني من جانب عظمتكم إلى درجة يستحيل عليّ فعل مــا يكفي للتعبير عن امتناني وصداقتي .

ولقد علمت أن عدداً من المنتجات الطبيعيــة في بلادكم يصلح لعلاج مختلف الأمراض التي يتعرض لها الانسان ، لذا أرجو أن تسمحوا لحامله بجمع العينات التي يحتاجها. وإذا احتجتم إلى طبيب (لا سمح الله) فإنني ارشح حاملــه كرجـل ذكي يحذق الطب جيــداً ويستطيع شفاء معظم الأمراض[1] .

ان ملكي العظيم متلهف لمعرفة اتجاه النيجر العظيم الذي يمر بمملكتكم، ويرغب بشكل خاص أن تسمحوا عظمتكم لحامله باقتفاء هذا النهر آمناً في بلدكم ، ولذا فإنه يودعه حمايتكم وصداقتكم .

أرجو الله أن يباركم وأن يحميكم ويرعاكم ..

توقيع هـ. وارنجتون

القنصل البريطاني العام

---

١ هذه أول اشارة لمعرفة لينج في الطب ولو انه كان يحذق الطب لما احتاج وارنجتون من قبل أن يطلب من حكومته إرسال طبيب يرافقه ! (المعرب) .

المرفق رقم ٤ – طرابلس في ٣٠ يونيو ١٨٢٥ .

إلى سلطان المؤمنين العظيم النبيل محمد بللو [١] حاكم وقائد عام مملكة السودان العظيمة وولاياتها ، حفظه الله وحماه .

لقد مرت أربعة أشهر منذ أن كتبت إلى سموكم مخبراً بأن عبد الله [٢] قد وصل سالماً إلى طرابلس ، بعد زيارة عاصمتكم العظيمة . انني أشعر بابتهاج شديد لما قدمه من وصف لبلادكم ، وفوق كل ذلك لما قاله عن طيب كرمكم وسخائكم الذي اسبغتموه عليه خلال اقامته عندكم . وقد وصل عبد الله إلى انجلترا ، ولا شك انه قدم كتاب سموكم إلى ملكي وسيدي الذي لا بد وقد سر لكرمكم الذي غمرتم به خادمه عبد الله.

ولا شك انه سيفي بكل ما وعد به ، وأظن انكم ستشاهدون عبد الله قبل استلامكم هذه الرسالة ، لأنني علمت انه توجه عن طريق البحر العظيم إلى « تاجره » ، ومنها يتقدم اليكم تحت حماية نفوذكم القوي .

وقد تحدث عبد الله لسموكم عن كبير شغف سيده ملك انجلترا لمعرفة المكان الذي ينتهي اليه نهر النيجر العظيم الذي يمر بتمبكتو ويسير عبر مملكتكم ، وهو مرسل حامل هذه الرسالة ، خادمه المحبوب ، للتأكد من هذه المسألة الهامة . وكما لقي عندكم عبد الله من اللطف والصداقة ، أشعر بالاطمئنان ان نفس مشاعر الكرم ستغمر الرحالة الحالي .

ان هذا الرحالة يفهم الطب جيداً ، وسيفيد منه كل من يشعر بمرض من رعية عظمتكم .

---

١ وجه وارنجتون هذه الرسالة إلى السلطان بللو ، سلطان سوكوتو ، اعتقاداً منه بأن النيجر يمر قرب عاصمة فولاني ، واحتمالا بأن يزورها لينج في طريقه من تمبكتو إلى نهاية النيجر .

٢ كان اسم « عبد الله » هو الإسم الذي ينتحله كلابرتون عند السفر .

لقد تلطف سعادتكم بوعد عبد الله بالحصول على أوراق الرجل الانجليزي[1] الذي فُقد عند النهر منذ بضع سنين — ولما كان ملكنا راغباً أشد الرغبة في الحصول على هذه الاوراق ، فإنني أرجو سيادتكم ، ان تتكرموا باعطائها لحامله ، ان لم تكونوا قد ارسلتموها بعد .

انني مرسل لسموكم بزوج من المسدسات الانجليزية ، من أحسن الأنواع ، رمزاً صغيراً للود الكبير الذي أكنه لسموكم وسأبقى دوماً أشعر بالواجب والالتزام كي أبذل كل جهدي من أجل سموكم ، وأرجو الله ان يباركم ويحفظكم وأن يبسط لكم في السعادة والعافية والفيض ، هذا ، وانني أبقى الصديق المخلص لسموكم .

توقيع هـ. وارنجتون
القنصل البريطاني العام

من هانمر وارنجتون إلى ويلموت هورتون

خاص — طرابلس في ٢٤ يوليو ١٨٢٥

سيدي

بالاضافة إلى رسالتي في الثالث عشر من هـذا الشهر ، يشرفني أن أخبركم عن توجه الشيخ باباني بعد غد إلى بني وليد حيث ينتظره لينج .

إن ترتيبات الرحلة ممتازة ، وان نجاحه مضمون إلى درجة تجعلني أشعر بضرورة زف التهاني اليك مسبقاً .

لقد ذكرت لك من قبل عن طول اقامة باباني (الآن حاكم غدامس)[2]

---

١ هو « منجو بارك » الذي توفي في « بوسة » على النيجر سنة ١٨٠١ .

٢ لا يوجد دليل على انه هو الحاكم بالمعنى المفهوم للكلمة ، ولكنه ربما كان ممثل الباشا في غدامس .

في تمبكتو ، حيث ما تزال فيها زوجته وأطفالـه ، وهو يتمتع باحترام شديد وثروة كبيرة . وهو كذلك صديق حميم لدغيس[1] الذي طالب مني الالحاح على الباشا لاقراره كحاكم مدى الحياة ، وهذا مـا سأفعله دون كبير مشقة .

ويقول باباني بأن المسافـة من غدامس إلى توات تبلغ مسيرة أربعين يوماً ، وان القافلـة العظيمة لا تزيد في سيرها عن خمسين يوماً ، وان آخر رحلة له قطعها في اثنين وثلاثين يوماً[2] .

وقـد زودني بأفضل تقرير عن الشيخ المرابط مختار ، عن نفوذه وشعبيته ، وذكر بأن بللو صديق حميم له .

ويقول بأن تمبكتو تموج بتجـارة نشطة ، وفيها بضائع من صنع انجليزي وأوروبي ، تجلب عـن طريق البحر في قوارب كبيرة منتظمة السير ، وان المختار يستطيع نقل الرائد لينج بأمان الى البحر عن طريق النهر . ويصف سلطة المختار ونفوذه بأنهما من القوة بحيث يقدر عـلى إرسال المسافر شمالاً الى طنجة عبر مراكش ، وأخبرني ان الكثير مـن المواطنين يلبسون القبعات والملابس الاوروبية .

وتسير القوافل بعد غدامس في الصحراء مدة عشرين يوماً ، ولكنهم لا يسيرون أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة دون ان يجدوا الماء . ثم يمرون ببلاد حاجي يونس ، ولد سيدي ، وعمر الحاجي ، وهما من زعمـاء الطوارق ، ويصلون بعد ذلك إلى « أهواج » ، وهي تابعة لسلطة مختار ، زعيم تمبكتو ؛ وعلى بعد خمسة أيام من هذه المدينة .

---

١ هو محمد دغيس وزير خارجية الباشا .

٢ تبلغ الطريق من غدامس إلى تمبكتو عبر توات مسافة تقرب من ١٣٥٠ ميلا وتحتاج القافلة المحملة بالبضائع إلى ما لا يقل عن ستين يوماً لقطع تلك المسافة .

يبدو ان هذا الطريق أكثر أمناً وماء ، وأقصر من طريق توات . وسيقابل الرائد لينج حطيطة في غدامس ، وسيبقى يصاحبه طالما رأى ذلك مناسباً له لا يعرضه للخطر . أما باباني فإنه وافق على نقل رسائل لينج من تمبكتو الى طرابلس بعد خمسة وثلاثين أو أربعين يوماً ، وأتوقع وصولها في أول ديسمبر ، ووصول باباني نفسه في الأسبوع الأول من يناير .

انني متلهف لسماع رضى اللورد عن نتائج بعثة بورنو والسودان ، فالصحافة الأجنبية تتحدث بإعجاب عن أبحاثها .

هانمر وارنجتون

من هانمر وارنجتون الى الرائد ا. جوردون لينج .

الحديقة في ٢٤ يوليو ١٨٢٥

عزيزي المحترم

لقد قابلت الباشا أمس ، وكان متمسكاً بكلمته وعلى استعداد لارغام باباني على الرحيل ، لكن الثاني لم يكن في حالة استعداد ، وسمحت له بعد رجائه لي بالبقاء حتى الخميس القادم . وقد كان من السهل استغلال سلطة الباشا في الاصرار على رحيله ، ولكنني لم أجد الحكمة في ذلك ، لأنه ربما يولد نتائج عكسية بالنسبة لكم .

لقد خلفت أنت انطباعاً عند بدء الرحلة لا يُنسى . والآن وبعد أيام عيد الفطر الثلاثة ، لا أظن أحداً من القافلة يرغب في السفر ، ولكن يمكنك ان تتوقع وصولنا يوم الأحد بالتأكيد[1] ، وبعدها لن تتعطل عن

---

[1] كان وارنجتون ينوي التوجه إلى بني وليد لتوديع لينج الوداع الأخير .

المسير الى تمبكتو ، ولو لم يكن الجو حاراً لوجدت الرحلة ممتعة لا يشوبها خطر أو مصاعب . انني مرسل لك بعض الصحف ـ وليبارك الله فيك .

أرجو أن تثق في اخلاصي الدائم لك

توقيع هـ. وارنجتون

من هانمر وارنجتون إلى الرائد ا. جوردون لينج :

طرابلس في ٢٧ يوليو ١٨٢٥

سيدي وعزيزي :

أرفق هذه الرسالـة مع كتبي إلى حـاكم غدامس وتوات وإلى شيخ تمبكتو والسلطان بللو ، بالاضافة إلى المنشور الذي أصفكم فيه كولدي ، وإذا رأيت في ذلك نفعاً لك فيمكنك أن تبدي الاثنين .

يبدو ان باباني يصر في تأكيده على حسن استقبال البعثة ونجاحها . ويسرني أن أجده متلهفاً لمصاحبة الحملة التي يرى انها ستصل إلى تمبكتو خلال شهرين ونصف الشهر ، وعندها يستطيع المرابط مختار ابلاغك غايتك « بنين » . ويقول باباني ان قوارب كبيرة تشق النهر وتصل إلى البحر ، وان بوسع مختار إرسالك آمناً في أحد هذه القوارب . ويبدو لي أن مختار وبللو صديقان عظيمان .

سترى من الصحيفة الفرنسية التي أرسلها لك أن بريطانيا قررت احداث تسوية بالنسبة لبنين ، واعتقد انك ستقابل كلابرتون في سوكاتو (سوكوتو) أو يوري . والواقع انك رجل جد محظوظ ، إذ لم تتوفر ظروف كهذه لرجل غيرك .

أرجو الاهتمام الشديد بصحتك وخاصة في الشهر الأول ، وأظن أن

أغسطس سيمر وينقضي قبل أن تغادر غدامس ، وعندها يتحسن الجو.

بارك الله فيك ورعاك .

أرجو أن تثق في دوام

اخلاصي لك

توقيع هـ. وارنجتون

من هانمر وارنجتون إلى جوردون لينج

(خاص) طرابلس في ٢٧ يوليو ١٨٢٥

عزيزي لينج

كنت في الساعات الأربع الأخيرة احاور نفسي حول موضوع التوجه صباح غد مع باباني إلى بي وليد . ان رغبتي في ذلك شديدة ، لأنني أشعر بدافع الأنانية في مصافحتكم ثانية والتمتع بالحديث معكم بضعة أيام أخرى . ولكنني ، من جهة أخرى ، سأكون سبباً في احتجازكم (ببني وليد) مدة أطول مما تتوقع ، ولما كانت الحيوانات كلها مهيأة ، فلا بد أنكم ترغبون في المسير . وكذلك ليست لي مهمة واضحة ، خاصة أو عامة (في السفر) ، وفي ظل جميع الظروف أرى من الأفضل التخلف عن السفر ، وآمل أن توافقني في ذلك . لذا أودعكم راجياً لكم كل توفيق ، وأن يرعاكم الله من كل خطر ومن سوء تقلبات الجو ، وأن يكلأكم طيلة رحلتكم . ولكنني لا أرى وجود أدنى خطر أو صعوبة ، فالترتيبات الجديدة للبعثة وتجهيزات القافلة ، كلها تبشر بحسن الخاتمة . وكلما انتقل بك الخيال إلى طرابلس ، حيث أعز الناس عندك ، فليكن شعورك مفعماً بالراحة والعزاء ، ورغم انك تسير صوب الجنوب إلا أن مسيرتك كل ميل تقربك رويداً رويداً من العزيزة « إمّة » . لقد كانت

إمَّة دوماً تستمتع بأكبر محبة من جانب أُسرتها ، وسيؤهلها مركزها الحالي لمزيد من العناية والرعايـة ، فكن قرير العين مبتهج الفؤاد . انني اتوقع وصول مجموعة الرسائل من عندك في ٧ أغسطس،وسيكون رسولي جاهزاً .

بارك الله فيك ، ولكم من الأسرة التمنيات بالنجاح الباهر .

المخلص لكم

(توقيع) ه. وارنجتون

من هانمر وارنجتون الى الرائد أ. جوردون لينج

طرابلس في ٢٧ يوليو ١٨٢٥

السيد العزيز :

بعث دغيس إليّ أمس يرجو التوجه اليه لأمر خاص يريد التحدث بشأنه ، فأخبرني ان باباني في حاجة ماسة لمبلغ أربعمائة دولار ، وانـه مضطر ، ما لم يحصل عليها ، لبيع بعض تجارته ، وقال بأنه يفضل أن نقدم المبلغ له ، إذا أمكن ذلك ، على أن يدفعه في غدامس . ولما كان قد اعتمد العقد ، ولما كانت الأمور تسير على خير وجه ، فإنني لم أتردد في الالتزام بذلك ، وبعد ساعة أرسلت العقد مـع رسّوني لتوقيعه من باباني .

وبعد مشاورة بين الباشا وباباني وبيت المال ، أخبر بيت المال رسّوني بأن الباشا وباباني لن يوقعا الملحق رقم ٢ من العقد ، ولكن سعادته سيقوم فقـط بمنح تأشيرته مقابل دفع مبلغ الثلاثة آلاف دولار الى جيرفنللي [١] ،

---

١ هذه أول اشارة من عدة اشارات عن جيرولامو جيرفنللي ، ويبدو أنه تاجر مالطي يقيم في طرابلس .

وان سعادته لن يكون مسئولاً عن أي حادث يأتي قضاءً وقدراً ، ولكنني وضحت لسعادته بإصرار انك لو لم تصل تمبكتو لأي سبب مـــا فإننا سنطالبه بمبلغ الألف دولار ، بالاضافة الى الثلاثة آلاف ، لأن التأشيرة عندها لن تكون ذات فائدة أو نفع . . . . .
ارجو أن يحفظك الله وأن يجعل النجاح حليفك .

المخلص لك

هـ. وارنجتون

قبل مضي وقت طويل تحقق لوارنجتون صدق مخاوفـــه من رد فعل اللورد باثورست تجاه التكاليف العالية لبعثة تمبكتو . ويبدو انه تلقى انذاراً بما يتوقع ان يصله حول ذلك ، لأنه كتب في الخامس مـــن سبتمبر ، وقبل وصول رسالة وزير الخارجية ، رسالة الى ويلموت هورتون ، وكيل الوزارة ، يقول فيها :

« لقد كانت تتجه رغبتي القوية واجتهادي المخلص لتأمين نهاية ناجحة لهذه البعثة وتأكيد السلامة الشخصية للرائد لينج ، وإذا كنت قد تجاوزت حدود توقعات اللورد حول الأمور المالية ، فأرجو ان تكون واثقاً انني ما فعلت ذلك إلا من أجل الدافع السابق ، ولأن الشرف والواجب يمليان عليّ التمسك بذلك الموقف » .

وانفجرت العاصفة بعد أيام أربعة من وصول رسالة باثورست ، التي لا توجد نسخة منها . ولقد تضاعفت صعوبة المحاولة لاسترضاء الوزير الغاضب ، لأن الوضع المالي كان أصعب مما اعترف به وارنجتون ، ولأنه

دخل منذ ذلك الوقت في التزامات سرية ، ولكن الباشا بدأ يساعده ، مما هوّن عليه بعض الشيء وخفف عنه شيئاً من صعوبة الموقف .

وفي العاشر من سبتمبر أرسل وارنجتون رسالة الى اللورد باثورست يدافع فيها عن تصرفه المالي بحجة ان نجاح البعثة وصالحها كانا الرائد له والدافع وراء تصرفاته . وعبّر وارنجتون عن كبير « ورطته وتعاسته » باستلام رسالة اللورد .

وكذلك أفشى لباثورست سراً كان قد حجبه عنه ، وهو اتفاقه مع الباشا كي يدفع له ثمانية آلاف دولار أخرى ، ولكن الباشا الآن « إعلاناً عن صداقته فإنه سيتغاضى عن الثمانية آلاف دولار ، وسيدفع جميع المصروفات[1] » .

وأعلن كذلك لباثورست بأنه سيتحمل مع لينج بعض المصروفات وخاصة ما سيدفعه لباباني نظير قيادة القافلة إلى تمبكتو ، وما سيدفعه لوزير مالية الباشا (بيت المال) .

وفي الرابع والعشرين من سبتمبر أرسل الى لينج يقول :

عزيزي لينج :

لم يصل بعد رسول يعلن لنا سلامة وصولكم إلى غدامس ، ولهذا يساورني قلق شديد ، وكذلك يمكنك أن تتصور عظيم قلق المسكينة « إمـّه » . . . . لقد أرسلت رسولين الى غدامس ، آمل

---

[1] لا بد ان الباشا قد فعل ذلك كرماً منه ومساعدة لوارنجتون ولينج ، بعد ما رأى من قسوة حكومتها عليهما ، وهذا دليل آخر على بطلان الاتهامات السابقة بأن الباشا كان يتصرف معهما بدافع المنفعة المالية والابتزاز .

أن تكون قد استقبلتها قبل وصول هذه الرسالة ، وثاني الرسولين هـو خادم حطيطة الذي حمل رسائل يوليو التي رأيت فيها قسوة الحكومة علي، ولكنها ليست ذات قيمة لأن نجاح البعثة وسلامتك الشخصية هما الدافـع من وراء تصرفاتي ، ولذا يجب أن نتحمل ذلك . ولما كان هـذا الوضع لن يدوم طويلاً فإنني آمل أن تشرق ثانية شمس الاستحسان من جانب اللورد .

ورغم أن « الخزينة » لا تستمع لندائنا فإن ذلك لن يؤثر على الوضع ، وسأدفع جميع صكوكك ، مهما بلغ الحد ، لـذا أرجو ألا تشعر بالقلق حيال ذلك ..

لا شك انك ستقابل كلابرتون في « يوري » ، وحينها لا يصبح من الضروري الذهاب إلى بنين .

ولما كانت الاتصالات البحرية قد استقرت ، أرى أن ترتيبات هامة ستتخذ مع تمبكتو لتسيير تجارة مباشرة مع الدواخل وارساء علاقات ودية مع أهلها . إحتفظ بهذه الامور لمعلوميتك الخـاصة ، ولا تدع أي رأي يؤثر عـلى اجراءاتك . لا شك انك تتمتع الآن بطقس جميل ، وربمـا نراك هنا مع نهاية مارس وقد زرت تمبكتو ويوري و ... الخ .

والآن انتبـه لمـا أقولـه لك : لا تتردد لحظـة في سحب أي مبلغ لأنني سأدفعـه من جيبي الخـاص ... إن السيدة وارنجتـون وجين لويس و ... و ... يوحدون دعواتهم وامانيهم بـأن يباركك الله ويحفظك ..

هـ. وارنجتون

من هانمر وارنجتون إلى الرائد لينج :

١٧ اكتوبر ١٩٢٥

(مقتطف من رسالة)

كن متيقظاً لخطوط الطول والعرض وغير ذلك من المعلومات التي تصلك ، واعتبر كل قنصل هنا جاسوساً مستعداً لامتصاص رحيقك وتحويل العسل الذي تصنعه أنت لنفسه أو لحكومته .

أرى من العدل أن نخدعهم قبل أن يسبقونا ويحبطوا عملنا .

الفَصلُ الخامِسُ

من طرابلس الى غدامس

من الرائد جوردون لينج الى اللورد باثورست

وادي الرمل[1]

في ١٨ يوليو ١٨٢٥

سيدي اللورد

بمشاعر البهجة التي لا توصف ، أزف لسعادتكم خبر رحيل البعثة[2] بعد ان واجهت بعض التأخر ، مثل سابقاتها من البعثات ، على أن هذا التأخر لم يكن خطيراً .

فقد قمت في السابع من الشهر الحالي بفض المخيم الذي أقمته على بعد

---

١ يقع وادي الرمل على بعد خمسة وعشرين ميلا إلى الشرق من طرابلس .

٢ كانت البعثة تضم بالاضافة إلى لينج ، ترجمانـه جاكوب أو ابراهام باهون الذي استؤجر في طرابلس ، ورفاق لينج الثلاثة الذين حضروا معه من انجلترا : جاك لوبور ، وروجر ، وهاريس ؛ أولها خادمه الخاص ، والآخران من صناع السفن .

ميلين من طرابلس ، وتقدمت سبعة أميال أخرى نحو الشرق الى سهل جميل عند رأس تاجوراء ، حيث نصبت الخيام ثانية . وبعد اطمئناني على ترتيب الامور في المخيم ترتيباً جيداً ، عدت الى طرابلس في اليوم التالي كي استأذن سعادة الباشا بالرحيل ، واقرار الترتيبات الموعودة لتمكيننا من السير آمنين في جبال ترهونة [1] .

لم أكن حتى يوم السادس عشر من هذا الشهر قد تمكنت من التشرف بهذه المقابلة ، لأنها تأخرت يوماً بعد يوم نظراً لتأخر وصول الشيخين من غدامس ، فقد احتجزا في الجانب الجنوبي الغربي من جبال غريان حتى أرسلت من طرابلس قوة كبيرة لتأمين سلامتهما .

وقد وصل الشيخان مع القافلة في الخامس عشر من الشهر الحالي ، وتمت مقابلة الوداع في اليوم التالي وفيها وافق سموه على سرعة سفري بأسلوب مهذب ورقة بالغة ، وأمر بأن ترافقني قوة من مائة وخمسين فارساً حتى بني وليد .

وقد سر الباشا أيضاً بتقديمي الى أحد شيوخ غدامس ، واسمه باباني ، وهو رجل في الخمسين ، ذو طباع معتدله ومقبولة ، وله مظهر شديد الجاذبية ، وهو مشهور وشديد الاحترام على طول الطريق الى تمبكتو . وكثيراً ما سافر على هذا الطريق وأقام في تمبكتو على نحو متقطع طيلة نحو من ثلاثين عاماً . وقد كان فيها قبل عشرين سنة عندما وصل « بارك » مدينة سان ساندينج (Sansanding) ، ويعرف جيداً مدينة جني (Jenne) ، وسيجو ، (سيجو سيكورو) (Sego) ، وكذلك فوته جللون (Futa Jallon) ، ويعرف الكثير من زعماء هذه المدن ، وقد سر لمعرفتي بأسمائهم . ويقدر باباني المسافة من غدامس الى توات ،

---

١ على بعد نحو أربعين ميلا جنوب شرقي طرابلس .

حسب سرعة الجمل ، بثلاثين يوماً ، ومن توات الى تمبكتو بستة وثلاثين يوماً . ويرى كذلك ان اوضاع البلد الحالية تحتم وجود الكثير من الحراس فيما بين غدامس وتوات ، ومنها الى تمبكتو ، ولكنه يتكفل بدفع كافة المصاريف والضرائب والرسوم والهدايا وغير ذلك ، طيلة الطريق ، وان يوصلني سالماً مقابل ألفين وخمسمائة دولار . ولما كان هذا العرض يبدو لي عادلاً ، بل ومعقولاً ، ونظراً لحالة البلد الحالية الغير مستقرة ، وكثرة مطالب الناس — فقد اتفقت معه على ذلك المبلغ ، ودفعت له ألفاً مقدماً ، ووعدت بدفع الباقي عند وصولي تمبكتو ، تاركاً أمر مكافأته على خدماته الى تقديري الخاص .

وقد كفل الباشا هذا الاتفاق الذي دوّنه باباني ووقعه ، وإذا لم يوف بــه فإن الباشا سيعيد النقود إلى القنصل العام عند الطلب . إنني لم اقدم على الالتزام بهذا العقد إلا بعدما بدا لي من نتائجه المبشرة ، ولما أتمتع به من قدرة على هذه المهمة ، وذلك جزئياً من الأرصدة التي وضعت تحت تصرفي من مبلغ الألفي دولار التي طلبهــا لي القنصل وارنجتون . والآن اكرر تأكيدي ، واثقاً ، انني — باستثناء مبلغ الثلاثة وسبعين جنيهاً من مصاريف رفاقي لثلاثة أشهر — لن أطلب شيئاً آخر ، الا مــا قد يطلبه الباشا ، وذلك حتى عودتي إلى انجلترا بعد نجاح حملتي .

انني أحمل الكثير من الهدايا من كل نوع ، وقد أضفت الكثير منها إلى ما كان عندي من قبل ، بناء على نصيحة السيد دغيس ، وهو مسلم مرموق في هذا البلد . وأحمل أيضاً خطابات اعتماد من هذا الرجل (له تجارة واسعة تمتد حتى تمبكتو) ، ومن الباشا ، وتعتبر هذه الخطابات خدمة غير محدودة تنفعني في حالة التعرض لكارثة ما .

اؤكد لسيادتكم انني بذلت جهدي للوصول إلى أحسن النتائج ، وأنا واثق انكم ستلاحظون استحالة الالتزام بالتعليمات التي زودت بهــا (في

انجلترا) ، فليس فيهـا ، أولاً ، ذكر للمرشد الطوارقي ، الذي بنيت على أساس مـن مساعدته ، ذلك الاعتماد الضمني عليـه . ولم يمكن ، ثانياً ، الالتحاق بقافلة تسير على طريق نـَدَرَ سير القوافل عليه ، وما ترتب عـلى ذلك من ضرورة تشكيل قافلـة خاصة بـي (تكلف الكثير مـن النفقات) . آمل أن تتواضع سعادتـكم بالموافقة على اجراءاتي ، ومنحي الثقـة كي أبذل جهدي للتوفير والاقتصاد في النفقات . ورغم الاضافات المالية الكبيرة التي اضطررت اليها لتغطية مصاريف الشيوخ ، والمرشدين ، والمرافقين ، والجمال وسائقيهـا ، والبغال والحيول ... الخ ، فإنني قد نجحت في التوفيق بين جميع المصروفات والمواد بإجمالها يومياً بمقدار ثلاثة دولارات ونصف ابتداء من هذا اليوم . وآمل عند مغادرتي لهذه المنطقة العاليـة المصروفات ان اقدر على تخفيضها ، كما آمل أن تشاهدوا مـن حساباتي التي أرجو أن يساعدني الله لارسالهـا اليكم من غدامس ، حيث أتوقع البقاء فيها أياماً قليلة من أجل الراحة .

ولقد وصلت اليوم هذا المكان وأرّخت فيه هذه الرسالة ، ويقع على بعد نحو مـن ستين ميلاً شرقي تاجوراء ، يفصله عنهـا صحراء ملتهبـة الرمال ، تملأهـا روابـي تكونت من فعل الرياح الشرقية القويـة . وفي صباح غد ستتقدم القافلة نحو الجنوب إلى جبال ترهونة ، وسيلحق بنـا باباني وشيخا غدامس خلال ستة أيام ، حيث يصحبوننا إلى بني وليد . وقد ارتديت ملابس الأتراك ، وكذلك فعل مرافقي الثلاثة ، كي نتجنب الانظار في بلد غريب ، واخترنا نوعاً من الملابس بسيطاً ومتواضعا كي لا نثير الغيرة ، أو نبدو متكلفين . أنوي ان أؤدي ومرافقي صلاة الأحد بملابسنا الانجليزية .

ا. جوردون لينج

من الرائد جوردون لينج إلى النقيب ي. سابين

بني وليد ، في ٢٩ يوليو ١٨٢٥

خط عرض ٤٠ً ٤٧َ ٣١° شمالاً

خط طول ٣٠ً ٤٤َ ١٣ شرقاً

عزيزي سابين ،

ارجو ان تسمح لي بكتابة أسطر قليلة على عجل كي اخبرك عن حالي وعن رحيلي مع البعثة ، واستلام رسالتك المؤرخة في الثامن من يونيو ، بعد مقابلتك مع المستر كلابرتون . انني أبعث اليك بالشكر البالغ لكبير اهتمامك بأمري وأمر البعثة ، ولا استطيع بمديحي ان أوفي جهودك لإخراج كتابي بعد رحيلي[1] . لقد قرأت عدة تعليقات جيدة حوله ، ولكنني لم أطلع على مجلة « اندنبرة » التي علمت انها قَسَت عليّ ..... لقد بلغت هذا المكان في الرابع والعشرين (من هذا الشهر) وانتظر وصول شيخ من غدامس ليتقدم معي — وأظنه سيصل الليلة — في الاول من أغسطس، وسأصل غدامس في العشرين منه ثم أبلغ توات في أول اكتوبر ، وأتوقع في منتصف نوفمبر ان أشاهد العاصمة النائية لوسط افريقيا . وربما أركب النيجر في أول العام الجديد ، وهناك ، كما عرفت من باباني (الزعيم الغدامسي الذي يرافقني والذي أقــام ثلاثين سنة في تمبكتو وخارجها) اتصال نهري مستمر بين تمبكتو ويوري ، ولما كانت الرحلة تدوم خمسة وعشرين يوماً ، فإنني على الأرجح ، سأبلغ في نهاية يناير المكان الذي شهد مهلك المغامر « بارك »[2] . ارجــو ان تنجح في التوصية بإرسال رجل عسكري الى بنين لأنني سأبلغها في الربيع بإذن الله . انني لا أهتم

---

١ هو كتاب لينج « رحلات في تيماتسي وكورانكو وسوليمة » .

٢ هذا المكان هو « بوسة » على النيجر الأسفل .

بأي معلومات يوصلها كلابرتون ، وقد أصبت في قولك بعدم أهمية انتظاره ، بل وأسخر من قوله بقدرته على بلوغ تمبكتو قبل وصولي اليها . بل كيف يتوقع هو ذلك الأمر ؟ ألم تواته الفرصة فرفضها ؟ انني لا أتصور رجلاً يصل الى بعد يومين من النيجر ثم يرجع دون أن يراه . آنني أشعر متأكداً ان شرف حل ذلك اللغز متروك لي دون غيري .

وانه كذلك ليجعلني أهزأ بقوله : « لا تشرب ولا تأكل أمام تركي » . واذا كان الأمر كذلك فلماذا أسمع ما يتحدث عنه الاتراك دوماً وعن مقدار ما كان يشربه عبد الله (اسم كلابرتون أثناء رحلته) ... أربع زجاجات مرة واحدة ... ان هذا التصرف لا يجلب للمرء أي احترام في أي بلد ، ناهيك عن بلد إسلامي يمنع الدين فيه شرب الخمر .

إن ساعتي تسير جيداً ، ولكنها اضطربت قليلاً في مالطة ، غير أن لي بها ثقة كبرى ... انني لا أمل مشاهداتي وملاحظاتي .

المخلص لك

أ. جوردون لينج

من جوردون لينج إلى جيمس باندينال

بني وليد في ٣ اغسطس ١٨٢٥

الساعة العاشرة مساء

صديقي العزيز باندينال :

وأخيراً ، بحمد الله ، أغذ السير في طريقي الى النيجر ، والى تخومه

البعيدة التي أتمناها وأتوقع الوصول اليها في شهر نوفمبر على أبعد حد . انني مغادر هذا المكان في ساعة مبكرة من صباح غد ، متجهاً إلى غدامس ، حيث أبلغها في العشرين من هذا الشهر ، وستكون غدامس مصدر سرور كبير لي ، لأنني سأفحص فيها الكثير من الآثار التي يقال انها تتناثر دون ان يهتم بها احد .

أقرأ في الصحف الفرنسية ما يقال عن حل لغز النيجر ، ولكنني اخالف هذا الرأي بشدة ، وقد دونت اليوم آرائي المحدودة على شكل رسالة سأبعث بها إلى اللورد باثورست[1] . والواقع أن المسألة أبعد ما تكون عن الحل حتى الآن ، فرحلة المسافرين الأواخر لا تثبت سوى عدم اتصال النيجر بالنيل ، وهذه حقيقة أثبتها أنا في وقت سابق عندما قِست ارتفاع مصدر النيجر .

لقد تسلمت رسالتكم اللطيفة المؤرخة في الثامن من يونيو ، وآمل الاستمرار في الكتابة عن طريق طرابلس حتى شهر نوفمبر ، وبعدها يتحول عنواني إلى بنين ، عن طريق سيراليون — وبالمناسبة هل ستكون لنا حقاً مستعمرة هناك ؟ ان هذا الوقت مناسب تماماً ، وهو كذلك مناسب للتخلي عن ساحل العاج تمام التخلي .

أرجو المعذرة ، فأنا أكتب والورقة على ركبتي ، على ضوء مصباح خافت ، ولكنني سأكتب اليك مطولاً من غدامس ، فحتى ذلك الحين ، أبقى دوماً ،

المخلص لك

ا. جوردون لينج

---

١ أنظر الملحق رقم ١ ، وهو عبارة عن مذكرة لم ترسل إلى لندن قبل وصول لينج إلى غدامس .

من أ. جوردون لينج إلى ر. ويلموت هورتون

بني وليد في ٣ أغسطس ١٨٢٥

سيدي ،

تشرفت باستلام رسالتكم المؤرخة في السابع من يونيو والتي تقدم آراءً واقتراحات من كلابرتون ، أرجو أن تقدم صورة عنها إلى اللورد باثورست ، وستكون بلا شك مجال الاهتمام الذي تستحقه ، وأرجو في نفس الوقت الاشارة إلى رسالتي المؤرخة في الثامن عشر من وادي الرمل، ويبدو منها الالتزام العام بفحواها .

خادمكم المطيع

ا. جوردون لينج

من الرائد ا. جوردون لينج إلى هانمر وارنجتون :

بني وليد في ٣ أغسطس ١٨٢٥

سيدي وعزيزي :

يشرفني أن أقرّ باستلام جميع رسائلكم ومرفقاتها من باباني الذي وصل إلى هذا البلد في ساعة متأخرة من مساء الاثنين . انني أشعر بتمام الرضى عن ذلك الاتفاق الذي ابرم معه ، وانني مقتنع تماماً لما رأيته من هذا الرجل ان الاتفاق سيتم تنفيذه حرفاً حرفاً .

انني مغتبط لأنك لم تسحب الفاتورة ذات مبلغ الأربعة آلاف دولار المستحقة له في طرابلس ، ومما يزيد في غبطتي ترك الأمر لي اتصرف حسبما يقتضي الوضع . انني لا أرغب حالياً في طلب أي مبلغ آخر من الحكومة ، خاصة وانني لست متأكداً بعد من شعور المسئولين ورد فعلهم

تجاه المبالغ المطلوبة من قبل . ولما كنت متقدماً في رحلتي ، قادراً على اظهار انجاز شيء مـا ، فانني سأكون أقل تردداً في سحب أي مبلغ أحتاجه ، وقد دفعت مبلغ الاربعمائة دولار الى باناني هنا ، وذلك مما تبقى معي من أرصدة ضئيلة ، وبذلك ولدت عنده انطباعاً جيداً عني ، خاصة وقد أكدت لـه ان المبلغ وضعني في مركز خطير ، وانني لا أكنّ إلا كل احترام لرجل بمثل شخصيته .

سنغادر هذا المكان عند الثالثة بعد ظهر هذا اليوم وأتوقع ان تسمع مني عندما أصل غدامس بعد شهر على أبعد حد . ويبدو ان كل شيء متيسر لانجاز رحلتي الهامة بنجاح ، وانني لأشعر بسعادة كبرى لمعرفتي بك إذ اعتبرك السبب الرئيسي في اكتشافاتي في هذه المنطقة المجهولة ، وانني لأعيش مع آمال انجاز زيارتي الى عاصمة وسط افريقيا ذات الشهرة الواسعة ، وكذلك زيارة المكان الذي فقد فيه « بارك » حياتـه ، ثم مصب النيجر الغامض ، وذلك خلال ستة أشهر .

اتشرف سيدي أن أكون خادمكم المطيع

أ. جوردون لينج

من ا. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

بني وليد — الثانية والنصف من بعد ظهر الثالث من أغسطس ١٨٢٥

عزيزي القنصل

ان رسالتي هذه قصيرة جداً ، لأن باباني فاجأني تماماً بمسألة رحيله في وقت كنت أتوقع الخلو فيه بنفسي لأكرّسه للكتابة اليك وإلى عزيزتي

« إمّة » — ولكن أملي خاب تماماً — والواقع أن لدى باباني أسباباً تدعو للرحيل المفاجىء ،ومن السخف أن أسمي ذلك مشكلة — والواقع أنني أتمتع برعايته ومصمم تماماً على أن أكون تحت توجيهه الكامل — لقد خاب أملي لتأخرك عن الوصول الى بني وليد ، فقد كنت أجلت الكثير من الكلام كي أقوله لك في بني وليد ، وأتمنى لو كنت قد حضرت. تسلمت هذه اللحظة رسالتك المؤرخة في أول أغسطس ، وقد فهمت ما ترمي إليه ، وأوافقك على الرأي القائل « خيرٌ كل ما يحدث » . ولو أن مرضاً أو عملاً أخرك لأسفت على غيابك . سأتحدث اليك الكثير حول هذا الأمر عندما نلتقي بعد ستة أشهر ، وحينها سنسعد بالتلاقي سعادة تفوق ما كنا سنلقاه في بني وليد .. وانني في نفس الوقت أقدم اليك ألف شكر لعنايتك الأبوية الرقيقة بأعز انسان عندي وأحب مخلوق لدي: « إمّة » .

انني آسف لموقف كلابرتون وقلة ما قدمه من خدمة ... لقد كنت دوماً أدافع عنه في انجلترا وأمتدحه وألحّ من أجل ترقيته .

لقد استنتجت من ملاحظاتي في بني وليد انها تقع على خط عرض ٤٠ً ٤٧َ ٣١° شمالاً وعرض ٤٣ً ١٣° شرقاً . وإذا صحت القياسات القمرية التي أجريتها في الحديقة (بطرابلس) فإن خط طول بني وليد هو ١٥ً ٤٧َ ١٣° بانحراف ١٢° غرباً — وحينها يكون الفرق بين قياساتي القمرية وقياسات القوائم الموجودة في البحرية هو ١٧ ثانية تماماً — مع أخلص التحيات للسيدة وارنجتون والاسرة ...

المخلص دوماً

ا. جوردون لينج

من ا. جوردون لينج إلى هانمر وارنجتون

وادي سوكاد[1]

في ٨ أعسطس ١٨٢٥

اكتب اليك ، عزيزي القنصل ، على عجل ، لأخبرك عن وصولي إلى هذا المكان ، ويقع على خط عرض ٠٠ً ٢٥َ ٣٠° شمالاً . سأواصل السير إلى غدامس دون توقف ، وذلك عند الساعة الرابعة بعد الظهر . انني شديد السرور بشيخي ، وكذلك بمرافقي « بوجولة » ، الذي بدأت اكتشف قيمته وحقيقتـــه . ولكي أكون عادلاً مع كلابرتون لا بد من القول بأن مرابط هذا المكان قد تصرف نحوي تصرفاً سيئاً — سيئاً للغاية — وأرغب في أن تعرّف الباشا بسلوكه بأسرع ما يمكن ؛ فقد طلب مني نقوداً حال وصولي ورفضت ذلك بالطبع . ثم قال بأن عليّ أن أعود إلى طرابلس إن لم أدفع له ما يريد ، ولكن ذلك لا يدخل ضمن الاجراءات التي رتبتها مع الباشا . وأخبرته أنني لا ابالي بسلوك أي طريق إلى غدامس ، ولكنني مضطر للوصول اليها ، لذا فانني أرغب في معرفة ما يرمي اليه ، ومعرفة ما إذا كان ينوي وضع حد لسيري . فكان رده بأنـــه لا يريد ايقافي بالتأكيد ، ولكن لصوصاً في الطريق سيوقفونني ، فقلت لـه بأن هذا ليس من شأني ومسئوليتي ولكنه أمر يهم الباشا وملك انجلترا ، ولذلك فإنني سأتقدم في سيري ورحلتي . وعندمـــا رأى هذا التصميم من جانبي وعدني بارسال حمايـــة تحرسني هذا اليوم عند الرابعـــة مساءً ، وخصني بوداعه . والواقع أنني آسف لتصرفات الرحالة السابقين الماليـة ، فالنقود ليست ملكي ، والله يعلم هل تم الموافقة على المبالغ التي طلبتها من قبل .

---

١ ربما يقصد بذلك « بير سرخات » ، وهو على بعد نحو من ستين ميلا جنوبي بني وليد ، على طريق وادي زمزم .

إنني لم اواجه قبل ذلك أمثال اولئك النهمين الذين يمكن وصفهم بالقبائل المتجولة، وأؤكد لك انني تكبدت مبلغ ثلاثمائة دولار لاطعامهم في بني وليد. وإذا أبقيت على تشجيعي لهم فإن أرصدتي ستنخفض إلى درجة كبيرة، لذا رأيت من المناسب أن اتوقف عن الدفع . وأرغب في أن تخبر الباشا عن ذلك لأنني علمت أن الباشا قد دفع لهذا المرابط مبلغ مائتين وخمسين دولاراً نظير حمايتي حتى غدامس! سأكتب لكم بالتفصيل من غدامس — تحياتي للسيدة وارنجتون وإلى جين ولويسا وهربرت والصغيرة اوزي .. بارك الله فيك عزيزي القنصل.

المخلص لكم

ا. جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج إلى هانمر وارنجتون :

البئر المالح على حدود فزان
خط عرض ٣٥َ ٢٩° شمالاً
خط طول ٥٠َ ١٣° شرقاً
في ١٥ أغسطس ١٨٢٥

خاص

عزيزي القنصل ،

علمت ان ثلاثة من فرسان الباشا الذين رافقوني مـــن طرابلس حتى هذا المكان سيقفلون عائدين الى طرابلس ، لذا أسرعت إلى قلمي كي اطمئنك عن حسن سير أموري حتى الآن . وقد كتبت لك من سوكاد رسالة سريعة موجزة أخبرتك فيها عن سوء تصرف مرابط ذلك المكـــان نحوي ، وأود أن أعلمك الآن أيضاً أن تصرفه بعد ذلك لم يغير رأيي

فيه ؛ فقد رغب في الحصول مني على مائة وخمسين دولاراً ، وأصرّ على ألا أتقدم خطوة واحدة ما لم أدفع له المبلغ – وهذا ما رفضته كما أخبرتك من قبل – ولكنه أخلى سبيلي لما شاهده من صلابة موقفي ، ثم قال بأن عليّ أن استأجر ستة جمال من بني قومه لأنني سأسير ستة أيام في طريق تنقطع منها المياه – وقد فعلت ذلك – ولكن هذا المرابط « الصديق » جعلني ادفع أجراً عالياً لتلك الجمال ؛ فعندما طلب بنو قومه نصف دولار أجرة عن كل قربة ماء ودولارين عن كل جمل لم يسمح لهم بذلك ، وأصرّ على دفع دولار عن كل قربة وأربعة عن كل جمل .. وماذا كان عليّ أن أفعل إلا الاستسلام لذلك ! لقد كان يتصرف بطريقة شديدة الغرابة منذ أن غادرنا مخيمه . فقد صاحبنا مع خمسين من رجاله ، وكان يتصرف تصرفاً شاذاً .. وسمعه البعض يقول بأنه لولا خشية الباشا لقتلنا جميعاً وأخذ النقود والقافلة . وبعد مسيرة اليوم الأول قال بأن أجرة أربعة دولارات للجمل الواحد لا تكفي ، وإنني إذا لم أدفع ذلك المبلغ حالاً وأدفع المزيد عند اكمال الرحلة فإن الجمال لن تسير . ولكنني لم أرضخ لمطلبه ، إذ لا أدفع شيئاً نظير خدمة حتى أتأكد من أدائها على أحسن وجه . وعندما رأى موقفي ذلك أعاد التفكير في أمره وسمح بتقدم الجمال . ولكنه حاول طيلة ذلك اليوم جهده أن يثيرني ويخلق المتاعب لي ؛ فكان رجاله مرة يتأخرون بحجة ضعف جمالهم ، ومرة أخرى يلقون على الطريق ببعض الاحمال للتخفيف عن الجمال ، بالاضافة إلى محاولة معاملة روجر أو هاري أو جاك معاملة جافة . وكانوا عندما يقبل الليل يطلقون النار من حين لآخر ، مما سبب لنا الذعر لأن دوي الرصاص كان يمر من فوق رؤوسنا ، وكان الظلام حالكاً إلى درجة لم نعرف معها أهو هجوم يُشن علينا أم غير ذلك . وعندما توقفنا قبل ليلتين غاب

المرابط وحارسه مما أثار الريبة ، حتى أن فرسان الباشا أشاروا علي بضرورة تشديد الحراسة . وسرنا في الصباح دون أن نشاهد أثراً للمرابط ، ثم أقبل نحونا عند التاسعة يطلق النار ، فظن رجالنا أن الأعداء يهاجموننا وسارعوا الى أسلحتهم بدقة ونظام مما أدخل السرور على نفسي ، ولكن عندما اقتربت الجماعة المعادية الى مسافة يمكن تمييزها صاحوا بنا : « يا ريس (رائد) لا شيء في الأمر ، انه المرابط ! »

لقد أسفت لذلك حقاً ، لأنني كدت أجعله في إحدى اللحظات يدفع الثمن غالياً . ولكنه سيتركنا اليوم ، والحمد لله .

لما كنت سأدور عن طريق الشاطئ[1] فبعد خمسة أيام ستكون المسافة بيني وبين غدامس نفس المسافة بين طرابلس وغدامس مباشرة ، ولن أبلغها قبل نهاية هذا الشهر ، وحينها سأبعث اليك برسول من عندي ، وأعتقد أن باباني كتب إلى الباشا معرباً عن ضيقه ذرعاً بسلوك المرابط .

أرجو المعذرة لقلة ترابط الكلام السابق ، لأن باباني كان عندي طيلة الوقت يتحدث حول الرحلة .. أرجو ألا تخبر « إمّة » شيئاً عن الصعاب التي واجهتها ، كي لا يسبب ذلك القلق لها ويحملها على الاعتقاد بأن رحلتي ستطول كثيراً عما كنت أتوقعه — وهذا لن يحدث فعلاً ؛ لأن باباني يؤكد لي انه رغم جهله بهذا الطريق ، إلا انه يعرف كل خطوة بين تمبكتو وغدامس ، ويؤكد أننا لن نتوقف أو نتأخر في سيرنا اليها . انني أصدقه فعلاً ، وهو يبدو شديد الاهتمام بالتقدم في السير (مثلي تماماً) إلى درجة أتوقع معها أن نبلغ العاصمة الشهيرة بعد شهرين من مغادرة غدامس . وبالمناسبة فقد عانيت الكثير من الحمى في بني وليد ،

---

[1] وادي الشاطئ المتجه من فزان نحو الشمال الغربي إلى فزان .

وواجهت كذلك موجة منها عندما غادرت ذلك المكان . ولكنني تغلبت عليها تماماً ، وأنا الآن في صحة جيدة ، كما كنت دوماً (احتفظ بهذا الخبر لنفسك فقط) . والآن ، عزيزي القنصل ، عليَّ أن أعجّل بختم رسالتي السريعة ، ولا أرغب أن تقول للباشا عن تصرف المرابط سوى انني لست راضياً عنه ، وانني لم أُسرَّ بسلوك هـــذا الطريق . ستسمع الكثير مني عندمـــا أصل غدامس ، وآمل حينها أن أحدد وقت وصولي إلى تمبكتو ، وأنا واثق يـا عزيزي القنصل من إكمال هذه المهمة بطريقة تعكس ضوءاً قوياً على حصافة رأيكم ، وعلى التزامي بهـــا . بارك الله فيك عزيزي ومتعك دوماً بالسعادة الذهنية التي تستحقها ، راجياً تبليغ تحياتي للسيدة وارنجتون وجين ولويسا وهربرت وأوزي .

المخلص دوماً لك

أ. جوردون لينج

وبالمناسبة أود أن أذكر أن حبي لبوجولة يزداد شيئاً فشيئاً .. انه في الواقع رجل ذو قيمة ، ويحلف بأن يرى انجلترا قبل العودة إلى طرابلس ، وهذا ما أشجعه عليه ، رغم شكي في تحقق ذلك . ولما كنت سأمكث في غدامس بضعة أيام فأرجو أن تبعث رسولاً يحمل لي صورة العزيزة « إمّة » حال إنجازها ، لا تنتظر مجموعة الرسائل فصورة إمّة تساوي عندي مليون مجموعة من الرسائل .

(وقد وجدت على مسودة الرسالة الملاحظة التالية)

لفونسة في ١٧ أغسطس ١٨٢٥

إننا نغذ السير نحو الشاطىء ، ولم يبق معنا إلا قربة ماء واحـــدة ،

ولقد عانت جمالي الشيء الكثير من التعب ، وبعدما نرتاح هذين اليومين، سنتوجه إلى غدامس سائرين بانتظـام وبمعدل تسع ساعات في اليوم ، وحينها آمل بلوغها في الأول أو الثاني من سبتمبر . ان الرطوبة والحرارة شديدتان ، ولكن صحتي جيدة ، بل هي في الواقع أفضل من صحة أي شخص ممن يرافق قافلتي .

الفَصْلُ السَّادِسُ

غدامس

عندما وصل لينج مدينة غدامس وجـد حطيطة الرجل الغامض في انتظاره ، واستطاع لينج أن يسرع في ارسال تقرير الى وارنجتون يقول فيه : « وسرعان ما كسبت ود حطيطة بما قدمته له من هدايـا » . وكانت الهدية الرئيسية « من ملك انجلترا [1] » وهي برنس قرمزي جميل محلى بالذهب « أدخلت عليه من السرور ما جعله يمنحني حربته قائلاً : سأصحبك في سفرك آمناً في بلدان الطوارق ، ثم أتجهُ بعدها إلى طرابلس لأرى صديقي القنصل » .

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

غدامس في ١٣ سبتمبر ١٨٢٥
الساعة الثامنة مساء

بعد ان كتبت رسالتي الرسمية، وذلك قبل إضاعة لحظة واحدة في أمر

---

١ يغلب على الظن ان الهدية لم تكن من الملك فعلا ولكنها قدمت باسمه لكسب ود حطيطة وإشعاره بقيمة عالية وزهو كبير إذ يتلقى هدية من ملك انجلترا ! ! (المعرب) .

مـــن أموري الخاصة ، أتناول الآن قلمي في شغف كبير لأسأل عن أحوالـكم ، عن السيدة وارنجتون والأسرة كلها ، لأنني في قلق شديد إذ مرت فترة ستة أسابيع بعد آخر صلـــة لي بطرابلس — قضيتهـــا في رحلتي الطويلة عـــبر فزان والصحراء السوداء ، أتحمل الحرمان وأتعرض لدرجة من الحرارة أعتقد أن القليل من الأوروبيين يستطيعون تحملها ، ولكنني كنت أُعزّي نفسي بالأمل في أن أجد عند وصولي من غدامس رسالة من أعز انسان لدي : « إمـَّة » ، وبذلك أجد السعادة عندمـــا أعلم أن أغلى شيء في الحياة عندي بصحة جيدة ، وكنت متوقعـــاً أن استقبل رسولاً منكم في الثالث عشر من سبتمبر ، ولكن ، للأسف ، كم خاب ظني وأملي .. ولكنني لست ألومك عزيزي القنصل ، فلا شك أنك قد أرسلت لي منذ وقت طويل حاملاً للبريد وان حالة البلد الذي يجتازه غير مستقرة ، الأمر الذي يعيق سيره — لقد علمت هنا ان سكان الجبل كانوا يترقبون القافلة على الطريق بين بير سرخات وغدامس، وأن مائة وثلاثين فارساً كانوا منذ ثلاثة عشر يوماً يتمركزون قرب أحد الآبار، توقعاً لمرورنا من هناك . ويقول بوجولة والشيوخ اننا فعلنا خيراً عندمـا تحاشينا سلوك الطريق القصير ، ولكنني لا أوافقهم الرأي ، لأننا لو سلكنا ذلك الطريق لكان لزاماً على مرابط بير سرخات أن يزودنا بحراسة قوية . سيقوم الرجل الذي يوصل اليكم هذه الرسالة باحضار صحف ستة عشر يوماً لي ، وبعدها لن أسمع منـكم شيئاً حتى أكمل رحلتي — ويبدو أن القليل يستطيع المجازفة بالسفر فرادى بين طرابلس وغدامس ، ولن يحاول ذلك أحد بين توات وتمبكتو . ويجمع الناس على ان هذا الطريق يختلف عن الطريق الى برنو ، فالثاني طريق تنتظم عليه القوافل التجارية ويخضع لسلطة الباشا ، حتى ان الطفل يستطيع السير عليه بأمان ، ولكن مصالح

متصارعة تتنازع الطريق ويتوقف نفـوذ الباشا عند غدامس . سأكون مسروراً لو أخبرت السيد « بارو » عن هذا ، وسأبعث له رسالة عن مصب النيجر ، داحضاً جميع النظريات التي قفزت حتى الآن من التخيلات الافتراضية ، أولاً بنظريتي الخاصة ، ثم بالحلول العملية .

لقـد تحدثت في رسالتي الرسمية عن سلوك بوجولة ، ولا أظن انني مضطر لإرجاعه الى طرابلس — وقد وضحت أيضاً بطريقة غير مباشرة عدم تأكدي من نوايا حطيطة ، فلا أرغب القول بأنني أعرف تماماً سبب تردده ، وانت بالطبع تشعر بذلك مثلي ؛ انه يتوقف عند ذكر النقود حتى يعرف تماماً ما سأعطيه إياه . وفي المدينة اشاع الرسول الذي بعثته لحطيطة بأن الصندوق الذي تلقيته من « ترويت » ، ويحتوي على السكر والقهوة ، إنما هو مدد يسير من النقود يحتوي على ستة آلاف دولار ! ولكنني سأقوم ظهر هذا اليوم بحضور حطيطة وباباني وبوجولة والرسول بفتح الصندوق وعرض محتوياتـه . لقـد تحدثت مرتين مع حطيطة منذ كتابة رسالتي الرسمية وسألني عما إذا كنت انت قد ارسلت له عباءة ، لأنه فهم من الرسول انني احمل شيئاً مشابهاً لذلك ، فأجبته باعتقادي انك تحتفظ له بواحدة ، وقلت له ايضاً ان له عندي هدية من ملك انجلترا ، وهي برنس قرمزي جميل موشى بالذهب ، وقد سر بذلك كثيراً وأعطاني حربته قائلاً : « سأصحبك في سفرك آمناً في بلدان الطوارق ، ثم أتجه بعدها إلى طرابلس لأرى صديقي القنصل وآخذ العباءة » . لذا ينبغي ان تعد له عباءة يجدها عند عودته . . . .

المخلص لك

ا. جوردون لينج

ملاحظة : أرجو التكرم بإرسال الحيوان المحفوظ في هذه الزجاجــة

إلى جوزيف سابين ، من جمعية البستنة — ريجنت ستريت — لندن .
ملاحظة أخرى : لقد كتبت رسائلي الرسمية ورسائلي الخاصة بسرعة فليس عندي وقت لمراجعتها ، لذا أرجو المعذرة والتجاوز عن طريقة كتابتها وعن مادتها ، كما أرجو أن تبعث بمقتطفات منها الى اللورد باثورست .

الرابع عشر من سبتمبر : لقد أرسل الشيخ يقول بأن الرسول قد تهيأ للسفر ، لذا فانني اكرر ما ذكرته حول تحسن حالة المريض الذي أعالجه ، وقد أرسل لي ، تعبيراً عن الامتنان بالشفاء ، خروفاً سميناً ، مع جملة أشياء أخرى .. انني اتوقع منك رسالة مطولة ، تخبرني فيها عن حالة إمّة بشكل دقيق .

من الرائد أ. جوردون لينج إلى هانمر وارنجتون :

غدامس في ١٣ سبتمبر ١٨٢٥

وأخيراً وصلت مدينة غدامس بعد رحلة طويلة بلغت نحواً من ألف ميل ، وسرعان ما اتجهت إلى قلمي كي أسطر لك رسالة تطمئنكم ، لما أعرفه من عظيم قلقكم على مصيري ، خاصة وانني لم أرسل لكم شيئاً من الشاطىء ، خلافاً لما وعدتكم به . والواقع انني كنت أرغب في الكتابة ولم يمنعني عن ذلك سوى المبالغ الكبيرة التي طلبها مراسل من هناك أجرة له . لقد وصلنا هذه المدينة عند الساعة التاسعة من هذا الصباح بعد رحلة مضنية بدأت من الشاطىء التي غادرناها في الحادي والعشرين من الشهر الماضي ، وكان الطريق صحراوياً في معظمه ، وقلّت المياه التي كانت معنا في الأيام الأخيرة الثلاثة ، ونفدت منا مواد كثيرة ، وزاد الأمر سوءاً هبوب الرياح الشرقية ستة أيام متوالية . ولكن جميع الصعاب زالت عندما وصلنا غدامس ، فشكراً لله على ذلك ، وأقول لك ان استقبالنا تميز بكل كرم وود ، فقد قابلنا وفد كبير على بعد نحو من

ثلاثة أميال خارج المدينة ورافقنا يردد عبارات الترحاب التي لا تنقطع ، ورغم انه لم تمض ساعتان منذ إقامتنا هنا فإن منزلي الآن يغص بالكثير من مختلف أنواع الحاجيات التي قُدِّمت لي ، وأصبح مرافقي الذين كادوا يموتون جوعاً يتمتعون بوافر الأكل .

كنت أداعب منذ قليل عدداً من الأطفال جاءوا من باب الفضول لمشاهدة « المسيحي » ، وكانوا سعداء تماماً إذ سمحت لهم بالدخول ، رغم أوامر آبائهم لهم بالانصراف ، خوفاً أن يكون أطفالهم مصدر ازعاج لي – انني احب اللعب البريء للاطفال في كل بلد .

لقد وجدت هنا الرسول الذي بعثته لحطيطة وكذلك وجدت حطيطة نفسه ، ولكنني لست متأكداً تماماً بعدُ من مرافقتهم لي . والذي لاحظته حتى الآن هو وجود شيء من النفور من جانب حطيطة لأنني تحت حماية وعناية الشيخ (باباني) ، رغم أن حطيطة يعترف له بالذكاء والمعرفة التامة بالطريق . لقد تحدثت القليل حول هذا الموضوع حتى الآن ، لأنني أرغب في الحصول على أكبر قدر من المعلومات قبل اتخاذ قراري – ولم أقل له سوى أنني أحمل له منك أطيب التحيات وأنك تأمل منه أن يتولى أمر مروري سالماً عبر بلاد الطوارق ، وأضفت معرباً عن أملي في ان يقوم بذلك ، وانني اتيت من انجلترا (حيث سمعت الكثير عنه) كي اقابله بصفة خاصة . ويبدو ان هذا الكلام جلب السرور لقلبه فأجاب معرباً عن رغبته في مرافقتي . ولكن هذا الموضوع يحتاج الى مزيد من الكلام أسجله بعد يوم أو يومين عندما أستعيد وجمالي الراحة بعد عناء الرحلة التي أتممناها منذ قليل . إنني اتمنى شخصياً لو رحلت غداً ، إذ لا يوجد هنا ما يبعث على اهتمامي إلا القليل ، ولأنني أتوقع الكثير في الطريق إلى تمبكتو . ولكن رجالي الذين الذين يعانون من السفر يحتاجون الى شيء من الراحة ، شأنهم في ذلك شأن جمالي التي أصبحت ضامرة

هزيلة بعدما تكبدته من مشقة عبور الصحاري ، خاصة واننا في الأيـــام الثمانية الأخيرة لم نصادف إلا القليل من العشب . وقد أصبحت سبعة من جمالي مقعدة تماماً ، وأصبح واحد منها لا ترتجى منه أدنى فائدة وسأبيعه بأي ثمن ، وبذلك يكون هو وبغل مات في الصحراء خسارتي الماديـــة الوحيدة التي تكبدتها حتى الآن ، بالاضافة الى تلف وتحطيم بعض الأجهزة من فعل أناس طبيعتهم الأذى والاتلاف . والواقع انني كنت سيء الحظ معهم منذ بدايـــة الرحلة وأنت تعلم سابقـــاً عن الخسارة التي لحقت بالبارومترين ، ولو انني كنت أحمل منها عشرين بارومتراً بدلاً من اثنين لتحطمت كلها ، لأن طبيعتها لا تقاوم الحرارة العالية وهزة الجمال التي تحملها . أما أدوات قياس الرطوبة فقد فسدت لتبخر الأثير منها ، ولم يبق عندي إلا جهازان لقياس الحرارة ، وتوقف الكرونومتر منذ يومين لشدة الحرارة والبرودة التي يتعرض لها . وكذا وطىء أحد الجمال عـــلى مسدسي فكسره — وهنا عليّ أن اتوقف عن هذا الحديث الذي طال .

سأبعث لك يومياتي مـــع الرسول الذي سأوفده اليكم قبل رحيلي ، وما سأكتبه منها حتى ذلك اليوم ، مع خريطة سيري ورسمين أو ثلاثـة لأنواع من الملبوسات ارجو ان تبعث بها الى وزارة المستعمرات .

ولما كنت الآن راغبـاً في التعجيل بالاعلان (للوزارة) عن وصولي ، فسأترك لـكم ابلاغ اللورد باثورست عن حالتي واستقبالي (هنا من جانب اهل غدامس) .

الحرارة هنا لا تكاد تُطاق ، فالثرمومتر لم يهبط منذ غادرتـكم عن ١٢٠ ° فرنهايت عند الظهيرة ، ويشعر الانسان بشدة ذلك بصفة خـاصة بعد البرد الذي ينتشر في الصباح عندما تنخفض درجة الحرارة الى ما بين ٦٥ و ٦٨ فرنهايت ، بل انها انخفضت مرة الى ٦٢ درجة فرنهايت ! وألاحظ في هذه الحالات وجود نترات البوتاسيوم على الأرض -- وبهذه

المناسبة أجدني منساقاً للحديث وإبداء بعض الملاحظات حول بحيرة تشاد التي يدعي دنهام أن لا منفذ لها ، ولكنني على أي حال سأتناول الموضوع في فرصة تالية ، وآمل أن ترسلوا رحالة للدوران حولها ، ويفضل أن يكون رجلاً يعرف الطب لأنه ربما ينجح حيث فشل الكثيرون – ولا أعتقد انني سأمر بها في طريقي لأنني متأكد ان مجرى النيجر الذي سأتتبعه لن يقودني قريباً منها .

وقبل انتهاء رسالتي أود ان اقدم لكم لمحة عن الشخصيات التي ترافقني ، لأنني خبرتهم الآن تماماً ، وأرى من الضروري تعريفكم بهم كي يسهل فهم الأسباب التي تؤثر في مستقبل الحوادث التي قد تقع . وينبغي ان أبدأ الحديث عن المرابط[1] ، ولكن من الأفضل تجاوزه لأنه تركني في رحلة مبكرة . ولست أحب ان أقول مكروهاً عن رجل ذي منزلة عالية عندكم ، خاصة وان معرفتكم الطويلة به قد مكنتكم ولا شك من تكوين فكرة دقيقة عنه اكثر مني – ولا بد لي من الاشارة الى ان رأيي فيه لا يسر ، ولكنني اعترف ان هذا الرأي ربما يكون خاطئاً ولا أريد أكثر من الايحاء بمراقبته من جانبكم بمزيد من الاهتمام .

لذا انتقل الى باباني الذي أعتبره رجلاً أصيل المعدن ذا قيمة عالية لا يتغير ، هو اليوم كما هو غداً . انه رجل هادىء لا يسبب أذى أو ضراً ، ولكنه ذو إرادة صلبة كما لاحظت في مناسبة أو مناسبتين ، بحيث كونت عنه فكرة لا تخطىء . وهو إما أن يكون شديد التعلق بالانجليز ، او انه ممثل بارع (يخفي حقيقته) ، لأنه اظهر لي الصداقة الواضحة وقام بتصرفات تنم عن الكرم واللطف ، لا معي فقط بل ايضاً مع رفاقي الثلاثة . ولا بد لي من الاعتراف بأن سلوكه ينال الاعجاب . انه رجل

---

[1] ربما يعني مرابط بير سرخات .

عظيم الشأن في غدامس ولا يقل اهمية عن الحـــاكم ، وهذا امر كنت اجهله حتى صباح اليوم ، لــذا لم يخب املي فيه عندما عرفت ذلك . انني اقيم في احد منازله ، وهو بيت جميل ذو حديقة وساحة واسعتين، وفي الساحة مربط جمالي التي تطعم على حسابه طيلة المدة التي نقيمهـا في غدامس . انه لا يحب الاسراف ويميل الى الظهور بمظهر الفقير في سفره، لأن ذلك ، كما يرى ، افضل وأضمن وسيلة للسفر آمناً ، ولكنه يحبذ المظهر اللائق عند زيارة الأماكن الهامة ذات الفرص الجيدة ، وآراؤه في هذا الشأن تطابق آرائي تماماً وهو يقول ان القافلة كبيرة جــداً وربما أسترشد برأيه لتقليص حجمها .

أما بوجولة (سيدي محمد بوجولة) فإنني اعترف بعجزي عن اكتشاف حقيقته ، ولكنني لم أطمئن لمظهره منذ البداية . ولما كنت لا أريد أن اتحامل على أحد فقد افترضت الخطأ في نفسي ، غير انني رأيته مرة أو مرتين يتلصص علي بجشع ، وعبثاً حاولت اقناع نفسي بأهميته ، وعاملته كرفيق رغم ابتعاده عني ؛ وقد وليته بطلب منه أمر الاشراف على كل شيء ، وغالباً ما كنت أرهق نفسي كي اكرمــه ، لكن ذلك كله لم يحقق لي هدفـاً . وعندما نفدت المؤن ؛ وهـو يعرف السبب في ذلك ، وتعذر تفادي المحنة ، كان هو الوحيد الذي يتذمر ويقول : « لقد وعد القنصل بأن يقدم لي الكثير كيما تجد زوجتي وخادمي ما يأكلان . » هذا بالاضافة الى الكثير من الملاحظات التي لا يسر سماعها . وفي الوقت الذي لم يكن يتوفر لجمالي حبة قمح واحدة كان يقدم لجماله القمح كل ليلة ، وبإسرافه هذا حرمت الخيول والبغال الطعام طيلة أيام ستة قبل الوصول الى غدامس ، وكادت تفنى كلها لو لم يرسل الباشا جملاً من المهاري مسرعاً إلى غدامس لجلب المؤن . وعندما وصلنا (غدامس) هذا الصباح تركني واقفاً في الشمس وسط جمهور من المتفرجين ، أريد ادخال امتعتي ،

وانصرف بهدوء مع جمليه اللذين يشغلان باله باستمرار . ومع ذلك أستطيع تحمل كل ذلك والعناية مستقبلاً بمتاعي وقمحي وجمالي ، ولكنني لا أستطيع مرافقة رجل ذي مزاج لا يمكن ضبطه ؛ فهو يتشاجر مع كل شخص ، بل انه أساء الى ذلك الرجل الصالح باباني ، وشكا منه مرة او مرتين . وكذلك يبغضه سائقو الجمال ، حتى أن واحداً منهم هجرنا وكاد البقية يهجروننا في فزان . وقد ضرب ترجماني مرات عديدة ، وضرب يوماً خادمه بقسوة حتى كاد يقتله ، وعجز بعدها عن السير اياماً عديدة ، وقال لي السيد بوجولة بأن الغلام مِلْك له ويستطيع قطع رقبته إذا أراد ذلك !! يا لله !! حتى متى يبقى أولئك المساكين يعانون من نير العبودية . . . . ان املي في السلام والسعادة لهذا البلد يعتمد على اكتشاف النيجر والملاحة فيه ، وايجاد مخرج له الى المحيط ، ويعني هذا ان بضاعة المغاربة سينخفض ثمنها ،وبذا لا يعود يوجد لديهم حافز لعبور الصحراء ، ويوضع حد فعال للرق . . . . . . عفواً سيدي لهذا الاستطراد ، ولنعد الى بوجولة . انني اؤمن بشجاعته ، ولذا احترمه ، ولكنني اعرفه قاسياً ، ولذا ابغضه — اعتقد انه يتصرف معي بخلاف ما كان يتصرفه مع كلابرتون ، لذا ارجو الا تفسر ملاحظاتي حول بوجولة كانتقاد لتوصية الضابط به ؛ انه الآن في وضع آخر ، فهو معي ضامن لعمله واستخدامي له ، وهو مثل غيره من ضعاف العقول ينتفخ مدعياً أهميته . ولكنه مع كلابرتون كان كصديق تحت حمايته ، يعامله بلطف ، وهذا ما أفسده .

ليس عندي الكثير مما أقوله عن ترجماني ابراهام ناهون ، ورغم انه مخلص يحاول الافادة ، إلا انه دمية وانسان تافه تماماً .

وأما خادمي جاك فأنت تعرفه تماماً ، وهو ما يزال أميناً ، ويحبه باباني حباً جماً ، وكذلك أحبه كل من قابله ، إلا بوجولة .

ويشتهر روجرز بالمرح ، ويسرع ويتقدم في تعلم العربية ، ويحبه العرب كثيراً ويداعبونه .

أما هاريس فهو هادىء لا يزعج أحداً ، وإذا سأله أحد أجاب قائلاً : اسأل غيري فأنا لا اعرف لغتك . ولكن مظهره جذاب ، مما يحبب الناس فيه .

في الساعة الرابعة بعد الظهر استدعيت لزيارة مريض ، وأود ان أخبرك انني نلت الاعجاب في عملي كطبيب . انني الآن خريج غدامس وقد نلت رتبة جراح محلي ، وهذه خير لي من رتبة رائد في هذا البلد لقد عالجت بعض الحالات بنجاح في فزان ، وكانت شهرتي قد سبقتني الى هذا البلد ، ورغم انني لا اقدر على الكثير فإنني قليل الضرر . والشخص الذي زرته هو عم الشيخ وفي حالة سيئة من الاستسقاء ، بطنه شديد الانتفاخ وساقاه متورمتان ، ولكن شفاءه سهل بقدر يسير من المليّنات . وعندما دخلت غرفته حياني باللغة الماندينغية ، وعندما بدت عليّ دلائل الدهشة قال : اعرف انك تتحدث الماندينغية ، وأعلم أنك زرت تغارة ونجارة . ثم علمت بعدها انه ليس الوحيد الذي يتحدث الماندينغية هنا ، لأنني في طريق عودتي الى البيت تلقيت التحيات من الكثير من الناس بنفس اللغة : صباح الخير ، كيف حالك !!

انني على عجل شديد وآسف لهذه النهاية المفاجئة والكتابة السريعة ، واختصر نهاية رسالتي بالتعبير عن خيبة أملي إذ لم أتلق شيئاً من طرابلس .

المخلص لكم

ا. جوردون لينج

من الرائد ا. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

غدامس في ٢١ سبتمبر ١٨٢٥

عزيزي القنصل ،

لما كنتم ستتلقون رسائلي المقبلة عن طرق أدق وأسرع قبل استلامكم هذه الرسالة ، فلن أدخل الآن في أمور تتعلق بالبعثة وإنما أردت أن أكتب سطراً أخبرك انني قررت إعادة بوجولة الى طرابلس ، حاملاً هذه الرسالة اليك . ورغم انه رجل يمكن أن يقوم بأي عمل يسند اليه الا انه لم يكن ذا نفع بالنسبة لي ، بل أعتبره على العكس من ذلك شوكة في حلقي . انه راحل صباح الغد ، فبالسلامة .

وقد اشتريت جملاً من المهاري لنقله وأعطيته خنجراً جميلاً يبديه لك عند وصوله ، دليلاً على افتراقنا كأصدقاء ، ويعود الى طرابلس أيضاً ثلاثة من سائقي الجمال ممن استأجرتهم في طرابلس ، ويعود معهم واحد بناء على رغبة انجيلو (Angelo) ، كنت قد استأجرته في بني وليد . وهم جميعاً رجال يتصفون بالطيبة وكانوا يتصرفون تصرفاً ينال الإعجاب وما دعاني الى اعادتهم إلا رغبتي في تخفيض حجم القافلة ، ولأنهم ليسوا على درجة عالية من القوة الجسمية . ودليلاً على حسن تقديري لهم أعطيتهم ملابس جديدة وثماني دولارات زيادة على اجورهم ، بالإضافة الى مؤنة رحلتهم . ولذا غادرونا راضين كل الرضى — مع أطيب تحياتي للسيدة وارنجتون وجين ولويسا .

المخلص لكم

أ. جوردون لينج

ملاحظة : أود أن تسأل بوجولة عن سبب عودة المرابط الى طرابلس لأنني أجهل ذلك حتى الآن . لقد كانت صحنه على غير ما يرام في في بني وليد ولكنني عالجته ، وطلب العودة في الصباح (وكان يبدو انه يتهيأ لذلك فعلاً وانصرف) ولكنه رجع ليلاً في ساعة متأخرة . وفي الثانية من صباح اليوم التالي لمغادرتنا بني وليد أرسل يخبرني عن مرض ألم به ولم أر (الورقة ممزقة) .

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

غدامس في ٢٥ سبتمبر ١٨٢٥
الساعة السادسة صباحاً

عزيزي القنصل ،

لمحت منذ قليل من فوق سطح المنزل قافلة صغيرة تتحرك لمغادرة غدامس ، وعلمت عند السؤال عنها انها تتوجه الى طرابلس ، فرجوت أن تنتظر لحظة كيما أكتب رسالة — لذا أرجو أن تعتبر هذه الرسالة كبيان عن حسن صحتي والمعاملة الممتازة التي ألقاها في غدامس ، حيث يعاملني الكل بلطف دائم وكرم لا ينقطع — وأرجو ألا تصيبك الدهشة لطول رسالتي الى إمّة ، لأنني أكتب لها كل يوم سطراً أو سطرين ، ثم إن هناك دوماً مجموعة من الرسائل جاهزة لها . لقد غادرنا بوجولة الى طرابلس منذ أيام ثلاثة ، وحملته رسالة اليكم ، شرحت فيها سبب افتراقنا ...

انني أسيطر تماماً على قلب حطيطة بما أقدمه له من هدايا، فقد أهديته برنساً موشى بالذهب ، وزوجاً من المسدسات المفضضة وخنجراً جميلاً ، وكذلك بغلاً . انه وسللة جاهزان للسفر ، وسأكون أنا أيضاً جاهزاً

(باذن الله) عند رجوع رسولي من طرابلس . اليكم تحيات حطيطة ، مع أطيب التحيات للسيدة وارنجتون وجين ولويسا وهيربرت وأوزي .

المخلص لكم دوماً

أ. جوردون لينج

ملاحظة : لقد مضت القافلة ولا بد من إرسال جاك ليلحق بها مسرعاً على ظهر جواد . سأبعث اليكم برسول خلال عشرة أيام ، يحمل اليكم مذكراتي التي دونتها .

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

غدامس في ٢٧ سبتمبر ١٧٢٥

عزيزي القنصل ،

لقد سعدت أمس باستقبال رسوليكم في وقت واحد ، يحمل أحدهما صورة العزيزة إمّة ، ويحمل الآخر مجموعة من الرسائل — سيرسل باباني مبعوثاً الى طرابلس هذه الليلة ، لذا لا بد لي من الاسراع في الكتابة ، وكذلك لأنني أريد إرسال حساباتي وبعض الوثائق الأخرى الى وزارة المستعمرات ، بالاضافة الى الاجابة على بعض الرسائل الخاصة . إن آلاف المشاعر المتضاربة تثيرني ؛ الحب والحنان من جهة ، وخيبة الأمل والسخط من جهة أخرى : وأنت تعرف السبب الذي يثير الشعورين ، إذ لا يستطيع أحد أن يأسف مثلي للاهانة التي لحقت بك من الوزارة (المستعمرات) بعد كل الجهود الشريفة التي بذلتها لتوطيد مكانة وسمعة الشعب البريطاني ؛ ولا يستطيع أحد أن يشعر بذلك أكثر مني ، خاصة لأنني أعتبر نفسي

السبب في ذلك — ولو انني ظننت ان الوزارة يمكن أن تحمل مثل تلك الفكرة التافهة لتخليت عن البعثة بعد أول مقابلة لي مع الباشا. ولو فعلت ذلك لكنت أتمتع الآن بالسعادة مع عزيزتي إمّة — يا لله أحقاً انني تحملت تلك التضحية ؟ وهل تركت ذلك النعيم المحبب الى النفس لأكرس نفسي لعمل ومهمة لا شكر عليهما ؟ انني لم أتطلع يوماً الى مكافأة ، وهم يعرفون ذلك جيداً في « داوننج ستريت » . كان يمكن أن أصبح رائد فوج لو تخليت عن البعثة ، وكان راتبي ألف جنيه سنوياً كحاكم لمدينة « انمابو » ، فضحيت بالترقية وبالراتب لأتولى مهمة الاكتشاف . ان بإمكانهم استخدامي ، ولكن دون تحقير — لم أفتح بعد الرسالة المعنونة لي من الحكومة لشدة تخوفي من جرح مشاعري وشدة حساسيتي للإهانة... ولكنني قليل الاكتراث بسخطهم ، كما لا أهتم لمدحهم ، ولا أهتم بمدح حكومة لا تساوي ألفي جنيه . ولقد صممت الآن على رفض علاوتهم .. كجنيه في اليوم ، لأنني شعرت بالاهانة من جراء ذلك ، كما لن أتقدم بطلب لنيل مكافأة أو جائزة . والواقع انهم لا يستطيعون مكافأتي على ما أعانيه — أعرف ان اللورد سيعتبر ان رتبة مقدم هي خير جائزة، ولكنني لا أقبلها .

أما أنت عزيزي القنصل ، فلا أستطيع أن أتصور كيف يصلحون أمورهم معك بعد أن جرحوا مشاعرك ، ولولا جهودك لما استطاع أحد حتى الآن زيارة بورنو ، ولولا نصائحك وجهودك ونزاهتك لظل «بللو» غريباً بالنسبة لنا . لقد صرفت جهات أخرى مبالغ هائلة على بعثات أخرى دون أن تحقق شيئاً ، ولكن بضعة آلاف من الجنيهات تفضح الآن الأسرار الداخلية ويُحسَب للمصروفات ألف حساب عندما يكلل النجاح أعمالنا ! .....

ولكن دعني أترك هذا الموضوع ، إذ أشعر انني أعطيته من الأهمية

أكثر مما يستحقه – لم أقرر بعد مواصلة السير أم العودة الى طرابلس ، ولكني سأخبرك في غضون يوم أو يومين .

وصلتني رسالة مطولة من دينهام ، وهو يتحدث عن بعثة كلابرتون الجديدة والشروط السخية التي منحت له . ولكني أشعر انه مورط تماماً ولن يجاوز خليج بنين في سيره ، فلا يوجد هناك قنصل بريطاني قوي النفوذ . وهو كذلك سيصل في أسوأ فصل من السنة . ولكنني لست أبالي سواء أتم اكتشاف مصب النيجر على يديّ أم على يدي كلابرتون، وآمل أن يعود اذا وجد الطقس سيئاً يمنعه من السير ، وهذا ما سيحدث حتماً . كما انه لم يحدث قط أن زار أوروبي ذلك المكان دون الاصابة بالحمى ، وهذا ما يتضح في أغنية البحارة هناك ، والتي جاء فيها :

خليج بنين ....

اذا دخله تسعة فلا ينجو منهم إلا واحد ..

والواضح ان رجلاً عاقلاً لا ينبغي أن يفقد حياته من أجل جنيه أو مائة جنيه في اليوم ! لا أريد أن أزيد على ما قلته ولو أسعفني الوقت لكتبت أكثر من هذا ، ولكن مشاغلي كثيرة – بارك الله فيك – مع أطيب تحياتي للسيدة وارنجتون وجين ولويسا وهربرت والصغير أوزي .

المخلص لكم

أ. جوردون لينج

من هانمر وارنجتون الى الرائد جوردون لينج[1] :

طرابلس في ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٢٠

عزيزي لينج ،

حمل المراسل إلينا رسالة في السابع عشر من الشهر الحالي بعد رحلة

---

[1] هذه الرسالة لم تصل لينج أبداً .

طويلة ، وآمل ألا نجد في المستقبل صعوبـة في المراسلات بين طرابلس وغدامس ، لأن السلام قد حل بين خليفة والباشا .

سأبدأ أولاً بالإجابة عن رسالتكم المؤرخة في السابع والعشرين من سبتمبر . الواقـع انني أعي تماماً مشاعركم النبيلة وكرم نزعتكم ، ولو تصورت ان اطلاعك على إهانتي سيسبب لك ذلك الحزن لما أخبرتك بـه مطلقاً ، خاصة وأنت في رحلة عبر الصحراء الجافة ، وفي مناطق مجهولة بلا رفيق تتحدث اليه . يجب أن تعرف ان اللورد باثورست هو المسئول أمام البرلمان وأمام البلد عن كل النفقات ، ومع ان الملاحظات والانتقادات كانت مثيرة للحنق ، فمن الواجب أن نبرّئه من أي مشاعر سخط نحوي أو نحوك – لقد مضى الآن على عملي تحت رئاسته اثنا عشر عاماً ، وما رأيت منه إلا الكرم والنبـل . فأرجو أن تعتبر الأمر وكأن لم يكن . والواقع ان السيد بارو قد شرح الموضوع بطريقة لطيفة .

انني مبتهج حقاً من عزمك على المضي في سيرك ، ولو فعلت غـير ذلك لكان الدمار لي ولك ، لأن الأعداء حينها سيعرضون الأمر للجمهور بأبشع صورة ، وبشكل لا يستطيع أي منا تحمله .

أما عن توقعاتك بالنسبة لكلابرتون فآمل ألا تتحقق ، لأنه يقوم بعمل للصالح العام ، يحدوه في ذلك الطموح ، كما يحدوك أنت . وآمـل أن تتلاقيا وتعودا معاً الى طرابلس ، ويومها تكبر فرحتي وسروري .

أرجو أن تثق بأن زوجتك العزيزة إمّة في صحة جيدة ، لأن واجبها أن تكون كذلك ...... ومن المحتمل أن تلجأ الى كل حيلـة لإغرائك بالرجوع ، ولكن بحق السماء ، لا تدع مشاعرك القويـة تسيطر عليك فتقوم باتخاذ قرار تندم عليه طيلة حياتك .

بارك الله فيك ورعاك

المخلـص لك

هـ. وارنجتون

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

غدامس في ٢٩ سبتمبر ١٨٢٥

عزيزي القنصل ،

لقد تناول الشيخ باباني طعام الإفطار معي هذا الصباح ، وكم سرني قوله بعزمه على البدء في رحلـة توات خلال ثمانية أيام ، وانه لذلك سيؤجل رحيل الرسول اليـكم — لقد عدلت حالياً عن نية الرجوع الى طرابلس ، بعد حوار مع نفسي طيلة الليلة الماضية وشعرت تماماً بالنصر الذي سيحققه أعدائي .

كم يسر أذني أن تسمع ، وكم يسركم ويسر عزيزتي إمّـة أن تسمع الناس يقولون: « هذا ما كان يتوقع منه دوماً — إن لينج معسول الكلام والوعود ، ولكن قلبه غدر به عندما وضع موضع الاختبـار » . ولكن هذا لن يحدث أبداً ، ولندع الحكومة تتصيد أخطاءنا ، أما نحن فعلينـا أن نتكاتف معاً ونضاعف جهودنا ونرتفع فوق مستوى الجزاء الدنيوي ، فلسنا نرغب إلا في تأدية الواجب ، ولنمض في عملنا بحماس لا يفـتر ، وإذا لم نستطع السيطرة على الموقف فليكن عزاؤنا الإطراء والمديح .

ولكن قلبي ، يا عزيزي القنصل، ينبض بينما أكتب إليك نبضات حزينة خوفاً على أعز إنسان لدي ، حبيبتي إمة : تقول انها سعيـدة ، ولكنني أخشى ، بل وأشعر انها ليست كذلك ، يالله ...... ولو كنت على بعد أيام قليلـة من تمبكتو وسمعت بأنها مريضة ، لما ترددت في العودة الى طرابلس ، فماذا تكون تمبكتو والنيجر ، بل والعالم كله بدون إمّة .
والآن عليّ أن أطرح القلم فترة من الوقت .

الساعة السادسة مساء . أرجو أن تغفر لي ثورتي هذا الصباح عزيزي القنصل — كثيراً ما يسيطر عليّ مثل ذلك الشعور ، ولكنـني أشكر الله

عندما لا يكون القلم في يدي في مثل ذلك الوقت – لقد هدأت مشاعري الآن ، وسأمضي في الحديث لأن عندي الكثير مما أقوله لك ، رغم انني في حالة اختلاط ذهني لا أدري معها من أين أبدأ . لقد فضضت رسالتي الرسمية ولم أجد لدهشتي شيئاً من التأنيب ، وكل ما طلب مني ارسال تقارير بمصروفاتي الى مكتب الحسابات ، بدلاً من وزارة المستعمرات وأنا أعتبر الآن مسئولاً أمامه عن جميع المبالغ التي يمكن سحبها على وزارة الخزانة ، وهذا مما يسهل مهمتي . انني أعرف ان الرائد جراي (Gray) كان يتوقع الحصول على مبلغ أربعين ألف جنيه استرليني دون أن يتعدى في سفره ميناء جالام الفرنسي (وغيره وغيره) ...... لن أقول شيئاً أمتدح به نفسي ، والواقع ان القليل يعرفون خدماتي ، وهم مع ذلك لا يصيحون مستنكرين إساءة معاملتي . ولكن عزائي في ذلك انني أرى ان جدارتي بالمكافأة دون نيلها أفضل لي من نيلها عن غير جدارة . لقد أرفقت لك آرائي حول النيجر التي كتبتها قبل علمي بتوجه كلابرتون الى بنين – وأرجو عندما تقرأها أن تغلقها وترسلها الى هورتون كما هي معنونة . سأتكيف عند وصولي تمبكتو حسب الأوضاع هناك ، ولكن أرى ان أفضل طريق هو العبور الى الساحل مباشرة ، وبذلك أجد نهاية النيجر ان كان له مجرى غربي[1] ، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فربما يقوم كلابرتون بالاكتشاف . ولكنني مصر على عدم التوجه الى بنين – حصلت على معلومات موثوقة تبين ان النهر لا يصلح للملاحة ، لذا أصبحت أقل اهتماماً باكتشافه[2] .

---

١ من المدهش حقاً أن يظن رجل درس النيجر تلك الدراسة الوافية ان من الممكن أن يسير مجراه نحو الغرب .

٢ كان من أهم أسباب الاهتمام باكتشاف مصب النيجر الاعتقاد بصلاحية النهر للملاحة ، وان يصبح مجرى تجارياً عظيماً إلى دواخل القارة .

لقد أصبح سفري الآن التزاماً بالمبدأ الذي أخذته على عاتقي ، لا تعلقاً وشغفاً به ، فقد هبطت مجموعة الرسائل هذه بمعنوياتي الى درجة متدنية، حتى أصبح الناس هنا يلاحظون ذلك ويسألون عن السبب . كنت آمل القدرة على إرسال يومياتي بحيث تغطي الفترة حتى مغادرتي غدامس ، ولكنني أخشى عجزي عن ذلك لأنني لم أكتب شيئاً منذ وصول الرسول ، ولا أشعر بأدنى اهتمام للبدء في كتابتها. انني كل مرة أؤجل الكتابة حتى يوم تال ، ولكن هذا اليوم يأتي دون تحسن في مزاجي .

٣٠ سبتمبر : لم أتحدث بعد شيئاً عن السلوك الرائع الكريم للباشا ، وهذا ما كنت دوماً أتوقعه منه ، وأعتبره من قبيل الاحترام لكم، ولكن أي اعتراف لكرم الباشا من جانبي انما هو تواضع أمام سموه. وأرى لزاماً عليّ أن أتقدم له بشكري الجزيل، مؤكداً انني سأستغل كل جهد شخصي (إن شاء الله) بما في ذلك الكتابة ، لتنوير حكومتي كي تأخذ فكرة صحيحة عن كرمه وسلوكه الأخلاقي ، آملاً أن يقابل بحسن الجزاء . وقد علمت انه تكبّد مصروفات كثيرة كي أصل الى غدامس سالماً ، وأشعر بالخجل الشديد عندما أتذكر الهدايا العظيمة التي قدمها لباباني نيابة عني — حصان جميل وبرنس فاخر ، وقمصان حريرية ، وبندقية مفضضة، ومسدسات ... الخ — انني شخصياً لا أملك أمثال هذه الأشياء — (وكلمة خاصة وسرية للغاية) إن حدود سلطة الباشا تنتهي في غدامس ، ولو أراد الآن ايقافي لما استطاع ذلك ، وأستطيع المضي مع حطيطة اذا امتنع باباني عن السفر ، ولكن رغبته في ذلك تعادل رغبتي ، لأنه يحمل تجارة كبيرة. يبدو ان صاحب السعادة (الباشا) لا يتمتع بمحبة كبيرة عند أهل غدامس[1]

---

[1] كان أهل غدامس قد ثاروا على الباشا سنة ١٨١٠ ، ولم ينسوا بعد الغرامة التي فرضها عليهم يوسف وهي عشرون ألف مثقال من الذهب وعشرون ألف قطعة ذهبية تساوي الواحدة منها ٢٥٠ درهماً .

ـ ولكن هذه كلمة عبرة أظنك تعرفها مثلي ـ لقد أصلحت جميع سروج جمالي هذا الصباح وسأكون مستعداً للتحرك حالما يرجع الرسول من طرابلس . انني أشعر دوماً أثناء السفر برضى كامل، ولكن روحي المعنوية تهبط عندما أستريح ، وأشعر بعدم الرضى ، وتعود روحي الى طرابلس حيث أتصور إمّة تعدّ ساعات غيابي ...... أتوقع أن أسير حسب الترتيب التالي : الى توات في ٢٨ اكتوبر ـ الى تمبكتو في ١٠ ديسمبر وأبقى بها حتى الأول من يناير ، وحينها أعبر النهر وأقطع عشر رحلات أصل بعدها ونجارة والبحيرة حيث أفترض نهاية النيجر . ثم أصل الساحل بعد شهر ، أي في منتصف فبراير . وسأبحر من هناك حالاً اذا وجدت سفينة ما ، ماراً بسيراليون وجبل طارق ...

وداعاً مؤقتاً ـ مع أطيب تحياتي للجميع ،

المخلص دوماً لكم
أ. جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :
خاص

غدامس في ١٥ اكتوبر ١٨٢٥
خط عرض ٢٠ً ٠٧َ ٣٠° شمالاً
خط طول ١٥ً ١٦َ ٩ شرقاً
التذبذب المغناطيسي ١٨° غرباً

عزيزي القنصل ،

أنهيت اليوم ملاحظاتي حول غدامس ، ويمكن اعتبار الملاحظة السابقة هي الملاحظة الأخيرة ،وقد جاءت بعد عمل شاق. ويعتبر موضع خط الطول

بشكل خاص ، والذي كرست له أكثر من إحدى عشرة مسافة قمرية ، مختلفاً عما قرره «لايون» ، ولكن هذا غير مدهش، فقد وجدت حساباته بعيدة عن الواقع حتى في أماكن زارها فعلاً، ولذا أصبحت أميل للاعتقاد بأن لايون لم يجشم نفسه مشقة كبيرة في مشاهداته . كنت أتوقع القدرة على إرسال يومياتي في هذه الفرصة، ولكني تعرضت للكثير من المضايقات والقلق الى درجة قررت معها التخلي عن الفكـــرة وترك ملاحظاتي دون ترتيب حتى يتاح لي وقت أطول وهدوء كبير . سأكتب لسميث وصديقي باندينال حول المصروفات ، لكنني لن أتناول الموضوع في ملاحظات رسمية لسببين : أولهما انني لم أُقحَم بعد في الموضوع ، وثانيهـــما اعتقادي بألا أطلب المزيد من المصاريف ولا داعي لاثارة اللورد (باثورست) . أما بشأن باباني فسأكون سعيداً بدفع المبلغ الذي وعدته بنفسي، ولا أرى أي سبب يحمّلك نصف المبلغ ، وسأسحب حالياً حوالة على الخزينة وأدفع له المبلغ عندما يغادر تمبكتو؛ أما اذا رفضوا الدفع أو اعترضوا عليه فسأكون أنا المسئول بطبيعة الحال عن ذلك . وبالمناسبة، لست متأكداً من الاشارة لك في رسائلي السابقة عن الأسباب التي تجعلني أستبعد أن يكون خليـــج بنين هو نهاية النيجر . وانني تأملت هـذه الأسباب ولم أرغب في إقناع نفسي بجدواها نظراً لقضية الملاحة في النهر . ومع ذلك فقد تركت في لندن رسالة تضم آرائي حول هذا الموضوع، وأرسل الآن بضع ملاحظات الى اللورد باثورست ، تركتها مفتوحة لاطلاعك ، ولكنني لا أستطيع إلا أن ألاحظ انفرادي وغرابة موقفي تجاه هذه القضية ؛ فكم من أشخاص رحلوا لحل هذه المشكلة المستعصية ، وكم ابتسمت في أعماقي لعدم جدوى جهودهم ، فكلهم إما هلكوا أو فشلوا . ولقد نظرت الى نفسي كرجل قُدِّر له أن يحقق ذلك . وكان الأجدر بكلابرتون أن يبقى في بيته اذا كان مصب النيجر هو هدفه ، لأن ذلك مقدّر لي ، بل انه حق لي ، ولا يستطيع كلابرتون أو بيرس التدخل في عملي . لا أطلب منك سوى

الاهتمام بعزيزتي إمّة ، أما تمبكتو فإنني سأزورها ، وأما النيجر فسأرتاده خلال أشهر قليلة .

« سأكون أنا البشير نفسي
وأحمل الخبر البهيج لزوجتي » .
خاص جداً .

يذكّرني الشاهد السابق بموضوع يرافق مخيلتي منذ استلام رسالتكم الأخيرة . فلو حدث ان أصبحت البشير فعلاً ، ولو عدت الى طرابلس عبر اليابسة بعد إنجاز كل أعمالي — فهل ترى من الضروري التزامي بالوعد الذي وعدتك إياه كتابة ؟ أم تجعلني في حل منه ؟ أرجو ألا يغضبك هذا السؤال ، لأنني لا أريد أن أسبب خيبة أمل لو عدت الى طرابلس دون التحلل من الالتزام . فقد وعدت إمّة ليلة فراقنا بألا نفترق أبداً إذا جمعنا الله مرة أخرى . والآن عزيزي القنصل ، إما ان تجعلني في حل من الالتزام أو أن ترافقنا الى مالطة أو « ليغورن » لإعادة مراسيم الزواج .

ولنعد الآن الى أمور أخرى — لقد هيأت كل أحمالي ، ويمكن نقلها جميعاً بسهولة على ستة جمال ، وبذا تتقاص قافلتي كثيراً ، وتصبح مكوّنة من مرافقي الثلاثة الذين جاءوا معي من انجلترا : والمترجم ، وسائقي الجمال ، وستة جمال ، وحصان وبغل ، وبذا لا يمكن اتهامي بالإسراف . انني أبعث اليكم مع « سللة » ، الرجل الذي أعتمد عليه ، قفطاناً وبنشاً كنت أنوي تقديمها هدية لسلطان تمبكتو ، ولكنني أرى الآن إهداءهما لحطيطة لأنه يتوقع شيئاً من هذا القبيل عند وصوله الى طرابلس ، وقد اكتشفت انه يعزف عن النقود [1] ، ولكنه يسر كثيراً للهدايا الثمينة .

---

[1] يتناقض هذا مع ما قاله لينج في البداية من شراهة حطيطة وحبه للنقود (المعرب) .

لقد أعطيته برنساً رائعاً ، وسيفاً وخنجراً ، وزوجاً من المسدسات ، وبغلاً ، بالإضافة الى الكثير من الهدايا الأخرى الصغيرة ، مما أدخل السرور على قلبه . وعندما عرضت عليه النقود أبى قائلاً انه لا يرغب في أن تدفع له النقود مقابل خدماته ، ولكنه سيأخذ عشرين دولاراً لشراء ملابس لبعض رجاله المرافقين له . انه رجل مدهش حقاً ، يندر أن يوجد له مثيل .

السادس من اكتوبر : لم أرسل بعد « سللة » حتى يتحدد يوم الرحيل ، فالشيخ متكدر لا يرغب في تحديده الى أن يجد نفسه في حالة أفضل ...

السابع من اكتوبر : وأخيراً ، عزيزي القنصل ، استقر الرأي على مغادرة غدامس في صباح يوم الثالث عشر ، لذا سأرسل اليكم « سللة » في صباح الغد ؛ ولما كان سيسير بصحبة مرشد يقوده عبر جبال غريان فآمل أن يصلكم خلال عشرة أيام من رحيله . لقد أهديته بعض الهدايا وأعطيته عشرين دولاراً لتغطية مصاريفه الحالية . وقد اشتريت بعض الهدايا المتنوعة من باباني ، فهمت أنها ستكون ذات نفع كبير في طريق سفرنا ، وأرى ان من الضروري إكرام باباني نفسه وشراء بعض ما يحمل . فعنده الكثير من البرنسات والقفاطين والقمصان والعمائم الخ — .. وقد اشتريت منه برنسات جيدة بثماني دولارات ، وملابس أفضل من تلك التي زودني بها انجيلو ، وقد أيقنت من معرفتي المحدودة التي اكتسبتها بتجارة هذا البلد وسعر البضائع ان اليهودي يأخذ لنفسه نسبة مئوية مما أشتريه كما كان يفعل معك ولا شك . تركت رسالتي المعنونة الى اللورد باثورست مفتوحة كي تقرأها إذا أردت ، وأرجو أن تغلقها قبل إرساله من طرابلس ، وأن تغلق أيضاً « ملاحظات حول النيجر » ، وان تبعث لي برأيك في ذلك في رسالتك القادمة . وما دمنا نتحدث حول الرسائل

فأرجو أن تعيد « سللة » الى غدامس حال وصوله اليكم ، وسأترك في غدامس أحد الطوارق ليلحق بي حاملاً رسائلك .

أغلب الظن أنك تعجب لسكوتي حتى الآن عن الحديث عن غدامس، التي كنت أتوقع أن تكون مادة للوصف والحديث على نحو هام . ولكن آمالي قد خابت ، كما خابت في أماكن أخرى كنت أتوقع أن أجد فيها مادة كبيرة للحديث . والواقع انني زرت بلداناً عديدة في السنوات الثلاث السابقة ولم أصادف إلا بلدين تعادلت فيهما الحقيقة مع التوقع ، أو زادت عليه ، وهما مالطة وسيراليون ، الأول لمكانته الفنية ، والثاني لجماله الطبيعي .

أما غدامس فهي تحتجب خلف أشجار النخيل التي تحيط بها وتقدم لأهلها الجانب الرئيسي من طعامهم . وتحتل المدينة وبساتين النخيل مساحة يبلغ طولها نحواً من أربعة أميال ، أما ما وراء ذلك فهو أرض قاحلة ، ولا يبدو أي نبات خارج منطقة المدينة . وقد بنيت المدينة في مكانها الحالي لكثرة المياه العذبة فيها ، والتي تسير في قنوات عديدة لري التربة المتعطشة اليها . وتتكون من الطين والرمل . ويحيط بالمدينة جدران طينية لا يزيد علوها في بعض الأماكن عن خمسة أو ستة أقدام ، ويوجد بها من حين لآخر بعض الأبراج الصغيرة المربعة ذات فتحات لاستخدام البنادق في القتال ، ولكنها مجرد وسائل تمويه للدفاع عن المدينة . وتوجد على بعد نحو مائة قامة الى الغرب من المدينة بقايا سبعة أبنية حل بها الخراب والدمار والتشويه الى درجة لا يمكن معها التأكد من أصلها[1] . والملاحظ ان الفن المعماري الذي يميزها سيء للغاية ، وحجارتها موضوعة فوق بعضها بطريقة تدل على عدم العناية أثناء بنائها، ولذا لا أعتقد أنها أبنية رومانية ، لو لم أكتشف قربها توابيت حجرية عديدة محطمة وفيها

---

[1] يطلق عليها « الأصنام » ، وهي تبدو اليوم كما كانت أيام ليينج ، ويقال بأنها مقابر رومانية .

بقايا أموات . وقد فشلت في البحث عن أي نقود أو مناضد محفورة ؛ وكذلك لم أستطع اكتشاف أي حجر منقوش بين الآثار ، ولكنني علمت انه كان يوجد في السابق حجر منقوش من المرمر عليه رسوم رومانية ، نقله ابن الباشا الى طرابلس عندما غزا سكان هذا البلد المسالم[1] ، وأرى أن تتحرى الأمر وتحاول رؤية الحجر .

والواضح ان هذه الآثار ذات نفع كبير لسكان غدامس ، فقد تزودوا بالمواد اللازمة لبناء بيوتهم ، ولولاها لكانت هذه البيوت مبنية من الطين فقط . والواقع ان خمسة أسداس البيوت مبنية من الطين فعلاً لأن الحجارة الموجودة في هذا المكان مكسرة لا تصلح لأغراض البناء ، وهذا ناشىء جزئياً عن بناء الآثار بطريقة سيئة . ولا شك ان الحجارة كانت أصلاً قد جمعت بمشقة وأُحضرت من مناطق بعيدة .

من هذه المساحة الصغيرة التي تحتلها المدينة ، والأراضي الزراعية ذات المحيط البالغ أربعة أميال ، يفترض الانسان ان المدينة لا تتسع للكثير من السكان ، ولكن سكانها كثيرون جداً . فالمنازل تحتشد وتتراكم قرب بعضها البعض ، لا يفصلها إلا شوارع ضيقة غاية الضيق . وللمنازل فتحات صغيرة وقليلة لدخول الهواء والضوء ، ولكنها في أجزاء منها شديدة الظلام ، كسراديب مالطة . لقد قلّ ورقي وطالت رسالتي ، وأظنك الآن مسروراً لانتهاء رسالتي ، التي اختصرها بتحياتي للجميع .

المخلص لكم دوماً

أ. جوردون لينج

---

١ كان يوسف قد أرسل ولده علي لإخماد ثورة هناك .

من الرائد أ. جوردون لينج الى جيمز باندينال :

غدامس في ٧ اكتوبر ١٨٢٥

عزيزي باندينال :

غداً سأبعث برسول (الى طرابلس) بعد إنهاء ملاحظاتي وإكمال جميع مراسلاتي الرسمية ، وسأعتلي في اليوم الثالث عشر ، إن شاء الله ، راحلتي متجهاً الى توات ، حيث أصلها في الغالب في أول نوفمبر . لقد اضطررت ، كي أصل هذا المكان ، الى القيام برحلة تدور مسافة ألف ميل ، لأن الطريق المباشر اليه يقع تحت سيطرة القبائل التي تسلب القوافل . التقيت هنا مع عدد من الطوارق ، منهم حطيطة ، ممن سيرافقونني الى توات ، ولكن يبدو ان نفوذه ليس شديداً مثلما قيل لي ، ويبدو ان الطوارق ليسوا شعباً عديم الخطر ، فهم يبتزون رسوماً ثقيلة من تجار غدامس ، بل وأحياناً ينهبونهم تماماً ؛ والواقع انني أسمع أخباراً تجعلني أهتم بأموري في المستقبل — لقد رسمت خريطة لطريق رحلتي حتى التاسع من أغسطس ، مع بعض الملاحظات حول النيجر ، أعددتها لوزارة المستعمرات ، آمل أن تنال إعجابهم . لن أتحدث شيئاً عن ترقيتي حتى أصل توات ، ومنها أتقدم مطالباً بها وسأنالها بالتأكيد . علمت ان النقيب كلابرتون توجه الى خليج بنين ليقوم بالاكتشاف المنشود منذ زمن بعيد ، ولكن كان عليه أن يوفر المشقة على نفسه لأن اكتشاف السر الدفين متروك لي منذ زمن بعيد ، وآمل أن أحققه في شهر مارس أو ابريل القادمين . إن صحتي والحمد لله في تحسن مستمر وأشعر بالثقة في استمرار التزامي بالبعثة . لقد وُضعت في رحلتي الى هذا المكان موضع الاختبار لأن درجة الحرارة تصل الى ٦٢ فهرنهايت عند الصباح و ١٢٠ عند الظهر . ولكنني لم أتأثر بذلك ، لذا أصبحت الآن أكثر ثقة بنفسي .

أرجو أن تغفر لي قصر رسالتي لأن عليَّ أن أقوم بأمور كثيرة تهم البعثة ، وأرغب في كتابة سطور قليلة لصديقي سابين .

المخلص لك

أ. جوردون لينج

ضع لغدامس على خريطتك خط عرض ٢٠ً ٧َ ٣٠° شمالاً ، وخط طول ١٥ً ١٦َ ٩° شرقاً.

لقد أخطأ ليون في تحديد مكان بلدة « شرقي » في وادي الشاطىء ، فقد درت حولها ووجدت ان خط عرضها هو ٤٢ً ٢٥َ ٢٧° شمالاً ، وان خط طولها ٠٠ً ٠٠َ ١٣° شرقاً .

من الرائد أ. جوردون لينج الى النقيب سابين :

غدامس في ٨ اكتوبر ١٨٢٥

عزيزي سابين ،

وصلت هذا المكان، بعد رحلة طويلة وشاقة عن طريق فزان والشاطىء، في الثالث عشر من الشهر الماضي في صحة جيدة . ولما كنت سأرحل عنها بعد خمسة أيام متوجهاً الى توات فأعتقد انني سأصل تمبكتو في الثاني عشر من ديسمبر ، أي قبل أن تصلك هذه الرسالة . تعتبر هذه المدينة ، غدامس ، منعزلة تماماً وسط الصحراء السوداء ، ولا يبدو للزراعة أي أثر خارج محيط جدرانها الطينية . يبلغ طول المنطقة الواقعة داخل السور حوالي ميلين ونصف وعرضها حوالي ميل ونصف ، وهي تختبىء تماماً داخل أشجار النخيل التي تقدم للسكان الغذاء الوافر ، ولكن يوجد عليها الكثير من الذباب أيضاً . ويلاحظ ان الجزء الأكبر من المنازل مبني من الطين (الحجارة الموجودة قرب المدينة من مادة قابلة للكسر غير متينة في

البناء) . والمنازل مربعة تمتد في صفوف مستقيمة ، ذات أزقة ضيقة مظلمة ، كسراديب مصر ، بحيث يصعب اجتيازها[1] . أما السكان فهم من نوعية راقية ، لهم عادات مقبولة تماماً ، ويمتازون بالدماثة ولطف الحديث ، ولا تبدو عليهم الغطرسة التي تظهر عند الأتراك والمغاربة . وربما كانت صفات سكان غدامس السابقة نابعة من وضعهم الخاص ؛ فهم يعيشون وسط الصحراء ويمكن أن يعانوا الحرمان فيها اذا هم لم يتجولوا متاجرين في البلدان الأخرى ، الأمر الذي جعلهم يعتادون حسن المعاملة ولطف المعاشرة . انهم شعب تجاري بمعنى الكلمة ، بارعون في استخدام الحوالات والكمبيالات ، ويتحملون الربح والخسارة . وتمتد تجارتهم الى مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصراته في الشمال ، وإلى السودان وتمبكتو وجني ومالي في الجنوب . وقد شهدت خلال اقامتي هنا مقدم ثلاثة قوافل من فزان ، وقافلتين من غات ، وقافلتين من بورنو ، أي سبعة قوافل خلال ثلاثة أسابيع — ولكن ليس عندي متسع من الوقت يسمح بالدخول في التفاصيل حول هذا الموضوع .

انني لم أهمل ملاحظاتي هنا ، وقد حددت خط طول هذا المكان بطريقة تلقائية من أحد عشر بعداً قمرياً . فخط الطول هو ١٥″ ١٠′ ٩° شرقاً ، والعرض ٢٠″ ٧′. ٣٠° شمالاً . والواقع ان الكرونومتر الخاص بي قد تعطل — انني متأكد ان حسابات ليون الخاصة بمرزق بعيدة عن الواقع ، وأميل للاعتقاد بأن بعدها يزيد نحو الشرق ١٥ درجة أخرى . لقد أرسلت الى وزارة المستعمرات بعض الملاحظات حول مجرى النيجر ومصبه ، أرجو الاطلاع عليها وإرسال رأيك حول ذلك ،

---

١ يبدو ان مدينة غدامس ، التي لم تتغير كثيراً منذ عهد لينج ، مكونة من منازل مكومة فوق بعضها البعض ، ويتم الدخول اليها عبر الأنفاق الأرضية . وهذا الطراز من المدن الذي لا يقتصر على غدامس ، كان الطراز الذي يتبناه الناس في الصحراء ، حماية لهم من مغيري الصحراء الذين كانوا يجدون صعوبة في مباغتة مثل هذه المدينة .

ولكنني قبل تلقي ردك ، سأكون قد أثبتّ صحة ذلك أو خطأه، وأعتقد ان النقيب كلابرتون لن يجني من رحلته شيئاً .

وداعاً ، وبارك الله فيك . أرجو أن أراك قريباً بعد تحقيق الهدف الذي أتمناه منذ زمن طويل ، وآمل أن أجد أحد العسكريين في خليج بنين لأنني لا أرغب البقاء هناك شهوراً عديدة لا أستطيع الاتصال فيها .

المخلص لكم

أ. جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

غدامس في ١٧ اكتوبر ١٨٢٥

عزيزي القنصل ،

وأخيراً أخبرك ، والسعادة تغمرني ، برحيل البعثة في ساعات مبكرة من صباح غد ، فأرجو ان تخبر اللورد باثورست بذلك — سأصل توات (بإذن الله) في السابع أو الثامن من الشهر القادم ، وحينها تصلك رسائلي مع عودة حطيطة قرب نهاية شهر نوفمبر .

تسلمت رسالتك المؤرخة في الثاني عشر من الشهر الماضي ، إذ وصل رسولكم بعد خمسة عشر يوماً من السفر ، وقد أسفت كثيراً لعدم رضى اللورد عن الترتيبات التي اتخذناها في طرابلس لمصلحة البعثة في وقت مبكر . لقد افترضنا ان من حقنا القيام بذلك فنجاح البعثة أمر هام بالنسبة للحكومة ، وخاصة في تلك الظروف التي شعرنا فيها بمحاولات عملاء أمة منافسة لمنعنا من بلوغ الهدف العظيم في استكشاف افريقيا ، ونزع الشرف الذي نلناه من قبل بما بذلناه من مواظبة كبرى ، وما ضحينا به من نقود وأرواح كثيرة . انني آسف أشد الأسف لأن ترتيباتنا

لم تنل الرضى ، وقد كان من الأنسب لي شخصياً الانتظار في طرابلس حتى وصول نتيجة المراسلات مع اللورد ، خاصة وان صحتي حينها كانت في حالة حرجة، ولكن مشاعري كانت تحبذ الرحيل المباشر كفرصة وحيدة لتأمين شرف الاكتشاف لبلدي .

لقد واجهت أنا نفسي الوضع الذي واجهته أنت من قبل عندما كنتَ في ظرف حتم عليك تقديم هدايا للباشا وغيره ، وسأشرح لك الأسباب التي دفعتني (لاتخاذ الترتيبات) .

وأول هذه الأسباب ما رأيته من سلوك الباشا وفتوره ، فبدون دفع تعويض أو أعطية من نوع ما ، لن يسمح للبعثة بمغادرة طرابلس . ولو ان البعثة ، ثانياً ، تعرضت للحجز أو التأخير نتيجة رفض رغبات الباشا لكان من الممكن أن يسمح للرحالة الفرنسيين بالتقدم من برقة قبلي ، وبذلك لا تبقى لأي محاولات تالية أي قيمة .

ثالثاً ، عندما تأملت المبالغ الضخمة التي أُنفقت من قبل في محاولات الوصول الى تمبكتو ومصب النيجر ، رأيت ان من حقي النظر الى نجاح البعثة كأمر بالغ الأهمية لحكومتي .

رابعاً ، ما رأيته من نقود وافرة قُدمت قبل ذلك وانفقت على حساب البعثة الحالية ، وكانت المصاريف ستزداد خلال مدة انتظاري لمزيد من التعليمات من إنجلترا : انني لم أتصور في وقت ما إمكان استدعاء البعثة ، وعندما اقتنعت ان لا مفر من استدعائها اذا سبقنا الرحالة الفرنسيون ، او اذا انتظرتُ وأنفقت النقود التي خولت لي ، قررت التصرف . انني مقتنع تماماً ، لو أحيط اللورد علماً بكافة الملابسات والظروف ، بأن التأنيب لن يكون له مجال وان الموافقة على اجراءاتنا ستتم حتماً .

ان السفر الى تمبكتو يختلف تمام الاختلاف عن السفر الى بورنو ،

فالطريق الى بورنو يقع بكامله تحت سلطة الباشا وإشرافه، ويستطيع الباشا في أي وقت إرسال طفل يسير عليه بأمان وسلامة دون أن يخشى إضاعة قرش واحد. ولكن سموه لا يحظى بالنفوذ أو السلطة على الطريق الى تمبكتو، ولا بد للمسافر عليها أن يشتري سلامته بما يقدمه من هدايا كثيرة لقبائل الطوارق. فأنا أعرف جيداً ان سموه دفع لمرابط سرخات مائة وخمسين دولاراً، وأعطاه حصاناً وبرنساً لحمايتي حتى أصل «البحير المالح». وأعرف كذلك انه دفع للشيخ باباني مبلغ ألف وثمانمئة دولار وأعطاه برنساً فاخراً والعديد من البنادق والمسدسات المفضضة، بالإضافة الى حصان، كي يوصلنا الى تمبكتو سالمين. لقد سمع الطوارق عن الكثير من كرم البعثات السابقة، لذا فإنهم يتوقعون، بل ويطلبون من عميل انجليزي أكثر مما يتوقعونه ويطلبونه من تاجر من أهل البلاد؛ ولما كان باباني يدرك هذا الأمر جيداً فقد زود نفسه بهدايا بلغت قيمتها ثلاثة آلاف دولار ليوزعها على طول الطريق. ان الطوارق شعب غريب يعيش على العوائد التي يفرضها على المسافرين أو على السلب. ولا بد للمرء أن يدفع لهم كل ما يطلبون، أما الرفض فهو يعني السلب أو القتل، وإذا رضوا عنك اعتنوا بك عناية كبرى وأخلصوا لك كما يخلص العبد لسيده، وأرشدوك وحموك في الصحراء المضنية. ولا زلت أتذكر قول الباشا لي: «إذا أردت أن تسلك ذلك الطريق فعليك أن تفتح بابه بمفتاح من الفضة». وقد وجدت ذلك صحيحاً تمام الصحة — ان مصاريف الرحلة لن تتجاوز التقدير الذي وضعته في لندن، هذا فيما يخصني ويخص جماعتي، أما الهدايا الى الباشا وباباني ومختلف الزعماء على الطريق فهو أمر يخص الحكومات، وهو لا يخصني بالطبع.

أعتبر هذه الرسالة تجمع بين الصفة الرسمية والصفة الشخصية، فانظر ما يمكن أن تنتفع به منها — لقد أكملت مذكراتي حتى هذا التاريخ، ولكن الوقت لم يسمح لي بعد بنسخها، وعندي الكثير مما أقوله عن

غدامس ، وهو مثير وهام في نفس الوقت ـ أرجو العناية بإمّة، وأرجو ألا تسمح لها في ظل أي ظروف أن تجزع أو أن تكتئب ، فأنا معافى سليم ، وسأبقى كذلك ، وسأرجع بإذن الله في وقت قريب . مع أجمل تحياتي للسيدة وارنجتون وجين ولويسا وهربرت وأوزي .

أرجو الله أن يباركك وأن يمتعك بالعافية أنت والأسرة

المخلص لكم

أ . جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

غدامس في ٢٦ اكتوبر ١٨٢٥

عزيزي القنصل ،

فوجئت بعودة رسولكم المرافق للقافلة القادمة عن طريق فزان، والذي سلمني إشعاراً صغيراً . انني أعتذر عن عدم الكتابة اليكم مطولاً ، خاصة وقد كتبت لكم رسالة طويلة في الثامن عشر ، أرسلتها عن طريق الشيخ حبيب[1] .

لما كان عرب الصحراء قد أغلقوا الطريق المؤدي الى توات ، فإننا سنتجنبها سالكين طريقاً أقصر تؤدي الى تمبكتو ، وأتوقع الوصول اليها في العاشر من ديسمبر . . . . . .

أرسلت بعض الملاحظات الى وزارة المستعمرات ، تركتها مفتوحة

---

١ هذه الرسالة ربما هي الرسالة المؤرخة في ١٧ اكتوبر والمرسلة في الثامن عشر منه . حبيب هو شيخ غدامس .

لاطلاعك ــ لذا لا ترسل شيئــاً منها ــ ومن بين المسافرين معنا زوجة باباني التي أتحدث عنها مطولاً كما سترى .

سأكتب لك عن طريق حطيطـة ، فهو سيرافقني مسيرة عشرين يوماً بعد خروجنا من غدامس ، وعندما تتسلم رسائلي منه أكون قد بلغت تلك العاصمـة (تمبكتو) ، وربما أصل في فبراير الجانب الآخر من القارة . لا بد انك تلاحظ شدة سرعتي ، وآمـل أن تغفر لي ذلك ــ مع أطيب التحيات للسيدة وارنجتون وجين ولويسا وهربرت وأوزي

المخلص دوماً لك

أ. جوردون لينج

أصبح لينج منذ أول وصوله الى غدامس يشعر بالصعاب التي يتوقـع مصادفتها على الطريق الى تمبكتو . وقد كتب في الثالث عشر من سبتمبر قائلاً : « يخبرني كل شخص ان هذا الطريق أشد صعوبـة من الطريق الى بورنو ــ يعتبر الطريق الثاني طريقاً تجارياً منتظماً خاضعاً لنفوذ الباشا، ويمكن للطفل أن يسافر عليه ، ولكن هذا الطريق يتميز بالمصالح المتنافسة على طوله ، وتنتهي مصالح الباشا عند غدامس » .

ولكن ما يشغل نفسه من مخاطر الطريق ، كان يقـل عما يشغلها من مشكلة نهاية رحلته ، والوصول الى مصب النيجر . وفي غدامس ، حيث يقل التجار المطلعون على أحوال السودان، قادته تحرياته الى ضرورة مراجعة أفكاره حول حل المشكلة التي جاء من أجلها . وكتب في الرابع والعشرين من سبتمبر الى وليام هورتون يقول :

« تقودني المعلومات التي وصلت اليها هنا عند الكثير من الناس ذوي الاطلاع الجيد ، بالاضافة الى المعلومات التي جمعتها في فترات سابقة ، الى الافتراض بأنني سأصل الى ساحــل غينيا اذا تتبعت مجرى النيجر ؛

لذا أجدني مضطراً للاقتراح بأن يتفضل اللورد للبحريـة ، إن أمكن ، كي تصدر أوامرها الى أحد رجال الحربية في سيراليون للقيام من آن لآخر بزيارة مصبات الأنهار في بنين وفولتا ، قرب أشهر أبريل ومايو ويونيو القادمة » .

واذا كان ويلموت هورتون قد دهش عندما سمع عن اتجاه لينـج الى الرأي القائل بأن « الفولتا » يمكن أن يكون هو النيجـــر ، فإن انتظاره لتفسير من لينـج لم يطل ، فسرعان ما أردف لينج رسالته السابقة برسالة أخرى مؤرخة في ٢٨ سبتمبر ، جاء فيها :

« بالاشارة الى رسالتي المؤرخة في ١٤ سبتمبر ١٩٢٥ والتي ذكـــرت فيها عن وجود أسباب لدي تجعلني أفترض احتمال وصولي الى ساحل غينيا عن طريق النيجر ، أتشرف الآن بإرفاق بعض الملاحظات التي دونتها لعلم اللورد باثورست ، وفيها تفسير لطلبي بإرسال عسكري يوضع تحت تصرفي في الساحل في مطلع السنة القادمة » .

وفي العشرين من اكتوبر ، قبيل مغادرة لينج لغدامس في طريقه الى توات، استطاع أن يروي لصديقه باندينال الملاحظة التالية ، تيمناً وبشرى:

« لاحظت منذ أسابيع خلت ، مذنّبـــاً كبيراً في السماء ، يسير نحو الجنوب بسرعة هائلة . انني أعتبر ذلك من حسن طالعي ، وكأنه يومىء لي باتجاه مصب النيجر ، ويوجهني نحوه » (!!) .

الفَصْلُ السَّابع

عين صالح

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

في ٣ نوفمبر ١٨٢٥

وأخيراً عزيزي القنصل أستطيع التصريح بأنني في الطريق الى تمبكتو — الجمال كلها محملة ، وفي انتظاري ريثما أدون لك ملاحظة حول هذا الحدث الجديد . وأخيراً خرجت ، وسأنام بعد أربعين يوماً ان شاء الله في البلدة التي طال البحث عنها . ان الجو بارد للغاية ويهدد بالمطر ، وقد تدنت درجة الحرارة الى ٤٣° فهرنهايت ، وأظن ان البرد في الصحراء يصل الى درجة التجمد . استأجرت بالإضافة الى جمالي الستة أربعة مهاري ، كل واحد بعشرة دولارات ، استأجرتها من المرابط الذي يزودنا أيضاً بالحراسة لنتمكن من السير مسرعين ، وقد وجدت لديه فعلاً ميلاً شديداً لمساعدتنا . أرسلت اليك منذ مدة رسالة مع الشيخ حبيب ، وأرجو عندما يصل طرابلس أن تعامله باهتمام ولطف لهدف سياسي محض . لقد تلقيت منه ترحيباً بالغاً واهتماماً خلال اقامتي في غدامس ، ويقال بأن

لا مانع عنده من مساعدتي بهدوء للوصول الى الجانب الآخر (من القارة) إذا استطاع ذلك ، ظاناً ان هذا التصرف يشوه سمعة باباني عند الباشا ، الأمر الذي يساعده كي يصبح شيخاً لغدامس . ولكنني لن أصغي لذلك ، فقد سمعت الكثير مما أرابني . والآن عزيزي القنصل أود أن أعبر عن أسفي لطول انقطاع أخبار طرابلس البعيدة منذ وصولي الى غدامس . آمل أن تكون إمَّة بخير وعافية ، غير انه من المؤلم تماماً ان أظل بعيداً هذه المدة الطويلة – أرجو لكم العافية مع أطيب تحياتي ...

المخلص لكم دوماً

أ. جوردون لينج

هانمر وارنجتون المحترم :

لقد حاولت إصلاح قلمي .

سأكتب إليك في مدى عشرين يوماً ، عن طريق حطيطة ، رسالة سريعة لأننا نسرع المسير ، ولكنها تكفي لاطلاعكم على سير الأمور .

(وجدت على المظروف الملاحظة التالية بخط لينج :

« أرفق لكم رسالتين من الشيخ – ٣ نوفمبر . أرجو محاولة الكتابة لي حالاً الى سيراليون ، عن طريق انجلترا .

حال تغليفي لهذه الرسالة أكون قد شرعت في السفر . أرى أن تبيع البغل والحصان لصالح البعثة » .

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

وادي تكوست في ١٣ نوفمبر ١٨٢٥
خط عرض ٤٠" ٢٥' ٢٥° شمالاً
خط طول ٤٥" ٠٧' ٨° شرقاً

عزيزي القنصل

لما كنت قد عزمت على عودة حطيطة اليكم عندما نصل أول بئر للماء، ولما كان عندي متسع من الوقت ، ساعة أوفرها قبل حلول الظلام ، أسرعت الى قلمي لأطمئنك على صحتي . اننا نسير بسرعة تتراوح بين تسع ساعات وعشر ساعات في اليوم كي تكمل جمالنا الرحلة الطويلة الشاقة. أظن انني أخبرتك في رسالة سابقة اننا عدلنا عن طريق توات لوصول أخبار عن خطورتها ، ولكنني وجدت هذه الأخبار غير صحيحة ، بل مجرد خدعة من الشيخ لنتجنب طريقنا الحالي ، وبذا يوفر المصاريف التي يتكبدها بالمرور عليها ، أما الهدايا التي أطلعني عليها من قبل فهي مجرد سلع يريد عرضها للبيع في تمبكتو ، وسأكتب المزيد حول هذا الموضوع عندما تتبين لي المزيد من الشواهد . لذا لن أتسرع في الحكم عليه ، ولكنني مضطر الى أن أوصي بألا يتسلم الشيخ أكثر من ألفي دولار نظير خدمته ، خاصة وانني أعرف انه لم ينفق أكثر من مائة دولار حتى الآن، وليست نقداً بل على شكل هدايا أخذها من الباشا . كنت في السابق أظن اننا عندما نمنحه أربعة آلاف دولار نعرضه لكثير من المصاريف ، وظلت تلك الفكرة تخايلني حتى عهد قريب . ولكن لدي الآن أسباباً كثيرة تجعلني أفكر عكس ذلك . وعندما أتأكد من ذلك أنقض الاتفاق الذي عُقد معه . وأرى أن تحذّر جرفانللي (Gervanelli) لظني بأن الشيخ لم يحضر له شيئاً الى غدامس ، وان معظم ما كان يحمله من بضائع انما

كانت على أساس العمولة لرجل في غدامس يسمى « حاجي هاند » (؟) وبهذه المناسبة ، اذا ذهب هذا الرجـل الى طرابلس فـآمل أن تتلطف بالاهتمام به ، فقد كان أكثر من مجامل لي في غدامس ، وعرض عليّ أي قرض أحتاجه من النقود ، ولكنني رددت طلبـه ، وان كنت الآن نادماً على ذلك .. لأن نقودي تكاد تنتهي ، فالشيخ قد اقترض مني قدراً كبيراً منها ، وليس بمقدوره سدادها الآن . لذا أخذت منه بعض البضائع كسداد لبعض الدين ، ولكـن هذه البضائـع لا تطعم خدمي وجبة في غدامس . لقد أظلم الوقت ، وعليّ إغـلاق حقيبتي ، فليس عندي شمع في الصحراء ، ولو وجدت متسعاً من الوقت لكتبت لك مجلداً ، ولكن عليّ تأجيل معظم الأخبار حتى نلتقي . ان معظم وقتي ينقضي برفقـة الشيخ الذي أتمنى لو تحدثت الكثير عن مزاياه ، فهو رجل شديد البراءة ، لا يسبب الأذى ، رغم فقره وحبه لاكتناز المال .

الثامن عشر من نوفمبر : توقفنا اليوم عند نبع من الماء العذب وبستان فيه نحو من اثنتي عشرة نخلة ، يبرز لونها الأخضر من بين التلال الرملية المحيطة بها ، شأنها شأن نبات أخضر بين ثلوج ديسمبر . ويخص هـذا البستان مرابط قبيلة الحوكار الطوارقية ، وهذا المرابط هو دليلنا ، وآمل في المستقبل القريب أن أرسل اليكم والى اللورد باثورست حـول شخصيته الودودة ، وحول سلوك هذا الرجل الفاضل . منذ يومين هاجمت جماعة من طوارق هجار قافلة من ثلاثين جملاً وأسرتها . وكانت القافلة قـد غادرت غدامس في نفس اليوم الذي غادرنا فيه هذه المدينة . ولقد روعت هذه الحادثة الشيخ باباني فغيّر رأيه وانحرف قليلاً عن الطريق ، وهـو يعزم الآن على التوجه الى توات عن طريق قلّ من يطرقه من المسافرين — ليس هذا الطريق هو الذي ينبغي أن نسلكه مقابل دفع الأربعة آلاف دولار ، بل كان ينبغي أن يسلك بنا طريقاً بعيداً عن المخاطر ، وكان يمكن للشيخ أن يستأجر عشرين رجلاً لحمايتنا وحراستنا طيلة الطريق مقابل

مبلغ أربعمائة دولار فقط، ولكنه لم يصطحب معه إلا عبدين للعناية بالجمال، وإذا هاجمنا أحد فليس معي إلا جماعتي أعتمد عليهم — انني أصطحب حطيطة معي حتى توات كي أرسل معه آخر أخباري ، وآمل أن تكون أخباراً مرضية . أخشى ألا أسمع شيئاً من طرابلس ، وذلك محزن حقاً ، ولكنني أعرف انك بذلت جهدك لإرسال من يحمل الرسائل إلي .

اليوم : الثالث عشر من ديسمبر، والمكان هو عين صالح في (منطقة) توات — ٣٠ً ١١َ ٢٥° شمالاً ، ١٥ً ٥١َ ١١° شرقاً . يسرني كثيراً، عزيزي القنصل ، أن أكتب إليك بضعة أسطر من هذا البلد الذي بلغته حوالي الرابعة والنصف من بعد ظهر أمس . أنا الآن أقرب الى مراكش مني الى طرابلس ، في نقطة تعتبر شمالي تمبكتو تماماً ، وعلى بعد نحو من ثلاثين يوماً منها ، ولكن أخشى ألا نتمكن من الوصول اليها في أقل من أربعين يوماً — لقد بدأت الآن رحلتي المثيرة ، وما أكثر سروري عندما أنظر الى التقدم الكبير الذي أحرزته ، وعندما أتأمل ما سأحققه لخريطة أفريقيا . عليك أن تحافظ على معنويات « إمّة » ، وألا تدع أمراً يسبب لها أدنى قلق ، حتى لو مضت ستة أشهر على تلقي هذه الرسالة دون أن تسمع شيئاً مني ، فالرسول الذي سأبعثه بطيء السير . ولذا ينبغي دوماً أن تطمئنوا على سلامتي ، لأن هذا هو قدري ، وربما أصلكم قبل أن يطل الرسول عليكم .

لقد عشت أمس يوماً لم أشاهد مثله في رحلتي هذه . فقد جاء لمقابلتي أكثر من ألف شخص من كلا الجنسين ، وأحاطوا بجمالي بحيث لم أستطع السير . اعتدت مؤخراً تغطية وجهي كما يفعل الطوارق ، وذلك لحمايته من الشمس ، لذا كان فضول القوم شديداً لرؤية وجهي ، وانهارت الأسئلة على المرافقين لي : أهو أبيض ؟ وهل شعره كشعر الأتراك ؟ أله لحية ؟ أيستطيع إطلاق النار من بندقيته دون استخدام الزند المصوّن ؟ — يشيرون بذلك الى بندقيتي الذائعة الشهرة . وكثرت الأسئلة حول أشياء

كثيرة كانت تشاهد معي في غدامس . وما أن بلغت مكان اقامتي مسروراً، لأنال قسطاً من الراحة حتى وجدت الناس وقد قادهم حب الاستطلاع الى هذا المكان ، فأخرجوني من حجرتي المظلمة الى الفضاء الخارجي كي يتمكنوا من رؤيتي جيداً ، ولكن ذلك لم يكفهم ، فطلبوا مني اعتلاء مصطبة فأذعنت متردداً . ووجدت لدهشتي على مصطبة مجاورة نحواً من مائة امرأة ينتظرن رؤيتي بشغف ، ويحملقن بأعناق مشدودة الى أعلى ، وصحن كأنما لفت أنظارهن أمر غريب – ورغبن في الاقتراب مني ، لكن الشيخ رفض ذلك ، مما أغضبهن وهددن بعدم الحضور مرة أخرى لرؤيتي . واشتد النقاش فاغتنمت تلك الفرصة واختفيت عن الأنظار . ما أتعس أن يكون المرء انجليزياً – يبدو ان الناس هنا من نوعية جيدة ، وان الشيخ ذو قيمة عالية ، فقد قابلني قائلاً : انني أنتظرك منذ وقت طويل ، ويسرني وصولك ، هذا بيتي لك على الرحب والسعة ، وهذا ولدي يرافقك أنى رغبت ، وأرجو أن تعتبر البلد بلدك ، وأن تسأل ما طاب لك . أما اذا أزعجك أحد من أهل بلدي فاقتله حالاً فأنا حاميك والمسئول عن ذلك. سأبقى هنا خمسة أيام أو ستة كي أريح الجمال، ثم أرحل في اليوم العاشر إن شاء الله. وسيرافقنا الكثير من الناس،إذ توجد قافلة كبيرة في انتظارنا هنا ، تحمل أحسن التقارير عن الحالة على الطريق. ويبدو ان كل شيء يبعث على السرور ويبشر بنهاية ناجحة لي . والواقع ان السفر في هذا الجانب (من القارة) انما هو مجرد رحلة ممتعة ، اذا ما قورن بالسفر المهلك في الجانب الآخر من بلاد سوليمة – سأرسل لك حطيطة غداً ، والواقع انني أحبه أيما حب ، فهو أفضل من التقيت معه في هذا البلد ، وأنزه من رأيت ، فاستفد منه عزيزي القنصل قدر استطاعتك .

الرابع من ديسمبر : اليوم هو الأحد ، وقد طلبت من شيخ المدينة أن يتركه لي كي أستريح فيه ، ولكن دون جدوى . فالناس قادمون

لرؤيتي ، وعليّ أن أتحمل ذلك بالطبع . غداً نجهز متاعنا ثم نرحل في اليوم العاشر ، ولن أصل تمبكتو قبل منتصف يناير ، وعندما أبلغ تلك العاصمة النائية سأعتبر نفسي وكأنني قد وصلت طرابلس. ولا بد من الصبر على طول الطريق ، فروما لم تبنَ في يوم واحد ، وكذا الصحراء لا يمكن عبورها في يوم .. انني شديد الحماس ، ولكنني أحياناً أنظر الى النهر نظرة ليس فيها ود ، وذلك عندما أشعر انه السبب في افتراقي عن «إمة» ، ولكنني أحياناً أخرى أباركه كثيراً عندما أرى انه لولا النيجر لما اكتحلت عيناي بمرأى أعز مخلوق لدي وأغلى شيء في الحياة — مع أطيب تحياتي للسيدة وارنجتون و ... الخ .

المخلص لكم

أ. جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج الى ر. ويلموت هورتون :

عين صالح في ٤ ديسمبر ١٨٢٥

سيدي ،

كم يسرني أن أبعث اليكم بهذه الرسالة من عين صالح ، أقرب مدينة الى الشرق من توات ، حيث وصلتها سالماً وفي صحة جيدة في ساعة متأخرة من بعد ظهر أمس ، واستقبلني الناس فيها استقبالاً ودياً ، كان يمكن في ظروف أخرى أن يعتبر مزعجاً وغير ملائم . فقد استقبلني على بعد ميل من المدينة نحو من ألف شخص من كلا الجنسين ، ومن مختلف الأعمار ، ابتداءً من المرابط الطاعن في السن ، الى الطفل الذي ما زال في حضن أمه . وقد بلغ حب الاستطلاع ، لغرابة وصول مثلي الى هذا المكان ، حداً أصبحت فيه مطوقاً من الكبار والصغار ، الكل راغب في

إلقاء نظرة عليَّ من قرب ، بحيث كان يصعب على راحلتي أن تنقل خطاها بين الجمهور . وقد دخلت مدينة عين صالح ألبس الحلة التي اعتدت لبسها مؤخراً في الصحراء ، وقد تغطى جسمي بالحلة العسكرية[1]، وتغطى رأسي ووجهي على عادة الطوارق وقاءً من برد الليل وأشعة الشمس ، وحجاباً يحميني من حب الاستطلاع . وما ان كدت أستقر في الغرفة المظلمة المعدة لي حتى اندفع من الخارج جمع مسرع ، وكان عليَّ أن أخرج الى الفضاء كي يراني الزائرون ، وعندها تلقيت مائة تحية من مائة لسان ، وألقى مائة آخرون مائة سؤال ، حاولت عبثاً الاجابة عليها — أين البندقية التي تطلق رصاصها بدون الزند المصوّن ؟ سأل أحدهم مشيراً الى بندقيتي التي امتدت شهرتها طولاً وعرضاً ، وسبقتني الى عين صالح — أين النار التي تشعلها في الماء ؟ وأين النار التي تطلقها في السماء ؟ أرني ساعتك ... وهكذا يسألون عن كل ما شوهد معي في غدامس .

في هذا الصباح قدم شيخ المدينة لزيارتي ورحب بي قائلاً : « نحن ننتظرك منذ وقت طويل ، وأنا مسرور بوصولك : اعتبر هذا البلد وما فيه وكأنه مِلك لك ، وسيصحبك ولدي إذا رغبت في الخروج ، وإذا رأيت ما ترغب فيه فهو لك ، أما إذا أتعبك أحد من الناس أو أزعجك فاقتله وأنا المسئول عن ذلك .

سنبقى هنا حتى العاشر من هذا الشهر كي نريح جمالنا ونعيد ترتيب حمولتنا ، ولا أتوقع بعد ذلك أن نتأخر على الطريق ، فنحن نرافق قافلة كبيرة تتهيأ منذ زمن للرحيل الى تمبكتو ، وهي الآن في انتظار شيخ غدامس ، إذ تتوقع وصوله قريباً . أعتقد ان وقتاً طويلاً سيمر قبل القدرة على إرسال رسالة ما حول عمليات البعثة ، لتعذر الاتصال بين

---

١ من الواضح انه ترك اللباس التركي الذي كان قد اعتاده ، لا للتخفي وإنما لكي لا يجذب الانتباه اليه .

تمبكتو والشمال ، إذا استثنينا الاتصال عن طريق مراكش ، ولكنني سأبذل جهدي لأبعث للورد إشعاراً سريعاً عند وصولي تلك العاصمة .

لم أتمكن منذ وصولي هنا إلا تسجيل الارتفاع الزوالي للشمس، وثلاثة مشاهد للكرونومتر ،ومن الأول سجلت خط العرض ٢٠″ ١١′ ٢٧° شمالاً ، وخط طول ١٥″ ٥١′ ١° شرقاً — لست متأكداً من اختلال دقة جهازي الكرونومتر منذ مغادرتي لغدامس ؛ لذا لا أعتبر خط الطول السابق أمراً قطعياً ، رغم أسباب كثيرة تحملني على الاعتقاد بصحته .

وأود ان أشير الى ان عين صالح تبعد مسيرة خمسة وعشرين يوماً عن مراكش ، وثلاثين أو خمسة وثلاثين يوماً عن تمبكتو .

أرى الآن من الضروري إحداث تعديلات على قافلتي ، فأشتري جملين آخرين ، وأرسل الحصان والبغل الى طرابلس ليباعا لصالح البعثة، فكلما تقدمت في السير وجدت ان مصاريفي تقل ، وفيما عدا بعض الاضافات المحدودة أعتقد أنني لن أتعدى إلا قليلاً حدود التقدير الذي حددته في لندن حول المصاريف.

أ. جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج الى جيمز باندينال :

عين صالح ، في ٤ ديسمبر ١٨٢٥

عزيزي باندينال ،

لم أصل بعد الى تمبكتو ولكنني قريب منها .

... الآن أصبحت رحلتي مثيرة ، وأشعر بمزيد من الرضى كلما نظرت الى خريطتي والى التغييرات والاضافات التي أحدثها يومياً وسأحدثها على

الجغرافية المجهولة لهذا الجزء من العالم — سأغادر هذا المكان في العاشر أو الثاني عشر (من هذا الشهر) ولن أبلـغ العاصمة العظيمة قبل منتصف يناير أو آخره .

تعتبر عين صالح مكاناً منعزلاً وغريباً في قلب الصحـراء الكبرى ، يكثر فيها البلح من ألذ الأنواع ، وهو يعتبر الجانب الرئيسي من طعام السكان . وتتصل المدينة حتى حدود مراكش بعدد من المدن الصغيرة أو مزارع النخيل ، ولها بمراكش اتصالات دائمة ، وتدفع الضرائب لسلطانها.

ولكل مدينة صغيرة ، كما لغدامس ، شيخ يتمتع بنوع من التمييز الاسمي ، دون أن تكون له سلطة عليا عليها . ولكن الناس من نوعيـة ممتازة ، فهم مهذبون ويميلون للنظام ويتّسمون بالدماثة . وقد علمت انهم يجيدون التجارة ، وينم مظهرهم عن غناهم ، فكل رجـل منهم يلبس الجيد من الملابس — أما النساء فتحب البهرج والزينة والحلي الثمينة ، وقد أنعم الله عليهن بالمباهج الجمة : فالأعين سوداء حادة ، والأسنان بيضاء جميلة ، والبشرة تميل الى السمرة ، والشعر أسود لامـع كشعـر السمور وليس عندي ما أضيفه إلا عن ديانتهم ، فرغم ان الدين هو الاسلام إلا أن قوة الفتش[1] تسيطر عليهم مثلما تسيطر عـلى معظـم البلدان الوثنية ، وسأعود مستقبلاً للحديث حول هذا الموضوع بتوسع .

كتبت الى سميث ورجوت أن يهتم بأمر ترقيتي عندما يعلن عن وصولي الى تمبكتو ، وأرجو أن تتلطف بالاهتمام بذلك شخصياً لما أعرفه من شدة تأثيرك في وزارة الخارجية — وسيكون من المبهج حقاً أن أجد نفسي وقد رقيت عندما أصل الى الجانب الآخر (من القارة) .

المخلص لـكم

أ . جوردون لينـج

---

[1] الفتش هو البد ، وهو ما كانت الشعوب البدائية تعتبر ان له قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته (المعرب) .

من أ. جوردون لينج الى ر. ويلموت هورتون
وكيل وزارة الخارجية

عين صالح في ٦ ديسمبر ١٨٢٥

سيدي ،

.... بالاضافة الى ما ذكرته في رسالتي المؤرخة في ١٨ يوليو من وادي الرمل حول الشيخ باباني الذي أسافر تحت حمايته الى تمبكتو ، يشرفني أن أبين لكم انني دفعت له مبلغ ألف وخمسمائة دولار كمكافأة متواضعة نظير خدماته ونفقاته ، وأود التأكيد لكم ان اللورد لن يسمع المزيد عن هذا الأمر ، أو عن أي موضوع آخر يتعلق بالنقود ، حتى تعود البعثة الى انجلترا . ولكنني مع ذلك سأبعث للوزارة والى مكتب المحاسبة بانتظام بيانات رباعية عن الطريقة التي تصرف بها الأرصدة التي معي ، وذلك وفقاً للتوجيهات الواردة في رسالتكم بتاريخ ٥ يوليو ، والتي تشرفت باستلامها في غدامس ، وهي آخر إشعار وصلني من « داوننج ستريت » .

أتشرف سيدي بأن أكون خادمكم المطيع ،

أ. جوردون لينج

من أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون[1] :

عزيزي القنصل ،

ان حطيطة الآن متوجه اليكم بعد أن منعه عن السفر عرج أصاب أحد جماله فاضطررت لشراء بديل له بمقدار ثلاثين دولاراً — وقد أعطيته في

---

[1] من الواضح ان هذه الرسالة كتبت في عين صالح بتاريخ ٧ ديسمبر ١٨٢٥ .

غدامس ستة وثلاثين دولاراً ، وقدمت له ثلاثين أخرى ثمناً لحاجياته ، بالإضافة الى هدايا كثيرة وجدت من الضروري تقديمها له ، وهذه كلها ، بالإضافة الى مبلغ كبير سحبه مني شيخ غدامس ، أدت الى انخفاض أرصدتي . أمامنا صحراء طويلة سنقطعها ، وليس بها ماء على الطريق ، لذا اضطررت لاستئجار جمال ، أجرة الواحد منها أربعون دولاراً ، لحمل الماء وأمتعة جماعتي ولوازم جمالي ، الأمر الذي سيجعلني شبه مفلس ، ولكنني سأتدبر الأمر . وبالمناسبة أود أن اذكر لك ان المبلغ الذي أعطيته للمراسل « سللة » هو ثلاثة وعشرون دولاراً ، وهو مدين لحطيطة بمبلغ سبعة دولارات ، ذهب بدون سدادها له .

المخلص لكم

أ. جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج الى النقيب ي. سابين :

(مقتطف) عين صالح في ٨ ديسمبر ١٨٢٥

... لن نغادر هذا المكان قبل العاشر من هذا الشهر ، وعندها نرافق قافلة كبيرة تضم نحواً من مائة جمل ، كانت تتجمع هنا منذ فترة طويلة ؛ وأجدني مضطراً للاعتراف بأنني شديد الشوق للوصول الى العاصمة الرائعة (تمبكتو) ، فالمعلومات التي سأجمعها هناك من الناس الوافدين اليها من كافة أنحاء العالم ، لن تكون شديدة الأهمية وحسب ، بل ستؤدي أيضاً الى توجيهي في مستقبل أبحاثي — التقيت مع أناس ذهبوا الى السنغال ، ولم أجد أحداً منهم يعرف شيئاً عن مستعمرتنا سيراليون أو غامبيا . وقد عرفت الكثير عن طريق ممتاز يؤدي الى مراكش وفاس ، وذلك من مراكشي جيد الاطلاع في عين صالح ، وطريق آخر من هذا البلد الى

غات وأغادس – غير ان المعلومات التي تلقيتها هنـا عن مجرى النيجر زادت من حيرتي . فقد علمت بوجود نهرين عند « نوفي » ، أحدهما كبير والآخر صغير ، ويتفق قول كل من ذهب الى « ياوري » ويؤكد بأن النهر الذي يمر بها في فصل الجفاف يمكن خوضه بالرجلين ، بـل كثيراً ما يجف منه الماء .

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

عين صالح في ١٣ ديسمبر ١٨٢٥

وأخيراً استطعت تحقيق هدفي العظيم في الاختلاء بنفسي ساعة من الزمن، وذلك بتسمير باب منزلي ، لإبعاد الكثير من الزوار المزعجين الفضوليين الذين يطرقون بابي دونما رحمة .. انني ازداد كل يوم اقتناعاً بفضيلة الصبر التي اذا فقدها الانسان لا يصبح له مكان في هذا البلد . . . . . .

أوردت في رسالتي الأخيرة بعض الملاحظات عن الشيخ باباني ، حيث لم أجده يسير وفق الاتفاق الذي عقده معك في طرابلس والذي تلطفت بإرسال نسخة منه لي في بني وليد . والواقع ان هذا الأمر قد سبب لي قلقاً كبيراً ، لأنني اضطررت لإنفاق ما يزيد عن توقعي ... يكفي أن أقول الآن بأنني أُلزمت بجميع مصاريف الهدايا وبقدر كبير من مصاريف قافلته هو . فعندما وصلنا غدامس عرض عليّ رعاية جمالي على حسابه الخاص ... ولكنه حملني بعد ذلك على دفع أجرة نظير الجهد الذي بذلته لي جمالي أنا ... ثم ألزمني بألف من المصاريف الأخرى ، لا علاقة لي بها . . . . . .

ولكن أسوا ما في الأمر ما عمد اليه الآن من إشاعة انه لا يتلقى أجراً نظير خدمته لي ، وانما هو مجبر على ذلك من جانب سيده باشا طرابلس. وقد اكتشفت هذا بنفسي منذ يومين فقط عندما كنت أتحدث مع ولده

عن سلامة الطريق الى تمبكتو . قلت له اذا كان الطريق خطراً كما ذكرت فلماذا لا يأخذ الشيخ جماعة تحرسنا ؟ فنظر إليَّ الشاب دهشة وعجباً من لهجتي الواثقة الجريئة ، وأجاب بعدها بحدة : « أيها النصراني ، انك تطلب الكثير ، فأبي يتكبد مشقة في حملك معه الى تمبكتو ، وقد خسر حتى الآن مائة دولار ! وعليك أن تتأكد بألا تتوقع منه تبديد نقوده من أجلك ، وتحمّل المشاق لا لشيء إلا خوفاً من الباشا » . وقادني هذا الكلام الى توضيح الأمر له (حول الاتفاق والنفقات) ، وعندها انكشف السر كله ، فصاح الشاب منفعلاً : « أربعة آلاف دولار وخمسمائة أقرضتها له .. لقد تصرفنا جميعاً تصرفاً سيئاً نحوك ، ظانين ان ليس لك حق في مطالبة الشيخ بأي شيء . ولكننا جميعاً لم نكن نعرف شيئاً ، ولو اننا مهدنا لك بأيدينا طريقاً الى تمبكتو لما أوفيناك حقك . كنت اظن حتى هذه اللحظة ان أبي لم يتلق منك أي تعويض عن متاعبه » .

انني الآن في وضع سيء وكأن اتفاقاً لم يعقد مع باباني ، ولست بقادر على تنفيذه بالقوة ، لأن الشيخ لا يملك الوسيلة لدفع أجرة الحماية أو تقديم الهدايا ؛ انه لا يملك شيئاً من النقود ، ولا أتصور ما حدث لما استلمه من نقود ؟ هل تظن انه صرف الألف دولار مقابل سبيكة ذهبية ؟ وقد أخبرني باباني ان الباشا أهداه ألفي دولار وحلف على صدق ذلك ولكنني علمت بعدها أن ذلك لم يكن نقداً بل بستاناً في غدامس ، آل للباشا لموت صاحبه دون أن يترك ورثة له ، وقدّره الشيخ بذلك المبلغ .

ولكن باباني رجل هادىء ، رابط الجأش ، طيب القلب ، وهو يرعاني منذ البداية كما يرعى الأب ابنه ، واذا كان لم يلتزم بالاتفاق فمرد ذلك ، كما أظن ، لافتقاره الى الوسيلة ، لا لأنه يرفض ذلك ، وعلى أي حال ، سنناقش الموضوع بتوسع أكبر في المستقبل .

لقد أرسلت حطيطة يحمل اليكم البريد في الثامن من هذا الشهر :

وأخبرني قبل رحيله انه سيسلك طريق غدامس ، ولكن الناس قالوا انه اتجه عن طريق غات ، وأفترض ، على أي حال ، انه سيصل طرابلس قبل وقت طويل من وصول رسالتي هذه . لقد اقترح اللحاق بي في توات يحمل لي رسائلكم ، ولكنني أرى انها محاولة فاشلة ، لأنني سأصل بنين قبل ان يتمكن من العودة — والواقع انني يائس من تلقي أخبار طرابلس ، ولا أنظر الى الخلف ، لأن كل أفكاري تتجه الى «الأمام» ، فلست بقادر على التمتع بلحظة من سعادة حتى أعود — لا تظنني مكتئباً قنوطاً أو ان حماسي قد فتر ، فلا زلت الرحالة الافريقي المتلهف للاكتشاف كما كنت منذ البداية ، رغم انني أرثي لكل دقيقة تمر يفتر فيها حماسي . . . .

اذا حدث أن تسلمت الآن أو في المستقبل رسائل موجهة لي نحو الدواخل فأرجو إرجاعها الى وزارة المستعمرات ، كي ترسلها الوزارة الى سيراليون . . . . . .

الرابع والعشرون من ديسمبر: انني آسف إذ أنظر الى التاريخ وأجدني ما زلت في توات ، فليس هذا ما كنت أتوقعه تماماً، خاصة اذا تذكرنا كلام باباني في طرابلس ، ومن الصعب أن تعتبر كلام هؤلاء الناس دقيقاً. سنغادر هذا المكان في السابع والعشرين وحينها أبلغ الحادية والثلاثين عاماً من عمري ولكن من غير المؤكد أن نصل تمبكتو في مدى ثلاثين يوماً ، أو أربعين أو خمسين يوماً . ولو ان كلابرتون واتاه الحظ فوصل اليها قرب ذلك الوقت ، لكان من المحتمل أن أتجه نحو اليمين الى مراكش ، أو أن أتقدم الى اغادس ومنها الى غات فطرابلس ، وفي كلتا الحالتين أعتقد أنني سوف أصلكم قبل أن تصلكم مني رسائل أخرى. أما اذا سارت الأمور على نحو آخر وحدث ما يعيق تقدم كلابرتون فسأتجه صوب الجنوب عن طريق النهر . وفي هذه الحالة ، وبسبب التأخير الذي تعرضت له

هنا ، أحس بأن الأمطار ستعوقني قبل التمكن من الوصول الى البحر ، وهذا ما يزعجني . لست أخشى مخاطر المناخ ولكنني أكره ضياع الوقت. لقد كتبت الكثير مؤخراً ، وأكثرت من المقارنات بين الجغرافيا القديمة والحديثة لأفريقيا ، وأشعر متأكداً بأن النتائج ستكون هامة ، ولكن ليس عندي حالياً متسع من الوقت لارسال ما كتبته. أنوي توسيع خريطتي لتوضيح أدق المعلومات حتى الآن لما بين درجة طول ١٣ شرقاً وما بين الأطلسي .

غداً هو يوم الميلاد ، لذا فإنه سيثير المشاعر الدينية الرفيعة عند رجل مثلي بعيد بين المسلمين ، وأنوي تكريسه للتأمل ، لذا لن أكتب غداً شيئاً ، وأما بعد غد فسيكون همي الاستعداد للرحيل في السابع والعشرين . . . .

المخلص لكم دوماً
أ. جوردون لينج

نتائج آخر ملاحظاتي عن موقع عين صالح :

خط عرض ٣٥" ١١' ٢٧° شمالاً .
خط طول ٣٠" ١٧' ٠٠ شرقاً .
انحراف غربي ٠٠" ٠٠' ٢٠° شرقاً .

من أ. جوردون لينج الى ويلموت هورتون :

عين صالح في ٢٥ ديسمبر ١٨٢٥

سيدي ،

لقد أصبت بخيبة أمل في تقديري لزمن الوصول الى هذا المكان ، ثم

في مغادرته خلال خمسة أيام أو ستة ، لذا أتشرف مرة أخرى بمخاطبتكم قبيل رحيلي (الذي سيتحقق في الثلاثين من هــذا الشهر) كي أطلعك على الأسباب التي أعاقت سفري .

ان الطريق من عين صالح الى تمسو (Tomesow)[1] (على بعد مسيرة عشرين يوماً الى الشمال من تمبكتو وعلى حدود صحراء أزواد) تعتــبر تقريباً الحدود الفاصلة بين قبيلة هجار الطوارقية وبين أولاد دليم[2]،والأخيرة قبيلة عربية تعيش على الصيد والإغارة والحرب ، ويبث أهلها الرعب في قلب من يريد عبور الصحراء . ويعتبر شعب هجار خير من يحــد من نشاطهم . وتعيش القبيلتان دومــاً في حروب دموية ، ولولا الحد من نشاط أولاد دليم لما أوقفهم شيء عن الوصول الى تمبكتو . لــذا كانت جميع المحاولات الأخيرة للاتصال بتلك العاصمة تواجه الفشل والفجيعة ، وتوقفت الاتصالات بها منذ عام تقريباً .

وقد أُسرت في شهر ابريل قافلــة من مائة وخمسين جملاً ، كانت متوجهة من عين صالح الى تمبكتو ، أسرها أولاد دليم عند بئر تمسو ، ونشبت بعد شهر معركة بين اولاد دليم والطوارق ، انتصر فيها الطوارق وذبحوا خمسة وستين رجلاً من أعدائهم .

وقام بعد ذلك فريق من تجار غدامس ، كــانوا ينتظرون في توات منذ زمن ، وجازفوا بالسفر ظانين ان الطريق خلت من أولاد دليم بعد المعركة السابقــة ، ولكنهم بعد اسبوع من السفر اضطروا للعودة لمــا

---

١ تمسو مدينة تقع على بعد حوالي ٦٠٠ ميل شمال شرقي تمبكتو ، وإلى الشرق من الطريق الواصل بين عين صالح و تمبكتو .

٢ أولاد دليم هم أصلا قبيلة بربرية أو مراكشية ، ارتفعت منزلتها السياسية في القرن الثامن عشر ، وأصبحت واحدة من أكثر قبائل البربر تحولا إلى العروبة .

سمعوه من أخبار لا تسر. ولما علموا عند عودتهم عن رحلة الشيخ باباني لم يبالوا بالقيام بمحاولة أخرى للاستفادة من خبرته ومشورته.

وهنالك أيضاً تجار آخرون من جنسيات مختلفة أتوا مع قافلة غدامس للتوجه الى تمبكتو، كانوا ينتظرون أيضاً مجيء الشيخ، ولكنهم عندما ملوا الانتظار قاموا بمحاولة قبل وصولنا بحوالي عشرة أيام، غير ان الكثير من هؤلاء التعساء رجع في السادس عشر من الشهر الحالي تثخنهم الجراح بعد أن فقدوا قافلتهم في هجوم أولاد دليم عليهم في السادس من الشهر، وفقدوا الكثير من القتلى دفاعاً عن متاع القافلة.

وما ان علم الهجار بهذه الحادثة حتى استجمعوا قوتهم واقتفوا أثر الناهبين ولحقوا بهم بعد أربعة أو خمسة أيام من الاستيلاء على القافلة، وقامت معركة انتهت بهزيمة منكرة مُني بها اولاد دليم. ويعتقد الآن انهم لن يعودوا لمحاولتهم فترة من الزمن، وقيل بأن الطريق مفتوحة وآمنة هذا الوقت.

هذه هي الأسباب التي أعاقت سفري من توات، ورغم أسفي لهذا التأخر وما سبّبه من تدهور لبعثتي، إلا أن المعلومات التي جمعتها حول سكان الصحراء ومواقعهم عوّضتني عن ذلك التأخير. أصبحت خريطتي الآن توضح حدود توات وحدود مختلف قبائل الطوارق، وكذلك الطرق من عين صالح الى تافيلالت وفقيق على حدود مراكش والى غات واغادس، ولكنني لا أستطيع إرسال الخريطة حتى أصل تمبكتو، حيث أنوي تكريس وقت فيها لهذا الأمر، لأنني لم أستطع منذ وصولي هنا الاختلاء ساعة بنفسي، وذلك لاستمرار تدفق الزائرين والمرضى عليّ.

لما كنت اليوم أنوي إغلاق هذه الرسالة، واحتمالاً لحدوث ما يؤخر سفرنا يوم الثلاثين، فسأسجل على المظروف تاريخ اليوم الذي نغادر فيه

هذه المدينة ، كي تقدّر زمن وصولنا الى تمبكتو ، وذلك بإضافة خمسة وثلاثين يوماً — سأرسل أيضاً ملاحظة قصيرة عن أحوال البعثة مع عودة المرابط الذي يرافقنا حتى تمسو ، وحينها نكون قد ابتعدنا عن خطر أولاد دليم — ولو ان الحظ واتى النقيب كلابرتون بالوصول الى تمبكتو قبل وصولي اليها ، أو انه وصل أثناء إقامتي فيها ، فسأقدم له النصيحة حول أفضل الطرق لاستغلال الجهود في المستقبل لصالح الكشف . . . . .

أ. جوردون لينج

أستطيع الآن نتيجة ملاحظاتي تحديد موقع عين صالح كالتالي :

خط عرض ٣٥ً ١١َ ٢٧° شمالاً .

خط طول ٣٠ً ١٥َ ٢° شرقاً .

درجة الحرارة تتراوح بين ٤٧ — ٨٠ درجة فهرنهايت .

من أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

٢٦ ديسمبر ١٨٢٥

عزيزي القنصل ،

أرى لزاماً عليَّ أن أكتب ملحقاً لرسالتي المؤرخة قبل يومين[١] ، فقد عرفت من باباني نفسه انه لم يتسلم دولاراً واحداً من النقود المرسلة من تاجوراء ، ولم يتسلم شيئاً من السيد جرفانيللي على حساب مبلغ الثلاثة آلاف دولار الموعودة له . هذا هو ما توقعته تماماً ، وهو يوضح حقيقة أمر الحوالة التي أرجو أن تكتشف لصالح الشيخ المسكين ، فربما يغير

١ المؤرخة في ١٣ ديسمبر .

رأيه ويدير لي ظهره – أما الهدايا التي تلقاها من الباشا فليست أكثر من الأعطية السنوية المعتــادة التي يقدمها له الباشا عندما يُحضر الى طرابلس الضريبة التي تدفعها غدامس له – وقال (الشيخ) أيضاً بأن بيت المال نصحه بعدم توقيع الاتفاقية (التي أرسلت نسخــة منها لي) ولكنني لا أستطيع التأكد من شيء . ويقول الشيــخ انه لو تلقى ألف دولار فقط لكــان ممتنــاً ولسافرنا الى تمبكتو في حالة تختلف تماماً عمــا نحن عليه الآن .

المخلص لـكم
أ . جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج الى النقيب ي. سابين :
عين صالح في أول يناير ١٨٢٦

عزيزي سابين ،

هذه أول مرة أكتب فيها هذا العام ، ويسرني أن تكون أولى رسائلي موجهة اليك ، كما يحزنني أن أكون عاجـزاً عن القول باستئناف رحلتي في الموعد الذي حددته لـكم في رسالتي الأخيرة. ذلك لأن المواصلات بين هذا المكان وبين تمبكتو توقفت منذ عام لشدة خطورة السير بينهما. وينتظر هنا عدة تجار منذ ستة أو سبعة أشهر أو ثمانية أو عشرة ، توقعاً لمجيء ظرف مناسب لبدء رحلتهم. ولكن الأسباب التي شرحتها للسيد هورتون ما تزال تحبسنا هنا .... ولكن أُعلن منـذ عشرة أيام ان الاتصال مــع تمبكتو قد استؤنف وان الطريق أصبحت آمنة بعد الهزيمة التي مني بها أولاد دليم على أيدي طوارق هجار . وتحدد الثلاثون من ديسمبر يوماً للرحيل، ولكن هذا أُلغي بسبب الشائعات عن تجدد المتاعب . ولما رأى الكثير من

الغدامسيين أن لا أمل في الوصول الى المكان المنشود أخذوا يستعدون للعودة الى غدامس — لهذا شل تفكيري وبقيت يوماً أو يومين لا أعرف تماماً ما عساي أن أفعله ، ولكنني أخيراً صممت على السفر وحيداً خــلال أربعة أيام « وليكن ما يكون وليحدث ما هو حادث » .

يسرني أن أخبرك انني جمعت معلومات كثيرة هنا عن عادات سكان الصحراء المتناثرين ، وعن مواقعهم وقوتهم ، وعندما ترى خريطتي ستجد من الصعب التعرف على حجم الصحراء الكبرى المجهولة ، والتي يعمرها السكان جميعها . ورغم ان السكان هم في الغالب متنقلون ، فإن لكل قبيلة حدودها المعينة . لم يصلني منذ رحيلي إلا رسول واحد من طرابلس ، ولا أتوقع استقبال سواه لأن الطريق شديد الخطورة ولذا أعيش منقطعاً عن الأخبار ، ويبدو ان رحلتي تأخذ طبيعة رحلة بارك وهورنمـان أكثر من رحلات المتأخرين الذين كانوا في صلة مع طرابلس طيلـة الطريق ، لا تقطعهم عنها الحوادث المزعجة ، فتأتيهم الأخبار باستمرار من انجلترا مثلما تأتي البضائع الى سيراليـون . وقد قال السيد بارو بأن الرحلـة الى تمبكتو أقل خطراً من الرحلة الى بورنو — ولكن هذا الأمر قليل الأهمية عندي الآن ، فقد عزمت على السفر ، وأنظر الى الأمام مبتهجاً متوقعاً نهاية سارة بالوصول الى خليج غينيا . ان صحتي الآن جيدة وهي أفضل من أي وقت مضى ، وأظن ان السفر في الصحراء قـد أفادني كثيراً ، خاصة معدتي التي استفادت كثيراً من مياه الآبار المشبعة بالصودا . واذا لم يعترض رحلتي معترض فسأصل تمبكتو في مطلع فبراير حيث أبقى بهـا الى بداية مايو ، وسأزور جنّي وجورمة وهومبوري وموسّي . وعندمـا يبدأ نهر النيجر في الارتفاع سأبحر الى يوري وفيها ربما أتوقف أثناء فصل المطر كي أشاهد ارتفاع وانخفاض النهر ؛ وسأستأنف رحلتي في منتصف

سبتمبر ، ويحتمل أن أصل الساحل قرب عيد الميلاد ، وهذا الأمر يعتمد على أي حال على المجرى الذي يتخذه النهر . . . . .

المخلص لكم

أ. جوردون لينج

أرجو عندما يطبع كتاب دينهام أن تخبر موري كي يرسل نسخة لي بالإضافة الى كتاب لايون،ورحلات الإدريسي ونسخة من كتاب بطليموس وهيرودوت .

من أ. جوردون لينج الى جيمز باندينال :

عين صالح في ٩ يناير ١٨٢٦

عزيزي باندينال ،

لم أكن أنوي الكتابة إليك ثانية من هـذا المكان لأنني كنت أتوقع الإقامة فيه إقامة قصيرة ، وأن اؤجل الرسالة الثانية لأكتبها من تمبكتو، ولكن شائعات جـديدة وصلت قبل سفرنا عن أسر قافلة متوجهـة الى تمبكتو ، الأمر الذي حز في نفوس التجار وجعلهم يتخلون عن فكـرة الرحيل فـترة من الزمن ، وقلب خططنا رأساً على عقب . وفي خضم هذه المشكلة اقترحت على الشيخ الذي يتولى إرشادي في السفر إعادة امتعتي الثقيلة وترجماني والمرافقين البحريين الى غدامس ، ووضع أوراقي وأدواتي وما تبقى لدي من دولارات على أحد المهاري ، وان أمتطي وإياه وجاك ثلاثة جمال أخرى ونحاول السفر وحدنا. وقد وافق الشيخ على هذه الخطة بحيث نرحل في الثامن عشر من هذا الشهر،ولكن محاولتنا أفادتنا ووفرت علينا المشقة ، لأن التجار عندما علموا بتصميمنا على ذلك عادت اليهم

الشجاعة ، واليوم اعتلى رجال القافلة ظهور ثلاثمائة جمل ، معهم مائة وخمسون مسلحاً . وإذا لم يحدث لنا في الطريق حادث فسأبلغ تمبكتو في التاسع أو العاشر من الشهر القادم .

لقد انتشر في هـذه المدينة خبر سخيف غاية السخف ، مفاده انني لست إلا « منجو بارك » ، ذلك المسيحي الذي شن حرباً على السكان المقيمين على ضفاف النيجر ، فقتل وجرح الكثير من الطوارق . ولكني عالجت الأمر بسرعة ، ثم ان العقلاء من القوم يفهمون ان الخبر غير صحيح ، لأن عمري الآن واحد وثلاثون سنة ، في حين أن حملة بارك حدثت قبل إحدى وعشرين سنة . غير انني لا استبعد حدوث المتاعب ، خاصة وأن من بين رجال القافلة رجل أصابته رصاصة في تلك الحادثة . كم كان بارك أنانياً طائشاً غير واعٍ في محاولته لاكتشاف هذا البلد على حساب دماء سكانه ومنع جميع الاتصالات التالية ! وكم كان تصرفه أخرق ! ماذا عساي أجيب لو سألني سائل : بأي حق قمت ، أو إذا لم تكن أنت ، فبأي حق قام ابن بلدك بإطلاق النار وقتل رجالنا ؟ أخشى أن أُقحم في متاعب كثيرة بعد مغادرة تمبكتو . وقد بدأت أتمنى لو لم يكن معي أحد سوى خادمي جاك ، لأنني أكون حينها أقل قلقاً على غيري — فالبحاران اللذان معي قليلا التفكير ويحمّلانني مشقة لا ضرورة لها في العناية بهما ، فهما لا يفكران في المخاطر الناجمة عن تصرفاتهما ، ويكثران من ملاحقة النساء ويسببان المتاعب لي ولهما . يجب ألا تتكهن بمكروه من كلامي هذا ، فليس للأمر من تأثير سوى انه يجعلني أكثر حذراً من السابق . انني واثق من النجاح كل الثقة وان شاء الله لي السلامة فإنني بالإضافة الى صحتي الجيدة وحسن معرفتي بالناس ، أشعر مطمئناً

(رغم انني أمدح نفسي بهذا التأكيد) بأنه لا يوجد حالياً من هو مهيأ أفضل مني للمهمة التي كلفت بها .

بارك الله فيك

المخلص دوماً لك

أ. جوردون لينج

آمل ألا يظهر في الصحف شيء عني إلا ما تقدمه الحكومة من ملاحظات — انني شديد الحذر ولا أكتب رسائل خاصة إلا الى سميث وسابين ولك ، ولا يشعر أحد سواكم بحركاتي ، حتى أقاربي المقربون لا يشعرون بشيء منها .

الفَصل الثَامِن

الهجوم الأول

من الرائد أ. جوردون لينج الى ويلموت هورتون :

صحراء تنزرفت

٢٦ يناير ١٨٢٦

خط عرض ٥٦َ ٢٣° شمالاً

خط طـول ٤٠َ ٢° شرقـاً

سيدي ،

أستغل فرصة رجوع أحد الطوارق الى طرابلس لأخبرك بأن البعثـة أصبحت عـلى مسيرة عشرين يومـاً من تمبكتو ، وبمنأى عن الخطـر الذي ذكرت أسبابه في رسالتي المؤرخة في الخامس والعشرين من الشهـر الماضي . وقد أصبحنا الآن في مكان يقع على درجة عرض ٢٣ شمالاً ، ونسير بمعدل عشرين ميلاً في اليوم على صحراء رملية منبسطة خالية من الخضرة ، ويبلغ عرضها حوالي مائة وخمسين ميلاً ، ويمتد طولهـا من شواطىء الأطلسي حتى مدينة أغادس .

كان أولاد دليم يبحثون عنا ، وقد أخبرنا مرة أحـــد المراسلين عن اقترابهم منا مسافة قريبة الى درجة أحدثت لنا قلقاً ، وقد وجدت صعوبة في إقناع تجار غدامس بمواصلة التقدم ، وعندما صممت على المضي وحدي تراجعت القافلة عن العودة الى توات .

وبقينا مدة أربعة أيام في حالة من الفزع ، نتوقع كل لحظة مواجهة أولاد دليم ، نتوهم كل شجرة أكاسيا من بعيد وكأنها قوات أعداء ، ونتلقى كل يوم تحذيرات من توات عن حالة الطريق المهلكة، وبذا كنت في وضع شديد الحساسية وأتعرض لعداوة القافلة كلها لإرغامي اياها على السفر وتعريضها وما تملك للخطر . ولكننا أخيراً قابلنا جماعة صديقة من توات قدمت لنا الحمايـة ، وبذا أصبحت تمبكتو في متناول اليـد ، وبدأ كل تاجر يعد مكاسبه ، وحلت البركة والثناء مكان الانتقاد والجفاء .

ليس عندي الكثير مما أقوله الآن سوى أن آمالي عالية وتوقعاتي بهيجة ، وسأبذل جهدي عند وصولي تمبكتو لارسال جميع المعلومات التي جمعتها في رحلتي الحالية للورد باثورست ، وأعتقد بأنها ستكون ذات متعة .

يشرفني سيدي أن أكون
خادمكم المطيع
أ . جوردون لينج

السابع والعشرون من يناير : عندما أنهيت الرسالة السابقة وصل رجلان من طوارق هقار الى مخيمنا يحملان خبراً بأن جماعـــة من قبيلتهم التقت مصادفة مع غزاة أولاد دليم أمس عند بئر يقع على بعد نحو ثلاثين ميلاً الى الغرب منا واشتبكت معهم في قتال ، فقتلت العديد منهم وأسرت نحواً من مائتين وستين من المهاري .

إن هذا الخبر مُرضٍ للغاية ، ولكن يخشى تجار غدامس أن يطالب

المنتصرون ، الذين علينا انتظارهم ،بمطالب باهظة لما قاموا به من خدمات (تأمين الطريق) .

وقد تحسن الجو واعتدل وأصبحت درجة الحرارة عند الظهر ٨٠ فهرنهايت ويهب من الشرق نسيم عليل . (انتهت الرسالة) .

وقد كانت مخاوف تجار غدامس مصيبة عندما تنبأت شراً من وصول طوارق هقار المنتصرين . فبعد شهرين من كتابة الرسالة الأخيرة ، أرسل وارنجتون الى وزارة المستعمرات عن وصول إشاعة مزعجة ، فبعث يقول :

من هانمر وارنجتون الى ر. هاي :

طرابلس في ٢٩ مارس ١٨٢٦

سيدي ،

يشرفني أن أخبركم انني تلقيت رسائل من الرائد لينج أرسلها من توات حتى تاريخ ٢٧ ديسمبر ،وانه كان في اليوم التالي سيتوجه الى تمبكتو ...... وقد تركه حطيطة عند توات وهو الآن في غدامس ، وكتب لي يخبرني عما يدور من حديث حول مهاجمة القافلة من جانب عصابة من اللصوص عند دخولها أراضي تمبكتو — وقـد تلقى الباشا وحسونة دغيس رسالتين من غدامس تؤكدان تلك الشائعات وان مصدرها من أخٍ لحطيطة يقيم في غات ، ولكن لم يصل خبر من توات . ولما كانت توات بعيدة وكذلك غات فإن من غير المحتمل أن يكون الخبر صحيحاً . والناس في غدامس لا يصدقون ما يقال ، وكذلك لا يصدقه الناس هنا ، ويؤكد لي صاحب المعالي انه لو كان ذلك حدث فعلاً وان النتائج خطيرة لجاءه رسول يحمل اليه جميع التفصيلات ، وان الخبر قد يكون من صنـع أسرة حطيطـة للنيل من سمعته . لذا أطلب منـكم ألا تعيروا هـذا الخـبر انتباهـكم اذا

سمعتموه من الصحف أو عن أي طريق أخرى .

هانمر وارنجتون .

ومرت شهور كلها قلق دون أن يتمكن وارنجتون من تلقي تأكيد أو نفي للشائعات . ولكنه تلقى في نهاية يوليو شائعات أخرى ليرسلها الى « داوننج ستريت » (مقر رئيس الوزراء) . فكتب الى هاي (وكيل وزارة المستعمرات) في التاسع والعشرين من يوليو يقول : « علمت من صياد نعام ان رسائل قد وصلت منذ مدة تفيد بأن لينج موجود في تمبكتو بحالة جيدة وعلى وشك التقدم الى يوري » . وعندها انزعج هانمر لتأخر رسائل لينج وتأخر أي معلومات موثوقة عنه فطلب مقابلة الباشا . وحول هذا يواصل في رسالته : « وفي ظل هذه الظروف كلها طلبت مقابلة الباشا . فأخبرني سعادته بأنه أمر وزيره ليطلعني على مجمل محتويات رسالة تلقاها من غدامس هذا الصباح ، مفادها ان خبراً جديداً قد وصل عن مقتل العبدين الأسودين وكذلك اليهودي ، وجرح باباني ثم موته ، وجرح لينج ثم شفائه والتجائه الى مرابط » .

وبعد شهرين ، أي في نهاية سبتمبر ، تلقت إمّة رسالة غير مؤرخة من زوجها تذكر عرضاً « انني أكتب بإبهام واصبع فقط لوجود جرح عميق في السبابة » . وعندما أرسل وارنجتون مقتطفاً من رسالة إمّة الى اللورد باثورست علّق قائلاً : « وهذا يدع المجال لتصديق خبر الهجوم ولكن من المرضي تماماً أن نعلم بأن الجرح الذي أصيب به غير خطير » .

وكان عليهم الانتظار حتى نوفمبر ليسمعوا ما حدث بالفعل . ففي الثالث من ذلك الشهر ، وعند الساعة العاشرة مساء ، وصل سائق جمل لينج ، وهو محمد ، الى طرابلس يحمل رسائل سيده الى وارنجتون تحمل تواريخاً من أول يوليو حتى العاشر منه ، ورسالة أخرى من الشيخ مختار الى الباشا ، ولكننا لا نجد أياً من هذه الرسائل تقص علينا ما حدث

مثلما يقصه محمد نفسه . وفي شهادة أداها في الخامس من نوفمبر قال بأن قافلة لينج سارت بعـد توات حوالي ثماني ساعات أو عشرين ميلاً في اليوم ، مسرعة عندما كانت تحتاج الماء .

« وقد هوجمنا بعد ستة عشر يوماً من مغادرتنا توات ، عند الساعة الثالثة صباحاً .

وكان عشرون من الطوارق قد انضموا إلينا قبـل خمسة أيام وظلوا مع القافلة . وعند الساعة المذكورة سابقاً قام هؤلاء العشرون فجأة بمهاجمة بقية القافلة المتكونة من خمسة وأربعين رجلاً . وكان الطوارق العشرون يتسلحون بالبنـادق والسيوف والحراب والخناجر . وقد هـاجموا لينج وجماعته من القافلة ولم يتحرشوا ببباباني أو بأي شخص آخر . فحاصروا خيام لينج وأمتعته وأطلقوا النار عليهم دون أن يقولوا كلمة واحـدة ، فأصابت رصاصة لينج بينما كان نائماً ثم اندفعوا على الخيام يقطعون الأقمشة والحبال ، وحينها نهضت فتلقيت ضربة سيف جرحتني في رأسي ،فارتميت على الأرض . ودخلوا خيمـة لينج ، وأصابه سيف في فخذه قبل أن يتمكـن من تسليح نفسه ، ثم قفز مرة أخرى وتلقى ضربة على خده وأذنه وذراعه الأيمن فكسرت ساقـه ، فوقع عـلى الأرض وتلقى سبع ضربات آخرها على رقبته . وأثناء ذلك هرب اليهودي وجاك . أما جاك فقد أصيب بجرح على كل فخذ من فخذيه وواحد على كتفه وواحد على ذراعه وواحد على رأسه فقضي عليه . وأما هاري فقـد أصيب برصاصة كسرت ساقه ، فحبا على يديه وركبتيه متجهاً الى خيمة باباني ... وبينما كان اليهودي هارباً لحق به اثنان فقتلاه ، أما جاك فقد هرب مسافـة طويلة . وفي الصباح عندما وضع لينج وهاري على الجمال للسير مع القافلة اكتشف القوم آثار أقدام جاك على الرمال ، وقد تتبعها أحد السود حتى وجده على تل رملي ..

وغادرنا وادي أهنت ، حيث هوجمنا ، عند الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي وسرنا حتى الثانية عشرة ليلاً .

وقد كانت سرعة القافلة أكبر من سرعتنا ، أنا ولينج ورجل باباني ، لأننا كنا نضطر باستمرار للتوقف لشدة ما كان يعاني لينج من جروح – ولكن باباني تخلى عنه وواصل السير مع القافلة ومع جاك وهاري . ثم التحقنا بالقافلة عند الثانية عشرة . وبدأنا السير في اليوم التالي معاً جميعاً، ولما كانت سرعة القافلة أشد فقد ترك باباني معنا رجلاً يدلنا على الطريق. وسرنا وراء القافلة أنا ولينج ورجل أسود (أعتقه لينج) وخادم باباني. ولحقنا بالقافلة عند الثامنة مساء وكان لينج يعاني الكثير من جراحه. وفي اليوم التالي رحلنا مع القافلة وتوقفنا عند الغروب – لم نر أحداً في الأيام الثلاثة الأخيرة – وفي الصباح التالي شرعنا في المسير ووصلنا مكاناً به ماء أقمنا عنده يومين. ثم سافرنا تسعة عشر يوماً في الصحراء دون أن يحدث لنا شيء ، وعندها وصلنا الشيخ المرابط مختار. واستقبلنا مختار استقبالاً جيداً وقدّم لنا الأرز ولحم ثور وغير ذلك،ووعد بأن يوصلنا اي مكان. فاستراحت القافلة ستة أيام ثم تقدمت نحو مكان يقال له « أروان » .. ولكن باباني نصح لينج بالبقاء عند مختار حتى تشفى جروحه ، فبقينا هناك . وبعد عشرين يوماً تحسن لينج واقترح السير ، ولكن باباني توفي بعد أربعة أيام نتيجة الدوزنطاريا . وعندما مات باباني أمر مختار بإغلاق باب الغرفة التي تضم أمتعة باباني ولينج حتى يرسل الى تمبكتو لاحضار ابن أخي باباني . ولكنه لم يحضر طيلة تسعة عشر يوماً ، لذا طلب لينج من مختار السماح له بالسفر وأخذ أمتعته فمنحه اياها ، ولكن ابن الأخ وصل بعد عشرة أيام تالية ووجد كل شيء صحيحاً . وبقي ابن الأخ سبعة وعشرين يوماً ثم اقترح السفر مع لينج الى تمبكتو . وكان رد مختار ان بوسع ابن الأخ السفر أما لينج فينبغي ألا تُعرَّض حياته للخطر ثانية، وانه سيصحبه بنفسه الى تمبكتو سالماً ويعود معه بعد ذلك . ولكن مرضاً

عنيفاً قد ظهر مما اضطر لينج الى التأخر — ومات مختار وكذلك جاك وهاري . ثم وعد مختار الابن بأن يأخذ لينج الى تمبكتو ويعيده سالماً مقابل ألف دولار فاتفق معه لينج على ذلك ، ولكن لينج لم يكن يملك النقود فوعد بدفع أمور عينية بديلة ، وكان المقرر أن يسافر بعد ستة عشر يوماً بعد مغادرتي لذلك المكان . ويبعد مكان مختار عن تمبكتو مسيرة خمسة أيام وليس في الطريق مخاطر . وقد قال الرائد لينج بأنه سيصل طرابلس في مدى ستة أشهر من تاريخ مغادرتي ...

وقد رغب لينج في أن أذكر بأنه « في الليلة السابقة للهجوم أطلق النار على غراب فوق بحيرة ، وقال له باباني بألا يعيد حشو بندقيته لعدم وجود خطر ما ، وان باباني قام بأخذ الرصاص قبل يوم من الهجوم ، وأخذ البارود مني ومن العبيد الآخرين وأعطى ذلك للطوارق . ولم يخبرني لينج بأن أذكر هذا الجانب ، ولكنه اعترض حينذاك على إعطاء البارود والرصاص للطوارق العشرين » .

أما لينج نفسه فلم يتحدث عن الموضوع وعن الكارثة بشكل مثير كما تحدث سائق جمله .

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

بـلاد سيدي محمد[1]

في ١٠ مايـو ١٨٢٦

عزيزي القنصل ،

أكتب إليك سطراً لأبين لك بأنني أتماثل للشفاء من جروح بليغة لا

---

١ قال بارث بأنها تقع على بعد نحو من ١٣٠ ميلا شمالي تمبكتو ، ومحمد هو ابن المختار شيخ قبيلة كوانته العربية القوية سيدة تلك الانحاء من الصحراء . وقال البرفسور موند بأنها تقع على خط عرض ٠٧ َ ٤٢ ً ١٨ ° شمالا ، وخط طول ٠٤ ً ٠٢ َ ١ ° غرباً .

تتصور مدى اتساعها . وسأغادر هذا المكان غداً ان شاء الله ، متجهـاً الى تمبكتو وآمل أن اصلها في الثامن عشر ؛ لقـد عانيت الكثير ولكنني احتفظ بالتفاصيل حتى وقت آخر ، وحينها أقص عليك خيانة وقحة وعن حرب ستدهشك : هناك تهمة تُعزى للمرحوم الشيخ باباني ، ولكنه لما كان قد ولى فلا أستطيع الآن اتهامه ، فقد توفي فجأة منذ شهر . انني في حاجة ملحة للنقود منذ سطو الطوارق ، وقد نجحت في الحصول على ٢٧٠ مثقـــال طوارقي (كل واحد بقيمة دولار تقريباً) من ابن أخي الشيخ ، وهو شاب لطيف أظهر عناية فائقة بي طيلة المدة ، وخاصـة بعد موت عمه . ولما كان سيحمل اليكم رسائلي من تمبكتو فستسنح لـكم فرصة لرؤيته ، وأوصي أن تولوه أفضل اهتمام ورعاية . عندما أكتب من تمبكتو سأتحدث بالتفصيل عن الكيفية التي خدعت بها وكدت أُقتـل أثناء النوم[1] ، وسأطلعك على عدد وطبيعة الجروح التي وصلت الى أربعة وعشرين جرحاً ، ثمانيـة عشر منها بالغة الحدة ، وثلاثة على الصدغ الأيسر وواحد على الخد الأيسر كسر عظمة الفك وشق الاذن ، وواحد على الخد الأيمن ، وجرح بغيض في العنق ، ورصاصة في الورك، وخمسة جروح بالسيف على ذراعي الأيمن ويدي،فانكسرت ثلاثة أصابع وجرحت اليد أربعة جروح متقاطعة ، ونفذ الجرح الى عظمة الرسغ،وثلاثة جروح على الذراع الأيسر فكسر عظمها ولكنه التأم . وهنالك جرح بسيط على الساق اليسرى وجرح على أصابع يدي اليسرى شفي الآن . ولكنني الآن في تحسن وآمل في العودة الى بريطانيا أحمـل معلومات جغرافية شديـدة الأهمية . ولكن الخريطة تحتاج الى كثير من التصحيحات ، وبعـون الله سأفعل المزيد لتصحيحها .

---

١ لا يمكن بالضبط تحديد مكان وادي أهنت حيث وقع الهجوم ، ولكنه ربما يقع على بعد نحو من ١٥٠ ميلا إلى الجنوب من « توات » .

أرجو أن ترسل نسخة من هذه الرسالة الى اللورد باثورست ، لأنني أكتب بيدي اليسرى بصعوبة ومشقة ، ولن أكتب حتى أصل تمبكتو .

خاص : عندي تهم كثيرة أوجهها للشيخ المرحوم ، سأبلّغك اياها في الوقت المناسب ؛ فهو لم يدفع مبلغ الأربعمائة دولار التي اقترضها مني في بي وليد ، ولم يتحمل أي مصاريف على الطريق ، وعندما كنت متمدداً يائساً من الحياة أخذ أفضل بنادقي وأرسلها الى تمبكتو حيث باعها بمائة دولار ، وهو ثمنها الأصلي في بريطانيا . انني لم أكتب لأحد سواك ، وآمل أن يبارككم الله جميعاً ، وانني لم أجرب بعد عواطفي ، لذا لم أحاول كتابة شيء لعزيزتي إمّة ، وسأحاول ذلك في تمبكتو . آمل أن تذكروني بالمودة ، وألا تفكر هي في شيء من تعاسي ، لأن كل شيء سيكون على ما يرام .

المخلص لكم

أ . جوردون لينج

من الرائد أ . جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

الازود في ١ يوليو ١٨٢٦

عزيزي القنصل ،

أكتب اليكم وذهني يقع تحت وطأة المرض والأسف وخيبة الأمل ، فلم أبدأ بعد رحلتي ، لأنني محجوز هنا لأتفه الأسباب وبطريقة مزعجة ، وكأنني أسير . ففي الوقت الذي كتبت لك فيه سابقاً ، وعندما كنت أستعد للسفر انتشر في هذا المكان مرض شنيع شبيه بالحمى الصفراء ، واحتُجزت لتقديم المساعدة للذين يعانون منه . لقد قضت الحمى على نصف السكان تقريباً ومن بينهم سيدي مختار نفسه ، مرابط وشيخ هذا المكان

الذي آسف لموته أشد الأسف ، لأنه اهتم بي اهتماماً كبيراً ووعد بإرسالي الى موسّي ، والآن لم أعد آمل في ذلك لأن ابنه لا يحظى بالسلطة أو المكانة التي تؤهله للقيام بذلك . وقد أُصبت بالمرض أثناء العناية بسيدي محمد وبقيت طريح الفراش تسعة أيام ... ومات جاك بنفس المرض ... وكذلك البحاران ... وأصبحت الآن الرجل الوحيد من البعثة على قيد الحياة وفي وضع لا أحسد عليه .

لم أحظ بعد بالاذن للتوجه الى تمبكتو ، ولكن ذلك أهم من أي شيء آخر عندي ولا خيار لي في ذلك ، لأنني ان لم أفعل ذلك فإن العالم سيبقى جاهلاً بهذا المكان ، ولن يزوره مسيحي من بعدي . ولما كنت خالي الوفاض فسأكتفي بالوصول الى تمبكتو ، ثم أمتطي احدى المهاري وأعود الى طرابلس : وآمل أن يكون كلابرتون قد أفلح في حل مشكلة مصب النيجر ، وإلا فسأعرف كيف أحلها من مكان آخر . سأصل غدامس إن شاء الله في مطلع نوفمبر ، وأتوقع حينها مقابلة رسول من طرابلس — فأرسلوا كثيراً من الشاي والسكر والورق والأخبار والصحف ووعاء شاي ، ونصف دستة من الجرابات ونحواً من أربعمائة دولار . أرسلوا ما سبق للورد باثورست ، وكنت أتمنى الكتابة له لو استطعت ذلك ... لقد أظلم الوقت ... بارك الله فيكم جميعاً .

المخلص لكم دوماً
أ . جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

الأزود ، في ١٠ يوليو ١٨٢٦

عزيزي القنصل ،

ان رحيل حامل هذه الرسالة ، الوحيد الذي بقي من رفاق طرابلس ،

يتركني في حالة شبيهة بتلك التي كتبت لك عنها في أول هـذا الشهر ، وسأقص عليك ظروف رحيله . لا أرغب في الطعن بأي شخص، ناهيك عن رجل جرح في خدمتي ، وكل ما سأقوله هو ان حامله رافق جمالي من طرابلس حتى الأزود دون أن أجد منه ما أمتدحه به أو أذمه عليه . ولكنه كثير النوم شديد الكسل ...

بعد وصولنا هنـــا أعربَ عن رغبة شديدة في التوجه الى طرابلس كحامل لرسائلي ، وكما قال ، كي يوصل إليك أخبـاري لعجز ذراعي عن إبلاغك أخباري بنفسي . وقد وافقت الآن على ذلك ، وطلبت من سيدي محمـد أن يزوده برجل ممتـاز ليوصله متجنباً خطر الطوارق الى توات ، ولكن سيدي محمد رفض ذلك قائلاً انه يرغب لي أولاً رؤيـة تمبكتو قبل الاتصال بطرابلس . وبالاختصار ، وجدت بعد ذلك ان رغبة حامله في السفر كانت تنبع من أنانية وخوف وانه يخشى الطريق الى تمبكتو التي يقال بأنها تمتلىء بالأخطار ، وان محمداً ليس شديد الشجاعة ولا يرغب في إيذاء نفسه من أجل مسيحي مرة أخرى . وقد جاءني حامله في اليوم العصيب الذي رحلت فيه القافلة التي حملت آخر رسالـة لي ، وأنا منهك من المرض ، ليقول بأنه يرغب في السفر مع القافلة الى تـوات . انك بالطبع تتصور ان الاقتراح كان له عليّ وقع الخنجر فرفضته ، ولكنني فكرت في الموضوع في اليـوم التالي ، واحتقرت الخدمة من رجل لا يقدمها مخلصاً ، فأذنت له بالسفر في أول فرصة ، وجاءت اليوم هـذه الفرصة بذهاب مفاجىء لأحد أبناء الشيخ الى توات لمحاولة القيام بوضع إجراءات خاصة مع الطوارق من أجل سلامة سير القوافل . انني لا ألوم أحداً يهتم بسلامته ، لذا سأتركه يذهب على بركة الله . وبغض النظر عما قلته ، فهو رجـل لا خطر منه مطلقاً لمن يرافقه ، ومع انه قليل العمل الصالح إلا انه لا يفعل السوء ولو عاش مائة سنة ، لأنه رجـل بريء ، ولا أرغب في تخطئته ، بل أرغب في أن تدفع له حتى الرابع

والعشرين من هذا الشهر بما معدله عشرة دولارات في الشهر ، كما وعدته بعد الجرح الذي أصابه من الطوارق . أخذ مني منذ سفرنا من طرابلس اثنين وخمسين دولاراً تخصمها مع ما أخذه مقدماً في طرابلس — وقد أعطيته أحد المهاري وأشياء كي يسافر كالسلطان . هنالك حوادث محزنة تجري في تمبكتو مؤخراً ، فالطوارق والفولاحة يتقاتلون من أجل السيطرة عليها ، ولكن يفترض أن تكون الآن قد انتهت تقريباً . سأرحل عن هذا المكان بإذن الله في أول أيام عيد الفطر ، أي بعد ستة أيام — إنني أتماثل للشفاء بسرعة ولكنني أعاني من آلام شديدة في الرأس من أثر الجروح — تحياتي للعزيزة إمّة ، بارك الله فيها وفيكم ، وآمل أن التقي بكم سريعاً .

المخلص لكم

أ. جوردون لينج

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

الاثنين[1]

عزيزي وارنجتون ،

أود عشية رحيلي الى تمبكتو أن أكتب لكم رسالة آمل أن تصلكم قبل أن تسوي الأمر مع سائق الجمال الذي يستحق بعض العقاب لتصرفه الحقير. عندما وجدت ان شيخ هذا المكان مصمم على الاستيلاء على ممتلكات البعثة وضعت في يدي محمد كيسين صغيرين بكل واحد منها مئتا دولار ليخبئهما

---

١ ليس لهذه الرسالة تاريخ مدون ولكن يبدو انها كتبت بعد الرسالة السابقة .

في سلته : وتسلمت منه يوم رحيله الكيسين دون عدٍّ ما بهما، ووضعتهما في الصندوق الذي يحتوي أدواتي والذي أحمل مفتاحه معي . وبعد أيام قليلة من رحيله وجدت من الصواب عد النقود بعد أن تبين لي انه سرقني. ووجدت فعلاً ان كيساً قد نقص مما فيه عشرون دولاراً ، ونقص من الآخر عشرة دولارات . وقد فقدت واحداً من أجمل مسدساتي دون أن أشك فيمن أخذه ، ولكنني رأيته أمس مع عربي حلف لي بأنه اشتراه من محمد بعشر مثقالات . وقد رأيت أيضاً سكاكين وشوكاً ووسائد وصناديق سعوط ونظارات لا عدد لها .. الخ أعرف انها لي ، وان النذل كان يسرقها مني ويبيعها عندما كنت مريضاً بالحمى وكان يعتقد بأنني سأموت . لقد رصدته وهو يسرق عدة مرات من قبل ولكنني لم أشأ أن أكشف حقيقته لأنه عندما يُتهم يأخذ في الانكار ويحلف ايماناً كثيرة على ذلك وينتهي بفيض من الدموع . انك أفضل من يحكم على الأمر بمعاقبته على هذا السلوك أو تركه .

المخلص لكم

أ . جوردون لينج

عندما شرع سائق الجمال محمد في رحلة العودة الى طرابلس في العاشر من يوليو كان لينج ، بشهادة محمد ، ما يزال في بلاد مختار ، أو بلاد سيدي محمد كما كان لينج يسميها . لذا ، ورغم تأريخ رسالة لينج في العاشر من مايو من ذلك المكان ، ورسائله التالية من الازود (مكان واسع ربما كانت توجد فيه بلدة مختار) ، يبدو من المحتمل أن يكون لينج قد ظل في نفس المكان الذي حل ضيفاً فيه منذ وصوله في ابريل رجلاً جريحاً حتى رحيله في يوليو . ولا شك انه مدين في بقائه للمعاملة الكريمة التي تلقاها من المختار ، ومن ولده بعد موته .

أما ما جاء في رسالته المؤرخة في أول يوليو من شكوى احتجـازه «بأوهى حجة وبطريقة مزعجة» فإنما يُفسر بقلة الصبر عند لينج ولطبيعته في عدم التحمل ، لذا ليس من المفاجيء أن نجده ، كما سنرى في الفصل القادم ، يقول انه بقي هناك بمحض ارادته .

والواضح ان رسالة لينج المؤرخة بكلمة «الاثنين» كتبت عشية رحيله الى تمبكتو ، وقبل رسالة ١٠ يوليو ، اليوم الذي غادر فيـه محمد الى طرابلس . وقد قال محمد بأن سيده كان مقرراً له أن يغادر الى تمبكتو بعد ستة عشر يوماً ، ويبدو انه كان صائباً .

وقال محمد أيضاً ان بلدة مختار تقع على مسيرة خمسة أيام من تمبكتو بخطى الجمل السريعة ، ونعرف ان لينج وصل في السابع عشر من اغسطس. ولكن لينج لم يكن قد شفي تماماً بحيث يستطيع السفر في ذلك الوقت . هذه الظروف كلها تشير الى شروعه في السفر في أواخر يوليو أو الأيام الأولى من أغسطس .

وفي هذه المرحلة الأخيرة من رحلته الكبيرة كان يصحبه ، أو بتعبير دق ، كان تحت رعاية الخضر ، ابن أخي باباني . وقـد كان هذا الرجل مع لينج وقـت الهجوم في أهنت ولكنه عندما تأخر عمه ولينج واصل سيره مع بقية القافلة الى أروان ومنها الى تمبكتو . ثم عاد واجتمع مع لينج عندما دعاه ابن المختار بعد موت عمه .

وتتفق الفقرة التالية ، من تقرير أُرسل الى البـاشا حول موت لينج بعد وقت طويل ، مع شهادة محمد ، والتقرير مؤرخ في ٢١ صفر عام ١٢٤٤ هـ (٣٠ أغسطس ١٩٢٨) :

« وصل الشيخ باباني الى مقر إقامة الشيخ محمـد مختار وكان معـه مسيحي انجليزي في جروح بالغة خطرة وعلى حافة الموت . لذا ظل الشيخ

باباني معه مدة شهرين في بلد الشيخ مختار ، ولكن أجل باباني جاء قبل أجله فمات . وبعد موته واصل المسيحي إقامته عند الشيخ مختار مدة شهرين آخرين عندما انتقل ذلك الرجل الصالح الى رحمة الله . وعندها خلفـه ولده الذي نقل المسيحي تحت رعاية بعض أصدقائه الى حاكم تمبكتـو ، الأمير عثمان بن أحمد »

الفَصلُ التاسِع

تمبكتو

لقد وصل لينج الآن الى أشد المراحل حساسية في رحلته ، وليس عجيباً أن يقرر العودة الى طرابلس آخرُ من رافقه منها ، وهو محمد سائق الجمال ، فكان لينج نفسه ، كما سنرى الآن ، تحت ضغط مستمر ليفعل ما فعله محمد .

ذلك لأن النصف الثاني من سنة ١٨٢٦ كان يتميز بغزو تتعرض له تمبكتو من جانب قبائل فولاني ومسّينا ، مما يجعل زيارتها أمراً غير مناسب من جانب أي غريب ، وخاصة اذا كان مسيحياً . وربما كان هذا الأمر واضحاً عند الشيخ مختار الصغير ، الذي كان متلهفاً كوالده في حماية المسيحي الغريب الذي ظل مدة طويلة يأوي تحت سقف الأسرة الكريمة . ولكن جميع الجهود لإقناع لينج بالعودة قد فشلت ، رغم انه ربما كان ما يزال مريضاً وله عذره الوجيه في الاستسلام . وقد ساعد لينج على التصميم ما وجده من كرم ولطف ومعاملة من جانب مضيفه الذي كان يتمتع بنفوذ يؤمّن له دخولاً ميسوراً ، بل ودّياً الى تمبكتو ، وكذلك

يوفّر له المساعدة والنصيحة[1] .

وقد أعد حسونة دغيس بعد سنوات ، وفي ظروف مسجلة في هذا الكتاب ، تقريراً لرئيس الوزراء البريطاني اللورد غودريش ، عما حدث للينج . ولا بد أن يكون هذا التقرير ، الذي جمعه دغيس على ضوء المعلومات التي استطاع جمعها من مصادر افريقية، قد كُتب خلال ست سنوات من موت لينج ، أي عندما كانت آخر حوادث حياته ما تزال في أذهان الناس واضحة جلية ، رواها من شاهد تلك الحوادث مشاهدة عيان .

وهذا ما كتبه دغيس :

لا يعتبر الشيخ المختار رجلاً فاضلاً وقوياً فحسب ، بل هو أيضاً علاّمة شفاف البصيرة ... وليس هدفي الحالي بيان هذا الأمر وانما أذكر هذه الحقائق فقط لأبين ان الشيخ المختار ، من موقعه الممتاز ، ومن وعيه وفهمه وشرفه ، هو أفضل من يؤكد الوضع ويوضح الحقيقة .

إن والد الشيخ الحالي ، لم يستقبل الرحالة بلطف فقط ، بل كان يكرمهم بضيافته شهوراً عديدة . وهناك عنده مات باباني ، دليل البعثة، متأثراً بجروحه[2] .

وعندما شفي الرائد لينج من جروحه لما لاقاه من عناية ، وألح على الرحيل الى تمبكتو ، حاول الشيخ الحالي ، الذي خلف أباه، ثنيه عن عزمه موضحاً له الخطر الذي يتهدد الأوروبي من عدوان القبائل ، وحالة الاضطراب التي تسود البلاد المحيطة بتمبكتو ، وأوضح له ان تمبكتو قد

---

١ يعتبر الكرم صفة مميزة دائمة عند أهل السودان (وسط افريقيا) كان يتمتع بها كل الرحالة ابتداء من ابن بطوطة في القرن الرابع عشر إلى بارك وبارث في القرن التاسع عشر . وكان لطفهم الغريب مع الغرباء هو الذي يميزهم بصفة خاصة عن قبائل الصحراء القاسية .

٢ كان لينج قد ذكر من قبل بأن باباني مات نتيجة الاصابة بمرض يشبه الحمى الصفراء .

أصبحت تخضع لنفوذ بللو زعيم فيللاته أو فوله (فولاني) . ولكنه عندما رأى تصميم ضيفه على الرحيل أرسله الى تمبكتو مع حماية كبيرة يقودها أحد أقاربه .

ويبدو ان رسالة حمد لابو كانت قد وصلت[1] . ومع ذلك ، واحتراماً للشيخ المختار استقبل الرحالة استقبالاً ودياً في تمبكتو من جانب زعماء ذلك البلد . ويبدو ان الرائد لينج مكث في تمبكتو عدة أسابيع . ولست أعرف إلا القليل عن الأحداث التي جرت معه هناك إلا ما أستخلصه من وثيقة أحضرها الى طرابلس «الخضر» ، ومن بعده محمد الفزاني[2] . فقد احتاج نقوداً وحاول الحصول عليها من الأشخاص الذين تعرف عليهم . ولم ينجح في البداية ، إلا انه عندما أظهر رسالة الاعتماد التي منحها له والدي قدم له نفس الأشخاص النقود التي طلبها . وهناك حقيقة أخرى أعرفها ، وهي ان جميع أعيان تمبكتو اتحدوا مع الخضر في محاولتهم إقناع لينج بالعدول عن السفر على أي طريق سوى الطريق التي جاء منها . وقد قيل له انه طالما جاء الى تمبكتو ووجد فيها ملجأ تحت حماية المختار ، فإن أفضل طريق له أن يعتمد على نفس الحماية في عودته ، لأن جميع الطرق الأخرى محفوفة بالمخاطر المهلكة .

عندما وصل « رينيه كاليه » الى تمبكتو في ابريل من سنة ١٨٢٨ كان من الطبيعي أن يتحرى عن جوردون لينج ، ولكن سفره كمسلم وخشيته من كشف تنكره منعه من القيام بتحريات مستفيضة خشية أن يثير الاتهام بأنه هو أيضاً مسيحي . وقد أرجع حسن المعاملة التي وجدها لينج من جانب أهل تمبكتو الى الشخصية العالمية للجالية التجارية فيها .

---

١ حمد لابو ، أو حمادو لوبو كان كان قد مات وورثه ابنه القوي سيكو حمادو وستبدو الرسالة فيما بعد .

٢ كان محمد الغزالي خادماً لرحالة سابق ، وعلم عن وفاة لينج عندما كان في توات .

فالتسامح « ربما يرجع الى أن المغاربة الذين يقيمون في تمبكتو يأتون من طرابلس والجزائر ومراكش ، ولاعتيادهم على مشاهدة المسيحيين في بلادهم فهم أقل استياء من حيث عباداتهم وعاداتهم ... وهكذا يسهل علينا تصور لينج حراً في فحص كل أجزاء المدينة، حتى دخول المساجد».

وعلم كاليه أيضاً كيف كان يمضي لينج جزءاً من وقته في تمبكتو ، فيضيف :

« يبدو انه بعدما تعرف تماماً على تمبكتو ، رغب في رؤية كباري وجوليبه (النيجر) . ولكنه لو غادر المدينة أثناء النهار لتعرض لخطر الطوارق ، الذين يحومون حولها باستمرار . وصمم على السفر ليلاً ، فكان بذلك حكيماً . لأن الطوارق رغم انهم لم يكونوا يجرؤون على إيذائه وهو في المدينة ، فإنهم سينتقمون منه لو قبضوا عليه خارج حدودها ولقتلوه ونهبوه .

واستغل الرائد لينج حلول الظلام فاعتلى فرسه لا يرافقه مواطن واحد، ووصل الى كباري ، وقيل وصل الى ضفاف جوليبه دون حادث . وعندما كان في طريق عودته الى تمبكتو تمنى لو سافر الى أوروبا ، لا عن طريق الصحراء ، بل عن طريق جني وسيجو ثم ركوب جوليبه حيث يمكنه الوصول الى المصانع الفرنسية في السنغال ... ولكن أهل فوله الذين يسكنون على ضفاف جوليبه عندما سمعوا خطته أعلنوا بأنهم لن يتحملوا رؤية نصراني يطأ بلدهم بأقدامه ، وانه لو قام بالمحاولة لندم على ذلك » .

والواقع انهم قاموا بخطوات للتأكد من سد الطريق في وجه لينج . الى تمبكتو وصلت الرسالة التالية الى حاكمها من سيكو حمادو ، شيخ فولاني :

« الى الحاكم عثمان بن الحيض أبو بكر ، والى اخوانه في الحكم . أود أن أحيطكم علماً بأني سمعت عن رحالة مسيحي يرغب في زيارة

بلدنا ، ولكنني لا أعرف هل وصل أم لا الى (تمبكتو) ، فعليكم منعه من دخولها إن لم يكن قد وصلها ، أما إذا كان قد وصل ، فأخرجوه منها ، وانزعوا من صدره أي أمل في العودة الى بلادنا . لأنني تلقيت منذ قليل رسالة من بللو دانفودة ، (السلطان بللو) أُمرت فيها بمنع أي أوروبي من زيارة السودان بلاد المسلمين . وكان السبب في ذلك وصول رسالة من مصر تذكر مساوىء وفساد المسيحيين وما ارتكبوه في ذلك البلد ، وفي الأندلس وغيرها من البلدان فيما مضى » .

وقد أسعدنا الحظ أيضاً بوجود نسخة حقيقية عن الرسالة التي أرسلها الشيخ المختار الى باشا طرابلس حول زيارة لينج لتمبكتو ، تقول ترجمتها :

« ثم أصر هو (لينج) على إرساله الى تمبكتو بصحبة حماية تحرسه ثم تركه يواجه مصيره ... ثم أعطيناه جمالاً وسلمناه لأحد أقاربنا الذي رافقه حتى تمبكتو دون أن يحدث له أي مكروه .

وعند وصولهم الى تمبكتو جاءت رسالة من حمد بن محمد لابو الطولاني (فولاني ؟) الذي يملك ويتزعم بلاد جني وما جاورها ، ينصح فيها ويأمر بمنع مرور المسيحيين الذين يقدمون بحراً الى دواخل السودان عن طريق تمبكتو وجميع الأماكن التي تخضع لحكمه .

ويضيف بأن هذا المنع هو أمرٌ من عاهل المؤمنين السلطان بللو ، الذي جعله يفهم نوايا المسيحيين ، ويقول بأن السودان ضعيف ، وان نتائج هذه الزيارات من جانب المسيحيين ستكون وخيمة ، وسبباً في حرب دائمة .

وعند وصول هذا الأمر احتار زعماء تمبكتو بين إطاعة أوامر سلطانهم الجديد وبين التوصيات التي وصينا بها . ولكي يوفقوا بين الاهتمامين ، سمحوا له بالاقامة في تمبكتو نحواً من شهر دون السماح له بالمرور عن

طريق الماء ، حتّى التقى بعدو الله ورسوله حمد بن عبيد بن رشال البربوشي ، الذي أغراه بقدرته على إرشاده للوصول الى اروان ، ومنها يركب سانسندبنج ويواصل طريقه الى المحيط العظيم » .

وقبل التوجه الى اروان كتب لينج الرسالة التالية الى وارنجتون :

من الرائد أ. جوردون لينج الى هانمر وارنجتون :

تمبكتو في ٢١ سبتمبر ١٨٢٦

عزيزي القنصل ،

أكتب اليكم رسالة قصيرة لأعرفكم والعزيزة إمّة عن وصولي ورحيلي عن العاصمة العظيمة لوسط افريقيا ، فقد وصلت في الثالث عشر من الشهر الماضي ، وسأرحل في ساعة مبكرة من صباح غد (إن شاء الله). لقد تخليت عن كل تفكير في الرجوع الى طرابلس وأتيت الى هنا عازماً على التقدم الى جني عن طريق الماء ، ولكن هذا العزم أُفسد تماماً ، وتُعتبر اقامتي في تمبكتو غير آمنة للنظرة العدائية من جانب فولة مسينا ، القبيلة التي أفسدت هذا العام سيطرة الطوارق وجعلت من نفسها سيدة تمبكتو ، والتي أعرب سلطانها عن عداوته لي في رسالة تلقاها منه القايدي أبو بكر شيخ هذه المدينة بعد أيام قليلة من وصولي — لقد عرف الآن عن وجودي في تمبكتو ، وهو يحث القايدي أبو بكر ، الرجل الممتاز الذي يحرص على سلامتي ، على ترحيلي المباشر ، وأنا آسف إذ أقول بأن الانذار قصير جداً ، وان عليّ الكثير مما أفعله قبل مغادرتي ، لذا فإن هذه الرسالة هي الوحيدة التي أستطيع إرسالها حالياً . انني أنوي التوجه الى سيجو حيث آمل الوصول اليها في مدى خمسة عشر يوماً ، ولكنني أسف لذكر ان الطريق كريه وان مصائبي لم تنته بعد ، ولكنني أثق في

معونة الله الذي حماني في أسوأ الظروف والمخاطر التي تعرضت لها . ليس عندي وقت لكتابة تقرير لكم عن تمبكتو ، ولكنني أوضح باختصار انني وجدتها في كل شيء ، عدا حجمها (لا يزيد محيطها عن أربعة أميال) ، كما تخيلتها تماماً — تبعد « كبارة » عنها خمسة أميال فقط ، وهي مدينة تقع على حافة النهر . لقد كان وقتي مزدحماً طيلة إقامتي ، أبحث عن سجلات المدينة الوفيرة وفيها معلومات من كل نوع . انني الآن مقتنع بأن فرضيتي عن نهاية النيجر صحيحة .

بارك الله فيكم جميعاً . سأكتب لكم من سيجو بالتفصيل ، وسأكتب كذلك للورد باثورست ... وأرجو ان تغفر لي إمّة كتاباتي ، لقد بدأت ألف رسالة لها ، ولكنني لم أستطع إكمال واحدة منها . انني أتطلع بشغف الى ساعة اللقاء بكم ، وهي ليست بعيدة ان شاء الله .

المخلص لكم

أ. جوردون لينج

كان من النادر أن يغادر لينج مكانه حسبما كان يتوقع ، ولكن رحيله عن تمبكتو كان أمراً مغايراً ، إلا انه لم يبدأ السفر حتى الثالثة من بعد ظهر الثاني والعشرين من سبتمبر ، يصحبه خادماه بنجوله (الزنجي الذي حرره) وصبي عربي . أما محمد بن عبيد فإما أن يكون بدأ معه السفر أو لحق به فيما بعد . وهذا الرجل ، وهو شيخ متعصب من قبيلة بربيس التي كانت تسيطر على الطريق الى اروان ومشهور باسم أحمدو لبيدة . ويقال بأن شيخ تمبكتو ائتمنه على رعاية لينج ، فسافرا برفقة قافلة من العرب ربما كانت متوجهة الى مراكش . وهنا نستطيع استئناف القصة التي أرسلها المختار لباشا طرابلس .

« ورحلا معاً من تمبكتو . وعندما وصلا منتصف الطريق ، أمر

المرشد عبيده بالقبض على الرحالة بطريقة تنم عن الجبن وأن يسوقاه الى الموت سيقة شنيعة[1] ... وبعد هذا العمل المثير فتش حقائبه . ومزق كل شيء لا يفيده من أوراق ورسائل وكتب ، ورماها في الهواء ، خوفاً من وجود السحر بها ، واحتفظ بالمواد والأشياء القيمة . هـذه هي قصة ما حدث ، وان الذي ينتقص منها شيئاً أو يزيد عليها ليس بأمـين يقول الحقيقة » .

يجوز لنا أن نشك فيما اذا كان المختار كتب للباشا كما يدعي الثاني ، لأنه من غير المحتمل أن يكتب شيخ مسلم الى حاكم مسلم يستنكر موت مسيحي بهذا الشكل[2]. ومع ذلك فقد تأكدت كيفية موت لينج في السنوات التالية بما يوضح ان ما قاله المختار في رسالته للباشا لم يبتعـد كثيراً عن الحقيقة .

وبعد سنتين من موت لينـج عاد بنجولة الى طرابلس ، وفيهـا تم استجوابه في أول سبتمبر ١٨٢٨ من قبـل وارنجتون عن كيفية القتل ، وسجل وارنجتون حول ذلك ما يلي :

ما اسمك ؟

– بنجولة .

هل خدمت الرائد لينج ؟

– نعم ، وأخرج الورقة التالية :

« ازواد ، في ٢٣ يوليو ١٨٢٦ .

---

١ كان ذلك في ٢٤ سبتمبر .

٢ كان في بداية الرسالة قد سمى القاتل « عدو الله ورسوله » فقد كان الباشا في ذلك الوقت متهماً من جانب البريطانيين بأنه ساعد على سرقة أوراق لينج وربما مقتله . لذا أراد أن يضع نفسه ومراسله في موقف ودي نحو المسيحيين .

« أعد بأن أدفع لحامله بنجولة مبلغ ست دولارات شهرياً ابتداءً من ١٥ ديسمبر ١٨٢٥ حتى عودتي الى غدامس ... أ. جوردون لينج » .

متى دخلت في خدمة الرائد لينج ؟

– من طرابلس حيث ذهبت مع بنجولة[١] ، مرشد الرائد لينج .

هل كنت مع لينج عند الهجوم الأول ؟

– نعم وجرحت (كاشفاً عن رأسه) .

هل بقيت مع لينج في بلد مختار ؟

– نعم .

هل رافقت الرائد لينج الى تمبكتو ؟

– نعم .

كيف استقبل الرائد لينج من جانب أهل تمبكتو ؟

– استقبل استقبالاً حسناً .

كم بقي في تمبكتو ؟

– حوالي شهرين ؟

هل غادرت تمبكتو مع الرائد لينج ؟

– نعم .

هل كان الرائد لينج مضطراً لمغادرة تمبكتو ؟

– الرائد لينج رغب في المغادرة .

من ذهب معك ؟

– قافلة من العرب .

في أي اتجاه ذهبتهم ؟

– كانت الشمس على يميننا .

---

١ الواضح انه يعني هنا باباني .

هل كنت تعلم المكان المتجه اليه ؟

– الى سانسندنج .

هل رأيت أي ماء ، وهل تقدمتم دون مضايقة في اليوم الأول ؟

– لم نر ماءً ولم نواجه مضايقة . وقد سافرنا من الثانية عشرة ظهراً الى قرب العشاء .

نفس السؤال في اليوم الثاني ؟

– لم نر ماءً ولم نضايق ، وسافرنا من الفجر الى الثانية عشرة .

نفس السؤال في اليوم الثالث ؟

– لم نر ماءً ولم يضايقنا أحد أثناء النهار ، ولكن العرب ليلاً هاجموا سيدي وقتلوه .

هل كان الهجوم على القافلة أم على سيدك فقط ؟

– لا أعرف .

هل قتل أحد بالإضافة الى سيدك ؟

– لقد جرحت أنا ، ولكنني لا أستطيع القول بأن أحداً مات أم لا .

هل كنت نائماً بجوار سيدك ؟

– نعم .

كم جرح أصيب به سيدك ؟

– لا أستطيع التحديد ، ولكن الجروح كلها كانت بالسيوف ، ورأيت في الصباح رأسه مفصولاً عن جسده .

هل ارتكب جريمة القتل الرجل الذي كان يرشد سيدك ؟

– ان الشيخ بربوس الذي كان يرافق الريس قتله وساعده في ذلك خدمه السود حيث أصابوه بجروح كثيرة أثناء نومه .

ماذا فعل الشيخ بعد ذلك ؟

– ذهب لبلده . وأعادني عربي الى تمبكتو .

ماذا كان يملك سيدك عند مقتله ؟

ـ جملان . واحد يحمل الأمتعة والآخر يحمل سيدي وحقائبه .

أين كانت أوراق سيدك ؟

ـ لقد صعقتُ من الجرح الى درجة انني لم أفكر في الأوراق .

هل أعيدت الأوراق الى تمبكتو ؟

ـ لا أعرف أكانت في حقيبة أم جلد .

لما كان بنجولة هو الشاهد الوحيد على مقتل لينج وظل تقريره مصوناً ، كان لشهادته أهمية كبيرة . ولكنه في وقت استجوابه من جانب وارنجتون كان يقع تحت نفوذ الباشا ودغيس ويخافهما ، لذا كانت شهادته عن لينج تخضع للشك . أما الباشا ودغيس فلم يكونا بأي حال مجال تورط في موت لينج ، إلا انهما كانا يعرفان ارتياب وارنجتون بهما ، لذا كان اهتمامهما الوحيد فيما يقوله بنجولة التأكد من قوله الحقيقة . ولكن ما قاله كان من وجوه عديدة يتناقض مع التقارير الأخرى المعاصرة والقريبة من ذلك الوقت حول ما حدث. ورغم ان هذه التقارير لم تكن مستقاة من مصادر مباشرة مثل بنجولة ، إلا انها كانت تدعو للقيام بفحص وتدقيق شهادة بنجولة.

كان كل بيان أدلى به في الاستجواب صحيحاً إلا ما قاله عن قضاء لينج مدة شهرين في تمبكتو ، وهذه مبالغة بسيطة لا تؤخذ على رجل لا يعني الوقت عنده أمراً كبيراً .

ولكن عندما قام ف . ج . كلوزل حاكم السنغال ـ النيجر سنة ١٩١٠ وطلب من رجل اسمه بونيل دو مزير بالبحث عن ظروف موت لينج واختفاء يومياته ، ظهر تقرير عن موته يختلف نوعاً ما عما سبق .

فقد وجد دو مزير رجلاً عجوزاً من البرابيش في الثانية والثمانين ، وهو ابن أخ لأحمد لبيدة ، تربى عنده وكان يقص عليه كيف قتل لينج وأشار الى المكان الذي قتله فيه .

ويقول ذلك الرجل ان لينج كان يسير أمام لبيدة يصحبه اثنان من

خدمه على الطريق الى أروان . وعلى بعد نحو من ثلاثين ميلاً من تمبكتو وصلوا الى مكان يسمى «السحاب» حيث استراحوا في ظل شجرة من الأثل .

وظهر فجأة أربعة من راكبي الخيول ، ثبت انهم لبيدة ورجل يسمى محمد مزجي ولد عبدالله ورجلان آخران . واتجه لبيدة الى لينج وطلب منه الدخول في الاسلام . وعندما رفض ذلك أمر رجاله بقتله ، ولكنهما ترددا في ذلك . وعندما أصر الشيخ على ذلك قام رجلان بالقبض على ذراعيه وزرع لبيدة رمحه في صدر الرجل الأعزل . وأجهز فرجي عليه وقطع رأسه ، وقتلوا أيضاً الفتى العربي .

وأحرقت جميع ممتلكات لينج بما في ذلك أوراقه خوفاً من السحر ، وذلك عدا النقود التي تقاسمها الرجال الأربعة .

وتركت الجثتان دون دفن عند جذع شجرة ، ثم مر في ذلك اليوم أحد البرابيش ودفنهما .

والملاحظ ان هناك فرقاً واختلافات بين شهادة بنجولة وبين التحقيق السابق الذي أجراه دومزير . فقد قال الأول ان الهجوم جاء ليلاً أثناء نومه بجانب سيده ، وان القتل حدث بالسيف . بينما يروي الثاني ان الهجوم كان نهاراً بعدما طُلب من لينج الدخول في الإسلام ، وعندما رفض ذلك طُعن بالرمح . ولكن كيف جُرح بنجولة وقُتل الخادمان ؟ من المستبعد أن يكون ذلك قد حدث في محاولتهم للدفاع عن لينج ، والأرجح أن يكون الهجوم حدث ليلاً وتعرض الثلاثة للهجوم كما تعرض له لينج . ثم ان الهجوم ليلاً هو المألوف في تلك البلاد ، كما حدث في وادي أهنت .

وقد تم العثور على جمجمتين تحت الشجرة وكشفت عليهما مصادر طبية أفادت بأن إحداهما لشاب أبيض وان الأخرى لولد عربي .

والواقع ان شهادة بنجولة ومعلومات دومزير متضاربتان في كثير من المواقع ، ويشك البعض في أمر الجمجمتين وفي حدوث العدوان في سحاب نفسها . وتبين تحريات دومزير مكان الحادث بينما تشير شهادة بنجولة إلى انه حدث في اليوم الثالث من السفر . وتبعد سحاب ثلاثين ميلاً عن تمبكتو ، وهذا لا يتعارض مع كون لينج وصلها في اليوم الثالث لأنه بدأ سفره متأخراً في اليوم الأول .

وفي ظل هذه الظروف كلها يمكننا الاستنتاج بقليل من الشك بأن شهادة بنجولة هي الأقرب للتصديق ، ويمكن القول عموماً بأن لينج مات في سحاب في آخر الليل من يوم ٢٤ سبتمبر ١٨٢٦ .

الفَصـلُ العَاشِر

البحث عن لينج

كانت الصحراء رغم اتساعها وقلة سكانها منطقة ذات أسرار قليلة . ومما كان يفاجىء دارسي الصحراء وتاريخها دوماً أن كـل انسان في هذه الصحراء الهائلة يعرف ما يقوم به غيره من الناس وما يحدث فيها. والسبب في ذلك ان قوافل التجارة التي كانت تجوب الصحراء من كـل جانب كانت تحمل معها ما يقال ويتحدث به الناس في جميع الأماكن التي يزورونها ، من أكبر الأسواق الى أصغر الواحات في قلب الصحراء. وفي مطلع القرن التاسع عشر لم يكن شيء يثير من الشائعات والأقاويل مثلما يثيره مرور أحد الأوروبيين . كان مرور أحدهم دائماً أمراً نادراً وحادثاً يلفت الأنظار في الصحراء ، ولكن ذلك أصبح أمراً أقل غرابة ، لكنه أصبح يثير الريب والأفكار المزعجة ، وبالتالي أصبـح مصير ونشاطات الرحالة الأوروبيين عرضة لزيادة الشك ومصدراً ثرياً للاشاعات والأقاويل . وهكذا كانت اقاويل الصحراء تعتبر في طرابلس التي يمر بها الكثير من القوافل، مصدراً للمعلومات غير الموثوقة عن كل من لينج وكلابرتون رغم اتساع المسافات الفاصلة بين الاثنين . لذا لم يمر وقت طويل قبل وصول الاشاعات حول موت لينـج الى أذني وارنجتون وأسرته .

كان القلق حول لينج قد اشتد بسبب قلة الأخبار عن الحادث الذي مات فيه . وكان وارنجتون يبالغ في تخيله لنفوذ الباشا الذي كان يعتقد انه يمتد حتى تمبكتو على الأقل ، الأمر الذي حدا به للشك في أن يكون الباشا يعرف ما حدث للينج ويخفي ذلك عنه متعمداً ، أو انه يستطيع معرفة ما حدث بسهولة لو أراد ذلك . وكان وارنجتون يستغل كل فرصة لزيارة أي سفينة بريطانية لميناء طرابلس للضغط على الباشا ، ولما كان الباشا لا يعرف في الواقع ما حدث للينج : لم تأت الضغوط البحرية بشيء ، الأمر الذي جعل وارنجتون يفسر صمت الباشا بأسباب شريرة .

وأخيراً ، وفي نهاية شهر مارس ١٨٢٧ ، أرسل له الباشا رسالة تلقاها من رجل يسمى محمد الواشي ، غير مؤرخة ولكنها موجهة من غدامس كما هو واضح :

« الى صاحب المعالي الباشا .. تحيات .. الخ .

بخصوص ما كتبت لي حول المسيحي ورغبتك مني في إرسال من يتحرى الأمر وإحضار معلومات موثوقة ، جهزت للأمر كل شيء وأرسلت المواد وكنا ننوي السفر عند الفجر ، ولكن حضر أناس عند المساء قادمين من توات يحملون لي رسالة من صديقي ، تذكر ان المسيحي مات بعد وصوله تمبكتو حيث وصلها مع ابن الشيخ مختار . وبعد وصولها استولت فلاته على تمبكتو وطلبت إخراج المسيحي منها وإلا سلبوا المدينة . وعندما عرف أهل تمبكتو تصميم فلاته على ذلك ساعدوه على الهروب وأعطوه رجلاً يرشده الى « بنبارة » (Bambarra) ، ولما سمع فلاتـه بذلك لحقوا به وقتلوه في الطريق . هذا هو الخبر الصحيح » .

وأرسل وارنجتون نسخة من هذه الرسالة ، مع الرسالة التالية المرفقة :

من هانمر وارنجتون الى اللورد باثورست :

طرابلس في ٢١ مارس ١٨٢٧

سيدي اللورد ،

يشرفني أن أشير الى أن المرفقات رقم ١ و ٢ هما نسختان من رسالتين أحضرتا إلي هذا الصباح ...

انها أخبار محزنة حقاً سيدي، ورغم عدم تأكيدها تماماً إلا انني أخشى أن تكون حقيقية ، ولكن أرجو الله ألا تكون كذلك .

إن الثقة التي لم تكن في محلها بهذا الباشا ، ويمكن أن أضيف سلوكه المخادع ، هما السبب في مقتل ضابط شجاع ورجل بريطاني عظيم، وهذا يكفي ، معالي اللورد ، أن يولد عندكم كل شعور بالحزن ، بغض النظر عن حرمان بريطانيا من المعلومات التي ضاعت بسكب دم ذلك الرجل .

ومما يقوّي هذا الاتهام الرحلة اللاضرورية التي رسمها الباشا للينج بالتوجه أولاً الى غدامس ، والأربعة آلاف دولار التي منعهـــا عن باباني لتقديم حماية جيدة للينج ... واحتجاز رسائل لينج ... ولا بد أن يكون احتجاز لينج في بلدة مختار هو من صنع الباشا.. .إن وعوداً كثيرة وُعدت ولكنها لم تُوفَّ ... ولو ان لينج مات حقاً لكان علينا أن نطالب الباشا بجميع نفقات الرحلة،لأن البعثة انطلقت بناءً على وعود الباشا والثقة به وبنفوذه في الدواخل ..

إن الشيخ بوطبل يقول بأن رسالة وصلته وكأنما تذكر بأن كلابرتون وصل سليماً الى كانو ...

ه. وارنجتون .

من هانمر وارنجتون الى اللورد باثورست :

طرابلس في ٢٠ ابريل ١٨٢٧

سيدي اللورد ،

يشرفني أن أذكر لكم بأنني قابلت اليوم (الباشا) للحديث حول الرائد لينج والنقيب كلابرتون .

لقد أخبرت الباشا بأنني كنت أعمل دائماً هنا لتقوية أواصر الصداقة والتفاهم ، ولكن الوضع الحالي يدل على سوء النية الى درجة أضطر معها الى تقديم كافة التفاصيل .

أشرت الى مبلغ الثلاثة آلاف دولار ، فرغم ان الباشا دفعها بعد ذلك إلا انها لم تؤمن للينج حراسة قوية . وأشرت كذلك الى مبلغ الألف دولار التي أُعطيت لنفس الغرض ولم تدفع .

وسألت الباشا اذا كان لديه اعتقاد بصحة الأخبار (وفاة لينج) فأجاب بأنه يرى انها مجرد شائعات .

وأخبرت الباشا انه رغم معاملة مختار الحسنة له فإنه كان ما يزال كأسير ، ولا أستطيع أن أوفق بين الرسالة الودية لمختار وبين تصرفه (مع لينج) .

وذكرت عدم وفاء سعادته لوعده بإرسال أخا باباني في يوليو الماضي. واتهمت باباني بخيانة لينج في الهجوم الأول بإعطائه اللصوص الرصاص، وفي رغبته بألا يحشو لينج بندقيته ومسدساته الليلة السابقة للهجوم ، وفوق كل ذلك بوقوفه متفرجاً خلال الهجوم دون تقديم أي مساعدة ما .

وقد أخرجت له كتاباً به عناوين ٢٤ رسالة معظمها سُلمت للسيد دغيس لإرسالها (الى لينج) وأكد لي بأنها أرسلت الى تمبكتو ولكنني وجدت انها لم تصل غدامس ، ولولا انها مختومة بطريقة لا تفتح لاعتقدت

ان السيد دغيس قد فتحها . لقد اتهمته بعدم الثقة في عدم إرسال رسائل لينج ......

وقلت له لو ان السيد دغيس موجود لاتهمته بسوء النية بخصوص الملابس التي سلمت لأخيه لإرسالها للسودان ...

واتهمت الوزير بسوء النية في أمور أخرى أثبتها لـه . فأجاب الباشا بأن حسونة لا بد أن يكون رجلاً سيئاً وغير وفي لأنني أنقذته من النفي. وغضب الباشا ولكنني رجوته بألا يعاقبه نظراً لمقام أسرته الرفيع المحترم...

وعند عودتي للمكتب جاء حسونة يطلب الغفران ، فأخبرته انني أقابل السيئة بالحسنة رغم سلوكـه المخزي ، وانني سأستغل نفوذي لصالحه ، رغم انني لا أستطيع التعامل معه مالياً فيما بعد[1] .

وقد أكد لي بيت المال بأن كل شيء سيتخذ لتقديم كل عون ممكن.

ه. وارنجتون

من هانمر وارنجتون الى ر. هاي :

طرابلس في ٢٤ يوليو ١٨٢٧

سيدي ،

يشرفني أن أخبرك بأنني أطلعت الباشا على الرسائل المرسلة من سيراليون بتاريخ ٢٤ ابريل ، وانـه حتى ذلك التاريخ لم تصل أخبار سيئة عن

---

[1] يبقى هنالك تساؤل كبير حول مدى صحة هذا الكلام ، وإمكانية جرأة وارنجتون في مواجهة الباشا كما يدعي ، وقد رأينا من قبل بشهادة المؤلف مدى مبالغة وارنجتون في ادعاء قوة نفوذه لدى الباشا ، وقوة شخصية الباشا في مواجهة القناصل الأجانب . ولا يستبعد أن يلجأ وارنجتون لإرسال هذا الكلام إلى لندن لتخفيف اللوم عنه ... (المعرب) .

الرائد لينج. وقال الباشا انه لم يعتقد بالخبر (خبر موت لينج) منذ البداية ، ولكن الأمور ستتضح في غضون أيام قليلة لأنه يتوقع وصول قافلة غداً صباحاً .

ه. وارنجتون

٢٨ يوليو . وصلت القافلة من غدامس ومعها الشيخ الأول . أنكر الجميع صحة الخبر ، ولا يعتقد أحد في غدامس ان مكروهاً قد حدث للينج مرة ثانية . وقد أشاع الخبر أصلاً أحد الطوارق الذي أخبر شخصاً آخر عند مغادرته غدامس كي يشيع القصة المحزنة . يقول الشيخ حبيب بأن قافلة تمبكتو وصلت غدامس الآن حتماً ، ونرجو الله أن تصلنا أخبار سارة .

ه. وارنجتون

وفي ٣ اكتوبر عام ١٨٢٧ بعث وارنجتون الى لندن رسالة أرفقها بالخبر التالي الذي نشرته صحيفة « لاتوال » الصادرة بباريس حول وفاة لينج :

« من سكرة[١] ، طرابلس ، ٥ ابريل – ان الرائد لينج الذي أذيع مصيره المحزن قد وقع فعلاً ضحية مثابرته الجريئة ، ولكن بعد أن زار المدينة الشهيرة تمبكتو. وقد أطلع الباشا مراسلنا على رسالة كتبها له حاكم غدامس يخبره فيها عن الحادث ، وقد وصلت الرسالة في أقل من خمسة عشر يوماً ، لأنها أرسلت مع ساعٍ فوق العادة .

وكان الرحالة البريطانيون ، الذين قيل أولاً انهم وقعوا تحت نيران اللصوص في منطقة توات ، قد جرحوا فقط ونجوا من الخطر الأول ،

---

١ سكرة هو اسم المكان الذي كان يقيم فيه القنصل الفرنسي بطرابلس آنذاك .

ثم وصلوا بواسطة مرابط الى تمبكتو ، ولكن بعد وصولهم الى المدينة بقليل ، أمرت قبيلة «فيللان» الشديدة ، التي تحكم الآن المدينة والصحارى الهائلة بوسط افريقيا ويزيد عددها على ثلاثين ألفاً ، بأن يسلم الرحالة اليها لقتلهم ومنع المسيحيين من الوصول الى المعلومات التي يريدونها ، ومن القيام في يوم ما باختراق هذه البلدان البعيدة لاستعباد أهلها .

هذا ما قاله شيخ غدامس في رسالته للباشا . ولكن أمير تمبكتو امتنع عن تسليم الغرباء الذين استقبلهم بالترحاب ، ولكي يبعدهم عن اعتداء ملاحقيهم ، الذين لم يكن يريد إثارة غضبهم في نفس الوقت ، أرسلهم سراً الى بانبرة (Banmbara) يحرسهم خمسة عشر فارساً من حرسه الخاص ، ولكن جماعة من «فيللان» قبضت عليهم عندما علمت بهروبهم. وقد قتل لينج تعيس الحظ مع جميع مرافقيه دونما رحمة. هذه هي النهاية المحزنة للرحالة الجريء الذي كان أول من اخترق هذه المدينة الغامضة... وفي نفس الوقت قامت الفيللان ، التي تعادل مطامحها قسوتها ، بفرض ضريبة سنوية على المدينة جزاء ايوائها الرائد لينج وحمايته، ولأنها اشتركت في مشروع غزو دبّره الكفار . وقد روى الأخبار الأخيرة شيخ طرابلسي أقام في تمبكتو منذ زمن طويل. ويعلن بأن للمدينة تاريخاً حافلاً مثيراً يعود الى وقت تأسيسها سنة ٥١٠ هجرية ، أي ١١١٦ ميلادية، وهو مسطور في كتاب ألفه « سيدي حامد بربه ، وهو مواطن من أروان ، من بلاد كونتا ، وهي مستعمرة للسلطان[١] » .

من هانمر وارنجتون الى السير فريدريك هانكي :

طرابلس في ٢ أغسطس ١٨٢٧

سيدي ،

أخبرني صديق حميم وزميل محترم بأنه علم ان وزير الباشا هو كاتب الفقرة التي ظهرت في « لاتوال » حول الرائد لينج .

---

١ التعبير الصحيح هو « السودان » .

وذهبت الى القلعة وأخذت شهادة خطيــة بقسَـم من الوزير تعلن انه ليس الكاتب ولا يعتقد في كلمــة واحدة من الفقرة . ثم طرحت على الباشا الأسئلة التالية ، فأجاب عليها بصراحته المعهودة وطريقته الرجولية[1]:

س ــ هل تعتقد معاليكم ان لينج قد وقع ضحية ؟

ج ــ تقول الأخبار ذلك ولكنني لم أصدقها .

س ــ هل أرسل إليكم حاكم غدامس أي معلومات أخرى غــير التي أعرفها تجعله أو تجعلك تصدقها؟

ج ــ لقد أعطيتك الرسالة الأصلية وأنت تعرف جيداً ان تلك الرسالة مبنية على الخبر .

س ــ هل كتب إليكم حاكم غدامس أو أي شخص آخر بــأن خمسة عشر فارساً أُرسلوا من تمبكتو لمرافقة لينج الى بانبرة وانه قتل وإياهم ؟

ج ــ ان الرسالة لا تذكر كلمة واحدة عن ذلك ،ولم أتلقّ أخباراً أخرى .

س ــ هل حمل هذه الأخبار شيخ طرابلسي أقام في تمبكتو منذ وقت طويل .

ج ــ ان الذي كتب الرسالة المسلّمة لك ليس بشيخ طرابلسي، ولا أعرف بأنه ذهب الى تمبكتو قط .

س ــ هل يصرح بأن هنــالك تاريخاً شيقاً للمدينة يُرجع بناءها الى سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م.) وان مؤلفه هو سيدي حمد بابا ، مواطن من أروان ؟

ج ــ لم أسمع بذلك طيلة حياتي ، ولم أسمع بهــذا الاسم ، إلا اسم المملوك حمد بابا الذي يعمل في خدمتي منذ ثلاثين سنة ، ولكنه لم يعمل في دواخل افريقيا .

---

١ هذه شهادة من وارنجتون لصالح الباشا تختلف عن آراء سابقة ضد الباشا (المعرب) .

ان الطلبات العديدة التي وردت عليّ تريد معرفة الحقيقة حول الفقرة المذكورة ، والاهتمام الكريم من كافة الجهات دفعني لتقديم هذه الحقائق البسيطة أمام الجمهور ....

ه . وارنجتون

ويوجد مع الرسالة مرفق رقم ثلاثة ، وهو يلخص نتائج استفسارات وارنجتون، ورغم انها تكرار للشائعات القديمة إلا انها تقدم تشجيعاً بسيطاً للأمل الذي أصبح يتلاشى بسرعة حول حياة لينج . وقيل في تمبكتو بأن الناس « سمعوا عن سلامة وصوله الى سانسندينج التي تبعد عن تمبكتو مسيرة ثلاثين يوماً بالبر وعشرين بالنهر .... وهنالك تقرير في تمبكتو عن قتل لينج ، ولكنه لم يُصدّق » .

كان وارنجتون يضغط ويلح على الباشا باستمرار للحصول على معلومات عن لينج ، وأرسل الى اللورد جودريش في أول اكتوبر بأن الباشا « قد وعد وعداً مقدساً بأن يقوم في مدى ثلاثين يوماً بتقديم أخبار عن لينج وعن كلابرتون ، وانه طلب هذه المهلة لكي ينقذ سمعته الحسنة » . ومع ذلك فقد وصل في نهاية الشهر رجل يسمى محمد الفزاني قادماً من بورنو قال انه سمع في الطريق بأن لينج قد قتل ولكنه لم يصدق ذلك . وكان الفزاني يعمل في خدمة جون تيريت ومعروفاً عند وارنجتون الذي يحمل عنه فكرة طيبة . وقرر وارنجتون إرسال الفزاني الى تمبكتو لاكتشاف ما حدث للرحالة المفقود . ولكن تقريراً مجهولاً يقول : « كان الباشا غير راغب في اتخاذ اجراءات بنفسه أو السماح باتخاذها من جانب غيره، لذا طلب أحد وزرائه من السيد وارنجتون احتجاز بارجة انجليزية (ايريس) كانت في الميناء حينذاك حتى يغادر محمد طرابلس فعلاً ، لأنه متأكد انه بدون ذلك ستلقى العقبات في طريقه . وعمل وارنجتون بهذه النصيحة،

وأمدَّ محمداً بالنقود وغيرها ، وشرع في سفره ابتداءً من أول نوفمبر يصحبه بعض الناس الموفدين من الباشا » .

وبعد تسعة أشهر ، وقبل أن يرجع الفزاني من تمبكتو ، وصل الى طرابلس بنجولة يصحبه الخضر ، وأدليا بشهادة عن موت لينج . وبعدها لم يعد هنالك شك في مصير الرحّالة الأنيق .

الفَصَلُ الحَادي عَشَر

اليوميات المفقودة

بعد أن تحدد مصير لينج أصبحت الحاجة تدعو لبذل الجهود لاكتشاف ما حدث ليومياته ، ومما حتم هذه الحاجة عودة «كاليه» الى طولون في اكتوبر ١٨٢٨ . ولما كان الكثير من الفرنسيين يشكّون في ادعاء كاليه الفرنسي في الوصول الى تمبكتو ، وجد في بريطانيا عذر لمزيد من الشك في ذلك. ولكن ربما تثبت صحة أقوال كاليه ويجي هو وأبناء بلده الشرف الذي كاد يجنيه لينج وبريطانيا . أما اذا أمكن استعادة يوميات الاسكتلندي (لينج) فإن شهرة مؤلفها كمكتشف عظيم لن تضيع ، ويتم إنقاذ شرف بلده .

كان لينج في شهر مايو ١٨٢٦ ، أثناء اقامته تحت عناية المختار ، قال انه سيرسل رسائله الى طرابلس عندما يصل تمبكتو ، وتشمل هذه ولا شك يومياته لأنه تلقى تعليمات من باثورست لإرسالها من هناك. وقال لينج بأن حاملها سيكون الخضر « الشاب اللطيف » . ولكن الخضر وصل الى طرابلس يحمل رسائل لينج دون أن تكون اليوميات من بينها .

وكان ذلك نقطة تحول في بحث كان يجري منذ أشهر وينبغي مواصلته ،

مع صراع لا يهدأ بين البريطانيين والفرنسيين دام عدة سنين . ولكنها قصة طويلة لم تصل نهايتها ولم يخرج أحد بظفر مرموق . وقـد كُتب حول ذلك أكـثر من مجلد ولا يتسع المجـال هنا إلا للحديث عن ذلك ببضع صفحات .

أنكر الخضر أن يكون قد حمل معه يوميات من تمبكتو ، ولكن هذا لم يكن ذا أهمية . ويبدو انه وبنجولة كانا يسيران حسب تعليمات من حسونة دغيس ، وأن لا يقولا ما يزيد عما أراده لهما قوله . ونقـرأ ما كتبه وارنجتون بأنه « لم تفته ملاحظة الزمن الطويل الغير عادي الـذي استغرقه وصول الرسائل وخاصة الرسالة المؤرخة في العاشر من مايو التي كان يحملها الخضر أيضاً ... ثم وصوله أخيراً بدون الرسائل التي أعرب لينـج عن نيته في إرسالها مـع الخضر أيضاً ... ولم تهدأ مخاوف وريب وارنجتون من وجود لعبة ما ، خاصة وانه منع من مقابلة الخضر والزنجي (بنجولة) ، وكان كلاهما يقيمان في ضيافـة حسونـة دغيس وندر ما ذهبا الى القنصلية البريطانية ، وأقسما انهما لا يحملان أوراقاً للرائد لينـج أو تفصيلات أخرى عن مقتله، ولم يمكن الحصول على ما يلقي ظلاً على مصير الأوراق .

ولما كان من المعتقد بأن مصدر الخبر الذي ظهر في صحيفة «اتوال» هو حسونة دغيس ، أصبح هنالك مجال للشك بأنـه قد سرق اليوميات ليقدم خدمة لصديقه البارون روسّو القنصل الفرنسي. وبحلول شهر اكتوبر اقتنع وارنجتون بذلك وان اليوميات « ستخرج الى الضوء اذا تم الإلحاح على ذلك » .

وبعث وارنجتون رسالة الى وكيل وزارة المستعمرات بلندن يعرب عن اعتقاده بأن اليوميات عند القنصل الفرنسي ، مقدماً بعض الحجج، ومطالباً بأن تتدخل الحكومة للحصول على المعلومات .

وفي الشهر التالي أرسل وارنجتون الى « هاي » وكيل وزارتـه ، بأن لدى دغيس نسخة من « رحلات ابن بطوطة » ، وانـه يتوقع استلام نسخة من كتاب « تاريخ تمبكتو » ، ووصول مؤلفه من توات وهـو «سيدي علي بابا الارواني» . كان وارنجتون يتجه في البداية الى السخرية من ذلك ، لا لأن علي بابا الارواني أو بالأصح أحمد بابا ، أشهر علاّمة في السودان ، قد مات قبل مائتي سنة ، ولكن لأنه كان لا يعتقد باهتمام أي افريقي بتاريخ بلده ، فيقول في رسالته : « والآن أريد أن اتساءل : هل من المعقـول أن يقوم هذا (سيدي علي بابا) بفحص السجلات والآثار وكتابة تاريخ تمبكتو — صدقني ان صحناً من الكسكسي هو أكثر جذباً للبحث من ذلك التاريخ عند أي مغربي »[١] .

ولكن هذا الخبر عن وجود تاريخ لتمبكتو في طريقـه الى طرابلس أوحى لوارنجتون بفكرة جديدة ، فسأل نفسه : أيمكن أن يكـون هذا التاريخ والكتاب هو الذي تخيل لينج أن قد حصل عليه في تمبكتو ؟ وذكّر « هاي » بـأن لينج كتب اليه من هناك قائلاً : « انني منهمك منـذ وصولي في البحث والتفتيش في سجـلات المدينـة ، وهي هائلة تضم معلومات من كل نوع » ... ولكن وزارة المستعمرات لم تجد في كلام لينج ما يثيرها أو يدل على كيفية شغل أوقاته في تمبكتو. فأرسل وارنجتون يقول : « انني محق تماماً في الاعتقاد بأن لينج يمتلك تاريخ تمبكتـو » . وربط بين ملكية الكتاب وملكية يوميات لينج .

---

١ الواقع انه يوجد كتاب « تاريخ السودان » ويغطي الكثير من تاريخ تمبكتو . وقد اكتشف بارث نسخة منه في « هاوسة » سنة ١٨٥٣ ومؤلفه أحمد بابا ، ويشار اليه أحياناً « علي بابا » ، وأحياناً « حمد بابا » ، توفي في تمبكتو عام ١٦٠٧ ، وكان بالغ الشهرة في وسط أفريقيا . ولكن صلف وارنجتون واندفاعه قاداه إلى هذا التهكم الذي يدل على جهله بتاريخ افريقيا ، القارة التي ظل قنصلا باحدى بلدانها زمناً طويلا . (المعرب) .

ولما كان وارنجتون يعتقد بأن يوميات لينج وصلت طرابلس وان ما يحتاجه لإقناع الباشا بتقديمها هو مزيد من الضغط نكّس علم القنصلية ورفض الاتصال بالقلعة . وفي نفس الشهر ، يونيو ١٨٢٩ ، أرسل وارنجتون الى « هاي » حول خبر من مصدر بريطاني بطرابلس ، وهو رجل بريطاني كان يعمل مع الباشا ، مفاده ان الأوراق وصلت الى طرابلس وسلمت الى حسونة ، وان حسونة أقر بذلك للقنصل الهولندي، وادعى بأنه أرسل تاريخ تمبكتو الى فرنسا وأن « كل شيء معد للطباعة».

والواضح ان وارنجتون أصبح الآن مقتنعاً — كالمعتاد دون تعليل منطقي. بأن موت لينج وسرقة يومياته هو أمر دُبِّر في طرابلس ، وانه ما يزال يشك في اشتراك الباشا في ذلك . لذا لم يفاجأ وارنجتون عندما جاءه في السابع والعشرين من يوليو شيخ « الى الحديقة البريطانية وأخبر القنصل بأن الباشا أصدر أوامره الى زعيم قبيلة عربية لقتل الرائد لينج وهو في طريقه من طرابلس الى غدامس ، وان الخضر أحضر معه الأوراق الى طرابلس وأعطاها لدغيس ، وانهم لم يسمحوا للخضر بتسليمها للقنصل ، وانه عرف كل ذلك من قريب للخضر كان ينام في خيمته عندما أُحضرت الأوراق » .

وبعد أيام ، وفي الخامس من أغسطس تلقى وارنجتون رسالة من الدكتور ديكنسون، الجراح البريطاني في طرابلس ، يخبره فيها بأن « الباشا قد اكتشف ان الأوراق قد سلّمت من قبل حسّونة ودغيس للقنصل الفرنسي، وانه أرسل الى غدامس ينشد برهاناً على ذلك » .

كانت تلك الأخبار مثيرة للغاية . ولو كانت صحيحة فهي تعني ان الباشا قد انقلب ضد روسو ودغيس ، وان الطريق الآن مفتوح لإعادة الوصل بين القنصلية البريطانية والقلعة . كانت عداوة وارنجتون شديدة جداً لروسو بحيث لم تسمح له بالتردد في الإجهاز على عدوه العنيد .

ولم تمض أيام قليلة حتى تأكد له الخبر ، وبعث لوكيل وزارة المستعمرات بالرسالة التالية :

من هانمر وارنجتون الى د. هاي :

طرابلس في ١٠ أغسطس ١٨٢٩

سيدي ،

أرجو أن تعذرني لعدم الكتابة لكم رسمياً بهذه المناسبة ، لأن الوقت لا يسمح بإعداد الوثائق اللازمة لإثبات مكان أوراق الرائد لينج . ويكفي القول بأنها أحضرت في مارس الماضي ، وبيعت من جانب حسونة دغيس للقنصل الفرنسي مقابل خصم أربعين في المائة من دين له يبلغ ستة آلاف فرنك .

وقد هرب دغيس ليلة أول أمس من القنصلية الأمريكيـــة الى طراد أمريكي متنكراً في ملابس ضابط ، يرافقه الضباط عنـــد الساعة العاشرة مساء . وقد اعترف محمد دغيس للباشا والتجأ الى القنصلية الفرنسية مع أخيه سعيد[١] .

إن رجالاً من غدامس موجودون هنا وأوضحوا الأمور تمامـــاً حول الأوراق .

وقد كتب دغيس مؤخراً الى حبيب وهدير [٢] :

---

١ بعد أن هرب حسونه ندد به أخوه محمد . ولكن حسونة احتج بعد ذلك قائلا « لقد أجبر أخي بعد رحيلي على الاعتراف بقوة السيف ، مما زاد في قوة اتهامي » .

٢ الخضر .

أقسم بشرفي ان الوثائق واضحة ومرضية ، ويمكنكم بكل اطمئنان القيام بخطوات مع السلطات الفرنسية ، وانني متأكد من ان روسو سيهرب الى أمريكا أيضاً حالما يسمع انتشار الخبر عن صنيعه ... ان من المرعب مواصلة الحديث حول ما فعله .

ه . وارنجتون

وبعد أسبوع استدعى الباشا وارنجتون، والقنصل الهولندي «فان بروجيل» وسمسار القنصلية البريطانية « أنجيلو هيري »، وبعد مقابلة وقّع الأوروبيون الثلاثة على وثيقة تدعو للدهشة : « نحن الموقعون أدناه نعلن اننا بحضرة سمو الباشا هذا اليوم الثاني عشر من أغسطس ١٨٢٩ سمعنا الباشا يقول : « أظن الآن ان حسونة دغيس والقنصل الفرنسي كانا سبب مقتل الرائد لينج ، وان هذه العبارة قيلت بحضور بوميس وموفتا والكثير من السود » .

وفي اليوم التالي اندفع وارنجتون ، مبتهجاً لاتهام الباشا لروسو ، بإرسال نسخة من تصريح الباشا الى « هاي » ، موضحاً في رسالة مرفقة بأن « سلوك الباشا يبدو واضحاً وأميناً وغير متحيز الى درجة تجعلني أشعر بالإثم لاتهامه ... » .

« وفي هذه الظروف ، وبعد أن أزال سموه الريب، عاد العلم البريطاني مرتفعاً تحييه ثلاثة وثلاثون طلقة مدفعية ، وفي نفس الوقت هبط العلم الفرنسي ، والقنصل على وشك السفر » .

وكما توقع وارنجتون ، توجه روسو في اليوم التالي الى أمريكا ، وتخلّص من قصة لينج . ولكن ظل على وارنجتون أن يطلق آخر قذيفة في معركته الطويلة مع القنصل الفرنسي ، فبعث له رسالة يشفي فيها حقده ويندد به .

واستغلت الحكومة البريطانية فرصة تصريح الباشا الغير متوقع للضغط

على فرنسا للقيام بتحقيق في التهم الموجهة ضد قنصلها العام وصديقه دغيس. وأدى ذلك الى تعيين لجنة تحقيق تحت رئاسة البارون مونيه، ولكنها سرعان ما اكتشفت بأن الاتهامات الموجهة لروسو ليس لها أساس من الصحة، وانه من غير المحتمل أن تكون يوميات لينج قد وصلت الى أيدي حسونة دغيس .

ويبدو انه كان يوجد في فرنسا لوم على دغيس وشك في احتمال سرقته لأوراق لينج ، كما يبدو من صحيفة «مارسيل» في سبتمبر السابق. أما في بريطانيا فكان معظم الناس يخالفون ما توصلت اليه اللجنة الفرنسية ، مثلهم في ذلك مثل الكثير من الفرنسيين الذين كانوا يشكون في نزاهة روسو . أما حول احتمال سرقة دغيس للأوراق فلم يكن إلا القليلون في فرنسا وبريطانيا من يبرئه من تلك التهمة . وكتبت المجلة البريطانية « كوارترلي رفيو » تقول : « لا بد من الاعتراف بأن قرارنا يختلف (عن قرار اللجنة) حول هذين الرجلين ، ونرى من المؤكد معنوياً ان حسونة دغيس حصل على أوراق لينج ... ولكن ، ومع ادانة حسونة ، ما الذي يجعل البارون روسو حريصاً على الحصول على أوراق لينج ؟.. انه الطموح لطبعها وطبع محتوياتها باسمه هو » .

ولكن دغيس وجد في قرار اللجنة الفرنسية تشجيعاً له فتوجه الى لندن حيث تقدم الى وزارة المستعمرات كضحية بريئة للحاقد وارنجتون، والذي لولا تأثيره السيء على الباشا ، لما اضطر للهروب من بلده. وكان يأمل في التأثير على سمعة وارنجتون ومكانته وإقناع الحكومة البريطانية لاستغلال تأثيرها على الباشا لإرجاعه هو الى بلده .

وبعد الاتصال بكثير من الناس أقنعوه برفع قضيته كتابة، فقام بكتابة « بيان الى اللورد المحترم جودريش ، وزير صاحب الجلالة البريطاني للمستعمرات ، حول حملة المرحوم الرائد لينج الى تمبكتو والأمور التي حدثت بطرابلس ، من الشريف محمد حسونة دغيس الوزير السابق لباشا

طرابلس » . وتحت هذا العنوان كتب حسونة وثيقة من ٢٢٧ صفحـة يدعم فيها حجته ويتهم وارنجتون والباشا ومجلة « كوارترلي رفيو » . ولو انها نشرت لما كان هنالك مجال لعودته الى بلده أبداً .

وفي الرابع عشر من يوليو ١٨٣٢ بعث اللورد جودريش رسالـة الى اللورد لاندسداون الذي قـدم أوراق حسونة لجودريش ، يرفض فيهـا النظر في الأوراق ما لم تكن رسميـة ومسجلة في سجلات الوزارة ، مع ضرورة مقارنتها بالرسائل الموجودة في الوزارة .

ولم يكن دغيس ، حتى في بريطانيا نفسها ، يفتقر للمساندين ، وكان من بينهم شخصيات ذات مراكز عليا . ولكن ذلك لم يكـن يرجع الى وضع دغيس نفسه بقدر ما كان يعود لنقاط الضعف والعيوب الموجـودة في وارنجتون . ففي العاشر من اكتوبر كتب السير جيمز سكـارليت ، عضو البرلمان ، الى اللورد جودريش يقول :

« انني أحمل رأياً قوياً في أن شرف الحكومة البريطانيـة يتطلب القيام بتحقيق حول سلوك قنصلها في طرابلس . وأرغب لعدة أسباب أن يقوم بذلك أي حكم آخر غير مجلس العموم » .

وكان رد اللورد جودريش طويلاً لا ينكر فيه احتمال تأثر وارنجتون الزائد بما حدث لصهره لينج وما دفعه للقيام ببعض التصرفات الخاطئة ، وانه لم يجد في أوراق دغيس شيئاً محدداً يتهم به وارنجتون . ويشير اللورد جودريش الى انه يحتاج وقتاً للبت في رأيه حول أوراق دغيس الغير رسمية.

يبدو انه وجد عند الحكومة البريطانية توقع في موافقة دغيس علـى نشر مذكرته الطويلة ، كما تنشر جميع المراسلات الرسمية ، ولكن دغيس كان حكيماً في مواصلة إصراره على السرية . لذا سقطت دعواه وقضيته ، فيما يخص الحكومـة البريطانية ، وبقي الوضع كما وضحه « هاي » في وسالة بعثها في أول ابريل ١٨٣٠ الى جيمز سكارليت :

« يبدو ان الأمل ضعيف حالياً في تأمين أي جزء من يوميات الرحـّالة

السيء الحظ . وهي إما أن تكون قد أُتلفت على أيدي من قتلوا لينج ، أو أن تكون في منأى عن إمكـــان اكتشافها كما أراد الذين وقعت في أيديهم . ومما سيدعو الى الارتياح معرفة ما إذا كان دغيس قـــد حصل عليها سراً وأوصلها الى السيد روسو ، القنصل الفرنسي بطرابلس ، كما ادعى السيد وارنجتون القنصل البريطاني في ذلك المكان » .

ملحق رقم ١

يوميات الرائد أ. جوردون لينج

من طرابلس الى غدامس

غـدامس في ٢٠ سبتمبر ١٨٢٥
خط عرض ٢٠ً ٠٧َ ٣٠° شمالاً
خط طول ١٥ً ١٦َ ٩° شرقاً
التذبـذب المغناطيسي ١٨° شرقاً

سيدي اللورد ،

لما كنت قد تشرفت في شهر يناير بتعييني من جانب فخامتكم للتقدم الى دواخل أفريقيا حتى تمبكتو ، ثم تتبع مجرى النيجر حتى مصبه، أرى من واجبي الآن وقد بلغت مدينة غدامس أن أقدم إليـكم تفصيلات عن رحلتي حتى الآن .

غادرت لندن في مساء الرابع من فبراير ووصلت صباح اليوم السادس منه ميناء «فولماوث» في الوقت المناسب لركوب السفينة « باكيت سيجنت» التي كانت مستعدة للإبحار . وقد كدت أفقد الفرصة لتأخري على الطريق

بضع ساعات ، ولكنني سعدت بالركوب رغم اضطراري لترك أحد خدمي الذي لم يكن قد وصل بالجانب الأكبر من أمتعتي .

وقد عانيت خلال شهر من ألم الكبد والامعاء ، الأمر الذي كان ينتابني عموماً عند الإرهاق أثناء الخدمة بأفريقيا ، ولكنني الآن بدأت أستعيد صحتي ، والواقع انني استعدت عافيتي عندما وصلت جبل طارق حتى انني صعدت الصخرة بسرعة وقست ارتفاعها عن مستوى البحر في الصباح وقبل أن يفيق بعض الرفاق من نومهم . وفي الثالث من مارس نزلنا الى مالطة في حالة صحية جيدة وروح معنوية عالية كما كنت دوماً متوقعاً أن تساعد رحلتي البحرية على إزالة ما كنت أعانيه دوماً قبل التأثر بالمناخ والتعب، ولكن يا للحسرة ويا لقصر النظر الانساني . ففي السادس من ابريل، وعندما لحق بي جاك بور الذي تأخرت في مالطة من أجله ، وبينما كنت أستعد للرحيل الى طرابلس على البارجة الحربية التي وضعها تحت تصرفي نائب الأميرال السير هاري نيل ، انتابتني نوبة أخرى من ألم الكبد ذات حدة أشد من تلك التي منيتُ بها في لندن ، غير ان عزيمتي ظلت ثابتة ، وانتظرت صابراً أترقب شعاع الأمل الذي جاء بعد شهر عصيب . لا أحب أن أبين مقدار ما عانيته وقلة تأثير ذلك على معنويتي ، فالواقع ان المعاناة بلغت عندي حداً جعلت أولئك الجاهلين بطبيعتي الذهنية وحيويتها يرون أن أترك مهمتي ! ولكن أشكر الله لأن ذلك لم يتحقق ولأنني عشت لأثبت انتصار العقل على المادة .

وفي السادس من مايو أصبحت صحتي في حالة جيدة تمكنني من الموافقة على عرض بالسفر الى طرابلس (في سفينة عسكرية). وقد كان الطقس لطيفاً معتدلاً والنسيم عليلاً ، واستطعنا عند صباح اليوم التاسع رؤية طرابلس ، وعند الثانية بعد الظهر وجدنا أنفسنا وسط المدينة ، وكانت قد وصلت في نفس الوقت من تونس السفينة « سيرين كورفيت » . وقد أنزل متاعي عند الخامسة مساء من السفينة الى قارب أرسله الباشا لذلك

الغرض . ثم صافحت مودعاً القبطان وضباطه الذين وجدت من جانبهم كل مودة ، ونزلت وسط هتاف بحارة السفينتين جانيت وسيرين . الواقع ان هنالك لحظات تمر بالانسان تعوض ألم سنوات عديدة : وقد كانت تلك اللحظة واحدة منها ، وبينما كان قلبي ينبض بالشكر ، لهج لساني بالشكر وبالدعاء لأولئك الضباط الكرماء الذين كانوا ساعة مرضي يروّحون عنّي ويملأون صدري حماسة وإخلاصاً للخدمة التي التزمت بها . وعندما وطئت قدماي اليابسة استقبلني هانمر وارنجتون ، القنصل العام لصاحب الجلالة ، وغمرني بكرمه الذي كان يشهد به جميع الرحالة السابقون .

وأقمت في اليوم التالي في منزل صغير بهذه المدينة ، وعكفت في الحال على اتخاذ الاجراءات والقيام بالتحضيرات اللازمة لرحلتي .

تقع مدينة طرابلس ، بما خلفها من نخيل باسق وأشجار تين ذات أوراق عريضة ، وأشجار التوت والزيتون المنتشرة الى مسافات بعيدة ، على رقعة من الأرض منبسطة قريبة من حافة الماء . والناظر اليها من البحر يشاهد منظراً رائعاً ، تبدو فيه جميلة قوية ومتينة التحصين ، ويشاهد الأعلام القنصلية مرفرفة في الهواء، والمآذن الطويلة لمختلف المساجد والجدران الشامخة المحيطة بها ، ولكن هذه الصورة تتغير عندما يهبط المرء من السفينة الى اليابسة ، كالقطعة الفنية الجميلة الطلاء التي تفقد الاهتمام الشديد عند التدقيق فيها عن قرب . فالشوارع فيها ضيقة ، ويتضح عند فحص الجدران انها سيئة البناء يصيبها التصدع . أما قلعة الباشا ، التي تُتخذ سجناً في بعض الأحيان ، فهي بانفصالها الكلي عن بقية تحصينات المدينة ، مصممة كحصن دفاعي ضد الأعداء الأجانب والمحليين . غير ان العدو الذي يستطيع الصمود يمكنه بقليل من قطع المدفعية ومعدات المنجنيق أن يحدث فيها ثغرة . فالجدران رغم ارتفاعها مبنية من الحجارة الصغيرة الغير منحوتة والموضوعة فوق بعضها البعض دون انتظام ، وإنما تتماسك بالملاط الغزير . ويمكن الاستيلاء على طرابلس رغم مظهرها وما

فيها من مدافع[1] . لقد وصفها الكثير من الرحالة ولا تحتاج مني الآن الى التوسع في وصفها . وأكثر ما يلفت النظر فيها أخلاق سكانها وعاداتهم فهي تشبه عادات وأخلاق الأتراك في البلدان الأخرى . ولا يصعب على المرء في الشارع ملاحظة ما يتميز به الناس من هدوء وحسن سلوك وتصرف ونظام . وهم يعاملون الأجانب بأدب واحترام ولطف . وقد شهدت بنفسي مرحهم الصاخب خلال أعيادهم ، ولكنهم لا يتسببون في ضرر لأحد . ولا بد من العدل والقول بأن النقيب لايون قد صوّر سلوكهم نحو المسيحيين بشكل مثير وكأنهم يتعصبون ضدهم تعصباً شديداً . ولو لم يكونوا أفضل الأتراك[2] وأكثرهم تسامحاً لما رأيت ذلك التساهل من جانبهم والسماح لأخس المسيحيين بالاقامة بينهم . ومما يدعو للأسف ان معظم هؤلاء المسيحيين المقيمين في طرابلس هم من اللصوص والمجرمين الذين لو كانوا في بلد أوروبي لحلت بهم عقوبة الاعدام .

إن تاريخ البلاط ومكائده في هذا البلد يزخر بالقصص ، وقد سمعت خلال إقامتي القصيرة تفصيلات لو قدمت لقصاص لحاك منها أروع الروايات.

ولا يعتبر القتل الجماعي أمراً خطيراً ، غير انني لا أود الخوض في هذا الموضوع ، وانما أواصل الوصف دون مزيد من الحديث عن طرابلس أو سكانها .

يمتاز الريف المحيط بطرابلس بالمزروعات الممتدة الى مسافات واسعة ، وهو مقسم الى بساتين جميلة .

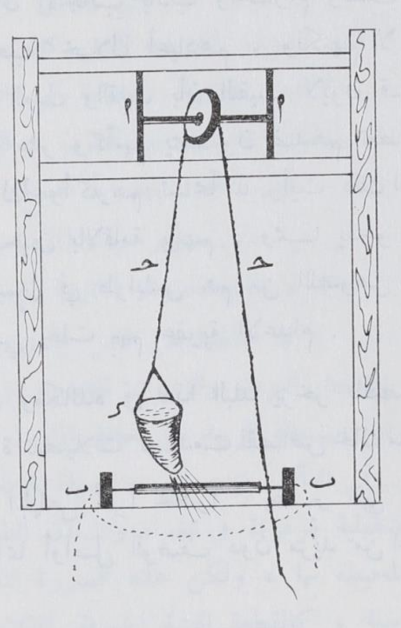
والتربة شديدة الخصب والعطاء نظراً لطبيعة تكوينها من الطفّال الممزوج

---

١ ان هذا الحكم من جانب الرحالة متسرع ، فقد كانت طرابلس آنذاك حصينة ممتنعة على الأعداء رغم كثرة المحاولات ، وخاصة من جانب الأساطيل الغربية . (المعرب) .

٢ يعتبر الرحالة سكان طرابلس من الأتراك وهو يقصد بذلك انهم مسلمون كالأتراك ، والواقع انهم لم يكونوا من الأتراك .

بالرمل ، وتنتج محاصيل القمح والشعير بالإضافة الى كل نوع من أنواع الفواكه التي تجود بكميات وفيرة . وهنالك البلح والزيتون والتوت الذي يفيض بفاكهة كثيرة. وفي كل بستان بئر أو بئران لري الزراعة فيه ، وتعتبر طريقة سحب الماء من البئر سهلة وفعّالة . فهناك عجل أو بكرة



دلو كما رسمه جوردون لينج

تتحرك على محور (أ ، أ) يلتف عليها حبل مثبت بإحدى نهايتيه جردل جلدي ، أو جلد ماعز (ى) . وهناك قناة (ميزاب) يرتفع طرفها فوق مستوى سطح الجردل عندما يكون مملوءاً بالماء ، وينزل منها الماء الى خزان ، وهناك اسطوانة (ب ، ب) تجعل الجردل أثناء ارتفاعه ينزلق عليها بحيث يصبح أسفل الجردل في وضع يجعله يصب الماء في القناة .

ويربط الجردل بالحبل (ح ، ح) والطرف الآخر منه يربط في رقبة ثور ، ويبلغ طول الحبل ضعفي عمق البئر ، وينزل الجردل بعد إفراغه من الماء بفعل ثقله . ويمكن أن يرفع الجردل حوالي عشرة جالونات ويسحب ويفرغ مرة كل أربع دقائق . ويوجد أحياناً جردلان (دلوان) للبئر الواحد يعملان في نفس الوقت ، ويمكن حينها لثورين ورجلين في مدى عشر ساعات رفع نحو من ثلاثة آلاف جالون . ورغم بساطة هذه الطريقة فهي تناسب البلد تماماً ، بل ربما تكون أفضل من أي طريقة أخرى . والمواد اللازمة لها رخيصة الثمن ويسهل الحصول عليها محلياً ، وقد فشلت الكثير من المحاولات لتعديل هذه الطريقة . وقد قام القنصل العام نفسه بعدة محاولات علمية في بئره الخاص ، ولكنه لم يحرز نجاحاً كبيراً ، فاضطر للعودة الى الطريقة العربية . وقد روى لي بمرح رداً تلقاه من أحد الذين يملكون بستاناً مجاوراً عندما جاءه طلب من وارنجتون للاتفاق حول تزويد بستانه بالماء : « أخبر القنصل ان عنده أفضل بئر في البلد ، ولو ظل يفعل كما يفعل غيره من الناس لما احتاج الى طلب الماء مني » ...

لم أستطع التشرف بمقابلة الباشا إلا بعد ثلاثة عشر يوماً من وصولي ، الأمر الذي أدهشني ، وذلك لشدة تشوقي لبدء الرحلة ، خاصة وانني وصلت متوقعاً مقابلة الباشا لي بالترحاب والاهتمام بنجاح البعثة . وقد اختلفت الشائعات حول سبب فتور معاليه : فقيل يوماً انه لا يستقبل أحداً في رمضان ، وقد وصلت في العشرين منه ، ثم قيل انه تلقى رشوة من حكومة أخرى (يقصد فرنسا) لوضع العراقيل في وجه رحلتي ، وفي مرة ثالثة قيل ان التمرد الذي ظهر في جبال غريان هو سبب التأخير ، وكانت تطالعنا كل يوم أخبار جديدة . وهذا كله لا يسر بالطبع رجلاً في مثل موقفي ، وكان يمكن أن يتسبب لي في قلق كبير ، لو لم توجد عندي ثقة بنفوذ القنصل العام ، ولو لم أشاهد عظيم قلقه ورغبته في إسراع رحيل البعثة . ومع ذلك تحققت المقابلة بعد ثلاثة عشر يوماً . ورغم

ما بدا على الباشا من فتور عند دخولي ، إلا انني خرجت من مجلس معاليه مسروراً وراضياً تماماً ، لأنه كان ينوي مساعدتي . ورغم ما يبدو من قلة نضجي لتكوين فكرة كاملة في مقابلة واحدة مع زعيم شعب يتأثر بالحكومة التي يخضع لها ، فقد ثبت انني لم أكن مخطئاً . عند مراجعتي الدقيقة لتعليماتكم وجدت انكم سيدي اللورد ترغبون في التقدم عبر فزان الى تمبكتو ، إما بالالتحاق بقافلة تسير على تلك الطريق ، أو أن أضع نفسي تحت حماية زعيم طوارقي يدعى حطيطة ، ولكن نتائج تحرياتي في طرابلس ، بالاضافة الى نصيحة القنصل العام (الذي وُجهت للاتصال به) أقنعني بتفضيل الطريق المار عبر غدامس ، وهذه باختصار هي الأسباب التي دعتني لذلك :

أولاً — لم أستطع معرفة وجود أي قافلة متجهة الى تمبكتو عن طريق فزان ، ولم أجد ان هذه الطريق مطروقة من جانب القوافل .

ثانياً — يبدو لي وللقنصل احتمال تأخري في مرزق مدة من الزمن لنفس الأسباب التي أعاقت البعثات السابقة .

ثالثاً — لم يحضر حطيطة ، الزعيم الطوارقي ، وقد كتب للقنصل العام يشرح له ان متاعباً في غات اضطرته للسفر كي يعتني بأسرته .

رابعاً — علمت من المصادر المحترمة ان أكثر الطرق حركة بين هذا المكان وبين تمبكتو وخاضعة لنفوذ الباشا هي الطريق عبر غدامس .

خامساً — وعد سمو الباشا أن أسافر تحت حماية شيخ من غدامس عاش في تلك العاصمة وخارجها ثلاثين سنة ، وقد عاد منها مؤخراً .

سادساً — عرضت عليّ خطابات اعتماد لغدامس وتمبكتو من جانب دغيس ، وهو رجل ذو نفوذ شديد في طرابلس ، ومشهور كتاجر غني على طول الطريق الذي يسير في بلاد لا يعرفها الأوروبيون ، وربما نجد فيها أموراً جديدة هامة بالنسبة للرحالة . ولكن ، وبغض النظر عن

المزايا العديدة لهذه الطريق والمشكلات التي أدت لرفض الطريق الآخر، فقد ظهرت مصاعب في المرحلة المبكرة من الرحلة. فالتمرد الناشب في جبال غريان القريبة من طريق غدامس، يتميز بطبيعة خطيرة وقاسية، لأن القوات التي أرسلها الباشا لإخماد التمرد لم تنجح، أو هكـذا يبدو من الأخبار المنتشرة في طرابلس ومن عرض ثلاثة رؤوس فقط من الثوار بعد معركة يشاع ان الثوار انتصروا فيها. لذا تركنا أي تفكير في سلوك الطريق المسـار بقرب غريان، وتم الاتفاق على قبول عرض من معاليه لسلوك طريق متجه الى الشرق يمر ببني وليد متجنباً بذلك جبال غريان تجنباً كاملاً، على أن أبدأ السفر في أول يوليو.

لذا غادرت مكان إقامتي في مدينة طرابلس في الثالث عشر من يونيو، ونصبت خيامي في حديقة تبعد عن المدينة نحو ميلـين لأستعد ورجالي، ولتجهيز مستلزمات البعثة. ورغم تجنيد كل الجهود إلا أن رحيلنا لم يبدأ إلا في السابع من يوليو عندما تحركت القافلة الى الشرق من تاجوراء التي تبعد عن طرابلس نحو تسعة أميال. ولما كان من الضروري القيام بإجراءات ضرورية هنا، نصبت الخيام على سهل جميل قرب بحيرة أو سبخـة، وقرب بئر عذب الميـاه. وفي اليوم العاشر أصبح كل شيء جاهزاً، ولكنني أُقنعت بضرورة تأجيل رحيلي أياماً قليلة انتظاراً لمقدم شيخ غدامس الذي أرسل الباشا لحمايته قرب غريان الجزء الأكبر من جيشه. ووصـل الشيخ[1] في اليوم الرابع عشر. وفي السادس عشر، وفي مقابلـة لوداع معاليه، قُدمت للتعرف على الرجل القدير الذي بهرتني طلعته. وأخذتُ عنه في الحال أفضل انطباع، وقد أثبتت علاقتي التالية معه صواب نظرتي. وقد وافق على الوصول بي آمناً الى تمبكتو بشروط ستعرفها سيادة اللورد في رسالة منفصلة، وعندمـا أخبرته عن نيتي في مواصلة رحلتي نفس

---

١ الشيخ باباني.

المساء أجاب بأنه يستطيع السفر حالاً وانه يستطيع وصول بني وليـد في مدى ستة أيام . وعند الاتفاق على ذلك شكرت معاليـه (الباشا) على العناية العظيمة التي أنعم بها على البعثة ، واستأذنت في الخروج مصطحباً القنصل العام الى حديقة منزله حيث نعمت بعشاء الوداع . وفي ساعـة تالية من ذلك المساء صافحت ذلك الرجل الممتاز وامتطيت صهوة حصاني سالكاً طريقي الى تاجوراء ، حيث وصلتها قرب الساعة الواحدة بعـد منتصف الليل . وشغلنا في اليوم التالي بالقيام بالتجهيزات اللازمة. وقوّض معسكر تاجوراء في صبـاح الثامن عشر من يوليو ، وبدأنا الرحلة الى الدواخل . ان من شهد أول ضربة عند بدايـة مشروع عظيم كقناة أو ميناء ، أو أول حجر يُرسى في أساس قلعة كبرى ، لا بـد انه شعر بصعوبة استيعاب مدى الخطوة الأولى والخطوة الأخيرة من هذا العمل . لقد شعرت بمثل ذلك هـذا الصباح عندما تأملت الخطا الوئيـدة للجمال وفكرت في المسافة الممتدة بين البحر المتوسط وخليج بنين . — تمر طريقنا نحو الشرق فوق صحراء قاحلـة ،وقد سارت الجمال بصعوبة على التلال الرملية العديدة ، التي كومتها قوة الرياح المستمرة . ووصلنا عند الخامسة مساء « وادي الرمل » الذي يتخذ مجراه الجاف تقريباً بـين سلاسل من الجبال الرملية ، وفي الصباح استأنفنا الرحلة قبل طلوع الشمس . وبعد اجتياز الوادي اتجهنا نحو الجنوب الشرقي على طريق رملي مستوٍ تكسوه الحشائش الطويلة التي تشبه السهام ، ونبات الزعتر الذي كان يبعث برائحة منعشة ومريحة . وكانت الأراضي المنبسطة مغطاة بقطعان من الماعز والغنم يحرسهـا عرب فقراء في الظاهر لكنهم سعداء راضون كما يبـدو على وجوههم.وكنا نشاهد هنا وهناك جماعات من نحو عشرين رجلاً بأزواجهم وأطفالهم حول الآبار منهمكين في رفع الماء لإرواء قطعانهم، البعض منهم ينتظر دوره بينما الآخرون يفرغون الماء من وعاء خشبي .

ودخلنا قرب الظهيرة جبال ترهونة الجرداء، وألقينا على المحيط النظرة

الأخيرة ، ثم نصبنا الخيام عند الثانية بعد الظهر على سهل جميل تحيط به المرتفعات من كل جانب . وفي العشرين من يوليو قوضنا الخيام عند طلوع النهار ، وسرنا مع ممر يتجه نحو الجنوب الشرقي على طول مجرى نهر جاف . وكانت الطريق وعرة كثيرة الحجارة ،وشقت الجمال طريقها بصعوبة شديدة مما جعلنا نتوقف عند الظهيرة قرب آثار رومانية قديمة لننال قسطاً من الراحة . وفي اليوم التالي قطعنا مسافة خمسة أميال وصلنا بعدها سهلاً فيه عدد من الأكواخ يسكنها العرب ، ونزلنا في منزل شيخ ترهونة الذي كانت لديه أوامر من الباشا بتقديم حامية من الفرسان لحراسة القافلة حتى بني وليد ، خوفاً من شر جماعة من لصوص الجبل ، كان يُظن انها تنتظرنا على الطريق متوقعة غنيمة كبيرة . تعتبر طرابلس إحدى الأماكن التي لا يشغل أهلها كل وقتهم في أعمال تلهيهم ، لذا تراهم يقضون وقتاً يشغلون فيه أنفسهم بشئون غيرهم ، ولذا كان من المستحيل أن يخفى عليهم شيء مهما كان تافهاً ، فسبقتنا على الطريق أخبار عن مقدار الثروة التي تتمتع بها البعثة ، وضُخِّمت الدولارات القليلة التي معي وكان الإجراء الذي قام به الباشا ضرورياً ..

يعتبر مطلع هذه الجبال جميلاً ، رغم عرائها ، وهي متكونة من سهول هائلة تحيط بها مرتفعات متموجة تشبه أمواج البحر ، وعليها قطعان من الأغنام والجمال والخيول ترعى في هدوء وسعادة . وتتكون التربة بشكل أساسي من رمل تشكل من تراكم الميكا الحمراء ،لأن التكوين الجبلي كله من الميكا .

٢٢ يوليو : قمت عند الظهر بزيارة لشيخ ترهونة الذي يقيم مؤقتاً في منزل متواضع يمكن إقامته أو إزالته في دقائق قليلة. أعمدة قليلة في الوسط تحمل سطحاً من القماش السميك يمنع الأشعة والمطر : أما الجوانب فهي من الحصير ويمكن فتحها أو إغلاقها حسب اللزوم ، وذلك لدخول النسيم

أو منعه . والأثاث بسيط يتكون من أقمشة رثة وأوان خشبية وقدور .. و ... الخ ، وعلى الجوانب تعلق أدوات الحرب وأجهزة الخيول . هنا إذن مقر زعيم ، فيه من الأشياء ما يوجد في كوخ عامـل بانجلترا .. يا للانسان العجيب ، أحياناً يقتني الكثير وأحياناً يقتني القليل كي يعيش وينعم . وتحركت القافلة عند الثانية بعد الظهر ، وعندها دهشت لما رأيت حراسةً جميلة من مائة فارس والكثير من المشاة جُمعوا من هذه التلال القاحلة التي تبدو كأنها غير مسكونة . وقد أصبحت الطريق سهلة ، لذا تمكنـا من سوق الجمال بسرعة وقطعنا مع قدوم العاشرة مساءً أكثر من عشرين ميلاً. وعندها وجدنا من الضروري التوقف لحلول الظلام . ورقدنا عـلى الحصير حتى الساعة الرابعة صباحاً ، ثم سرنا مرة أخرى .. وعند الفجر تساقطت علينا قطرات من ماء المطر كانت أشعة الصباح تتخللها في منظر لمّاع وأخّاذ . وكانت الطريق مكسوة بالأعشاب الخضراء ومزينة بقطرات من الندى البلورية ، تبدو كبسمة تغالب دموعـاً على وجنة جميلة . ولا عجب ان انشرحت قلوبنا في ذلك الصباح . وكان العرب في روح معنوية عالية جداً ، وبينما كانت القافلة تسير عـلى أرض منبسطة أخـذ العرب يدربون خيولهم. فيطلقون لها العنان ويحددون هدفاً ثم يطلقون النار بطريقة مبهجة حقاً . وعند الساعة الثانية صارت الطريق وعرة وتلاشت التربـة لتحل محلها تلال الميكا الجبسية والحجارة الدقيقة التي أتعبت الجمال وأعاقت تقدمنا . ومما زاد في ذلك الرياحُ الشرقية التي أخذت تهب منـذ بضع ساعات . وفي ظل شجرة أكاسيا وحيدة جلست أستريح قليـلاً (لأنني كنت متقدماً على القافلة) وكانت درجة الحرارة ، كـما يؤشر مقياسي ١٠٤ فهرنهايت . وأصبح الصعود والهبوط في تلك الريح الشرقية الملتهبة أمراً لا يطاق ، وأصبح كل شيء حولنا وكأنه ملتهب يشع الحرارة ، لذا كان سرورنا كبيراً عندما وصلنا قمة آخر مرتفع صخري ورأينا تحتنا وادي بني وليد الجميل الذي هبطنا اليه حوالي الخامسة مساء. وهنا استقرت

أنظارنا بارتياح على الخضرة المنعشة ، حيث كانت أشجار النخيل السامقة ترفرف بسعفها في عظمة هادئة ، وحيث الغابات العديدة من أشجار الزيتون الخضراء تكسو بظلالها الوادي ، متحدية أشعة المساء ، مما جلب الهدوء لي ولزملائي المتعبين . وعند الساعة السادسة مساء كانت جميع الأحمال قد أنزلت ووضعت في حصن بني وليد الذي هو عبارة عن أربعة جدران سيئة البناء من الحجر والطين . وفي ليلة أول اغسطس وصل شيخ بني وليد ، وقدم لي المساعدة في اليومين التاليين في ترتيب حمولة جمالي ،وقد قضيت الوقت السابق لحضوره في مشاهدة قياسات الكرونومتر، وفي محاولة تعلم شيء من العربية التي أحرزت فيها بعض التقدم من قبل . وكانت ترد يومياً أخبار عن عمليات سلب يقوم بها عرب الجبل الذين قيل بأنهم يترقبون القافلة عند طرق شتى تؤدي الى غدامس . وقد أرسلت مرة أو مرتين كل قوة بني وليد لمطاردتهم ،ولكنني لم أسمح لهذه الشائعات بالتأثير على نفسي لعلمي بمدى المبالغات فيها . وعند الساعة الواحدة من صباح الرابع من أغسطس غادرنا بني وليد الذي شعرت من قبل بواديه الجميل . وعندما انتهى الوادي مشينا في صحراء صخرية نحو الجنوب الغربي حتى الحادية عشرة صباحاً عندما استرحنا في وادي شميخ الذي كانت تنتشر عليه بعض أشجار الاكاسيا ، بعضها كبيرة بحيث تقينا من أشعة الشمس . وعند الرابعة مساء واصلنا السير ، وبعد مسيرة ميل ونصف الى الجنوب وصلنا بئر ماء نصبنا عنده خيامنا لقضاء الليلة . كانت المياه ترفع من هذا البئر بصعوبة كبيرة ، لعمقه البالغ خمساً وعشرين قامة .

ورحلنا عند الساعة الواحدة من اليوم الخامس من أغسطس وتوجهنا نحو الجنوب في واد عرضه نحو ربع ميل ،وتتميز جوانبه بالارتفاع الشاهق المتدرج كالأهرام ، والانتهاء بأرض مستوية . وكان مهد الوادي يتكون من الحجارة والرمل والحصى ، تتناثر عليه بعض الأعشاب الشوكية، مع وجود شجرة أكاسيا هنا وهناك ، تحتها أعشاب ولكنها متأثرة بشدة

الحرارة لدرجة انها تتكسر عند لمسها محدثةً صوتاً كصوت اشتعال النار في الأشواك . وعندما اشتدت الحرارة استرحنا من الساعة الثامنة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر ، ثم نهضنا وتحركنا على طول الوادي نحو جنوب الجنوب الشرقي حتى السابعة والنصف عندما حل الظلام وأجبرنا على الانتظار حتى يبزغ القمر . وعندما ظهر في منتصف الليل استطعنا السير على طول الوادي وأصبح اتجاهنا الى الجنوب الشرقي . ويتكون سرير الوادي من نفس ما ذكرناه سابقاً ولكنه أصبح فسيحاً الآن يبلغ قطره ميلين أو ثلاثة ، بحيث يشبه الأحواض أو البحيرات الجافة . وعند الساعة السادسة صباحاً ، وبينما كنا نتتبع التواء الوادي ، أصبح اتجاهنا الى الشرق واستمر ذلك الاتجاه نحو ساعة ونصف : ثم تحولنا الى الجنوب حتى الثامنة والنصف عندما درنا حول قمة تل وواجهنا الجنوب ووصلنا معسكراً للعرب يقع في واد فسيح يسمى سركد (بير سرخات) تحيط به تلال من الصخور الرملية والجبس . وهناك نصبنا خيامنا ، لأن الشيخ باباني أراد القيام ببعض الاستطلاعات والاستفسارات عن سلامة مختلف الطرق المؤدية الى بلده .

كان لمنظر ذلك الوادي الجاف الرعوي المغطى بقطعان لا تعد من الماعز والغنم وقوافل الجمال... الخ ، والتي يعتني بها عربٌ أصحاب طريقة دينية يعيشون في هذه المناطق المعزولة عيشة مرابطين وجنود ورعاة ، تأثيرٌ علي ولّد عندي نوعاً من الشعور لا أستطيع تحديده تماماً . لقد تصورت أو رأيت شيئاً من هذا القبيل سابقاً . كان شعوري أشبه بذلك الشعور الناشيء عن زيارة بناء قديم مهجور تغطى جدرانه المعتمة بالعاج الذي تغير شكله. انه وقار صامت ومثير . كان المنظر ساكناً لا يتحرك، ولا يدعو للبهجة ، تظهر فيه في آن واحد طبيعة مفعمة بالحياة والحيوية وطبيعة لا حيوية فيها. كان ذلك اليوم شديد الحرارة ، وبلغت درجة الحرارة عند الظهر ١١٦° فهرنهايت ، وكانت الريح الشرقية الجافة ما تزال تهب على طول الوادي تشتد قوتها كلما دنا اليوم من نهايته . وعند الساعة السادسة هبت عاصفة

هوجاء واكفهر الجو وامتلأ بالرمال الملتهبة التي تحملها الرياح الساخنة وكأن ألف فرن تعمل على زيادة حرارتها . وأصبح الناس والحيوانات مغلفين بالرمال الملتهبة يلهثون لضيق التنفس وكأنهم يحتضرون مصابين بالحمى. وأصبحت درجة الحرارة عند الساعة التاسعة مساء ١٠٧° فهرنهايت. واسترحنا في هذا الوادي يومي السابع والثامن ، وأراد الشيخ باباني الدخول في اتفاق مع كبير المرابطين لتقديم حماية ترافقنا حتى غدامس ، ولكنه لم يوفق في ذلك نظراً لكثرة طلبات المرابط. فرحلنا في الصباح التالي (التاسع) للقيام بالتفاف طويل عن طريق الشاطىء . وكان ذلك في البداية مصدر ضيق شديد بالنسبة لي ، لرغبتي في الوصول الى تمبكتو في أسرع وقت ممكن ، ولكنني رضيت فيما بعد عندما علمت ان جماعة من قطاع الطرق تتكون من مائة وخمسين رجلاً ، كانت تنتظرنا منذ عدة أسابيع قرب أحد الآبار على الطريق القصير . واسترحنا ذلك اليوم عند الساعة الثالثة بعد الظهر قرب بئر يقع تحت جبال قرزة التي تتميز بمنظر جانبي متنوع ومتميز عن غيره من الجبال . ومررنا يومي العاشر والحادي عشر فوق سهول رملية ومن الحصباء واسعة ، مع وجود خضرة بسيطة هنا وهناك. وبعد ظهر اليوم الثاني عبرنا جبال تويز وتوقفنا عند الساعة التاسعة مساء.

اليوم الثاني عشر : مشينا عند الخامسة صباحاً وعبرنا وادياً بعد آخر ، كلها محاطة بالتلال المتتالية الممتدة من الشرق الى الغرب ، حتى أصبحت الساعة التاسعة صباحاً ؛ وعندها توقفنا على بئر مالح الماء ، وكان ماؤه سيئاً حتى ان الحيوانات رفضت في البداية الشرب منه ، ويسمى هذا البئر بالبئر المالح وهو على حدود فزان .

ورحلنا بعد ظهر الثالث عشر عن البئر المالح وواصلنا السير حتى السابعة من صباح اليوم التالي على صحراء من الحصى والحجارة. وظل اتجاهنا كاليوم السابق نحو جنوب الجنوب الشرقي . واستأنفنا السير بعد الظهر ، وبعد رحلة طويلة أخرى نصبنا الخيام في الصباح التالي في وادٍ رملي

حجري فيه حصباء دقيقة وتكثر فيه الهضاب المنفردة ذات المنصات والحواجز المنحدرة وكأنها بطاريات متتالية وضعتها يد فنيـــة تحت إشراف علمي . وكانت تبدو من بعيد جبال عالية موحشة سوداء ذات ارتفاع واحد هي بلا شك امتداد للجبال السوداء .

وعند ظهر هـــذا اليوم (الخامس عشر) وجدنا الماء قليلاً لدينا ، والجمال متعبة من طول السفر ، وخشينا نفاد ما لدينا قبل وصول الشاطىء ، لذا أرسل الشيخ رجلين على اثنين من المهاري مع عشرين قربة لملئهـــا بالماء من بئر أمامنا يبعد مسافة عن الطريق المستقيمة . وعند الرابعة تقدمت القافلة ببطء ، وبعد أن اعتلينا إحدى مرتفعات «السودا» هبطنا الى واد واسع من الرمل الناعم والحصباء ، تحده على الجانبين تلال منتظمة ومتساوية الارتفاع . ويتكون ثلثا التلال العليا من الحجارة الرمليـــة ، وهي تسير في خط مستقيم عليه علامة واضحة وكأنه يحمل شكلاً يدل على ان طوفاناً قد غمره ، ويشبه الوادي بحيرة عظيمة تركها انحسار المد جافة بلا ماء . والواقع ان سطح هذه المنطقة كلها يتكون من وديان وتلال وكأنما شكّله على هـــذا النحو سلسلة من عمليات المد المائية والتيارات المائية . وكذلك يـدل الوضع الغريب للصخور وانقطاع النباتات بشكل كـــلي ، والجزر الصغيرة ، على أنها كانت في حقبة زمنية نائية مغمورة بالماء . وبعـــد عبور الوادي وصلنا أرضاً وعرة غير منتظمـة ومتكسرة تسمى « الشعاب السوداء » ، وقد وجدنا صعوبة كبيرة في اجتيازها بسبب الظلام . أنهينا رحلتنا عند منتصف الليل ، وتقدمنا عند فجر اليوم السادس عشر ، لكننا اضطررنا للتوقف بعـــد ساعة من الظهر لما لاقيناه من تعـب وعطش . شربنا هنا آخر قربـــة من الماء وترقبنا بقلق كبير عودة الرجلـين اللذين أرسلناهما لإحضار المدد . كانت تلال أولاد حسن العالية التي تعتبر الحد الغربي لفزان تشاهد من بعيد ، ولما كانت مياه المدد ستقدُم علينا من ذلك الجانب فقد أصبح أملنا أن ننعم برؤياها عند الظهر . ولكـن ذلك

لم يتحقق حتى منتصف النهار ، ومن الصعب تصوير مدى خيبة أملنا عندما رأينا أشعة الشمس تهبط من الغرب دون قطرة ماء واحدة مع القافلة كلها ، وكان كل واحد يعاني من العطش ويواجه العذاب المخبأ له طيلة ليلة من الرياح الشرقية الصعبة . وبعدما أروينا ظمأنا بدأ السير ، بعد نحو ساعة ، على أرض من الحجارة الحمراء والسوداء تشبه أرضاً تعرضت لحريق هائل . وعند الساعة السابعة صباحاً وصلنا منطقة عليها آثار خضرة وتوقفنا لمنح جمالنا قليلاً من الراحة والغذاء . وغادرنا هذه البقعة من الأرض في الساعة الرابعة صباحاً من اليوم الثامن عشر . وسرنا بمعدل أربعة أميال في الساعة حتى الساعة التاسعة صباحاً من اليوم التالي عندما نصبنا خيامنا تحت ظل بعض أشجار النخيل في « تمساوة » الواقعة في واد خصيب يسمى « وادي بني وليد » الذي تكثر فيه أشجار النخيل بشكل يضفي عليه منظراً جميلاً ، وتبدو وهي تحرك عسفها والثمر مدلى منها وكأنها تحيي النسيم العليل . ولكن غيبة أشجار الزيتون التي تعم منطقة بني وليد تجعل المنظر أقل تنوعاً وأقل أنساً . ولكنه مع ذلك مكان جميل تلتف حوله التلال الجافة القاحلة ،ولا يستطيع المسافر إلا أن يشعر بالبهجة عند بلوغه ، خاصة وان المسافر لا يرى منذ مغادرة الوادي السابق شيئاً باستثناء بعض الأعشاب ، إلا ما ندر من أشجار الاكاسيا ، المنتشرة هنا وهناك .

كان أول عمل قمت به هو العناية بجملي الصبور على المشاق وتقديم الماء اللازم له وكذلك التبن ؛ ثم نعمت بالعنب اللذيذ والبلح والبطيخ الموجود في هذا الوادي .

أما عن المزيد من الملاحظات حول هذا المكان والخطوط العامة لشخصية وعادات الناس ، بالإضافة الى بقية الرحلة الى غدامس ، فسأبعث بذلك اليكم سيدي اللورد في رسالة تالية ، لأن وقتي الآن مشغول بأمور تهم تقدم البعثة ، ولأن الرسول الذي حجزته منذ يومين هو على وشك السفر

الى طرابلس . وفي نفس الوقت أود المعذرة لأنني كتبت حتى الآن بإيجاز شديد ، لأنني رأيت من واجبي أن أكون كـذلك ، ولأنني لا أفترض بأن التفصيل سيكون مثيراً لاهتمامك .

أ. جو دون لينج

مواصلة اليوميات

من ١٩ أغسطس ١٨٢٥

تودع وزارة المستعمرات حتى يطلبها

الرائد أ. جوردون لينـج

يقابل الرحالة في اجتيازه لمثل هذه البلاد القاحلة الواسعة التي وصفتها، والتي تتميز بالرتابة وعدم التغير في مظهرها كالمحيط الواسع ، القليـل مما يثير ملاحظته . ان هذه البلاد المحرومة من رطوبة الربيع ، جافة وقاحلة لتعرضها للشمس المحرقة ، لذا لا تنتج إلا القليل مما يقيم أود الانسان ، ولذا نجد سكانها قلة ، فتسكنها القليل من القبائـل العربية المتنقلة ، قلما يحتك المسافر بها ، إلا عند الحاجة ، ولذا أيضاً لا يرى إلا القليـل من من طباعهم وشخصياتهم ، والجانب المضيء منها بصفة خاصة . هذا هو حالي بالضبط ، لذا سأكون مقتضباً في ملاحظاتي ، خاصة وان انطباعي غير ايجابـي (وأرجو أن أكون مخطئاً في ذلك) ، ولأن هؤلاء المتجولين قد وجدوا من يصفهم بدقة أكبر ، ممن عاش بينهم وعرف شخصياتهم جيداً .

وفي المرور على هذه الأرض الساخنـة في أكثر الفصول حرارةً دون مشاهدة أثر للزراعة بين بني وليد والشاطىء ، يصعب في الواقـع تكوين

فكرة عن طريقة حياة السكان من جانب شخص لم يتعرف عليهم سابقاً. الواقع ان الطبيعة قد أمدت الانسان بالكثير مما يحتاجه ، سواء أكان هذا الانسان في المناطق الشديدة الحرارة ، أم الشديدة البرودة . فلكلٍ فصله الذي يجني فيه الكثير ، ولكل ساعة حصاده يدّخـر منها لأيام عوزه . وعند العربي شهران من المطر ينثر فيهما بذور قمحه في الصحراء وسرعان ما يحصد الزرع دون عناية واهتمام . أما في وديان النخيل وأماكن الآبار حيث يمكن أن تغل الأرض بالري طيلة أيام السنـة ، فتحرث الأرض أولاً بنوع من المحراث مصمم بحيث يمكن رفعه أو إنزاله في التربة الى عمق ثلاث بوصات تقريباً : هذه الآلة الصغيرة يجرها جمل كبير عملاق يمكن استغلاله في أمور أخرى أكثر فائدة ، في حين يمكن لثور أو حتى ماعز قوي أن يجر هذه الآلة. وتعتبر تمساوة وسوارية بلدين يصعب تسمية الواحد منهما مدينة ، فكل واحدة عبارة عن أكوام من الطين المختلفـة الشكل مغطاة بأسقف من عسف النخيل ، وهي مخبأة تماماً بين أشجار النخيل التي تغلفها ، وتعتبر مثل بقيـة البلاد التي تمتد من الشرق الى الغرب على طول وادي الشاطىء . والتربة فيها شديدة التعطش للماء تحتاج الى ري متواصل من الآبار التي تكثر في المنطقة . ويعتبر هـذا الوادي مفخرة فزان ، وينظر اليه العربي وهو يتأمل عناقيد البلح وجرادل الماء المنعشة للأرض ، التي تصب دوماً في الخزانات ، وكأنـه أرض الحليب والعسل ، وكأنه جنة . وقال لي أحد مرافقي : « ذلك هو بلدي حيث أستطيع أن أعيش الى الأبد بين البلح والماء » . شعرت في تلك اللحظة وكأن بي رغبـة لو لم يكن في بلدي إلا النخيل والمـاء ، وأن تكون متطلبات حياتي قليلة ، وأن أشتري سعادتي بمثل تلك السهولة . ولكن « شرقي »[1] يستطيع انتاج ما هو أكثر من البلح والماء ، كما تستطيع بقية

---

١ وادي الشاطي .

وادي الشاطىء ذلك ، من القمح الوافر والكسكسي، بكميـات تزيد عن استهلاك السكان وتصدر للأسواق الأجنبية .

ويظهر العرب هنا بمظهر الفقراء الى درجة التسول، والواقع ان السبب في ذلك هو تصرف الحكومة الأعمى ، فهي تبطش بالرجل عندما تعرف انه غني ، لذا ينظر الناس للممتلكات على انها أمر يسبب لهم المتاعب ، أو على الأقل إظهار هذه الممتلكات . لذا يخبىء كل واحد ما عنده من نقود تحت ثيابه الرثة ... واذا طلب الواحد منهم نقوداً من انجليزي مار بالبلاد فلا يعتبر ذلك تسولاً وانما حقاً له ... وعلى الانجليزي ألا يقابل ذلك بالاحتقار.

عند مغادرة تمساوة بعد ظهر يوم الحادي والعشرين من أغسطس ، سرنا نحو الغرب ، ووصلنا بعد ساعتين مدينة أخرى أو هي قرية، ومهما كان اسمها ، فهي مبنية بشكل محكم يختلف عن الأخرى ، ويحيط بها النخيل وقليل من شجر التين الذي يروى من بركة كبيرة عمقها قامتان ونصف وتغذيها باستمرار ينابيع مياه . ووقفنا عند هذا المكان المسمى « اجـار » وبقينا حتى صباح الثالث والعشرين عندما تحركنا ببطء نحو الغرب أيضاً . وبعد ساعة ونصف مررنا عبر « المحروقة » ، وهي مكان بالغ الجمال، وتزرع أشجار النخيل والتين خارجها بنظام وذوق كبيرين . ووصلنا عند العاشرة صباحاً « جرمة » وهي تقع فوق تل . وقد مررنا ذلك الصباح عند الساعة الرابعة ببلدة « قطة » ، وفي اليـوم التالي (٢٥ أغسطس) وصلنا بعد مسيرة أربع ساعات الى بروقن حيث مكثنا فيها يومين للاتفاق على استئجار جمال لنقل الماء لنا عبر الصحراء السوداء التي كنا على وشك دخولها . وتتكوّن تربة المنطقة التي مررنا بها ، والتي تفصل هذه النقاط الخصيبة ، من طبقة كاملة من الميكا الزرقاء ، والطين الألمنيومي الأبيض. وهنالك بقايا خراب تبين وكأن طوفاناً قد حل مؤخراً بالمنطقة . والمساكن التي بناها الانسان هنـا لنفسه بين هذه الأراضي الخصيبة هي من نفس

نوعية وشكل المساكن في تمساوة ، وعند الفحص الدقيق تبدو أكثر خراباً من مساكن المدن الأخرى . ولكنها من بعيد وقبل الفحص عن قرب ، تبدو بشكل أجمل وخاصة من فوق أشجار النخيل العالية المحيطة بها . ولكن السكان يكسلون عن إصلاح ما يخرب من المنازل . وهناك بناء يعتني به السكان كثيراً ، وهو المسجد الواقع شرقاً منفصلاً عن كتلة المساكن المتلاصقة . انه بناء جميل ومتقن ، وينتاب المرء شعور بالوقار والاحترام عندما ينظر اليه تحيط به قبور الذين كانوا من قبل يعمرونه بالصلاة . عندما كنا في تمساوة تقدم إليّ رجل برأسه جراح بليغة تبدو منها الجمجمة ، فقدمت له علاجاً ارتاح له ، مما دعاه الى ملاحقتي لأغيّر له الرباط . وقد مدحني هذا الرجل في كل مكان كنا نتوقف فيه ، وكان يجمع حولي الكثير من الناس الطالبين الأدوية والاستشارات. لذا أصبحت لا أفتح « دكاني » إلا قرب المساء ليريحني الظلام منهم . أقول ليريحني ،لأنني كنت أضيق ذرعاً بطلبات البعض الذين كانوا يتوهمون بأنهم مرضى أو يريدونني التوهم بمرضهم ، لكي يحصلوا من الانجليزي على الدواء الذي يزيد حيويتهم . ومن الطريف ان البعض كان يطلب أموراً غريبة ، فقد جاء مرة ، مثلاً رجل قوي يريد دواءً يزيده قوة ، ورجل قصير يريد من الدواء ما يجعله يزداد طولاً ، ورجل نحيف ظاناً ان عندي ما يحوله الى رجل بدين ، وكان للرجل الأخير زوجة على حافة القبر ، لم أستطع تقديم شيء لها إلا جرعة من المانيزا لإرضائها . لقد رثيت لها .. ولكن كم كانت دهشتي عندما تساءلت وهي في النزع الأخير إذا ما كان الدواء يفيد في مساعدتها على إنجاب الأطفال ! وقد كان هنالك رجل أعمى جاء إليّ يتوقع أن يجد عندي القدرة على إعادة البصر . وفي اليومين الخامس عشر والسادس عشر كانت الحرارة في برقن شديدة ، مما سبّب لنا معاناة أليمة ،ووصلت الحرارة الى ١٢٠° فهرنهايت ، والى حد جعل الماء في خيمتي دافئاً ، وارتفعت حرارة مقبض السيف

الى درجة منعتني من القدرة على القبض عليه . وقد أثرت شدة الحرارة على سمعي ورأسي بحيث أصبت ببلادة لم أشعر بها في حياتي من قبل .

السابع والعشرون من أغسطس : غادرنا برقن واتجهنا نحو الشرق لمدة ثلاث ساعات ، ثم توقفنا كي نملأ أوعيتنا بالماء العذب عند مكان جميل تحيط به أشجار النخيل . وفي صباح اليوم التالي كانت الأرض تبدو وكأنها مغطاة بطبقة من الملح .

ورحلنا عند الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثامن والعشرين متجهين نحو الشمال الغربي على صحراء من الحجارة السوداء والحصى والرمل الأسود . وواصلنا السير دون أن نستريح حتى اليوم الحادي والثلاثين حيث توقفنا عند الساعة العاشرة صباحاً في واد رملي ، تحده من الشمال سلسلة من الأرض المرتفعة ، وكانت أرضية الوادي مغطاة بالرمل . وكان وقوفنا عند بئر مالح ، قرب آثار بناء دائري يرتفع ارتفاعاً شاهقاً ، قطره مائة وثلاثون قدماً ، وسمك جداره حوالي تسعة أقدام . وقد تواصلت الحرارة الشديدة ، وبدت على عيني روجرز ملامح التهاب ، فطلبت منه غسلهما بالماء البارد نهاراً كلما سمحت بذلك ظروف القافلة ، وأن يستعمل القطرة ليلاً ، فنجحت بذلك في إيقاف تقدم المرض ، ولكنه لم يشف تماماً إلا في غدامس .

أول سبتمبر : استأنفنا الرحلة عند الرابعة صباحاً ، بعد أن ملأنا في اليوم السابق قِرب الماء . وكان اتجاهنا نحو غرب الشمال الغربي ، ولكن التلال الرملية العالية كانت تعيق سيرنا وتعكس علينا من قممها أشعة شمس الصباح .

كان سطح الرمال ، مشبعاً بالنترات المتبلورة ، وقد شعرنا قرب الصباح ببرودة غير معتادة بسبب وجود النترات ، ولم تزل البرودة حتى

اشتدت حرارة الشمس عندما ارتفعت من خلف التلال . وكان الارتفاع مفاجئاً وقد بلغ خلال دقائق معدودات ثلاثين درجة فهرنهايت . وخرجنا عند صباح اليوم التالي من دائرة الرمال ، وعندما وصلنا بئراً من الماء العذب نصبنا الخيام كي نستريح يوماً كاملاً . ويسمى هذا البئر « بير المرار »[1] لوقوعه قرب أرض عالية تتكون من الجبس والحجارة الرملية ، وتسمى جبل المرار . ويوجد قرب هذا البئر تلان من الحجارة الرملية بهما عدة حفر كالكهوف والغرف ، يختبىء اللصوص أحياناً فيها وينتظرون وصول القوافل . وقد اختبأ مرة حطيطة فيها مع خمسين من الطوارق واستولوا على قافلة من الشاطي بعد أن قتلوا العرب الذين قاوموا أشد المقاومة . وكان زعيم القافلة من جماعة الرحالة دينهام ، وقد هرب بعد أن تلقى ضربة من سيف حطيطة كسرت أنفه .

الثالث من ديسمبر : رحلنا عن هذا البئر الساعة الرابعة صباحاً ، وسافرنا على مهل حتى السابعة صباحاً من اليوم التالي ، وعندها نصبنا خيامنا على قمة من جبل المرار . وكانت الطريق تختلف من حجارة مكسرة الى كتل من الرمل،وكانت توجد هنا وهناك جبال ذات جوانب تنتصب كالجدران ، أو حجارة رملية تمتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي. وسرنا بهذه الطريقة على أرض سوداء كالحة نتعرض للريح الشرقية الملتهبة طيلة سبعة أيام متوالية ، ولم يبق معنا في اليوم الرابع إلا أربعة قرب من الماء ، وعانينا الكثير من العطش في اليومين الأخيرين . وبينما كنا نسير ببطء فوق هذه الصحراء من السهول السوداء ، كانت أعيننا تحوم فيها دون جدوى ، فنرى الأراضي الواسعة الرتيبة في مناظرها ، ونبحث عن

---

[1] بير المرايا .

شيء تستقر عليه أنظارنا دون جدوى، عندها كان لا بد للمرء من تغطية وجهه بعمامته وإدخـال رأسه في البرنس ، تاركـاً ذهنه ، يعاني رفض التطواف في الفضاء المحيط به ، لينحسر ويتخيل آمالاً وهمية حالمـة من المناظر الحيوية اللطيفة .

ملحق رقم ٢

ملاحظات لينج حول غدامس

٢٠ اكتوبر ١٨٢٥

وصلنا بعد ظهر اليوم التاسع من سبتمبر بئراً تشوب ماءه ملوحة قليلة، ويبعد مسيرة يومين عن غدامس ، ولكنه في الواقع كان مصدر راحة لنا بعد ما عانيناه من عطش في الأيام الثلاثة السابقة ، وقد كانت شفاهنا تجف مباشرة بعد تناول أي قدر من الماء لما لاقيناه من ألم الرياح الشرقية اللاذعة الحرارة طيلة اسبوعين من أشد أيام السنة قسوة والتهاباً . ومما زاد في ألمنا قلة الماء معنا ، وظلت الجمال تعاني العطش طيلة سبعة أيام، ولم ترو ظمأها ذلك اليوم إلا بعد الغروب ، رغم ان ستة رجال ظلوا يصبون لها الماء منذ لحظة وصولنا .

وتقدمنا للسير في صباح اليوم التالي ، وما أن جاوزنا هذا البئر ، حتى استقبلتنا جماعة من أصدقاء الشيخ[1] قادمة من غدامس ، ولما وجد الشيخ نفسه متعباً توقفنا بقية اليوم . كانت ملابس هؤلاء الرجال تشبه

---

١ باباني .

ملابس أهل مندنيجو ، ولم أتمالك نفسي عن مخاطبتهم بلغة مندنيجو التي أعرفها كما أصبحت أعرف اللغة العربيـة ، وكم كانت دهشتي وسروري عندما أجابني العديد منهم بلغة « البامبرة » القريبة من لغة أهل مندنيجو[1]. وكان هؤلاء الرجال لا ينقطعون عن الحديث، يعبرون عن عظيم سرورهم برؤيانا ، وقد قدموا لنا نوعاً من الخبز الجيد والتمر والبطيخ ، وحدثونا عن أخبار المنطقة . ومن بين الأمور التي حمدوا لنا صنعها سلوكنا طريق فزان ، لأننا بذلك تجنّبنا شر جماعة من مائة وثلاثين فارساً من الجبل كانوا يترقبون مفاجأتنا منذ ثلاثة أسابيع قرب مكان يسمى « دورش » ، على بعد مسيرة يومين من غدامس ، وعندما خاب أملهم نهبوا الكثـير من ماشية وجمال المدينة. وفي اليومين الحادي عشر والثاني عشر كنا نسير يومياً أربع عشرة ساعة . وعند صباح الثالث عشر لمحنا غدامس ، المدينة التي طال شوقنا اليها ، وكانت أشبه بجزيرة وسط المحيط ، تنتصب في سهل واسع قاحل ، تكسوها حلـّة خضراء من أشجار النخيل . وجاءت جماهير من الناس جيدة الملبس لتحيتنا وتهنئتنا بالسلامة ، وكان الاستقبال حاراً وكريماً مهيباً . وقد أوعزت لمرافقي الثلاثة كي يلبسوا قمصاناً تركية بيضاء وسراويل بريطانية (بنطلونات) ، وكنت ألبس العباءة العسكرية الزرقاء وبرنساً جميلاً ، ودخلنا غدامس كمسيحيين من رعايا صاحب الجلالـة ملك بريطانيا .

تبدو غدامس مدينة واضحة القدم ، وقد قال عنها «ليو أفريكانوس» بأنها مركز تجاري . وتوضح الكثير من السجلات بأنها مكان تتوقف عنده القوافل العابرة الصحراء للراحة والتزود بالماء منذ ثلاثة آلاف سنة . وقد كانت في بداية أمرها مخيماً ثم أصبحت بالتدريـج تتخذ شكل مدينة منذ ألف سنة قبل الهجرة تقريباً . وهي تقع على خط عرض ٢٠ً ٠٧َ ٣٠°

---

١ كانت لغات وسط أفريقيا كثيرة الشيوع في واحات الصحراء .

شمالاً ، وعلى خط طول ١٥ً ١٦َ ٩° شرقاً ، منعزلة تماماً وسط صحراء السودان السوداء، وعلى بعد مائتين وتسعين ميلاً من البحر الأبيض المتوسط تقريباً. ويبدو انه تم اختيار المكان أصلاً لكثرة الماء التي تتجمع في عدة برك بها (يتسع بعضها بحيث يبلغ محيطها ١٠٨ ياردات) وتمتلىء دوماً بالمياه ، ويقوم على تغذيتها أكثر من مائة نبع. وتسير المياه من البرك الى البساتين في قنوات تجري عبر المدينة. وتقع أكبر هذه البرك وسط المدينة. وتتدفق المياه منها بقوة تدفعها خارج المدينة دون حاجة لمعدات آلية للضخ. أما البرك الصغيرة التي تقع وسط البساتين فتحتاج لرفع المياه منها بالدلو بجهد يدوي معتبر ، كما هو الحال في وادي الشاطىء.

يبلغ محيط المدينة وبساتينها أربعة أميال فقط ، وهو على شكل مثلث ، وتلفها جدران طينية تعلو ثمانية أقدام . وتبرز فيها هنا وهناك مواقع للمسلحين . ولا تتميز الجدران بالصبغة الفنية ، لأن الغرض منها ليس للعرض أو إبداء القوة الحقيقية . ولا يهتم أهل غدامس كثيراً بأمر الدفاع عن المدينة ، لأن الدفاع ، كما سنتحدث عنه في مكانه المناسب، يتطلب وضعاً خاصاً . فغدامس وسط صحراء واسعة ، لا ماء فيها أو غذاء ، لذا يعتمد أهلها في حماية أنفسهم من هجمات أي مغير ، على نظام وشكل البناء الداخلي للمدينة ، الذي يتميز بالتصاق البيوت وشبكة الشوارع المعقدة التي يتيه فيها المرء ولا يستطيع التحرك .

ورغم كثرة عدد سكان غدامس البالغين نحو ستة آلاف نسمة ، إلا ان المدينة تحتل رقعة صغيرة من الأرض ، ورغم ذلك تظل نظيفة تماماً، وليس فيها شيء من الروائح الكريهة التي يتوقعها من يشاهد شكل المدينة المغلق ، فبالاضافة الى مجاري المياه التي تمر في أزقتها، ووسائل الراحة في كل بيت ، هنالك مراحيض عامة للأجانب الذين يزورون المدينة .

والبيوت تشبه البيوت في بلدان المغرب الأخرى ، وهي مربعة الشكلي ذات أسطح منبسطة لا ترى منها إلا الجدران . أما الشوارع الضيقة ، أو

الأزقة ، التي تقود داخل المدينة فهي متصلة بالأبنية التي تغطي الأزقة تماماً وتحجب الشمس والضوء ، إلا من فتحة هنا وهناك ، لا تكاد تكفي عند الظهيرة كي يتبين المرء طريقه على طول الممرات . وكلما حاولت ذلك وحدي كنت أشعر بالحيرة وأضطر للجوء لمن يقودني ويخلصني من الورطة. ولكن دواخل المنازل تكشف عن درجة من الراحة ، بل والأناقة أحياناً ومن آن لآخر. فالجدران مجصصة بمهارة كبيرة ومزخرفة بأشكال مربعة، وفيها فجوات تثبت فيها أعمدة زجاجية كبيرة من أحدث طراز . وهنالك أيضاً المصابيح الموزعة والمزينة بشكل يدل على ولع الناس بذلك كولع الأوروبيين بتزيين مواقدهم . وليس في الغرف الموجودة بالطابق الأرضي وسائل إنارة سوى الضوء الداخل اليها من الأبواب التي تفتح على فناء الدار المربع ، أما الغرف العليا فلها مزية الضوء السماوي . وأحياناً يتبدد ظلام الأزقة المؤدية الى داخل المدينة بأفنية واسعة ممهدة تنفتح الأزقة عليها. ويوجد حول هذه الأفنية مقاعد حجرية أو من الفخار المزخرف تغطيها الأرائك أثناء النهار ويجلس عليها الناس يتحدثون عن الأخبار التي تحملها القوافل من البلاد النائية. أما المقاعد أمام المسجد فيجلس عليها المرابطون بوقار، يقرأون القرآن أو يتناقشون فيه . وتمتاز المساجد بالأناقة والزينة المتواضعة، وهي خالية من الزخارف الموجودة بأوروبا. وليست المقابر ملحقة بالمساجد وانما توجد خارج أسوار المدينة ، بعيداً عن مساكن الأحياء. لقد لاحظت من آن لآن مقدار احترام المسلمين لأرواح موتى أقربائهم وأصدقائهم ولكنني لم أر ذلك الاحترام مثلما رأيته في غدامس ، حيث يوجد لأفقر الناس قبر مناسب يتميز بحجر تذكاري يعطي المكان كله شكلاً معمارياً جميلاً . اننا نستطيع بدون الحط من قدرنا أن نحذو حذو المسلمين وأن نعلّم أنفسنا درساً في الانسانية التي هي أساس العقيدة . ذلك لأن مقابرنا تتميز إما بالبرودة التي تنعكس على شعور الأحياء ، أو بالفخامة التي لا تكرم الميت بل تفضح غرور الأحياء . يا للفرق بين ذلك وبين مقابر

الأتراك (المسلمين) الهادئة الرزينة المظهر التي يزورها الأهل والأصدقاء لأنهم لا ينسون الميت مع آخر حفنة من التراب تلقى على قبره ، بل ينظرون للمكان في تعلق وإخلاص ، ويضعون حوله حجارة أو يزرعون شجراً . ويبنى حول المقبرة سور لابعاد الأذى عنها . ما أبعد الفرق بين المشاعر التي يبعثها منظر هذا المكان عندنا وعند المسلمين . فهذه المشاعر عندهم تزيل الكثير من مخاوف الموت وتحطم شرور الانسان ذي الاحساس الديني المتبلد .

عندما طفت بالمدينة وجدت بها ثلاثة مصانع للفخار ، والطريقة التي تدار بها تشبه الطريقة المتبعة بأوروبا ، ووجدت كذلك بعض معامل لصناعة الأحذية والحدادة ، وبعض الخياطين ، وهذه هي الحرف الوحيدة التي سمعت عنها أو رأيتها في غدامس .

تتكوّن التربة في غدامس من مادة صلصالية صلبة مخلوطة بالرمل ، وهي تحتاج الى عناية كبيرة لتغل وتنتج ، وهذا يعني ان السكان يعملون بمشقة ويبذلون جهدهم لاستغلال أشجار النخيل ، المورد الأساسي لطعام العبيد والطبقة المتوسطة ، رغم قلة هذه الأشجار بالنسبة لما يوجد منها في الشاطىء . فقد قال أحد مرافقي بعد أن قضينا في غدامس بضعة أيام : « ان التمر كثير في بلدي (الشاطىء) ومتوفر حتى للجمال تأكل منه ، أما هنا فالتمر عزيز يخبأ خلف أبواب مغلقة » . ولكن ، ورغم قلة إنتاج غدامس ، فإن أهلها أيسر حالاً وأكثر أموالاً من أي بلد آخر بأفريقيا . فهم يثابرون في البحث عن المواد والسلع التي تجود بها بلادهم ، وهم مهرة في تجارة المقايضة ، الأمر الذي بلغ بهم درجة عالية يشهد لهم بها غيرهم . فهم يحسبون بدقة مصاريف الرحلة التجارية وحمولتها للبلدان البعيدة ، بالإضافة الى الرسوم والجمارك والمخاطر والمتاعب والنسبة المئوية التي تتحملها بضاعتهم . ويتعامل أهل غدامس بالنقد وبالاتفاقات الكتابية ، والواقع انهم عقلاء جداً لما اكتسبوه من حرفة التجارة ، حتى

انهم يفضلون الخضوع بــدفع ضرائب سنوية للباشا على إطلاق رصاصة واحدة في حرب معه . وكذلك الشأن مع جبل العرب والطوارق الـذين يغيرون على غدامس وينهبونها . والواقع ان أهل غدامس يشعرون تمامـاً ان الحرب تعني حرمانهم من جميع المزايا التجارية ، فيتحملون كل ذلك بصبر ويدفعون ضريبة عبورهم للصحراء ، وينقذون جمالهم بدفع ضريبـة معينة ويظلون مع ذلك أغنياء . وهذه السياسة هي التي أقنعتهم بدفع مبلغ ثلاثين ألف مثقال لباشا طرابلس منذ ست سنوات بدلاً من تحطيم الجيش الذي أرسله لطلب تلك الضريبة ، رغم ان ذلك الجيش وصل الى غدامس في حالة يُرثى لها من العطش وكان يمكن ابادته في يوم أو يومـين لو لم يعمد شيخ غدامس الى قطع إحدى القنوات وتحويل مائهـا للجيش . وقبل أن يفعل ذلك قام الكثير من جنود معاليه بالمقايضة عـلى بنادقهم مقابل جرعة من الماء. وكذلك لم يصادف الحظ « باي تونس » الـذي غزا المدينة أيام « ليو » قبل مائتي سنة تقريباً . وكان ذلك الباي « دهام سلطان افريقيا » كما كان يسمى ، يتلقى جزية سنوية أو هديـة توقفت مدة ست سنوات لأنه طلب زيادتها بشكل كبير بحيث لم يستطع السكان قبول ذلك. وعند السنة السابعة وصل الباي الى غدامس مع جيش مـن ألف ومائتي رجل من المشاة وثمانمائة فارس وقطعتي مدفعية،وهاجم المدينة بعد فشله في التوصل الى حل ما . فاحتمى أهـل غدامس ببيوتهم التي تربك العدو وتحيره ، ولم يصب منهم إلا عشرون من الجرحى وستة قتلى، بينما أُجبر باي تونس على التراجع والهرب حاملاً مائة قتيل ومائتي جريح، كما خسر المدفعين .

وكانت المعركة قد استمرت من التاسعة صباحاً حتى العصر . وقـد حُمل المدفعان الى طرابلس وهما الآن في حوزة الباشا .

رغم ان غدامس تدفع الجزية لعرب الجبل وللطوارق ولباشا طرابلس فإن أهلها لا يعترفون إلا بسيادة الباشا ، وهذا تصرف حكيم من جانبهم

لأنهم أمَّنوا بذلك طرق تجارتهم الى بورنو والسودان (هاوسة) ، والمعروف ان الطريق الثاني يخضع لسيطرة الباشا ، ويتلقى الباشا ضريبة معينة عن كل جمل يمر عليه . ويقوم شيخ المدينة وحاكمها بجمع وتحويل جميع العوائد والجمارك للباشا ويحتفظ لنفسه بنسبة عشرة في المائة مما يجمعه ، ويحتفظ الشيخ بمنصبه طالما ظل يحظى برضى الباشا . وتعود للباشا كل ممتلكات من يموت دون أن يترك ورثة له ، وعندما يضطر الباشا ، أحياناً ، فإنه يطلب من المدينة أربعة أو خمسة أو عشرة آلاف مثقال ، ولكن الباشا لا يجد مشقة كبيرة في جمعها ، إذ يطلب من كل فرد الإسهام في الدفع حسب ممتلكاته الظاهرة ، ويتسلم المبلغ في اليوم المحدد دون ضجة أو سخط . ويبلغ معدل ثمن بيع الأراضي مائة جنيه للفدان الواحد ، مع اختلاف في ذلك حسب زراعتها وعدد أشجار النخيل فيها وبعدها عن الآبار : فالأراضي التي تروى من البرك الكبيرة التي لا تحتاج لعمل يدوي في إمدادها بالماء — تعتبر قيمة جداً ، وقد بيعت خلال إقامتي بغدامس قطعة أرض مساحتها ثلث فدان تروى من بركة كبيرة ، ومحصنة جيداً وممتلئة بأشجار التين المثمرة ، آلت ملكيتها للباشا بالطريقة المعتادة ، بمبلغ ألفي دولار ، أو ألف مثقال ؛ وهي حالياً تستحق ضعف هذا المبلغ . وعندما تكون الأملاك غالية الى هذا الحد تسوّر بجدار يعلو نحو عشرة أقدام .

أما المناخ فهو بصفة عامة معتدل وصحي ، ولكنه عرضة الى التنوع المفاجىء في درجات الحرارة ، وخاصة عند تغير الفصول ، حيث ترتفع الحرارة وتنخفض الى حدود متباعدة . ففي إحدى نوبات الريح الشرقية في شهر سبتمبر لاحظت أن الزئبق في ميزان الحرارة يرتفع الى درجة ١١٦ فهرنهايت ، ثم ينزل في ٢٣ اكتوبر الى ٥٨° عند الصباح . وكما ان أغسطس هو أشد الأشهر حرارة ، كذلك يعتبر ديسمبر أشدها برودة . ويقسم أهل غدامس السنة كالفرنسيين الى المواسم التالية :

أشهر السرور	سبتمبر اكتوبر نوفمبر	عندما تطيب الثمار وتفيض بوفرتها
أشهر المطر	ديسمبر يناير فبراير	فيها المطر والنمو
أشهر اعتدال الصحة	مارس ابريل مايو	فصل بهيج ليس بالشديد في برودته أو حره
أشهر الحرارة	يونيو يوليو اغسطس	رياح البلح حيث يرتاح الناس في بيوتهم

السكان : بعد أن تحدثنا عن ميزات هؤلاء القوم، ليس من الضروري أن نذكر انهم أسمى بعاداتهم من أي قوم التقيت بهم في هذه القارة الواسعة. فبينما يتميز جميع المسلمين بمشيتهم الوقورة في شيء من التجهم ، نجد ان وضع هؤلاء الناس من سكان غدامس ، كرحالة يسافرون للبلدان البعيدة، واضطرارهم لمواجهة الغرباء والحفاظ على قوافلهم الغنية في بلدان القبائل الجشعة — يضطرهم للتميز بالاعتدال في طباعهم والسلوك الودي ومسالمة من يلتقون بهم . هذه هي الفكرة العامة التي كونتها عن هؤلاء القوم بعد الاقامة بينهم ستة أسابيع، وهم يتصفون بذلك كلهم دون استثناء . وقد كان خدمي يجدون من جانبهم الود واللطف ، وكنت في كل مناسبة أجد منهم أعظم احترام واهتمام يجعلني أشعر بالفخر والسعادة . ولم يكن ذلك نابعاً من أي اعتبارات شخصية أو احتقار ، بل من الفكرة التي يحملونها

عن البلد الذي أنتمي له . حقيقة انني ذات مرة ، وأثناء مروري بجمع من المرابطين الذين يقرأون القرآن أمام المسجد ، حُييت بكلمة كافر التي تدل على عدم الاحترام ، ولكنني تغاضيت عن ذلك . الواقع ان هنالك الكثير مما يدعو للإعجاب بالديانة المحمدية وما فيهـا من وقار ، ولكن ازدراء أولئك (المرابطين) لي جعلني أنفر منهم وأتساءل كيف يتصرف هذا التصرف أمثالهم ممن يبشرون بدين حليم يدعو للإحسان ...

في غدامس تبدو النساء في منزلة أفضل مما تتمتـع به بقية النساء في أفريقيا . فهن بصفة عامة لا يخضعن للعزل حسب عادات الأتراك، بدافع الغيرة ، بل يحظين بمنزلة عالية وتقدير كبير ، ولا يجبرهن الرجال على القيام بالأعمال المجهدة أو الحقيرة التي تفرض على النساء في ممالك الزنوج. وتوجد بالطبع حالات استثنائية ، فهنالك في غدامس نساء لا يسمح لهن بالخروج من المنازل طيلة الحياة ، إذ يرى الرجـل ان البيت هو المكان المناسب لعزل المرأة . وليس هذا هو الشائع ، بل انني شهدت أحيانـاً بعض الأفراح المحلية في غدامس وكانت السيدة تظهر فيها دونما حرج ، بل رأيت مرة سيدة تبدي هيمنة في حضور زوجها وسيدها ، مما جعلني أظن ان السلطة في هذا البيت هي للمرأة . وقد كانت زوجة الشيخ باباني من هذا النوع ، ولها إرادة ذاتية كأي سيدة في نصف الكرة الغربية . فهي تعتبر اهتمام زوجها بها وإرضاءه لرغباتها حقاً لها ، وهي تسيطر على جميع شئونها الخاصة ومنزلها الخاص ، ويسلم لها الشيخ بذلك طائعاً مختاراً لأن ذلك يجلب له السلام والراحة . وتلبس المرأة في غدامس في المناسبات العامة عباءة داخلية فضفاضة من القطن تتدلى من الكتفين الى الرسغ، وشالاً صوفياً يتدلى من الرأس وتلف به جسمها كالسيدة الرومانية ، والواقع ان لباس المرأة بشكل عام يشبه لباس المرأة الرومانية .

وتلبس النساء في الأعياد والمناسبات الهامة الأخرى ملابس فاخرة هي عبارة عن (روب) فضفاض محلى بالذهب والحرير ، وبالة من القماش

الأحمر تزين حوافهـا بشريط مذهب . وتتدلى من الأذن حلق وسلاسل فضة، وتزدان الأيدي بأساور من نفس المعدن . وقد أبديت مرة إعجابي بالأساور المرصعة على يدي زوجة الشيخ ، وعندها دهشت ، فقد خلعتها ورجت مني قبولها، ولكنني لم أكن أتوقع هذه الإجابة على إبداء الإعجاب بالأساور ، فارتبكت قليلاً واعتذرت عن قبول الهدية ، ولكنها أصرّت وقالت انها قد تعبت منها وتفكر في طلب غيرها من زوجهـا .. عندها تقبلتها مشترطاً إعادتها اذا لم يحضر لها زوجها بدلاً منها خلال أيام ثلاثة، فرضيت هي بذلك. وفي اليوم الثالث كانت فعلاً تلبس الأساور الجديدة . وعندما أخبرتُ باباني بذلك ابتسم قائلاً : ماذا عساي أن أعمل ، انها تفعل ما تريد . لقد أمرَتْ هي اليوم بذبح ثلاثة خراف وجففت لحمها ليكون لك زاداً في الطريق الى تمبكتو ، وعندما طلبت منها قطعة لعشائي رفضت وتساءلتْ : هل تريد للمسيحي أن يموت جوعاً ؟

وكان لها نوع من الكمان ذو وتر واحد تستطيع العزف عليه بمصاحبة صوتها القوي نوعاً ما ، ولكن النغمة تخرج حزينة . وقد كنت أزورها أحياناً وتعزف على هذه الآلة ، ولكن زوجها لم يكن يبدي سخطاً عندما يعود ، بل كان فخوراً لمقدرة زوجته على إدخال السرور الى نفسي . هذه الحوادث صغيرة وتافهة ، ولكنها هامة لأنها توضح صورة المجتمع في غدامس . لقد سررت كثيراً لهذه المنزلة العالية التي تتمتع بها المرأة . والملاحظ كذلك ان غدامس كلها تبدو كأسرة واحدة كبيرة ، لا يعكّر صفوها شيء سوى مكائد شيخ مكروه يسمى « حبيب » ، وهو ابن الشيخ الذي كان يحكم غدامس قبل باباني . ويتحد هذا الرجل مع الجبل وعرب « شامبة » ، وكثيراً ما يرتشي من جانبهم ويخبرهم عن قوافل باباني لنهبها . وهو الذي أرسل فرسان الجبل لانتظارنا في « دورش » ، وهو كذلك الذي أخبر شامبة عن رحلتنا الى توات . ومع ذلك فالمدينة نفسها هادئة جداً الى درجة تمكّن الشيخ من مغادرة غدامس في رحلات

تجارية قد تدوم شهوراً بل وسنوات ، تاركاً أخاه وكيلاً عنه . ونادراً ما يجد عند عودته من يشكو له من شيء ، حتى من ذلك المصدر المزعج الذي يثير المشاكل في مناطق أخرى بأفريقيا .

ويعامَل العبيد في غدامس بلطف كبير ، ولهم عدة مزايا يتمتعون بها الى درجة تمكننا من اعتبارهم عبيداً من حيث الشكل فقط . فيسمح لهم بشراء حريتهم بما يدخرونه من أموال ، ويقدر الثمن بخمسين دولاراً ! بل يقوم السيد أحياناً بترك الحرية لعبده يتصرف في وقته كيفما شاء ، فيشتغل ليسدد ثمن إعتاقه على أقساط ، وقد لا يستطيع أحياناً دفع الثمن كاملاً ، فيدفع منه مقداراً معيناً ويتسلم وثيقة مكتوبة تؤمن له حريته بعد انتهاء مدة معينة [1] . وهكذا ، وبطرق عديدة يصبح العبد سيد نفسه. ولا بد لنا من الاعتراف بأن هذا الوضع يلطف كثيراً من قيود الاسترقاق ويقدم حافزاً قوياً للتحرر من ربقته . ويسمح للرقيق في غدامس ، وفي فترات معينة ، بقضاء أوقات من التسلية الصاخبة تشبه ما يفعله الناس في البلاد التي نشأ فيها العبيد أصلاً ، كما يفعل عبيد جزر الهند الغربية . ففي نهاية فصل السرور في غدامس ، وعندما ينضج البلح ، يقام لهم عيد في يوم خاص ، يطلب العبيد فيه من سادتهم مفاتيح بساتين النخيل، ويقطعون أفضل العناقيد من كل بستان ، ويجتمعون ليلاً كي ينعموا بعيد بهيج .

ان العبودية موجودة منذ فجر التاريخ وفي كل دولة ، والرق سمة من سمات المجتمعات في مراحلها الأولى ، ورغم ان الرق هنا من ألطف الأنواع وأكثرها اعتدالاً ، إلا أن ذلك ليس سبباً لتعليله أو الالتجاء اليه. ومما يبعث على الرضى الكبير هنا ، ان من خاب حظهم لوقوعهم في قيد العبودية ، يجدون المعاملة الحسنة .. ولكن هذا ليس عذراً لزيادة عددهم .

---

[1] هذه هي روح الإسلام في معاملة الرق ، وليس الأمر في ذلك مقتصراً على مكان أو زمن معين . (المعرب)

توجد غربي مدينة غدامس بعض الآثار على أرض مرتفعة ، أقدّم لها وصفاً موجزاً : رغم ان هذه الآثار مقوّاة بملاط من الاسمنت ، إلا أنها كما يبدو لم تبنَ بعناية ، ومن حجر غير منحوت ومصقـول . ولم أستطع معرفة من بناها . فهي ليست بالتأكيد تركية لبعدهـا عن النظام المعماري المألوف عند سكان هذا البلد ، والظاهر أيضاً انها ليست رومانية الأصل نظراً لبساطتها . وقد بحثت عبثاً لعلي أجد نقوداً أو حجارة منقوشة تدل على أصلها . وعندما حفرت حولها وجدت بعضاً من آثار حيوانات آكلة للحوم ، ووجدت على عمق أقدام تحت سطح الأرض جداراً قوي البناء . ولما كنت أزور البلد ، لا بحثـاً عن الآثار (بل للاكتشاف في دواخل افريقيا) ، ولما كان الناس ينظرون الى حب الاستطلاع عندي بشيء من الريبة ، فلم أرغب في إثارة المشاكل لنفسي . ولكنني لا أشك ان في هذا البلد مجالاً جيـداً للبحث عن الآثار ، يستحق بذل الجهود لاكتشافها .

محتويات الكتاب

خط الرحلة واليوميات